مجلة
جامعة الملك عبد العزيز
الآداب والعلوم الإنسانية

المجلد ٥

١٤١٢هـ
١٩٩٢م

مركز النشر العلمي
جامعة الملك عبد العزيز
جدة

مجلة
جامعة الملك عبد العزيز
الآداب والعلوم الإنسانية

المجلد ٥

١٤١٢هـ

١٩٩٢م

مركز النشر العلمي
جامعة الملك عبد العزيز
ص.ب ٨٠٥٤٠ ـ جدة ٢١٥٨٩
المملكة العربية السعودية

مجلة جامعة الملك عبدالعزيز : الآداب والعلوم الإنسانية ، م ٥ ، ص ص ١ - ٢٣٤ بالعربية ، ١ - ١٣ بالإنجليزية (١٤١٢هـ / ١٩٩٢م)

المحتويـــات

القسم العربـــي

إعـــلام

تاريـــخ

جغرافيـا

لغـــة

القسم الإنجليزي

عام

● مجلة سنوية تصدرها الجامعة في مجالات الآداب والعلوم الإنسانية الأساسية وينشرها مركز النشر العلمي بالجامعة . يُقبل للنشر فيها البحوث المبتكرة ، مقالات المراجعة ، خطابات إلى المحرر ، وعرض الكتب . ترسل المواد إلى :

رئيس التحرير : كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة الملك عبدالعزيز - ص . ب ٩٠٣٢ - جدة ٢١٤١٣ - المملكة العربية السعودية

● لا تنشر المواد إلا بعد التحكيم . ● المواد المقدمة للنشر يجب ألا يكون قد سبق نشرها أو مقدمة للنشر في جهة أخرى ، وإذا قبلت للنشر ، لايسمح بنشرها بنفس الشكل وبأية لغة في أية جهة أخرى إلا بتصريح كتابي من رئيس التحرير .

التقديم للنشر

● تقدم المواد من أصل وصورتين باللغة العربية أو الإنجليزية منسوخة على الآلة الكاتبة على مسافتين وعلى وجه واحد فقط ، وعلى ورق مقاس A4 ، مع ترك بوصة لكل هامش ، مرقمة ترقيما مسلسلا بما في ذلك الأشكال والجداول . ● يشترط أن تقدم المستخلصات ، والهوامش ، والجداول ، والتعليق على الأشكال والمراجع في صفحات مستقلة .

الكتابة

● يبوب المقال على النحو التالي :

١ - عنوان المقال ويكون مختصرا ومعبرا عن مضمون المقال . ٢ - اسم المؤلف (المؤلفين) . ٣ - عنوان المؤلف (أو المؤلفين بنفس الترتيب) . ٤ - المستخلص لايتجاوز مائتي كلمة . ٥ - المتن : ويُقسم إلى عناوين رئيسة محددة وفق المنهج البحثي المتبع (على سبيل المثال ، المقدمة ، التجارب ، النتائج ، المناقشة ، الاستنتاجات ، المراجع ، الملاحق) ، مع مراعاة أن تكون العناوين الفرعية ذات المستوى الواحد مكتوبة بالطريقة نفسها .

● يكون لكل بحث مستخلصان أحدهما بالعربية والآخر بالانجليزية ، ويتبع في كتابتهما القواعد الدولية لكتابة المستخلصات على ألا يتجاوز عدد كلمات أي منهما ٢٠٠ كلمة ، يراعى أن يتضمن المستخلص أهم الحقائق والاستنتاجات ، وأن يكون مستقلا بذاته ويغني عن قراءة المقال . ● يستخدم النظام المتري والاختصارات المقننة (SI) . ● التذييلات : تكون مرقمة ترقيما مسلسلا خلال المتن وعند الإشارة إلى مرجع للمرة الأولى يكتب كاملا على أن يكون المدخل بالاسم الأول متبوعا باسم العائلة . عند تكرار الإشارة إلى المرجع نفسه تستخدم اصطلاحات الإحالة المقننة . لايغني ذكر المراجع كاملة في التذييلات من إعداد مراجع كاملة في نهاية المتن . ● يجوز أن يستخدم المؤلف ، بدلاً من التذييلات ، نظام اسم/تاريخ/صفحة في المتن ، وعليه في هذه الحالة مراعاة القواعد المتبعة في هذا المنهج . ● المراجع : ترتب هجائياً حسب اسم عائلة المؤلف ، تكون جميع العناصر الببليوجرافية للمرجع كاملة ، مع اتباع القواعد الدولية لكتابتها ، تكتب جميع أسماء المؤلفين ، ولا يقبل «وآخرون» . يجب التأكد من أن جميع المراجع الواردة بالمتن مذكورة بالقائمة ، كما أنه يجب ألا تكون هناك مراجع بالقائمة لم يشر إليها في المتن .

الجداول

● ترقم الجداول ترقيما مسلسلاً خلال المتن ، ويكون لكل منها عنوانه أعلى الجدول ، ومصدره أسفله . ● تحدد أماكن الجداول في هامش المتن . ● يراعى تنسيق كتابة الأرقام تحت بعضها البعض .

الأشكال

● تقدم في علاقة منفصلة مع مراعاة عدم طيها . ● يشار إلى مواضع الأشكال في هامش المتن أو لصق صورة منها في أماكنها المحددة بالمتن . ● تقدم الأشكال الخطية مرسومة بالحبر الصيني على ورق كلك أو لامع مقاس ١٣×١٨ سم أو أضعافه أو أنصافه ، مع مراعاة سمك الحروف والرموز والخطوط . ● تقدم الصور الظلية (الفوتوغرافية) من نسخ أصلية مطبوعة على ورق لامع مقاس ١٣×١٨ سم أو أضعافه أو أنصافه . ● لاتقبل الصور الملونة إلا إذا كان للون دلالة علمية .

تجارب الطبع

● يراجع المؤلف تجربتي الطبع الأولى (سلخ) والثانية (صفحات) ، على ألا تستغرق المراجعة أكثر من ٧٢ ساعة . ● ولا يجوز له الإضافة أو الحذف أو التعديل وخاصة على التجربة الصفحات .

المستلات

● يحصل مؤلف (مؤلفو) كل بحث على ٥٠ مستلة من البحث بدون مقابل . ● يتحمل المؤلف (المؤلفون) تكاليف مازاد على ذلك طبقا لما يقرره المركز ، وعلى المؤلف (المؤلفين) طلب المستلات الإضافية قبل الإحالة للطبع ويكون السداد مقدما .

بسم الله الرحمن الرحيم

■ الاشتراك السنوي ■

- داخل المملكة ٥ ريالات سعودية
- خارج المملكة ٥ دولارات أمريكية (بما في ذلك البريد)

■ البيع والاشتراك ■

مركز النشر العلمي - جامعة الملك عبد العزيز

ص . ب . ١٥٤٠ - جـدة ٢١٤٤١ - المملكة العربية السعودية

■ التبادل ■

عمادة شؤون المكتبات - جامعة الملك عبد العزيز

ص . ب . ٣٧١١ - جـدة ٢١٤٨١ - المملكة العربية السعودية

مطابع جامعة الملك عبد العزيز

القسم الغزلي

مجلة جامعة الملك عبدالعزيز : الآداب والعلوم الإنسانية ، م ٥ ، ص ص ٣ - ٢٥ (١٤١٢هـ/١٩٩٢م) .

تقدير البالغين لأثر الإعلان التجاري فى التلفزيون على السلوك الاستهلاكي للطفل

عبدالرحمن حمود العناد

أستاذ مساعـد ، قسم الإعلام ، كلية الآداب ، جامعة الملك سعود ، الرياض

المملكة العربية السعودية

المستخلص : الهدف من هذه الدراسة هو معرفة الآراء المدركة والملاحظة للإعلانات التجارية على الأطفال ، وقياس اتجاهات وآراء البالغين فى مدينة الرياض نحو الإعلان التجاري الموجه للطفل ، والتعرف على نوع العلاقة بين الاتجاهات والآراء من ناحية والآثار المدركة والملاحظة من ناحية أخرى . ولتحقيق أهداف الدراسة تم توزيع ألف (١٠٠٠) استمارة صممت لقياس متغيرات البحث فى الأسواق والمراكز والمحلات التجارية فى عشرة من أحياء مدينة الرياض . وقد أعيدت بريديا مائتين وثلاث وستون (٢٦٣) استمارة استخدمت فى تحليل النتائج .

وبينت نتائج الدراسة أن البالغين فى مدينة الرياض يعتقدون أن الإعلان التجاري فى التلفزيون مؤثر جدا على الأطفال ، وقد لاحظوا بعض آثاره على أطفالهم الذين غالبا ما يطلبون شراء السلع المعلن عنها ، ويستهلكون كميات كبيرة منها ، ويرفضون أحيانا استهلاك السلع التي لم يشاهدوها فى الإعلانات التجارية . وبشكل عام ، فإن اتجاهات وآراء أفراد العينة نحو الإعلان التجاري فى التلفزيون سلبية ، وهي ترتبط ارتباطا عكسيا بالآثار المدركة والملاحظة للإعلانات التجارية ، بحيث يزداد الاتجاه سلبا كلما زاد الاعتقاد بالأثر .

مقدمة

بدأ الاهتمام بموضوع الإعلان التلفزيوني والطفل فى الولايات المتحدة الأمريكية كجزء من قضية أوسع وأشمل تتعلق بتأثير برامج التلفزيون المختلفة ، وخصوصا تلك التي تحتوي على مشاهد عنيفة أو جنسية . ونظرا لتزايد استخدام الإعلان فى التلفزيون ، وبدء بعض المعلنين فى استخدام الإعلانات الموجهة للطفل

وبثها خلال برامج الأطفال وبرامج الرسوم المتحركة ، فقد بدأ الآباء والتربويون وقادة الفكر والرأي وأعضاء جمعيات المستهلكين والجمعيات والهيئات المهتمة بالطفل فى انتقاد هذه الممارسة الإعلانية ، وأصبحوا ينادون بضرورة تقنين وتقعيد الإعلان الموجه للطفل للحد من آثاره السلبية على رجال المستقبل . وكنتيجة لكثرة الإعلان الموجه للطفل وتزايد الانتقادات الموجهة له ، أخذ موضوع تأثير الإعلان التلفزيوني على الطفل يستحوذ على اهتمام أعداد كبيرة من الدارسين والباحثين حتى أصبح من أهم موضوعات الإعلام والاتصال وأكثرها إثارة للجدل والاختلاف .

ولم يبدأ الإعلان التجاري فى تلفزيون المملكة العربية السعودية إلا فى سنة ١٤٠٦هـ (١٩٨٦م) ، وكانت بدايته فى القناة الثانية وللسلع الوطنية فقط ، ثم فتح باب الإعلان فى القناة الأولى بعد ستة أشهر من بدايته لجميع أنواع السلع الوطنية منها والأجنبية . ومنذ ذلك الوقت ، أخذ الإعلان التلفزيوني يزداد ، فارتفع الدخل العام للإعلانات المبثوثة من خلال التلفزيون السعودي من حوالي ٤٦ مليون ريال فى السنة الأولى (١٤٠٦ – ١٤٠٧هـ) إلى أكثر من ١٩٠ مليون ريال فى سنته الثالثة الخاصة بالفترة من ١٤٠٨/٥/١هـ إلى ١٤٠٩/٤/٣٠هـ (وزارة الإعلام ١٩٨٩) . ومنذ البداية ، استمر الإعلان التلفزيوني يستحوذ على اهتمام الرجل العادى فى المجتمع السعودي ، كما بدأ يثير اهتمام قادة الفكر والرأي فى المجتمع ، وأخذت المخاوف من خطر آثاره تثار بين حين وآخر فى وسائل الإعلام وفى المحافل واللقاءات الدينية والاجتماعية والثقافية . ومع زيادة كمية الإعلانات فى التلفزيون أخذت الانتقادات توجه لشكل الإعلان فى بعض الأحيان ، ولمضمونه فى أخرى ، ولشكله ومضمونه فى أغلب الأحيان . وفى حين أن هناك من ينتقد الإعلان خوفا من آثاره الاقتصادية وآثاره المتعلقة بالاستهلاك وقرارات الشراء والخداع الإعلاني ، فإن هناك قطاعا كبيرا ممن ينتقدون الإعلان التلفزيوني بسبب الآثار الثقافية والاجتماعية المحتملة له ، وبسبب عدم تمشّيه – من وجهة نظر البعض – مع تعاليم الدين ومخالفته لبعض الأسس والمبادىء والأحكام الإسلامية ، وخصوصا تلك المتعلقة بالسفور والموسيقى وبيع الغرور . وكما أن للإعلان التلفزيوني فى المملكة العربية السعودية منتقدون ، فإن هناك من يستخدمه ويدافع عنه ويقلل من شأن الآثار السلبية المحتملة له ، ويأتي فى مقدمة هؤلاء المعلنون أنفسهم .

وإذا كان هناك من يرى أن للإعلان التجاري فى التلفزيون عموما آثاراً سلبية على البالغين من أفراد الجمهور العام ، فإن هناك عددا أكبر من الباحثين وغيرهم ممن يُحَمّلون الإعلان مسؤولية تعليم الأطفال أنماطا استهلاكية سيئة . ويجزم قطاع كبير من المنتقدين للإعلان التلفزيوني بأن للإعلان آثاراً سلبية كبيرة على الطفل ، وبينما يتخوف البعض من احتمال تسبب الإعلان التلفزيوني فى إحداث مثل هذه الآثار دون قطع بحتمية حدوثها ، فإنه من النادر أن يوجد من يجزم بنفي حدوث الأثر السلبي للإعلان التلفزيوني على الطفل . ويبدو أن صعوبة قياس أثر الإعلان التجاري فى التلفزيون قد حالت دون دراسة آثاره مباشرة ، فعمد كثير من الباحثين – كما سنرى بعد قليل – إلى دراسة استجابة الأطفال للرسائل الإعلانية ، وسلوكياتهم خلال وبعد التعرض ، وسلوكهم الاستهلاكي بشكل عام من خلال استفتاء

آراء الآباء والأمهات . ولهذا السبب فإن المدافعين عن الإعلان يشككون بنتائج هذه الدراسات التي تقيس تقدير الوالدين لأثر الإعلان على أبنائهم وهو لايعكس بالضرورة - كما يقولون - الآثار الفعلية للإعلان التلفزيوني . كذلك فإن اعتماد محطات التلفزيون التجارية فى المجتمعات الغربية على دخل الإعلان المادي ، والقوة السياسية والاقتصادية التي تتمتع بها الشركات المعلنه ، جعلت وسائل الإعلام والقائمين عليها والسياسيين الذين يهمهم كثيرا دعم وتأييد الشركات المعلنة يقفون موقفا محايدا حيال هذا الأمر ، فاستمر الإعلان للطفل حتى يتوصل المنتقدون له والمدافعون عنه إلى نتيجة مؤكدة حول آثارة السلبية على الطفل . وواضح أنه لايوجد خلاف حول تأثير الإعلان التجاري على الأطفال وغيرهم ، ولولا هذا الأثر المتمثل فى زيادة مبيعات السلع المعلن عنها لما استمر المعلنون فى صرف المبالغ الطائلة على إنتاجه وبثه ، ولكن نقطة الجدل تدور حول ما إذا كانت هذه الآثار سلبية على مستوى الفرد وعلى مستوى المجتمع أم إيجابية .

موضوع البحث وأهدافه

يعالج هذا البحث موضوع الإعلان التلفزيوني الموجه للطفل فى المملكة العربية السعودية . وتنحصر مشكلة البحث فى معرفة تقدير البالغين فى مدينة الرياض لأثر الإعلان التلفزيوني على الأطفال بشكل عام ، وملاحظتهم لآثاره فى طلبات الشراء وسلوك الأطفال الاستهلاكي ، وموقفهم من الإعلان التجاري فى التلفزيون واتجاههم نحوه ، وكذلك علاقة الاتجاهات بالتأثير المتوقع على الطفل . وبناء عليه فإنه يمكن تحديد أهداف البحث فيما يلي :

١ - الكشف عن مدى متابعة الأطفال للإعلانات التجارية فى التلفزيون ، ودرجة اهتمامهم بها .

٢ - معرفة مدى استجابة الأطفال سلوكيا للرسائل الإعلانية فى التلفزيون .

٣ - التعرف على اتجاهات البالغين نحو الإعلانات التلفزيونية الموجهة للطفل .

٤ - تحديد نوع العلاقة بين الأثر المتوقع والملاحظ للإعلان التلفزيوني على الطفل وآراء واتجاهات البالغين نحوه .

ولتحقيق هذه الأهداف يحاول البحث الإجابة عن الأسئلة التالية :

١ - هل يشاهد الأطفال الإعلانات التجارية فى التلفزيون باستمرار ؟ وهل يتابعونها باهتمام ؟ ومتى يشاهد الأطفال أكبر قدر من الإعلانات فى التلفزيون ؟

٢ - هل يعتقد البالغون أن الإعلانات التجارية مؤثرة على الطفل ؟

٣ - هل يطلب الأطفال شراء السلع التي يشاهدونها فى الإعلانات ؟

٤ - هل يستهلك الأطفال كميات كبيرة من السلع التي يشاهدونها فى الإعلانات ؟

٥ - هل يمتنع الأطفال عن استهلاك السلع التي لم يشاهدوها فى الإعلانات ؟

٦ - ماهو رأي البالغين فى مدى فائدة أو ضرر الإعلان التجاري الموجه للطفل ؟

٧ - هل الاتجاه العام نحو الإعلانات التلفزيونية الموجهة للطفل سلبي أم إيجابي ؟

٨ – ماهي العلاقة بين الاتجاه العام نحو الإعلانات الموجهة للطفل والأثر المتوقع والملاحظ لها على الأطفال ؟

أهميـــة البحـــث

يستمد موضوع البحث أهميته من عدة جوانب ، ويأتي فى مقدمتها أهمية الطفل نفسه وأهمية دراسة جميع الظروف والعوامل التي يمكن أن تؤثر فى تنشئته . والإعلان من خلال التلفزيون يصل إلى قطاع كبير من أطفال المجتمع نظرا لشعبية هذه الوسيلة وانتشارها وكثرة استخدامها من قبل جميع أفراد العائلة . ولأن التلفزيون يعتبر الوسيلة الإعلانية شبه الوحيدة التي يمكن للمعلنين الوصول من خلالها لجمهور الأطفال ، ولأن قدرات الوسيلة الفنية كجمعها بين الصوت والصورة يمكن أن تجعلها مؤثرة ، ولأن الطفل قابل للتأثر أكثر من غيره من أفراد المجتمع ، فإن من الأهمية بمكان دراسة هذه الموضوع للتعرف على طبيعة المشكلة ، وحجمها . كذلك فإن حداثة التجربة الإعلانية التلفزيونية فى المملكة ، وماتثيره من جدل فى الأوساط الاجتماعية والدينية والثقافية ، تجعل دراسة هذا الموضوع أمرا ضروريا ، لكي تستند المناقشة على الأسس والحقائق العلمية بدلا من الاستناد على والاستشهاد بالانطباعات والملاحظات العابرة غير الموضوعية . والتجربة الإعلانية فى المملكة تحتاج إلى تقييم علمي يستطلع آراء المشاهدين ويوثق بطريقة منتظمة آراءهم واتجاهاتهم ومخاوفهم حول تأثير الإعلان على الطفل . وتقييم التجربة الإعلانية للتلفزيون السعودي ، قد يساعد فى اختبار إمكانية حدوث الآثار السلبية التي يتخوف من إمكانية حدوثها البعض ، وقد يؤدي ذلك إلى تحسين واقع الإعلان شكلا ومضمونا لخدمة كل من المعلن والمستهلك والمجتمع بشكل عام .

وإضافة إلى ماتقدم ، فإن الحاجة قائمة فى الوطن العربي عموما لمزيد من الأبحاث والدراسات الإعلامية ، وخصوصا ماتعلق منها بتأثير وسائل الإعلام ، وتأثير التلفزيون على الأطفال بوجه خاص . ولعل ندرة الدراسات فى مجال الإعلام وفى مجال تأثير وسائل الإعلام على مستخدميها أبلغ دليل على حاجة هذا الحقل إلى دراسات وأبحاث تبني المعرفة العلمية الأساسية وتساهم فى تعزيز أدبيات الدراسة الإعلامية فى الوطن العربي . كما أن تأثير الإعلان التلفزيوني واتجاهات المستهلك حيالة يعتبر مجالا هاما من مجالات الدراسة الأكاديمية ، وهو على الرغم من أهميته فإنه لايزال يفتقر إلى الدراسات والأبحاث فى جميع البلدان العربية . وفى هذا الصدد كتب أبو جمعة : (إن هناك ضرورة للقيام بقياسات لآراء واتجاهات المستهلكين بدولة الكويت نحو الإعلان بصفة عامة و/أو الإعلانات فى وسائل نشر معينة ، وذلك على فترات زمنية معينة وبشكل دورى . ويمكن أن يستفيد من هذه القياسات كل الجهات المسؤولة عن حماية المستهلك ، ووسائل النشر نفسها . .) (أبو جمعة ١٩٨٧ : ٦٧) . والإعلان التجاري الذي بدأ منذ أكثر من أربع سنوات فى المملكة العربية السعودية ، لم يتعرض حتى الآن لأى دراسة تتناول تأثيره على الطفل ، ولم يجد الباحث سوى دراسة واحدة تتناول هذا الموضوع بصورة مباشرة ، ولكنها لم تكن مقتصرة على موضوع الإعلان والطفل كما سيتضح عند استعراضنا للدراسات ذات العلاقة .

استعراض موجز للدراسات السابقة

تناولت قليل من الدراسات الإعلان التلفزيوني في المملكة ، ولم يتمكن الباحث من الحصول على أي دراسة لتأثير الإعلان التلفزيوني على الأطفال . أما موضوع الإعلان كظاهرة اقتصادية واجتماعية عامة فقد حظي ببعض الاهتمام ، وتعرضت له عدد من البحوث والدراسات كدراسة حسين (حسين ١٩٧٧) ، ودراسة أبو ركبه (أبو ركبه ١٩٨١) ، ودراسة مجلس الغرف التجارية الصناعية بالمملكة (مجلس الغرف ، بدون) .

والدراسات السابقة على الرغم من أهميتها ومساهمتها في إثراء أدبيات دراسة الإعلان في المملكة ، ليست ذات علاقة مباشرة بموضوع هذه الدراسة ومن الدراسات التي تعرضت لرأي المستهلك واتجاهاته نحو الإعلان التجاري في المملكة دراسة عن تقييم نظام حماية المستهلك أجريت في عام ١٤٠٣هـ (قريطم وآخرون ١٩٨٣) . وقد أوضحت هذه الدراسة التي كانت قبل بدء الإعلان في التلفزيون أن المستهلكين غير راضين عن وضع الإعلان ، وأن مضمون الإعلانات يحتوى على معلومات مختلفة في الواقع الفعلي للسلعة . واقترحت الدراسة منع الإعلانات المضللة والدعاوي الإعلانية المبالغ فيها حماية للمستهلك (قريطم وآخرون ١٩٨٣ : ٤٣ — ٤٧) .

ومن أبرز الدراسات التي تلت بداية الإعلان التلفزيوني في المملكة وتعرضت بشكل مباشر لاتجاهات المستهلكين ، الدراسة التي قام بها الدكتور كتبخانه وزملاؤه في سنة ١٩٨٩م ، فقد استطلعت الدراسة آراء عينة مكونة من خمسمائة شخص في مدينة جدة ، واتصفت بالشمول في تعرضها لموضوع الإعلان التلفزيوني في المملكة (كتبخانه وآخرون ١٩٨٩) . ومن النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة والتي لها علاقة بموضوع هذا البحث أن ٧٠٪ من أفراد العينة ذكروا أن أبناءهم يحرصون على مشاهدة الإعلانات في التلفزيون (كتبخانه وآخرون ١٩٨٩ : ٩٥) ، وأن أبناء أو أحد أفراد أسرة ٨٨٪ منهم يرددون بعض الكلمات والعبارات التي تتردد بالإعلانات . كما كشفت الدراسة أن حوالى ٨٨٪ من أفراد العينة يشاهدون الإعلانات إما بانتظام أو أحيانا . وأن ٧٥٪ منهم يفضلون الإعلان التلفزيوني على الإعلان في غيره من الوسائل ،وأن ٩٣٪ ممن شاركوا في الدراسة قاموا بشراء سلع بعد مشاهدة الإعلان عنها (كتبخانه وآخرون ١٩٨٩ : ٩٣ — ١٠٤) .

وفى الولايات المتحدة الأمريكية ، يواجه الإعلان التلفزيوني وبالذات الموجه منه للطفل انتقادا حادا ، وقد تعرض بعض الباحثين والكتاب لآراء الآباء والأمهات وقادة الرأي والمهتمين بالطفل وأفراد المجتمع بشكل عام لاستقصاء آرائهم ومعرفة آثار الإعلان التلفزيوني على الطفل كما يقدرها البالغون . أما بخصوص الاتجاه حيال الإعلان فيكفي أن نسوق مقولة رئيس هيئة تلفزيون الأطفال (Action for (Act) Children 's Television) ، وهي هيئة هدفها حماية الأطفال من التلفزيون ، إذ يقول : (الإعلان للطفل عمل غير أخلاقي من أوجه عدة ، فالأطفال أقل نضجا وتعليما من الكبار ولهذا نحاول حمايتهم ((Kaye 1979 : 79) وأضاف : (أن الوسيلة التي يمكن استخدامها كأداة تعليمية لتعليم

الأمريكيين مايتعلق بالصحة والغذاء السليم تستخدم الآن للكذب والمعلومات السيئة والاقناع غير الخلّاق . والإعلان يقدم أخطارا عدة لصحة الأطفال ، أهمها : تسوس الأسنان ، استبعاد الأطعمة المفيدة من الغذاء ، البدانة أو السمنة ، ومشاكل صحية أخرى تتطور حتى في مرحلة البلوغ كنتيجة للتعود على الطعم الحلو المكتسب في مرحلة الطفولة (Kaye 1969 : 101) . وانتقد رئيس ورشة تلفزيون الأطفال المنتجة للبرنامج المعروف (شارع السمسم) الإعلان التلفزيوني للطفل انتقادا يدلل على قناعة تامة بتأثيره ، حيث يقول : (إذا ماوضعنا كمجتمع اهتمامات أطفالنا في المقدمة ، فإننا سننقاد إلى النتيجة الحتمية وهي أنه من الخطأ جدا بيع السلع للصغار الذي يشبه اصطياد سمك موجود في خزان مقفل . . إنها عملية جائرة وبشعة) (Kaye 1979 : 100) .

وفي دراسة على مستوى الولايات المتحدة الأمريكية حول أكثر المشاكل مضايقة للوالدين في تربية أطفالهم ذكر ٣٢٪ من المبحوثين أكل الأطفال فيما بين الوجبات ، وذكر ٢٦٪ منهم أن أطفالهم يطلبون بشكل دائم السلع التي يشاهدونها في الإعلانات التجارية ، وأوضح ٢٣٪ أن من هذه المشاكل قضاء الأطفال وقتا يشاهدون التلفزيون (Kaye 1979 : 96) . ويبدو أن هناك علاقة قوية بين الاتجاه السلبي حيال الإعلانات التلفزيونية لدى الآباء والأمهات ومراقبة كمية مايشاهده الأطفال منها وتعليمهم عنها وعن أهدافها وأغراضها . ففي دراسة ويمان Wiman اتضح أن الآباء الذين يتحكمون بتعرض أبنائهم للتلفزيون هم ممن لديهم اتجاهات سلبية جدا ضد الإعلانات التجارية في التلفزيون ، وأن أبناء هؤلاء الآباء لديهم فهم أعمق لطبيعة الإعلان وأهدافه ، وأن طلباتهم من السلع المعلن عنها أقل بكثير من طلبات الأطفال الآخرين (Wiman 1983 : 17) . واتفقت معظم دراسات وبحوث تأثير الإعلان التلفزيوني على الطفل ، على أن الأطفال يمكن أن يكونوا هدفا سهلا للإعلانات التلفزيونية . وقد لخص كي (Kaye 1979 : 100) نتائج الدراسات حول هذا الموضوع في النقاط الثلاث التالية :

أ - يصعب على الطفل التفريق بين إعلانات التلفزيون والبرامج غير الإعلانية .

ب - لايبدي الأطفال فهما واضحا لغرض الإعلان المتمثل في زيادة الطلب على السلع .

جـ - يستجيب الأطفال للإعلانات استجابة قوية دون قدرة على التمييز ، خصوصا عندما يشاهدون الإعلانات مع أشخاص لايوضحون لهم الهدف من الإعلان .

وأفادت هذه الدراسات أن تأثير الإعلان التلفزيوني يتضح في سلوك الطفل الشرائي ، وفي ممارسته للضغوط على والديه للتأثير في قراراتهم الشرائية . ووجدت دراسات الأثر هذه أن تأثر الطفل بالإعلان التلفزيوني يأخذ كل أو بعض الأشكال والممارسات التالية : (Walls 1979 : 167-170)

أ - الشراء الشخصي للسلعة المعلن عنها .

ب - الطلبات المباشرة في المنزل .

جـ - الطلبات المباشرة داخل المحلات التجارية .

د – الإملاء ، أو الطلب السلبي ، ويعني استهلاك الطفل كميات كبيرة من سلع معينة عن قصد والامتناع عن استهلاك أخرى .

ويؤثر الأطفال على قرارات والديهم الشرائية خاصة ماتعلق منها بالسلع والخدمات التي يعتبر الطفل ذاته هو المستهلك النهائي لها ، أو تلك التي يشترك جميع أفراد العائلة فى استهلاكها أو استخدامها . ويستخدم الطفل للتأثير على قرارات والديه الشرائية عدة أساليب كالطلب والترجي والبكاء والاحتجاج ، ومع أن طلب الطفل قد لايستجاب ، فإنه كثيرا ما يوضح السلع التي يفضلها . ويمتد تأثير الطفل ليشمل سلع وخدمات ليست خاصة بالطفل كما أوضح ذلك رايت Wright فى قوله : (عندما لايميل أفراد العائلة إلى تفضيل علامة تجارية معينة ، وعندما تعتبر الأم جميع العلامات التجارية متساوية ، فإن رغبة الطفل أو مايفضله الطفل يكون له أثر كبير فى تحديد ماستحصل عليه العائلة) (Kaye 1969 : 159) وفرّق دوناهيو Donohue بين الأطفال مابين الخامسة والسابعة من العمر والأطفال بين سن سبع سنوات إلى عشر سنوات ، وأكد أن الأطفال الأصغر سنا يتصفون بأنهم لايفهمون ماهية الإعلان ولا يفرقون بينه وبين برامج التلفزيون الأخرى ولا يستطيعون إدراك أهداف المعلن من الإعلان ونواياه الاقناعية (Donohue 1983 : 252) . وفى هذا الإطار أوضحت دراسة واردWard وزملائه ، أن الأطفال فى سنواتهم الأولى يتعلمون سلوكهم الاستهلاكي من خلال اتصالهم مع الأم ، ويبدأون فى فهم مغزى الإعلانات التلفزيونية عندما يتكرر رفض الأم شراء مايطلبونه من السلع ، بينما يتعلم الأطفال الأكبر سنا من خلال التجربة وأحيانا من خلال تفاعلهم مع الوالد (Ward *et al.*1978 : 177) . كذلك فقد بينت هذه الدراسة أن كمية مايشاهده الطفل من إعلانات التلفزيون لا علاقة لها بتطوير العادات الاستهلاكية لدى الأطفال الأكبر سنا ، وأن بعض الأطفال ، حتى الصغار منهم ، أظهروا علامات وجود اتجاهات مشككة ببعض الإعلانات ، وعادة ماتكون بسبب تجربة سيئة مع السلعة المعلن عنها . وتعليقا على هذه النتيجة كتب الباحثون : (أن التجارب السلبية والاتجاهات التي تعقبها يمكن أن تخدم كدفاع إدراكي ضد الاقناع الإعلاني فى المستقبل ، ومع ذلك لايوجد دليل قوي يدعم هذه النقطة) (Ward *etal.*1978 :177) .

ودرس روبرتسون Robertson تأثير الإعلانات التلفزيونية على علاقات الطفل بوالديه ، ووجد أن هذا التأثير يتخذ فى العادة الأشكال التالية : (Robertson 1980 :195)

أ – تؤدي طلبات الأطفال الاستهلاكية للسلع المعلن عنها إلى توتر فى علاقة الطفل بوالديه فى بعض الأحيان .

ب – يكون هذا التوتر أقوى فى العائلات ذات المستوى الاقتصادي المتدني بسبب احتمال كثرة رفض الوالدين طلبات أطفالهم .

جـ – يؤدي رفض الطلب إلى الإحباط لدى كل من الوالدين والطفل ، كما يؤدي إلى الشعور بالذنب والامتعاض أو الاستياء .

د – قد تؤدى طلبات الأطفال إلى إحداث مشكلات فى تحديد أولويات استهلاك العائلة وخصوصا بالنسبة للعائلات الفقيرة .

وبيّن بحث آخر أن الوالدين يرفضون مابين الثلث والنصف مما يطلبه الأبناء من السلع ، وأن السلع المرفوضة تقع فى الغالب ضمن فئة الألعاب والحلويات ، وأضافت نتائج هذا البحث أن مابين الثلث والنصف من الأطفال يشعرون بالحزن أو الغضب أو الاحباط نتيجة لرفض طلباتهم ، وتزيد هذه النسبة بين الأطفال الذين يشاهدون الإعلانات التلفزيونية بكثرة . وإضافة إلى ذلك ، يعاني بعض الأطفال من عدم الرضى النفسي من جراء مقارناتهم للأوضاع المثالية المصورة فى الإعلانات بأوضاعهم البيتية الواقعية وكذلك عندما يكتشفون أن السلعة فى الواقع أسوأ من صورتها فى التلفزيون (Atken 1980 : 284) .

ويتضح من الاستعراض السابق أن للإعلان التجاري فى التلفزيون آثارا إدراكية ونفسية وسلوكية ، وأن الآباء والأمهات قد لاحظوا هذه الآثار فى سلوك أطفالهم الشرائي والاستهلاكي . فهل للإعلانات التجارية فى تلفزيون المملكة العربية السعودية نفس الآثار من وجهة نظر البالغين ؟ وهل لاحظ البالغون آثاراً فى سلوك أبنائهم الشرائي والاستهلاكي ؟ وماهو موقفهم من الإعلان التجاري للطفل ؟

منهج البحث

لتحقيق الأهداف البحثية استخدمت الدراسة منهج المسح باستخدام عينة من سكان مدينة الرياض . وتكون مجتمع البحث من جميع البالغين من السعوديين الذين تواجدوا فى مدينة الرياض بالمملكة العربية السعودية خلال فترة الدراسة . واستخدم الباحث إجراء بحثيا لم يستخدم كثيرا – على حد علم الباحث – فى المملكة . فقد وزعت استمارات الاستبيان فى عشرة من أحياء مدينة الرياض ، وارفق بالاستمارة ظرف بريدي يحمل طابعا وعنوان الباحث ورسالة توضح هدف البحث وتطلب ممن استلموا نسخة من الاستبيان تعبئته وإعادته للباحث فى الظرف البريدي المرفق .

أداة البحث

كان من أهم العوامل التي أخذت فى الاعتبار عند وضع استمارة البحث أن تكون الاستمارة قصيرة وبسيطة لتسهل تعبئتها من قبل الأفراد ذوي المستويات التعليمية المنخفضة ، فاحتوت على ٢٥ مقياسا صممت لقياس متغيرات الدراسة . ويمكن تصنيف هذه المتغيرات فى أربع مجموعات هي مجموعة الأسئلة الخاصة بالمبحوث ، ومقاييس التعرض ، ومقاييس الأثر المحتمل للإعلانات ، ومقاييس الاتجاه نحو الإعلانات التجارية فى التلفزيون (١) .

---

(١) استمارة الاستبيان مرفقة فى الملحق رقم (١) .

وحيث إن مقاييس الاتجاه تعتبر أهم مقاييس الدراسة وأكثرها حاجة لاختبارات الصدق والثبات ، فإن من الأهمية بمكان أن نوضح أن المقياس الأساسي اشتمل على سبع فقرات صيغت بطريقة مقياس ليكرت Likert . وقد تم اختيار هذه الجمل من اثنى عشرة جملة تم اختبارها على طلاب إحدى مواد الإعلان بقسم الإعلام بجامعة الملك سعود ، وبنى قرار الاختيار على الاعتبارات التالية :

١ – شدة العلاقة بين الجمل المنتقاه ، بحيث لاتقل عن ٧٥٪ .

٢ – أن تكون بعض الجمل سلبية وبعضها إيجابية .

٣ – أن تحذف درجة (محايد) أو (لا أدري) أو (لا رأي لي) من درجات الموافقة / عدم الموافقة ، لإرغام المبحوث على اتخاذ موقف ، واعتباره محايدا عندما يمتنع عن الإجابة فقط أو عندما يكتب تعليقا يوحي بذلك . وهذا الأسلوب شائع الاستخدام بل وينصح باستخدامه في بعض الحالات وبخاصة عندما يتوقع الباحث أن المبحوثين سوف يستخدمون نقطة الوسط للهروب من الإجابة (Tull & Hawkins 1980 : 308) .

٤ – أن تستخدم صفات متناقضة ومتوازنة في نفس الوقت (كجيد ورديء ، وضار ، ونافع) مع عدم الإخلال بالقاعدتين السابقتين .

جـــــدول (١ – أ)

معامل الارتباط Correlation Coefficients فيما بين فقرات مقياس الاتجاه

الفقـــرة	(١) الجودة	(٢) المساعدة	(٣) اللغــة	(٤) الضــــرر	(٥) الســـوء	(٦) الفائـدة
(٢) المساعدة	٠ر٣١					
(٣) اللغـــة	٠ر٤٢	٠ر٠٥*				
(٤) الضـــرر	٠ر٦٦	٠ر١٥	٠ر٥٥			
(٥) الســـوء	٠ر٧١	٠ر١٣*	٠ر٤٧	٠ر٧٦		
(٦) الفائـدة	٠ر٧٥	٠ر٢٣	٠ر٤١	٠ر٦٢	٠ر٧٠	
(٧) الاستهلاكيـة	٠ر٤٤	٠ر٠٥*	٠ر٤١	٠ر٤٧	٠ر٥٣	٠ر٤٦

* مستوى دلالة غير مقبول > ٠ر٠٥ ، ن = ٢٦٣

وبعد إجراء التحليلات الإحصائية الإرتباطية فيما بين الفقرات المستخدمة في مقياس الاتجاه ، اتضح أن معاملات الارتباط فيما بين أربعة منها قوية جدا ، في حين كانت علاقات الثلاثة الأخرى متوسطة كما يتضح في الجدول رقم (١ – أ) . ولزيادة ثبات Reliability وصدق Validity مقياس الاتجاه ، استبعدت الفقرة الخاصة باللغة وتلك الخاصة بمساعدة الطفل على اتخاذ قرارات الشراء وفقرة تنمية العادات الاستهلاكية السيئة ، واستخدمت كمتغيرات قائمة بذاتها ، واعتبرت الفقرات الأربع

المتبقية متغيرات تقيس نفس المفهوم تقريبا كما تدل على ذلك معاملات الارتباط القوية فيمابينها . وشكل مجموع الإجابات الخاصة بهذه الفقرات الأربع متغيرا معتمدا وهو مانطلق عليه (الاتجاه نحو الإعلانات) . ويوضح الجدول رقم (١ - ب) معامل الارتباط فيما بين الاتجاه من ناحية وكل من هذه الفقرات المستخدمة فى الدراسة من الناحية الأخرى ، وهي معاملات مرتفعة تؤكد صدق وثبات هذا المقياس(٢) .

جدول (١ - ب)

معامل الارتباط Correlation Coefficients بين فقرات الاتجاه والاتجاه العام قبل وبعد الحذف

الفقـــرة	الاتجاه العام (سبع فقرات)	الاتجاه العام (أربع فقرات)
(١) الجـــودة	٠ر٨٤	٠ر٨٨
(٢) الضـــرر	٠ر٨٣	٠ر٨٧
(٣) الســـوء	٠ر٨٥	٠ر٩٠
(٤) الفائـدة	٠ر٨٢	٠ر٨٧
(٥) المساعـدة	٠ر٣٨	--
(٦) اللغـــة	٠ر٦٦	--
(٧) الاستهلاكيـة	٠ر٦٧	--

جميع القيم ذات مستويات دلالة < ٠١ر٠ ، ن = ٢٦٣

معدل الاستجابة Response Rate

بعد مرور شهرين من تاريخ الانتهاء من توزيع الاستبيان وصلت نسبة الاستجابة إلى حوالى ٢٦٪ ، إذ بلغ عدد الاستمارات المعادة ، ٢٦٣ وكانت جميعها صالحة للاستخدام . ولم تختلف نسبة الاستجابة كثيرا فيما بين الأحياء فتراوحت بين ٢٣٪ كأقل نسبة للاستجابة من أحياء العريجاء والبديعة ، و ٢٨٪ من حي العليا وحى الملك فهد . وتعتبر نسبة الاستجابة هذة عادية ، وهي ضمن حدود الاستجابة المتوقعة للاستبيانات البريدية عموما التي تنخفض نسبة الاستجابة لها إلى أقل من ١٠٪ فى بعض الأحيان (Backstrom & Cesar 1981: 117) . أما سرعة الاستجابة فقد كانت عالية إلى حد ما ، فوصل ٣٢٪ من مجموع الاستجابات خلال الأسبوع التالي مباشرة لتوزيع الاستمارات ، و ٣٧٪ منها فى الأسبوع الثاني ، وتوزعت البقية ونسبتها مجتمعة حوالي ٣١٪ خلال الأيام والأسابيع التالية والتي امتدت إلى ثمانية أسابيع . وتعتبر كتب مناهج البحث مدة الانتظار هذه كافية ، وأن الانتظار ثلاثة أسابيع لتلقي الاستجابات يعتبر حدا أدنى يكفي لبدء التحليل ، لأن العدد الذي يصل عادة بعد

(٢) تم إجراء جميع المعالجات الإحصائية الخاصة بهذه الدراسة باستخدام الحاسب الآلي بجامعة الملك سعود ، واستخدم لذلك برنامج ساس SAS .

هذه المدة يكون قليل جدا (Tull & Hawkins 1980: 129) . وقد تبين للباحث صحة ذلك . إذ لم يصل بعد انتهاء الأسبوع الثالث إلا ٢٧ استمارة تمثل حوالي ١٠٪ من المجموع الكلي للاستمارات المعادة .

الخصائص السكانية للعينة

بلغ متوسط عمر المشاركين فى الدراسة ٢٩٫٤ سنة (الانحراف المعياري = ٨٫٠٤) ، وكان معدل عدد الأطفال تحت سن خمسة عشر عاما فى المنزل ٣٫٥ (انحراف معياري = ٢٫٠١) ، بينما وصل معدل عدد أفراد الأسرة ٨٫٠ (انحراف معياري = ٣٫٤٢) . والجدول رقم (٢) يوضح نسبة المستجيبين فى فئات المتغيرات السكانية الأخرى . وتجدر الإشارة هنا أن الباحث لا يستطيع التحكم فى خصائص العينة السكانية فى الإجراء البحثي المتبع ، ولهذا فقد ظهر تحيز فى العينة فجاءت نسبة النساء ، والأمهات منهن على وجه الخصوص منخفضة ، وكذلك فإن ارتفاع نسبة المتعلمين بين أفراد العينة – وهو أمر متوقع – جعلت العينة منحازة لذوي المستويات التعليمية المرتفعة .

جدول رقم (٢)
الخصائص السكانية لأفراد العينة

المتغير	الفئة	النسبة
الجنس	ذكور	٨٢٪
	إناث	١٨٪
الحالة الاجتماعية	متزوجون	٨٣٪
	غير متزوجين	٣٧٪
المستوى التعليمي	تعليم عال	٥٧٪
	ثانوي وأقل	٣١٪
	ابتدائي وأقل	١٢٪
صلة القرابة للأطفال	آباء	٤٩٪
	أمهات	٧٫٤٪
	إخوة/أخوات	٣٢٫٧٪
	غير ذلك	١٠٫٩٪

نتائج البحـــث

التعرض والمتابعة

بينت نتائج الدراسة أن الطفل يقضي فى المعدل ثلاث ساعات يوميا أمام جهاز التلفزيون (١٧٤ دقيقة يوميا ، انحراف معياري = ١١٧) ، وأجاب ٧٦٪ من المبحوثين أن الأطفال يشاهدون الإعلانات التجارية بشكل دائم ، وبين ٢٢٪ منهم أن الأطفال يشاهدونها أحيانا ، ولم تتجاوز النسبة التي ذكرت أن الأطفال نادرا مايشاهدون الإعلانات أو لايشاهدونها إطلاقا ٢٪ . وتدلل هذه الأرقام على كثرة الوقت الذي يقضيه الطفل أمام التلفزيون وكثرة تعرضه للإعلانات التجارية . أما عن اهتمام الأطفال بالإعلانات وشدة متابعتهم لها ، فقد أجاب ٥٨٪ من المبحوثين أن الأطفال يتابعون الإعلانات التجارية باهتمام كبير ، وبيّن ٣٦٪ منهم أن الأطفال يتابعونها باهتمام ، فى حين ذكر ٦٪ فقط أن الأطفال يتابعونها ولكن بدون اهتمام ولم يذكر سوى مبحوث واحد (٠٫٤٪) أن الأطفال لايتابعون الإعلانات التجاريةفى التلفزيون إطلاقا . وعن الفترة التي يعتقد المشاركون أن الأطفال يشاهدون خلالها أكبر كمية من الإعلانات ، حدد ٥٠٪ تقريبا (ن = ١٢٩) الفترة المسائية ، وجاءت فترة السهرة (بعد التاسعة مساء) فى المقام الثاني إذ ذكرها ٢٤٪ منهم ، ولم يحدد الفترة الصباحيةبمفردها سوى ١٫٢٪ (ن = ٣) ومع ذلك فإن ٢٤٪ من المبحوثين ذكروا أن الأطفال يشاهدون الإعلانات فى أكثر من فترة واحدة .

وتوضح نتائج التعرض والمتابعة أن الطفل فى مدينة الرياض يقضي وقتا طويلا أمام جهاز التلفزيون ، ومع ذلك فإن هذا الوقت يقل قليلا عن معدل ما يقضيه الطفل الأمريكي مثلا من وقت أمام جهاز التلفزيون إذ يصل إلى أربع ساعات يوميا تقريبا أو ٢٧٫٦ فى الأسبوع (Comstock *et al.*1978:96) فى حين كان معدل الوقت الذي توصلت له هذه الدراسة أقل من ثلاث ساعات يوميا (١٧٤ دقيقة) . وتشير إجابات المبحوثين إلى أن الأطفال يشاهدون الإعلانات التجارية بكثرة ، وأنهم يتابعونها باهتمام كبير ، وقد كتب كثير منهم ملاحظات تشير إلى أن أطفالهم يرددون كثيرا كلمات الإعلانات وخصوصا الموسيقية منها ، وأنهم يتابعونها باهتمام شديد جدا فى كثير من الأحيان . ويمكن تفسير متابعة الأطفال للإعلانات التجارية واهتمامهم بها بجودة هذه الإعلانات واعتماد كثير منها على الموسيقى السريعة والكلمات السهلة الخفيفة ، بالإضافة إلى شعبية التلفزيون كوسيلة إعلامية عائلية يتابعها أفراد العائلة بصفة يومية أو شبه يومية .

تقدير الأثـــر

تعتقد الغالبية العظمى ممن شاركوا فى الإجابة على استبيان الدراسة أن الإعلان التلفزيوني بشكل عام مؤثر على الأطفال ، كما توضح البيانات فى الجدول (٣) أن لدى المشاركين فى الدراسة إحساس قوي بأثر الإعلان على سلوك الأطفال الاستهلاكي وطلباتهم الشرائية . ويكفي للدلالة على قوة إحساس البالغين بهذا الأثر أن أكثر من ٩٣٪ يعتقدون أن الإعلانات التجارية تؤثر على الأطفال دائما أو أحيانا . أما الناحية السلوكية للأطفال ، فإن الغالبية العظمى من المشاركين ونسبتها حوالي ٨٧٪ ذكرت

جـــــدول (٣)
توزيع إجابات المبحوثين على أسئلة الآثار المتوقعة والملاحظة للإعلانات التجارية

الفئـــــــة	التكرار	النسبة
١ – الأثر العام للإعلانات على الطفل :		
تؤثر دائما	١٢٣	٤٧٫٥٪
تؤثر أحيانا	١١٨	٤٥٫٦٪
نادرا ماتؤثر	١٣	٥٫٠ ٪
لاتؤثر إطلاقا	٥	١٫٩ ٪
٢ – طلب الأطفال للسلع التي يشاهدونها فى الإعلانات :		
يطلبونها دائما	٧٩	٣٠٫٥٪
يطلبونها أحيانا	١٤٧	٥٦٫٨٪
نادرا مايطلبونها	٢٧	١٠٫٤٪
لايطلبونها إطلاقا	٦	٢٫٣ ٪
٣ – ملاحظة المبحوثين استهلاك الأطفال السلع المعلن عنها :		
نعم ، ألاحظ ذلك دائما	٨٦	٢٦٫٩٪
نعم ، ألاحظ ذلك أحيانا	١٣٣	٥٢٫٦٪
لا ، لم ألاحظ ذلك	٤٣	١٧٫٠٪
لا ، لم ألاحظ ذلك إطلاقا	٩	٣٫٥ ٪
٤ – ملاحظة المبحوثين امتناع الأطفال عن استهلاك السلع التي لم تظهر فى الإعلانات :		
نعم ، دائما يحدث ذلك	٢٩	١١٫٤٪
نعم ، أحيانا يحدث ذلك	٦٣	٢٤٫٨٪
لا ، لايحدث ذلك	١١٦	٤٥٫٧٪
لا ، لايحدث ذلك إطلاقا	٤٦	١٨٫١٪

ن = مختلف : ٢٥٣ – ٢٥٩ .

أن الأطفال يطلبون شراء السلع التي يشاهدونها فى الإعلانات إما دائما أو أحيانا ، وهذه النسبة المرتفعة تدعم النتيجة السابقة ، وتكملها . ومما يفسر تقدير الأثر والإحساس به من قبل البالغين ملاحظتهم لسلوك الأطفال الاستهلاكي حيث بيّن أكثر من ٧٧٪ أنهم لاحظوا (دائما أو أحيانا) أطفالهم يستهلكون كميات كبيرة من السلع التي يشاهدونها فى الإعلانات . وهكذا فإن الآباء والأمهات وغيرهم ممن شاركوا فى الدراسة ، يرون أن الإعلان التلفزيوني يؤثر فى الطفل ، وأن من أوجه هذا التأثير طلبات الأطفال شراء السلع المعلن عنها ، واستهلاك كميات كبيرة من هذه السلع . ولم يتضح من إجابات المبحوثين أن الأطفال يمتنعون عن استهلاك السلع التي ليس لها إعلانات فى التلفزيون ، فلم تلاحظ غالبية المشاركين ذلك ، وانحصرت نسبة من لاحظوا امتناع الأطفال عن استهلاك السلع التي ليس لها إعلانات فى حوالي ٣٦٪ من مجموع المشاركين ، ومع ذلك فإن هذه النسبة ليست بسيطة .

وقبل أن نناقش النتائج الخاصة بالأثر المتوقع والأثر الملاحظ للإعلانات التجارية ، يجدر بنا أن نوضح نقطتين : الأولى ، وهي أن المنهج المستخدم فى هذه الدراسة لايقيس الأثر الفعلي وأنما الأثر المدرك أو المعتقد Perceived Effect للإعلانات التجارية على الطفل ، وهذه القاعدة تسري على أغلب الدراسات المشابهة التي استعرضنا بعضا منها فيما سبق . والثانية ، أن المبالغة فى تقدير الأثر المتوقع للإعلانات وارد هنا نظرا لتداخل ما يسمى بتأثير الشخص الثالث Third Person Effect ، فقد أوضحت الدراسات السابقة أن الفرد يبالغ فى تقديره لتأثير وسائل الإعلام على الآخرين بينما يقلل من شأن تأثيرها عليه هو شخصيا (Lasorsa 1989: 374) . ولم نقصد التقليل من شأن ما أوضحه المبحوثون حول أثر الإعلانات التجارية على أطفالهم ، فالنتائج التي توصلت لها هذه الدراسة فى هذا الخصوص قوية جدا حتى مع افتراض المبالغة فى التقدير . وتبين نتائج الدراسة أن هناك اعتقاد قوي بتأثير الإعلانات ، وأن من مظاهر تأثيرها الملاحظة طلب شراء السلع المعلن عنها ، واستهلاك الأطفال كميات كبيرة من هذه السلع ، وامتناع الأطفال أحيانا عن استهلاك السلع التي لم يشاهدوا لها إعلانات . وهذه النتائج تتفق مع نتائج الدراسات السابقة .

الرأي والاتجـــــاه

يرى معظم المبحوثين أن الإعلان التجاري فى التلفزيون ضار بالطفل ، وتوزعت إجابات المشاركين على مقياس الرأي (ماهو رأيك فى الإعلانات التجارية بالتلفزيون الموجهة للأطفال بشكل عام ؟) على النحو التالي : ٢٣٪ ضارة جدا ، ٢٨٪ ضارة ، ١٩٪ مفيدة ، ٢٥٪ مفيدة جدا ، ٥٪ لا أدري . وتبدو هذه النتيجة غريبة عند مقارنتها بنتائج الاتجاه ، فمع أن الغالبية تعتقد أن الإعلان مضر ، إلا أن نسبة لا بأس بها ترى أن هذه الإعلانات مفيدة . أما فقرات الاتجاه السبعة ، فيبين الجدول رقم (٤) توزيع المبحوثين فى درجات الموافقة/ عدم الموافقة على الجمل التي استخدمت لقياس الاتجاه . ويتضح من النسب المدرجة فى الجدول أن غالبية بسيطة لاتوافق على أن الإعلان جيد للطفل ، وأن هناك اختلاف حول مساعدة الإعلانات للأطفال على اتخاذ قرارات الشراء ، وأصبحت الأغلبية البسيطة لصالح الإعلانات فى هذه الحالة حيث وافق ٥١٫٧٪ على هذه العبارة . أما أن الإعلانات تضر لغة الطفل فقد وافق على ذلك ٦٤٫٧٪ من المبحوثين وهي نسبة مرتفعة تدل على وجود تخوف من التأثير على لغة الأطفال . وفى حين يوحي توزيع الموافقة وعدم الموافقة على عبارتي السوء والفائدة بالاعتدال النسبي والتوزيع شبه المتوازن ، فإن العبارة الأخيرة حظيت بنسب موافقة عالية نوعا ما ، إذ وافق ٦١٫٦٪ على أن الإعلان بالتلفزيون ينمي لدى الأطفال عادات استهلاكية سيئة .

وكما توضح البيانات فى الجدول (٤) فإن توزيع الإجابات على العبارات الأربع (الجوده ، الضرر ، السوء ، الفائدة) التى سبق تقريرها كمكونات للاتجاه العام تميل للاعتدال النسبي ، وقد بلغ معدل الاتجاه العام ١١٫١٦ (الحد الأعلى = ٢٠ ، والحد الأدنى = ٤) وهو معدل يقل قليلا عن نقطة الحياد

جـــــدول (٤)
النسب المئوية لتوزيع إجابات المبحوثين على فقرات مقياس الاتجاه

الفقـــــرة	أوافـق تمـاما	أوافـق	لا أوافق	لا أوافـق إطـلاقا	بدون
الإعلان للطفل فى التلفزيون جيد .	٦ر٥ ٪	٣٦ر٩٪	٣٢ر٢٪	١٨ر٣٪	٦ر١ ٪
الإعلان فى التلفزيون يساعد الأطفال على اتخاذ قرارات الشراء .	١٥ر٦٪	٣٦ر١٪	٢٨ر١٪	١٤ر٤٪	١٥ر٦٪
الإعلان فى التلفزيون يضر لغة الطفل .	٣٧ر٣٪	٢٧ر٤٪	٤ر٦ ٪	٢٢ر٨٪	٧ر٩ ٪
الإعلان للطفل فى التلفزيون ضار .	٢٣ر٦٪	٢٥ر٩٪	٨ر٠ ٪	٣٣ر٨٪	٨ر٧ ٪
الإعلان للطفل فى التلفزيون سيىء .	٢٢ر٤٪	٢٧ر٠٪	٨ر٤ ٪	٣٣ر٥٪	٨ر٧ ٪
الإعلان للطفل فى التلفزيون مفيد .	٦ر١ ٪	٣٥ر٦٪	٢٦ر٦٪	٢١ر٧٪	٩ر٩ ٪
الإعلان بالتلفزيون ينمي لدى الطفل عادات استهلاكية سيئة .	٣٣ر١٪	٢٨ر٥٪	٢٦ر٢٪	٨ر٤ ٪	٣ر٨ ٪

(١٢ نقطة) ولهذا فهو يميل للسلبية . وقد بلغ الانحراف المعياري للاتجاه العام ٦٦ر٤ مما يدلل على تشتت إجابات المبحوثين واختلاف اتجاهاتهم نحو الإعلانات التلفزيونية الموجهة للطفل . وبشكل عام فإن الاتجاه نحو الإعلانات فى هذا المقياس جاء معتدلا عند مقارنته بالتعليقات التـي أرفقت مع الاستبيانات المعادة وحملت عبارات السخط والشكوى والتذمر من الإعلان التجاري فى التلفزيون . لكن عدم الرضا عن الإعلان التجاري لايعني عدم الاعتقاد بفائدته . ولذلك فلا تناقض بين الموقفين ، خصوصا إذا ما علمنا أن الغالبية الساحقة من التعليقات التي أرفقت مع الاستبيانات تحتج على الإعلان التلفزيوني لعدم تمشيه مع المعتقدات الدينية والتقاليد الاجتماعية . فهي لاتعارض الإعلان من حيث المبدأ ولكنها تنادي بضرورة تشديد الرقابة عليه .

علاقة الرأي والاتجاه بالمتغيرات الأخرى

لمعرفة علاقة الرأي والاتجاه بالمتغيرات الأخرى ، ولقياس شدة العلاقة عوملت مقاييس الأثر كمتغيرات متدرجة ذات مسافات متساوية Interval ثم حسبت معاملات الارتباط بينها وبين كل من مقياس الرأي والاتجاه ، ويوضح الجدول رقم (٥) معامل الارتباط بين مقاييس الأثر وبعض المتغيرات الرقمية الأخرى من ناحية ورأي المبحوثين واتجاهاتهم عن الإعلانات من ناحية ثانية . وكما يتضح من الأرقام المدرجة فى الجدول ، فإن أكثر متغيرات التعرض والمتابعة علاقة بالرأي والاتجاه هو المتغير الخاص بالوقت الذى يقضيه الطفل لمشاهدة التلفزيون يوميا ، والعلاقة العكسية (ر = – ١٦ ، و = – ١٤ م < ٠٥ر٠) تبين أنه كلما زاد الوقت الذى يقضيه الأطفال مع التلفزيون كلما

كان الرأي والاتجاه حيال الإعلانات سلبيا . أما مشاهدة الطفل للإعلانات وعدمها ومقدار اهتمامه بمتابعتها ، فلم يوضح معامل الارتباط أن لها علاقة بالرأي أو الاتجاه . كما ترتبط متغيرات الأثر المتوقع للإعلانات بكل من الرأي والاتجاه ، ولكن بصورة عكسية ، ويعني ذلك أنه كلما زاد إحساس البالغ بقوة أثر الإعلان ، وكلما لاحظ تأثيره على سلوك طفله ، زادت فرص تبنيه رأيا واتجاها سلبيين حول الإعلانات التجارية .

جدول (٥)
معامل ارتباط Correlation Coefficients كل من الرأي والاتجاه بالمتغيرات الأخرى

الفقــرة	الــرأي	الاتجـاه
مقدار وقت التعرض للتلفزيون	− ٠ر١٦*	− ٠ر١٤*
مدى مشاهدة الأطفال للإعلانات	٠ر١١	٠ر٠٧
اهتمام الأطفال بمتابعة الإعلانات	− ٠ر٠٤	٠ر٠٢
الأثر العام للإعلانات على الطفل	− ٠ر٢٤**	− ٠ر٢٣**
طلب شراء السلع المعلن عنها	− ٠ر١٢	− ٠ر٢٢**
استهلاك السلع المعلن عنها	− ٠ر٢٥**	− ٠ر٢٦**
الامتناع عن استهلاك السلع الأخرى	− ٠ر٢٤**	− ٠ر٢٦**
العمــــر	− ٠ر١٧*	٠ر١٦*
عدد الأطفال في الأسرة	− ٠ر٠٧	− ٠ر٠٦
الجنس (الذكورة)	− ٠ر١٣*	− ٠ر٠٢
الجنس (الأنوثة)	٠ر١٣*	٠ر٠٢

* مستوى دلالة < ٠ر٠٥ ، ** مستوى دلالة < ٠ر٠١

وأخيرا فإن من المتغيرات السكانية التي يبدو أن لها علاقة غريبة بكل من الرأي والاتجاه ، تلك العلاقة الإيجابية بين عمر المبحوث ورأيه واتجاهه ، ويوحي معامل ارتباط العمر أنه كلما زاد عمر الشخص زادت فرص اعتداله في الرأي والاتجاه ، ولا يجد الباحث تفسيرا لهذا العلاقة ، بل إن العلاقة المتوقعة كانت عكس ذلك تماما . وعند معاملة جنس المبحوث كمتغير بديل Dummy Variable (Zeller & Carmines 1978: 15) ارتبطت الذكورة سلبا بالرأي (ر = − ٠ر١٣) ولكنها لم ترتبط بالاتجاه ، وعند إعادة استخدام نفس المتغير بشكل عكسي ارتبطت الأنوثة إيجابيا بالرأي أيضا (ر = ٠ر١٣) ولكنها لم ترتبط بالاتجاه . ويوضح معامل الارتباط بالجنس (الذكورة والأنوثة) أن االنساء يتبنين آراء أكثر إيجابية من الرجال عن الإعلانات التجارية وفائدتها ، ويدعم هذه الحقيقة اعادة اختبار تى t test الذى أجرى على معدلات آراء الرجال والنساء حيث اتضح أن الفارق في الرأي ذا مستوى دلالة مقبولة (معدل الذكور = ٢ر٥٤ ، ن = ٢٠٤ ، معدل الإناث = ٢ر٩٦ ، ن = ٤٧ ، T = ٢ر٣٨

– م < ٥٠ر٠) . وفيما عدا هاتين العلاقتين لا يرتبط أي من الرأي أو الاتجاه بأي من المتغيرات السكانية الأخرى كالمستوى التعلمي والحالة الاجتماعية وعدد أفراد الأسرة ، ويستثنى من هذه المتغيرات عدد الأطفال ممن تقل أعمارهم عن ١٥ سنة فهو يرتبط عكسيا بكل من الرأي والاتجاه ، إلا أن هذا الارتباط لم يرتق لمستوى دلالة مقبول كما يتضح فى الجدول رقم (٥) .

الخلاصـــــة

يمكن تلخيص نتائج هذه الدراسة فى النقاط التالية :

١ – يقضي الأطفال وقتا كبيرا فى مشاهدة التلفزيون ، ويشاهدون الإعلانات التجارية المذاعة من خلاله فى الغالب ، وغالبا مايتابعون هذه الإعلانات باهتمام كبير .

٢ – يعتقد المشاركون فى هذه الدراسة أن الإعلانات التجارية الموجهة للطفل من خلال التلفزيون مؤثرة ، ويقر أغلبهم أن الأطفال يطلبون شراء السلع التي يشاهدونها فى هذه الإعلانات أحيانا على الأقل ، ولاحظ كثير منهم أن الأطفال يستهلكون كميات كبيرة من السلع التي يشاهدون إعلاناتها ، كما لاحظ بعض منهم أن الأطفال يمتنعون أحيانا عن استهلاك السلع التي لم يشاهدوها فى إعلانات التلفزيون .

٣ – يميل رأي أفراد العينة حول فائدة الإعلانات التجارية الموجهة للطفل للسلبية ، كما تميل اتجاهاتهم نحوها للسلبية أيضا ، وفى كلا الحالتين يقترب موقف معدل الرأي وموقف معدل الاتجاه من نقطة الحياد .

٤ – يرتبط كل من الرأي والاتجاه ارتباطا عكسيا بالأثر المتوقع والأثر الملاحظ للإعلانات ، وكذلك بمقدار الوقت الذى يقضية الطفل فى مشاهدة التلفزيون يوميا ، كما أن للرأي والاتجاه علاقة إيجابية بعمر المبحوث ، وللرأي فقط علاقة بجنس المبحوث ، حيث يميل الرجال لتبني آراء أكثر سلبية من آراء النساء .

٥ – انتقد كثير من المشاركين بالدراسة الإعلان التجاري فى التلفزيون بشكل عام والموجه للطفل منه على وجه الخصوص ، وكانت أهم أسباب الانتقاد ظهور المرأة واستخدام الموسيقى فيه .

وعلى الرغم من اقتصار الدراسة على سكان مدينة الرياض ، وصغر حجم العينة النسبي بسبب استخدامها منهجا يعتمد على الاستجابة الاختيارية ولايتيح للباحث التحكم بعدد المستجيبين بعد توزيع استمارات البحث ، فإن هذه الدراسة قد أجابت على بعض الأسئلة الهامة حول الإعلان التجاري وتأثيره على الأطفال . وأكدت كثير من نتائج البحوث والدراسات السابقة التي أجريت فى مجتمعات غير عربية . وبات مؤكدا أن هناك شعور عام قوي بأن الإعلان التجاري فى التلفزيون يؤثر فى الطفل ، وأن أثره يلاحظ فى طلبات الطفل الشرائية وفى سلوكه الاستهلاكي ، وأن هناك رأيا واتجاها سلبيين نحوه .

وفضلا عن الإجابة على الأسئلة البحثية ، فإن كثرة الملاحظات والتعليقات التي تلقاها الباحث ممن شاركوا بالدراسة تؤكد أن موضوع الإعلان التجاري في التلفزيون السعودي يشغل بال قطاع كبير من المستهلكين ، وأن بعض هؤلاء المستهلكين يرون أن للإعلان التجاري أضراراً بالغة على الفرد وعلى المجتمع .

ختاما ، فإن الدراسات المستقبلية يمكن أن تتناول موضوع الإعلان التجاري بشكل عام وتأثيره على عادات الشراء والاستهلاك والعادات والتقاليد الاجتماعية ، ويمكن أن تحلل مضمونه ، أو تدرس مستخدميه (المعلنين) ، كما يمكن أن تتعرض بالتفصيل لآراء واتجاهات المستهلكين نحوه ، أو تقيس أثره الفعلي على قطاع أو أكثر من قطاعات المستهلكين . وبالإضافة إلى ذلك فإن تأثير الإعلان التلفزيوني على الطفل لايزال بحاجة لدراسة أكثر شمولا من حيث مجتمع البحث ومن حيث حجم العينة ومن حيث أبعاد التأثير ومتغيراته .

المراجـــــع

أولا : المراجع العربية

أبو جمعة ، نعيم ، الخداع الإعلاني وأثره على المستهلك في دولة الكويت . مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، العدد ٥٠ ، أبريل ١٩٨٧م ، ص ص ١٥ – ٧٣ .

أبو ركبة ، حسن ، سوق الإعلان في المملكة العربية السعودية . مجلة الاقتصاد والإدارة ، العدد ١٢ ، رجب ١٤٠١هـ ١٩٨١م ، ص ص ١١ – ٤٩ .

حسين ، سمير ، اقتصاديات الإعلان في المملكة العربية السعودية : دراسة استكشافية وصفية . جدة ، دار الأصفهاني وشركائه للطباعة ، ١٩٧٧م .

قريطم ، عبدالهادي ، أبو ركبة ، حسن والعيسوي ، إبراهيم ، تقييم نظام حماية المستهلك : دراسة تطبيقية على المملكة العربية السعودية . جدة ، مركز البحوث بجامعة الملك عبدالعزيز ، ١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣م .

كتبخانة ، إسماعيل ، بغدادي ، عبدالوهاب ، غانم ، عبدالله ، الجمال ، راسم ، وأندرقيري ، محمد ، الإعلان التجاري في التلفزيون السعودي وأثره على السلوك الاستهلاكي على سكان مدينة جدة . جدة ، مركز البحوث بجامعة الملك عبدالعزيز ، ١٤٠٩هـ ، ١٩٨٩م .

مجلس الغرف التجارية الصناعية السعودية ، دور الإعلان التجاري في ترويج منتجات الصناعة السعودية : دراسة ميدانية ، الرياض ، بدون تاريخ .

وزارة الإعلام ، تلفزيون المملكة العربية السعودية ، إدارة الإعلان التجاري ، التقرير المالي للفترة من ١٤٠٦/٤/١هـ إلى ١٤٠٩/٤/٤هـ (غير منشور) .

ثانيا : المراجع الأجنبية

Atken, C., Effects of Television Advertising on Children, *in:* **Palmer** and **Door** (ed), *Children and the Faces of Television*. Chicago: Academic Press, 1980, pp. 273-285.

Backstrom, C. and **Cesar, G.**, *Survey Reserach*. New York: Wiley & Sons, 1981.

Comstock, G., **Chaffee, S.**, **Katzman, N.**, **McCombs, M.** and **Roberts, D.**, *Television and Human Behavior*. New York: Columbia Univ. Press, 1978.

Donohue, T., **Henke, L.** and **Meyer, T.**, Learning About TV Commercials: The Impact of Instructional Units on Children's Perception of Motive and Intent, *Journal of Broadcasting* **27** (Summer 1983): 252-262.

Kaye, E., *The Act Guide to Children's Television*. Boston: Beacon Press, 1979.

Lasorsa, D., Real and Perceived Effects of 'Amerika', *Journalism Quarterly* **66** (Summer, 1989): 373-378.

Robertson, S., *The Effects of TV Advertising on Children*. Lexington: Lexington Books, 1980.

Tull, D. and **Hawkins, D.**, *Marketing Research: Measurement and Method*. New York: Macmillan Publishing, 1980.

Ward, S., **Wackman, D.** and **Wartella, E.**, *How Children Learn to Buy: The Development of Consumer Information-Processing Skills*. London: Sage, 1978.

Walls, W., Communicating with Children, *in:* **J. Wright** (ed), *The Commercial Connection*. New York: Del Publishing Co., 1979, pp. 158-177.

Wiman, A., Parental Influence and Children's Responses to Television Advertising, *Journal of Advertising* **12** (Fall, 1983): 12-18.

Zeller, R. and **Carmines, E.**, *Statistical Analysis of Social Data*. Chicago: Rand McNally, 1978.

ملحق (١)
استمارة الاستبيان

استمارة استبيان استطلاع آراء المواطنين
حول أثر الإعلان التجاري فى التلفزيون على الأطفال

أولا : معلومات عن الشخص القائم بالإجابة على الاستبيان

١ – الجنـــس : ( ) ذكر ( ) أنثى

٢ – العمـــر : ....

٣ – الحالة الاجتماعية : ( ) متزوج ( ) اعـــزب

٤ – عدد أفراد الأسرة (عدد الأشخاص الذين تسكن معهم فى نفس المنزل) بما فى ذلك أنت :

....

٥ – عدد الأطفال دون سن ١٥ سنة فى المنزل : ....

٦ – صلة القرابة للأطفال (إن وجدوا) : ( ) أب ( ) أم ( ) أخ «أخت» ( ) غير ذلك

٧ – المستوى التعليمي :

( ) ابتدائي أو أقل ( ) ثانوي أو أقل ( ) تعليم بعد الثانوي

ثانيا : معلومات عن سلوك الطفل أمام التلفزيون

١ – كم ساعة (دقيقة) يقضيها الطفل فى المعدل أمام التلفزيون يوميا ؟

(تقدير تقريبي)

.... ساعة .... دقيقة

٢ – هل يشاهد الأطفال فى منزلك الإعلانات التجارية ؟

( ) يشاهدونها دائما ( ) يشاهدونها أحيانا

( ) نادرا مايشاهدونها ( ) لايشاهدونها

٣ – من خلال مشاهدتك لسلوك الأطفال ، هل يتابع الأطفال الإعلانات التجارية باهتمام ؟

( ) يتابعونها باهتمام كبير ( ) يتابعونها باهتمام

( ) يتابعونها ولكن بدون اهتمام ( ) لايتابعونها إطلاقا

٤ – أي الفترات يشاهد فيها الأطفال أكبر كمية من الإعلانات فى نظركم ؟

( ) الفترة الصباحية　　　　( ) الفترة المسائية

( ) فترة السهرة (بعد التاسعة مساء) .

ثالثا : معلومات عن الأثر المحتمل للإعلانات التجارية

١ – هل تعتقد أن الإعلانات التجارية بالتلفزيون تؤثر على الأطفال ؟

( ) تؤثر دائما　　　　( ) تؤثر أحيانا

( ) نادرا ماتؤثر　　　　( ) لاتؤثر إطلاقا

٢ – هل يطلب الأطفال شراء السلع التي يشاهدونها فى الإعلانات ؟

( ) يطلبونها دائما　　　　( ) يطلبونها أحيانا

( ) نادرا مايطلبونها　　　　( ) لايطلبونها إطلاقا

٣ – هل لاحظت أن الأطفال يستهلكون كميات كبيرة من السلع التي يشاهدونها فى الإعلانات التجارية ؟

( ) نعم ، ألاحظ ذلك دائما　　　　( ) نعم ، ألاحظ ذلك أحيانا

( ) لا ، لم ألاحظ ذلك　　　　( ) لا ، لم ألاحظ ذلك إطلاقا

٤ – هل يمتنع الأطفال عن استهلاك سلع لم يشاهدوا إعلانات تجارية لها فى التلفزيون ؟

( ) نعم ، دائما يحدث ذلك　　　　( ) نعم ، أحيانا يحدث ذلك

( ) لا ، لايحدث ذلك　　　　( ) لا ، لايحدث ذلك إطلاقا

رابعا : تقيم الإعلانات التجارية بالتلفزيون

١ – ماهو رأيك فى الإعلانات التجارية بالتلفزيون الموجهة للأطفال بشكل عام ؟

( ) ضارة جدا　( ) ضارة　( ) مفيدة　( ) مفيدة جدا　( ) لا أدري

٢ – الرجاء توضيح درجة موافقتك أو عدم موافقتك على الجمل التالية :

	أوافق تماما	أوافق	لا أوافق	لا أوافق إطلاقا
الإعلان للطفل فى التلفزيون جيد	( )	( )	( )	( )
الإعلان فى التلفزيون يساعد الأطفال فى اتخاذ قرارات الشراء	( )	( )	( )	( )

الإعلان بالتلفزيون يضر لغة الطفل	( )	( )	( )	( )
الإعلان للطفل بالتلفزيون ضار	( )	( )	( )	( )
الإعلان بالتلفزيون سيء	( )	( )	( )	( )
الإعلان للطفل بالتلفزيون مفيد	( )	( )	( )	( )
الإعلان بالتلفزيون ينمي لدى الأطفال عادات استهلاكية سيئة	( )	( )	( )	( )

شكرا لتجاوبكم . . . .

Adult's Evaluation of the Effects of TV Commercials on Children's Consumptive Behavior

ABDULRAHMAN H. AL-ENAD
Assistant Professor, Journalism Department, College of Arts, King Saud University, Riyadh, Saudi Arabia

ABSTRACT. The purpose of this study is to measure the perceived and observed effects of television commercials on children and to measure adults' opinion and attitude toward advertising to children. It also investigates the relationship of perceived and observed effects with opinion and attitude. One thousand questionnaires were distributed in shopping centers, shops and supermarkets in ten parts of the city of Riyadh. Two hundred and sixty three questionnaires were returned and used in analysis.

The findings indicate that adults of Riyadh think that advertising to children is effective. Children often ask adults to buy advertised products, consume large amounts of these products, and (sometimes) refuse to consume unadvertised products. In general, Riyadh adults hold negative opinion and attitude toward advertising aimed at children. Both opinion and attitude are negatively related to both perceived and observed effects.

مجلة جامعة الملك عبدالعزيز : الآداب والعلوم الإنسانية ، م ٥ ، ص ص ٢٧ - ٤٠ (١٤١٢هـ/١٩٩٢م) .

مصداقية الإعلان التليفزيوني : دراسة ميدانية على عينة من طلاب جامعة الملك عبد العزيز

عبد الوهاب بن عبد الله بغدادي

أستاذ مساعد بقسم الإعلام ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة الملك عبد العزيز ، جدة ، المملكة العربية السعودية

المستخلص : استهدفت الدراسة الكشف عن طبيعة اتجاه المتلقي السعودي نحو مصداقية الإعلان التليفزيوني ، من حيث درجة مبالغته وتزييفه للواقع وامتداد ذلك واصطدامه بالقيم والأخلاقيات السائدة فى المجتمع السعودى ، وقد اتخذت الدراسة من طلاب جامعة الملك عبد العزيز بجدة مجتمعا لها وقام الباحث بسحب عينة من هذا المجتمع بلغت ٣٠٠ طالب تتراوح أعمارهم بين ١٨ - ٣٠ عاما ، واستخدم الاستقصاء كأداة لجمع المعلومات . وكشفت الدراسة العديد من النتائج المهمة ومنها الآتي :

- ارتفاع درجة تعرض شباب الجامعة للإعلان التليفزيوني وصلت إلى ٩٠٪ من عينة الدراسة .

- يرى ٥٣٪ من أفراد العينة أن الإعلان هدفه النهائي هو الحث على شراء ما يعلن عنه .

- اتسم الاتجاه العام للعينة نحو الإعلان بالسلبية حيث يرى ٨١٪ أن إعلانات التليفزيون السعودي تقدم معلومات سطحية .

- يتفق ٨٨٪ على أن الإعلان فى التليفزيون السعودي يتميز بعدم المصداقية ، ويرى ٨٠٪ منهم أن الإعلانات مضللة بل ووصفها ٧٦٪ بأنها كاذبة .

- امتد الاتجاه السلبي إلى حد أن ٨٠٪ يرون أن الإعلان التليفزيوني يزيف الواقع .

- أوضحت الدراسة ضرورة إعادة النظر فى الضوابط القائمة حول الإعلانات التليفزيونية حتى يزداد التزام الإعلانات بقيم وعادات المجتمع السعودي .

مقدمـــــة

يتعرض الإعلان عامة والتليفزيوني خاصة إلى كثير من الانتقادات من وفى كافة المجتمعات من حيث آثاره الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية ، حتى فى تلك المجتمعات التي أصبح الإعلان فيها أحد ركائز صناعة الإعلام [١] . حيث تقدر المبالغ التي تنفق على الإعلان سنويا بالبلايين [٢] وتزداد حدة هذه الانتقادات فى المجتمعات النامية نظرا للعديد من العوامل أهمها :

١ – الحداثة النسبية للنشاط الإعلاني .

٢ – اعتماد صناعة الإعلان فى العديد من تلك البلدان على خبرات أجنبية ، مع ماتحمله تلك الخبرات من قيم وأفكار ومفاهيم قد تتعارض فى كثير من الأحيان مع الأفكار والمفاهيم السائدة فى تلك المجتمعات .

٣ – لاتزال الإعلانات المصنعة فى الخارج والتي تعلن عن سلعة مستوردة والتي تبث فى تليفزيونات تلك البلدان تمثل نسبة كبيرة ، وهذه الإعلانات تستخدم أساليب وأفكار وقيم لاتتماشى مع قيم وتقاليد هذه المجتمعات .

٤ – استخدام الإعلان التليفزيوني لأعلى تقنيات الإنتاج ، وكذلك أحدث عناصر الإبهار والجذب ، مما يجعله وسيلة سهلة النفاذ إلى اتجاهات المتلقى وأكثر قدرة على التأثير فيها نظرا لارتفاع معدل تكرار بثها إذا ماقورنت بالأنظمة الاتصالية الأخرى .

ومن بين قائمة الانتقادات الموجهة للإعلان ، نجد المصداقية فى الرسالة الإعلانية واحدة من القضايا الثابتة والأساسية [٣] والمصداقية هنا تعني مدى التزام الإعلان بخصائص السلعة أو الخدمة المعلن عنها [٤] فالمعلن كثيرا ما يضفي على سلعته أو خدمته بريقا ووعودا لاتتطابق مع الواقع الفعلي تماما [٥] حتى يتسنى له مواجهة المنافسة المتزايدة .

وهنا تكمن الفجوة بين الحقيقة وغير الحقيقة . ومثل هذه النقطة يدور حولها الكثير من الجدل . وطبيعة هذا الجدل تختلف من مجتمع إلى آخر . ففي المجتمعات التي يصل فيها المستهلك إلى درجة عالية من النضج الناتج عن تكرار تعرضه للرسائل الإعلانية ، نجد أنه قد اكتسب حصانة ضد المغريات الإعلانية مهما زادت مبالغتها ودرجة إبهارها ، وبالتالي تتخذ قضية المصداقية طبيعة مختلفة [٦] تختلف فى تلك المجتمعات التي دخل عليها النشاط الإعلاني حديثا .

ففي تلك المجتمعات توضح لنا الملاحظات الشخصية التأثر السريع نسبيا بما يأتي فى مضامين الإعلانات التليفزيونية ، وبالتالي ومن المؤكد فإن قضية المصداقية سوف تتخذ طبيعة مختلفة .

ولما كان المجتمع السعودي واحد من المجتمعات التي دخل عليها الإعلان التليفزيوني منذ فترة وجيزة جدا ، لاتتعدى أربعة أعوام وارتفعت نسبته على شاشة التليفزيون ، فإن فحص دراسة مصداقية الإعلان من وجهة نظر الجمهور المتلقي ، تصبح قضية لها أهميتها وجدواها العلمية والتطبيقية .

وعلى ذلك فقد تحدد لهذه الدراسة الاستطلاعية هدفا رئيسا هو الكشف عن طبيعة اتجاه المتلقي السعودي نحو مدى مصداقية الإعلان التليفزيوني من حيث درجة مبالغته وتزييفه للواقع ، وامتداد ذلك واصطدامه بالقيم والأخلاقيات السائدة فى المجتمع السعودي .

تساؤلات الدراسة

فى ضوء أهداف هذه الدراسة وطبيعتها الاستطلاعية ، فقد تركزت تساؤلات الدراسة فيما يلي :

١ – ماهو مدى مصداقية الإعلان التليفزيوني لدى الشباب السعودي ؟ وهل تختلف هذه المصداقية باختلاف الفرد (المتلقي) نفسه ؟ .

٢ – ماهي العوامل التي تؤثر على مصداقية الإعلان التليفزيوني لديهم وهل من بين هذه العوامل :

١ – استخدام النجوم المشهورين فى الإعلانات .
٢ – الإحساس بمسؤولية المعلن .
٣ – مدى معرفة المستهلك وخبرته .
٤ – الرقابة على الإعلانات .

٣ – هل هناك علاقة بين مدى مصداقية الإعلان التليفزيوني وبين نوع السلعة أو الخدمة المعلن عنها ؟

منهج الدراسة

اتخذت هذه الدراسة من الشباب الجامعي السعودى بكليات جامعة الملك عبد العزيز مجتمعا للدراسة لسبب رئيس ، وهو ارتفاع المستوى الفكري لمفهوم المصداقية ، واحتياج قياسه إلى مستوى تعليمي مرتفع .

وقد استخدمت الدراسة منهج المسح على عينة من مجتمع البحث باستخدام صحيفة الاستقصاء .

وقد تم إجراء الدراسة على عينة من طلبة الجامعة بجدة ، وتم انتقاء هذه العينة بطريقة العينة العنقودية (العينة متعددة المراحل) بحيث تمثل المجتمع المسحوبة منه تمثيلا صحيحا .

وقد بلغ حجم عينة الدراسة ٣٠٠ مفردة تختلف خصائصها الديموجرافية والاجتماعية تمثيل مختلف الفئات ، وفيما يلي عرض لخصائص عينة الدراسة :

١ – السن

من ١٨ – ٢٤	٪٩١
من ٢٥ – ٣٠	٪ ٩

٢ – الحالة الاجتماعية

غير متزوج	٨٨٪
متــــزوج	١٢٪

٣ – منطقة الإقامة

جـــدة	٩١٪
مكة المكرمة	٩٪

٤ – السفر للخارج

سافر للخـــارج	٣٧٪
لم يسافر للخارج	٦٣٪

الاتجاه نحو مصداقية الإعلان فى التراث العلمي

بالرجوع إلى المكتبة العمومية وفحص الدراسات ذات الصلة بموضوع الدراسة ، تبين أن المصداقية فى الرسالة الإعلانية قد تم تناولها كجزئية فرعية فى إطار دراسات الاتجاه نحو الإعلان بصفة عامة والتي بدأت بدراسة محمود صادق بازرعة عام ١٩٧١ بعنوان الإعلان فى الجمورية العربية المتحدة [٧] وقد ركز فيها على الدور الاقتصادي والاجتماعي للإعلان ، نظرا لحداثة دور الإعلان فى تلك الفترة وفى عام ١٩٧٩ [٨] أجريت دراسة ميدانية بعنوان برامج وإعلانات التليفزيون المصري كما يراها المشاهدون والمعلنون [٩] ومن النتائج الهامة العديدة التي كشفت عنها هذه الدراسة وظهرت بوضوح قضايا المصداقية .

حينما وجه المبحوثون انتقاداتهم للإعلان فى الجوانب التالية :

- عدم الواقعية فى الإعلان .
- الإعلان عن سلعة غير جيدة .

وبشكل أكثر وضوحا ظهرت تلك القضية فى اقتراحات المبحوثين لتطوير الإعلان ، فمن بين ٦ اقتراحات جاءت ٣ اقتراحات تتعلق بالمصداقية وذلك على النحو التالي :

- صادقة أكثر .
- صادقة أكثر وذات ذوق أكثر .
- تخضع لنظم وقواعد أخلاقية .

وعلى نفس المنوال جاءت دراسة محمد الوفائي عام ١٩٨٩ [١٠] أي بعد مرور عشر سنوات على الدراسة السابقة لتتضمن فقرتين من بين ١١ فقرة تقيس الاتجاه نحو الإعلان التليفزيوني . وكانت الفقرتان تدوران حول التضليل والخداع والأمانة ، وقد جاءا فى المرتبة الثانية من حيث كثافة تكوين الاتجاه

نحو الإعلان التليفزيوني ، الأمر الذى يبين أن المصداقية من العوامل الهامة فى تحديد فعالية دور الإعلانات فى التأثير على اتجاهات وسلوك الجمهور .

وفيما عدا هاتين الدراستين فلم نجد للمصداقية وجودا واضحا فى دراسات عربية أخرى .

أما بالنسبة للمصداقية فى الدراسات الغربية ، فمع بداية الستينيات بدأت الدراسات المتعلقة بالاتجاهات نحو الإعلان من وجهة نظر الفئات المختلفة (معلنيين ، مستهلكين ، وسائل الإعلان ، وكالات الإعلان) (١١) .

كما ظهرت مجموعة دراسات متكاملة عام ١٩٧٥ تضمنت تجميعا للدراسات المتعلقة بالاتجاه نحو الإعلان فى الفترة مابين عام ١٩٦١ – ١٩٧٢ بعنوان Attitudes Towards Advertising (١٢) .

غير أن ملاحظتنا على الدراسات فى تلك الفترة هي نفس ملاحظتنا على الدراسات العربية المحدودة ، فقد جاءت المصداقية كمتغيرا فرعيا فى مكونات هذه الدراسات .

فقد جاء وصف الجمهور للإعلانات بأنها مضللة من بين ١٠ أوصاف سلبية للإعلانات بنسبة ١٠٪ فى عام ١٩٦٦ تضاعفت فى عام ١٩٧٢ فبلغت ٢٣٪ .

وبعد ذلك بدأت الدراسات فى تناول المصداقية فى الرسالة الإعلانية من زوايا أخرى غير تقليدية فها هي دراسة كامينس Kamins (١٣) وزملاؤه التي أوضحت أن استخدام الشخصيات المستهدفة فى الإعلان وتقديم رسالة إعلانية بها وجهتي نظر . . الأولى تؤكد المزايا التي تعود على المستهلك من وراء استخدام السلعة أو الخدمة ، والثانية تفند هذه المزايا مثل :

هذه الرسائل تزداد مصداقيتها لدى الجماهير ، وبالتالي تزداد إمكانية وجود نوايا سلوكية للشراء .

وجاءت دراسة بلترامينى Beltramini (١٤) لتؤكد أن استخدام شخصيات مشهورة يزيد من النوايا الإيجابية والمحابية للسلعة ، ويزيد من مصداقية الإعلان . ومن زاوية أخرى هي زاوية تأثير مصدر الرسالة الإعلانية على مصداقية الإعلان أوضحت دراسة وودسيدآرش واليزابيث ولسون Wood Sid Arch,Elizabith Wilson (١٥) أنه كلما كان اسم الشركة وعلامتها التجارية ذات ثقل تجاري كلما ازدادت مصداقية الرسالة الإعلانية .

وفى نفس الاتجاه جاءت دراسة بورتون وليتشتنستن Burton,Litchtenstein (١٦) لتؤكد أن الحملات الإعلانية الخاصة بالتوعية تصدق بدرجة أكبر لو اخرجت من منظمة صحية محايدة لها تأثيرها على الرأي العام .

وتأتي دراسة كل من آكر وكلر Aakr و Keller (١٧) لتؤكد أن مصداقية الإعلان عن سلعة ما تزداد وتتعمق إذا كانت امتداد لسلع نجحت واختبرها المستهلك وتأكد من فوائدها .

نتـــائج الدراسة

مقدمـــة

تعتبر إعلانات التليفزيون السعودي من الفقرات التي يحرص على مشاهدتها ٩٠٪ من الشباب الجامعي السعودي باختلاف الأهمية النسبية لهذا الحرص . وقد ازداد هذا الحرص لدى الشباب الذى سبق له السفر خارج البلاد ليصل إلى ٩٤٫٥٪ مقابل ٨٧٪ لدى الذين لم يسافروا ، حيث إن السفر يوسع من مدارك الشباب ويجعلهم أكثر اهتماما بما يدور حولهم ، خاصة بالأشياء التي سبق له مشاهدتها خارج البلاد .

وقد جاء الهدف الأساسي للإعلانات من وجهة نظر الشباب السعودي فى أنه يحث الناس على شراء السلع (٥٣٪) وكان خلق الإعجاب بالمنتجات هو الهدف الأساسي فى رأي ١٤٪ ، فى حين يرى ٣٪ أن الهدف الأساسي هو إعطاء معلومات جديدة عن السلع والخدمات ، بينما يتفق ٣٠٪ من الشباب مع وجهة النظر العلمية ، حيث يرون أن الهدف الأساسي للإعلان هو تحقيق كل الأهداف السابقة .

فالإعلان يتدرج فى تأثيره على الجمهور المستهدف ليؤثر على معارفه ، ومن ثم على اتجاهاته نحو الإعلان ونحو السلع فى حد ذاتها من ثم على النوايا السلوكية والسلوك الفعلي .

ولكن ترى النسبة العظمى من الشباب السعودي (٨١٪) أن إعلانات التليفزيون السعودي تقدم معلومات سطحية وليس معلومات ذات قيمة . وهذا يتفق إلى حد بعيد مع اتجاهات الشباب السعودي نحو الإعلانات التليفزيونية ، حيث لم يوافق على العبارة القائلة أن «الإعلانات التليفزيونية تزيد من ثقافة المشاهد» سوى ٢٨٪ كما وافق فقط ٣٠٪ على العبارة القائلة «أرى أن الإعلانات قيم إعلانية شيقة» مما يعني أن إعلانات التليفزيون السعودي لم تصل بعد إلى النضج الكافي فى توفير المعلومات التي يحتاجها الجمهور المستهدف فعلا عن السلع والخدمات ، وقصور الدور الذى تلعبه فى مجال تعليم الجمهور المستهدف كيفية استعمال السلع والمهارات المختلفة اللازمة لذلك .

مصداقية الإعلان التليفزيوني

يمكن تقسيم نتائج الدراسة إلى ثلاثة أقسام رئيسة يغطي كل قسم منها تساؤل من التساؤلات السابق ذكرها ، وفيما يلي عرض نتائج كل تساؤل من هذه التساؤلات :

أولا : حجم المصداقية

يمكن القول بصفة عامة أن إعلانات التليفزيون السعودي تتميز بعدم المصداقية من وجهة نظر الشباب الجامعي السعودي . فقد جاءت آراءهم على النحو التالي :

- جميع الإعلانات تبالغ ٢٣٪ .
- معظم الإعلانات تبالغ ٤٢٪ .
- بعض الإعلانات تبالغ ٢٣٪ .
- لاتوجد بها مبالغـة ٢ ٪ .
- لايستطيع الحكـم ١٠٪ .

أي أن ٨٨٪ من الشباب السعودي يرى أن هناك مبالغة فى إعلانات التليفزيون السعودي ، ولذلك عندما سئل الشباب السعودي عن مدى صدق الرسائل الإعلانية فإن ٦٨٪ من الشباب رأوا أنها صادقة إلى حد قليل ، وأشار ١٥٪ إلى أنها بعيدة تماما عن الصدق ، فى حين يرى ١٧٪ فقط أنها إما صادقة إلى حد كبير وإما صادقة تماما .

وقد زادت نسبة الجمهور التي رأت أن الإعلانات بعيدة تماما عن الصدق فى جدة (٢٢٪) عنها فى مكة المكرمة (٤٪) .

وقد تم قياس اتجاهات الجمهور السعودي نحو مصداقية الإعلان باستخدام تكنيك التميز الدلالي Semantic Differential Scale . وقد جاءت النتائج متسقة إلى حد بعيد مع ماسبق ذكره من تميز الإعلان التليفزيوني بعدم المصداقية كما يتضح مما يلي :

١ - يرى ٨٠٪ من الشباب السعودي أن إعلانات التليفزيون مضللة . وتزداد هذه النسبة فى جدة عنها فى مكة المكرمة .

٢ - يرى ٧٦٪ من الشباب السعودي أن إعلانات التليفزيون كاذبة ، بينما لم يستطع التحديد ١٢٪ وقد ازدادت هذه النسبة فى جدة عنها فى مكة المكرمة .

٣ - يرى ٨٠٪ أن إعلانات التليفزيون تزيف الواقع ولا تقدم صورة حقيقة له .

٤ - يرى ٧٩٪ أن إعلانات التليفزيون تراعي مصلحة المنتج فى المقام الأول ، فى حين أنها من المفترض فيها أن تراعي مصلحة المستهلك وتشبع احتياجاته ورغباته .

كما تم قياس اتجاهات الشباب السعودي نحو مصداقية الإعلان التليفزيوني باستخدام تكنيك (ليكارت) ، وجاءت النتائج متوافقة ومتسقة إلى حد بعيد مع ماسبق عرضة من نتائج كما يتضح مما يلي :

١ - أن ٥٧٪ من الشباب السعودي يوافقون على العبارة القائلة : «كثير من الناس لاتصدق الإعلانات التليفزيونية وأنا واحد منهم» وارتفعت هذه النسبة لدى من لم يسافر للخارج من قبل . كما ارتفعت لدى قاطني جدة . ولم يستطع ١٢٪ تحديد اتجهاتهم .

٢ - يرى ٥٦٪ من الشباب السعودي أن معظم إعلانات التليفزيون مضللة حيث وافقوا على عبارة «معظم الإعلانات مضللة» ولم يستطع ١٤٪ تحديد اتجاهاتهم .

٣ – وقد وافق ٥٧٪ على العبارة القائلة «إعلانات السلع السعودية تقلد إعلانات السلع الأجنبية فى المبالغة» فى حين لم يستطع ٢٠٪ تحديد موقفهم .

٤ – ولكن لايمكن اعتبار المبالغة ضارة فى معظم الأحوال ، حيث أحيانا ماتكون المبالغة فى الإعلان التليفزيوني مطلوبة لجذب الجمهور المستهدف . فقد وافق ٥٩٪ على العبارة القائلة «أحيانا المبالغة فى الإعلانات تكون مطلوبة لجذب الناس» فى حين عارضها ٣٢٪ ، ولكن إذا كانت المبالغة كما سبق القول مطلوبة أحيانا لجذب الناس إلا أن معظم الجمهور المستهدف يرى إن المبالغة ليست حق مكتسب للمعلن ، لذلك عارض ٥٦٪ العبارة القائلة «من حق المعلن أن يغرى الناس بالسلعة حتى وإن بالغ» كما وافق ٥٢٪ على العبارة القائلة «الإعلانات تضر أكثر مما تنفع بسبب المبالغة» .

٥ – وإذا ربطنا قضية المصداقية بقضية أخلاقيات الإعلان نفسه ، فإن الغالبية ترى أن «مبالغات الإعلان لاتعني أنه ضد الأخلاقيات» وذلك بنسبة ٥١٪ فى حين يربط ٤٧٪ بين القضيتين خاصة وأن حوالي ٤٧٪ من الجمهور المستهدف يرى أن« أغلب الإعلانات فى التليفزيون تعتبر منافية للقيم الاجتماعية» وهو مايوضح الاتساق فى اتجاهات الجمهور المستهدف .

٦ – فى النهاية يمكن القول أن المصداقية فى إعلانات التليفزيون ستظل قضية جدلية يحتدم حولها النقاش و الخلاف ، ويظهر ذلك من اتجاهات الجمهور المستهدف نحو عبارة «بالرغم من مبالغة المعلنين أحيانا فأنا لاأتصور التليفزيون بدون إعلانات» حيث وافق على هذه العبارة ٤٣٪ فى حين عارضها ٤٧٪ .

ثانيا : العوامل المؤثرة على المصداقية

هناك مجموعة من العوامل التي تؤثر على مصداقية الإعلان التليفزيوني فى أي مجتمع من المجتمعات ، من هذه العوامل :

١ – شهادة الأشخاص المشهورين Testimonial .

٢ – مدى إحساس الجمهور بمسؤولية المعلن .

٣ – مدى وعي الجمهور بالسلع والسوق .

٤ – مدى إحساس الجمهور بوجود رقابة على الإعلانات .

وهذا الجزء يعد محاولة لقياس اتجاهات الجمهور نحو هذه العوامل لمعرفة مدى تأثيرها على المصداقية فى المجتمع السعودي .

١ – شهادة الأشخاص المشهورين

تفاوتت الآراء بشأن تأثير استخدام النجوم المشهورين فى إعلانات التليفزيون على مصداقية هذه الآراء ، ولكن يمكن ملاحظة أن هذا العامل يعد من عوامل التأثير على المصداقية سواء سلبا أو إيجابا حيث إن ٤٤٪ من الشباب السعودي يرى أن شهادة الأشخاص المشهورين يزيد من تصديق الناس للإعلانات ، بينما يرى ٦٪ فقط أنها تقلل من تصديق الناس للإعلان . فى حين أعلن ٣٠٪ أنه ليس

هناك علاقة بين استخدام النجوم المشهورين والمصداقية ، ولم يستطع الحكم ٢٠٪ من الشباب السعودي .

وقد ازدادت نسبة الأفراد الذين أشاروا إلى عدم وجود علاقة بين شهادة الأشخاص المشهورين وبين المصداقية لدى من سبق لهم السفر للخارج . وكذلك لدى الشباب من قاطني جدة .

٢ - مدى الإحساس بمسؤولية المعلن

أشار غالبية الشباب السعودي (٦٧٪) إلى أن مصداقية الإعلان التليفزيوني لاتعود إلى الإعلان فى حد ذاته ، ولكنها ترجع أساسا إلى مسؤولية المعلن الذى يقوم بالتركيز على رسالة إعلانية معينة ، سواء كانت تتوافق أو تتعارض مع خصائص السلعة أو الخدمة المعلن عنها . ويلاحظ ذلك من خلال موافقة ٦٧٪ على العبارة القائلة «المسؤول عن عدم الصدق فى الإعلان هو المعلن أساسا» ومن ثم فإن إحساس الجمهور المستهدف بأن المعلن صادق فى رسائله الإعلانية يدفعه إلى تصديق إعلاناته . وهو لايأتي إلا عن طريق الخبرة السابقة للجمهور وتجاربه المختلفة .

٣ - مدى وعي المستهلك نفسه

لم تعد قضية المصداقية أو المبالغة فى الإعلان تشغل بال الكثير من فئات الجمهور ، نظرا لأن وعيهم وخبراتهم الشخصية بما هو متاح فى السوق ومزاياه يتغلب على هذه القضية . هذه هي خلاصة رأي الشباب السعودي ، حيث إن ٦٦٪ منهم يوافقون على عبارة «المبالغة فى الإعلان لاتخدع الكثيرين لأن الناس أصبحت واعية ومدركة» كما وافق ٤٩٪ على عبارة «المستهلك يعرف مابالسوق جيدا» ، وبالتالي لايستطيع الإعلان أن يضلله» والتي لم يستطع ١٦٪ تحديد اتجاهاتهم نحوها .

٤ - الرقابة على الإعلانات

إن مجرد معرفة المستهلك بوجود رقابة على الإعلانات وضوابط تمنع غش الجمهور المستهدف ، يعتبر عاملا من عوامل زيادة مصداقية الإعلان التليفزيوني . فقد وافق ٧٧٪ على العبارة القائلة «مطلوب ضوابط أكثر حسما لتجنب خداع المعلنين لعدم الصدق فى الإعلان» .

ومن الجدير بالذكر أن بعض المجتمعات لاتقبل الوسائل الإعلانية فيها الإعلان إلا بعد الحصول على شهادة تفيد وجود الدعاوي الإعلانية بالفعل فى المنتج المعلن عنه .

ثالثا : العلاقة بين مصداقية الإعلان ونوع السلعة

تختلف مصداقية الإعلان التليفزيوني لدى الشباب الجامعي باختلاف نوع السلعة أو الخدمة المعلن ، أو بمعنى آخر باختلاف فئة السلع Product Category . فهناك بعض المنتجات التي ترتفع فيها درجة المصداقية لما يراه المشاهد على الشاشة ، فى حين تنخفض درجة المصداقية فى حالة الإعلان عن منتجات بعينها .

وقد جاءت أكثر الإعلانات التي تنخفض درجة مصداقيتها لدى الشباب الجامعي السعودي على النحو التالي :

– المأكولات والمواد الغذائية	٢٧٪
– حفاظات الأطفال	١٩٪
– المنظفات الصناعية	١٦٪
– مستحضرات التجميل	١٤٪
– السيـــارت	١١٪
– المشـــروبات	٨٪
– زيوت السيارات	٣٪
– الملابـــس	٢٪

خلاصــة ومناقشة

فى ضوء إدراكنا لحدود طبيعة الدراسات الاستطلاعية ، وأنها تثير من التساؤلات أكثر مما تقدم إجابات محددة ، الأمر الذى يفتح الباب للباحثين للدخول بأبحاثهم إلى جوانب مختلفة وبأساليب بحثية متعددة ، ولأن نتائج هذه الدراسة رهن بالعينة التي شملتها ويصعب معه التعميم ، فإن هذه الدراسة غير المسبوقة فى موضوعها فى المكتبة العربية عامة والمكتبة السعودية خاصة مستندة إلى نتائجها تثير النقاش حول الأبعاد التالية :

١ – إن الإعلانات كما أوضحت الدراسة أحد المواد التليفزيونية التي تزداد درجة التعرض لها ، فهل لهذا الأمر علاقة بالخصائص الديموجرافية للشباب الجامعي الذى شملته هذه الدراسة ؟ وذلك نظرا لطبيعة تلك المرحلة السنية التي تتسم بالحرص على الاطلاع على كل ماهو جديد ؟ ولأن الإعلان أكثر المواد التليفزيونية تجديدا وتغيرا فى شكله ومضمونه باعتباره مرآه تعكس حركة السوق التي هي بطبيعتها متغيرة و متجددة .

٢ – أوضحت الدراسة فى نتائجها الكلية أن اتجاهات الشباب نحو درجة مصداقية الإعلان تتسم بالسلبية إلى حد كبير ، وهنا يثور تساؤل حول مدى امتداد تأثير هذه الاتجاهات على السلوك الشرائي لمثل هذه الفئة خاصة وأن هناك دراسات [١٨] توصلت إلى وجود علاقة ارتباطية بين الاتجاه نحو الإعلانات وبين الاتجاه نحو السلعة المعلن عنها ، وبالتالي السلوك الشرائي لها ، فإذا نظرنا لهذا النتيجة مع ارتفاع مشاهدة الشباب للإعلانات التلفزيونية ، فهل يمكن تفسير ذلك بأن الشباب كمستهلك يفصل بين تأثير الإعلان وبين تجاربه الشخصية ، وأن هذا الشباب ينظر للإعلان كوسيلةترفيهية أو أداة مسلية هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى مامدى امتداد الاتجاهات السلبية نحو الإعلانات لدى الشباب نحو الوسيلة التي تبث هذه الإعلانات ذات المصداقية المنخفضة .

٣ – تثير هذه الدراسة نقطة لها مغزاها ، فوصف الشباب للإعلان بالمبالغة يحتاج إلى مزيد من الدراسات باعتبار أن الإعلان عمل فني متكامل يتضمن العديد من العناصر ، ووصفة بالمبالغة يتسم

بالعمومية لأنه هل تنصرف المبالغة إلى الرسالة ذاتها ؟ أم للأداء المرئي ؟ أم طريقة توصيل الهدف الإعلاني ؟ أم لكل هذه العناصر مجتمعة . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ماهي حدود التداخل بين المبالغة كقيمة أخلاقية وبين الإبهار كوسيلة يستعين بها المعلن لجذب المتلقي والتأثير فى اتجاهاته وتحريك دوافعه .

٤ – تدعو هذه الدراسة بطريقة غير مباشرة إلى إعادة النظر فى مفهوم الرقابة ، وعوامل ضبط الإعلانات التي قد تركز فقط على المعاني المباشرة التي ترتبط بقيم وعادات المجتمع السعودي ، بعبارة أخرى إن المصداقية لها جوانبها الأخلاقية التي تحتاج إلى معالجة رقابية غير تقليدية . فالمصداقية أو عدم المصداقية قد لاتلمس الإعلان بشكل واضح ومباشر . كما أن المعلن لديه حججه التي يدافع بها عن ذلك الأمر ، ومنها مثلا أن من حقه فى ظل المنافسة أن يرى سلعته بكل هذه المزايا وتحقق كل هذه الفوائد ، وأنه لايقول فى إعلانه نسب مئوية لمكونات وخصائص سلعته ، وإنما كلها أوصاف عامة مصاغة ببلاغة ومصحوبة بمؤشرات تعمق تأثيرها . وهذه قضية جدلية على مستوى العالم كله .

٥ – إن الاتجاهات السلبية نحو مصداقية الإعلان قد لاتحرك ساكنا ولاتمثل خطورة فى السلع والخدمات التي لاعلاقة لها بصحة المتلقي ، ولكن يصبح الأمر ملحا حينما نجد فى هذه الدراسات أن إعلانات السلع الغذائية تأتي فى صدارة السلع التي تزداد فيها المبالغة وعدم المصداقية .

بعبارة موجزة ، إن هذه الدراسة تثير العديد من الأبحاث حول كافة أطراف العملية الإعلانية . . . فالمعلن الذى ينفق الآلاف والملايين على إعلاناته ، ولايدري درجة تصديق الجمهور المستهدف لها يحتاج إلى دراسات توضح له آثار ذلك عليه . . . والتليفزيون باعتبارة الوسيلة الإعلانية المتزايدة فى نمو إعلاناتها يقتضي الأمر منه إجراء العديد من الدراسات التي تكشف له الآثار الإيجابية والسلبية للممارسة الإعلانية عبر شاشته ، والمتلقي باختلاف خصائصه الديموجرافية وشرائحه الاجتماعية يحتاج إلى العديد من الدراسات لمعرفة طبيعة اتجاهاته وحدود تأثير الإعلان عليه فى ضوء تلك الخصائص .

ترتيبا على ماسبق ، فإننا نتصور أن هذه الدراسة تكون قد حققت هدفا علميا أصيلا ، وهو فتح باب الجدل العلمي وتحفيز الطاقات البحثية نحو مجال جديد دخل حديثا مجتمعنا السعودي الذى تميزة خصائصه وسماته عن غيره من المجتمعات .

التعليقـــــات

(١) **J.F. Gaski** and **M.J. Etzel** (1986) The Index of Consumer Sentiment Toward Marketing, *Journal of Marketing*, **50,** 71-81.

(٢) **P.G. Christenson** (1982) Childrens' Perceptions of TV Commercials and Products. The Effects of PSAs, *Communication Research*, **9**(4): 491-524.

(٣) **T.J. Madden, C.T. Allen** and **J.L. Twible** (1988) Attitude Toward the Ad: An Assessment of Diverse Measurement Indices Under Different Processing Sets, *Journal of Marketing Research*, **25,** 242-52.

(٤) **S.B. Mackenzie, R.J. Lutz** and **G. Belch** (1986) The Role of Attitude Toward the Ad as a Mediator of Advertising Effectiveness: A Test of Competing Explanation, *Journal of Marketing Research*, **23**, (May) 130-143.

(٥) **A.A. Mitchell** (1986) The Effect of Verbal and Visual Components of Advertisements on Brand Attitudes and Attitude Toward the Advertisement, *Journal of Consumer Research*, **13:** 12-24.

(٦) **L.G. Gresham** and **T.A. Shimp** (1985) Attitude Toward the Advertisement and Brand Attitudes: A Classical Conditioning Perspective, *Journal of Advertising*, **14**(1), 10-17.

(٧) **محمود صادق بازرعة** ، الإعلان فى الجمهورية العربية المتحدة : دراسة ميدانية (القاهرة : دارة النهضة العربية ، ١٩٧١)

(٨) **المجموعة الاستشارية للشرق الأوسط (ميج)** ، برامج وإعلانات التليفزيون المصرى كما يراها المشاهدون والمعلنون : دراسة ميدانية (القاهرة ، ميج ، مارس ١٩٨٢) .

(٩) **محمد الوفائى** ، تحديد مكونات الاتجاه نحو إعلانات التليفزيون فى مصر باستخدام التحليل العامل ، بحوث الاتصال (القاهرة : كلية الإعلام ، جامعة القاهرة ، نوفمبر ١٩٨٩) ، ص ص ٥٥ — ٧٣ .

(١٠) **سمير محمد حسين** ، الإعلان ، ط ٣ (القاهرة : عالم الكتب ، ١٩٨٤) .

(١١) **Institute of Practitioners in Advertising** (1975) *Attitudes Studies from October 1963 to July 1972*. London: IPA.

(١٢) **F. Jefkins** and **M. Cam** (1973) *Advertising: Made Simple*. London: Butler & Tanner Ltd., p. 3.

(١٣) **M.A. Kamins** and **L.J. Marks** (1987) Ad. Puffery: The Impact of Using Two-Sided Claims on Product Attitude and Purchase Intention, *Journal of Ad.* **16** (4): 6-15.

(١٤) **R.F. Beltramini** (1988) Perceived Bellievability of Warning Lable Information Presented in Cigarette Advertising, *Journal of Advertising*, **17**(1): 3-11.

(١٥) **G. Wood Sid Arch** and **Elizabith Wilson** (1985) Effects of Consumer Awareness of Brand Ad. on Preference, *Journal of Ad. Research*, **25**(4): 41-48.

(١٦) **S. Burton** and **D.R. Litchtenstien** (1988) The Effect of Ad. Claims and Ad. Context on Attitude Toward the Advertisement, *Journal of Advertising*, **17**(1): 3-11.

(١٧) **D.A. Aakr** and **K.L. Keller** (1990) Consumer Evaluations of Brand Extensions, *Journal of Marketing*, **54:** 27-41.

(١٨) هناك العديد من الدراسات من أمثلتها :

M.P. Gardner (1985) Does Attitude Toward the Ad. Affect Brand Attitude under a Brand Evaluation Set?, *Journal of Marketing Research*, **22:** 192-198.

J.F. Gaski and **M.J. Etzel,** *Op. cit.*, 76.

J.A. Edell and **M.C. Burke** (1987) The Power of Feelings in Understanding Advertising Effects, *Journal of Consumer Research*, **14:** 421-33.

المراجــع

أولا : المراجع العربية

بازرعة ، محمود صادق ، الإعلان فى الجمهورية العربية المتحدة : دراسة ميدانية ، القاهرة : دار النهضة العربيـــة ، ١٩٧١ .

حسين ، سمير محمد ، الإعلان ، القاهرة : عالم الكتب ، ١٩٨٤ .

المجموعة الاستشارية للشرق الأوسط ، (ميج) ، برامج وإعلانات التليفزيون المصرى كما يراها المشاهدون والمعلنون : دراسة ميدانية ، القاهرة ، مارس ، ١٩٩٢ .

الوفائى ، محمد ، تحديد مكونات الاتجاه نحو إعلانات التليفزيون فى مصر باستخدام التحليل العامل ، بحوث الاتصال ، القاهرة ، كلية الإعلام ، جامعة القاهرة ، نوفمبر ١٩٨٩ ، ص ص ٥٥ – ٧٣ .

ثانياً : المراجع الأجنبية

Aakr, D.A. and **Keller, K.L.** (1990) Consumer Evaluations of Brand Extensions, *Journal of Marketing*, **54:** 27-41.

Beltramini, R.F. (1988) Perceived Bellievability of Warning Lable Information Presented in Cigarette Advertising, *Journal of Advertising*, **17**(1): 3-11.

Burton, S. and **Litchtenstien, D.R.** (1988) The Effect of Ad. Claims and Ad. Context on Attitude Toward the Advertisement, *Journal of Advertising*, **17**(1): 3-11.

Christenson, P.G. (1982) Childrens' Perceptions of TV Commercials and Products. The Effects of PSAs, *Communication Research*, **9**(4): 491-524.

Edell, J.A. and **Burke, M.C.** (1987) The Power of Feelings in Understanding Advertising Effects, *Journal of Consumer Research*, **14:** 421-33.

Gardner, M.P. (1985) Does Attitude Toward the Ad. Affect Brand Attitude under a Brand Evaluation Set?, *Journal of Marketing Research*, **22:** 192-198.

Gaski, J.F. and **Etzel, M.J.** (1986) The Index of Consumer Sentiment Toward Marketing, *Journal of Marketing*, **50,** 71-81.

Gresham, L.G. and **Shimp, T.A.** (1985) Attitude Toward the Advertisement and Brand Attitudes: A Classical Conditioning Perspective, *Journal of Advertising*, **14**(1): 10-17.

Institute of Practitioners in Advertising (1975) *Attitudes Studies from October 1963 to July1972*, London, IPA.

Jefkins, F. and **Cam, M.,** (1973) *Advertising: Made Simple*. London: Butler & Tanner Ltd., p. 3.

Kamins, M.A. and **Marks, Lawrense J.** (1987) Ad. Puffery: The Impact of Using Two-Sided Claims on Product Attitude and Purchase Intention, *Journal of Ad.* **16**(4): 6-15.

Mackenzie, S.B., Lutz, R.J. and **Belch, G.** (1986) The Role of Attitude Toward the Ad. as a Mediator of Advertising Effectiveness: A Test of Competing Explanation, *Journal of Marketing Research*, **23:** 130-143.

Madden, T.J., Allen, C.T. and **Twible, J.L.** (1988) Attitude Toward the Ad: An Assessment of Diverse Measurement, *Journal of Marketing Research*, **25:** 242-52.

Mitchell, A.A. (1986) The Effect of Verbal and Visual Components of Advertisements on Brand Attitude Toward the Advertisement, *Journal of Consumer Research*, **13:** 12-24.

Wood Sid Arch, G. and **Wilson, Elizabith** (1985) Effects of Consumer Awareness of Brand Ad. on Preference, *Journal of Ad. Research*, **25**(4): 41-48.

Credibility of Television Commercial Advertisements: A Field Study of Sample from Students of King Abdulaziz University

A.A. Baghdadi

Assistant Professor, Department of Mass Communication, Faculty of Arts & Humanities, King Abdulaziz University, Jeddah, Saudi Arabia.

Abstract. This study aims at discovering the nature of attitudes which Saudies have towards the credibility of television commercials. It reveals its exaggeration, its falsification of reality and how this conflicts with the common moral values and ethics in the Saudi society. 300 students from KAAU aging between 18 and 30 comprised the sample of the study. Data were collected by means of questionnaire. The study revealed several important findings, some of which are :

– 90% of the sample indicates an increase in exposure of University Youths to T.V. commercials.

– 53% of the sample thinks that the end aim of T.V. commercials is to entice people to buy the product it advertises.

– 81% of the sample has negative attitude towards T.V. adds for they think that these adds offer only superficial information.

– 88% of the sample agrees that Saudi T.V. commercial are distinctly untruthful, 80% thinks that they are misleading and 76% describes them as false.

– The negative attitude increases to an extent that 80% of the sample believes that T.V. commercials distort reality.

The study finally recommends that current regulations of S.A. T.V. commercials be reviewed so as to make these regulations more considerate to the Saudi tradition and code of morals.

مجلة جامعة الملك عبدالعزيز : الآداب والعلوم الإنسانية ، م ٥ ، ص ص ٤١ - ٧٤ (١٤١٢هـ/١٩٩٢م) .

دور التجار المسلمين فى رواج التجارة بين بلاد المغرب والسودان الغربي فيما بين القرنين الثالث والخامس الهجريين (٩/١١م)

سعود بن حمد الخثـلان

أستاذ مساعد ، قسم التاريخ - كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة الملك عبدالعزيز
جـــدة ، المملكة العربية السعودية

المستخلص : يهدف هذا البحث الذى بين أيدينا إلى تسليط الضوء على الدور الفعال الذى لعبه التجار المسلمون فى الحركة التجارية بين بلاد المغرب والسودان الغربي فى الفترة المذكورة ، فيبرز بذلك الوجه المشرق لما قام به المسلمون من أعمال وجهود عادت بالنفع العميم على المنطقتين .

وهذا الجانب من العلاقات بين المنطقتين لم يحظ بدراسة مستقلة على الأقل فى هذه الفترة وما وجد إلا إشارات فى مواضيع أخرى ذات علاقة بالمنطقتين .

كان الاتصال بين شمال افريقيا وجنوب الصحراء قديم جدا ، فالصحراء الكبرى لم تحل قط دون ذلك . وقد جرت التجارة عبر هذه الصحراء بالرغم من قساوتها ومن الشعوب التي شاركت فيها الفينيقيون والرومان من بعدهم .

ولكن كيف كان وضع التجارة بين شمال الصحراء وجنوبها خلال تلك العهود ؟ ثم ماذا كان وضعها بعد تولي المسلمين زمام الأمور فيها ؟

إن إبراز هذه الدراسة لدور التجار المسلمين فى التبادل التجاري بين بلاد المغرب والسودان الغربي وما ترتب عليه من نتائج ، دلل بوضوح على أن التجارة عبر الصحراء لم تبلغ فى أي عصر من الاتساع والرواج ما بلغته بعد مجيء المسلمين إلى المنطقة . فقد ازداد حجم السلع المتبادلة زيادة عظيمة خاصة فى سلعتي الذهب والملح . وأدخلت ترتيبات وتنظيمات فى أمور التجارة لم تكن معروفة فى المنطقة . كما تطورت وازدهرت المراكز التجارية ذات العلاقة بتجارة الصحراء الكبرى فى بلاد المغرب وفى السودان الغربي .

وبهذا يتضح أن دور التجار المسلمين لم يقتصر على مجرد نقل السلع بين المنطقتين ، بل تعداه إلى مساهمتهم مساهمة فعالة فى إدارة شؤون التجارة داخل السودان الغربي وإثراء مدنه التجارية . وإن من الأمثلة القوية التي تدل على عمق أثر المسلمين ف هذه الناحية وصولهم إلى منصب صاحب بيت المال لدى حكومة مملكة غانه قبل تحولها إلى الإسلام على أيدي المرابطين .

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن هذه الدراسة اعتمدت فى المقام الأول على كتابات أوائل الكتاب المسلمين الذين زودونا بمعلومات لاتقدر بثمن عن التجارة عبر الصحراء وعن جوانب من أوضاع التجار المسلمين وأحوالهم فى السودان الغربي . فقد كان بعضهم يكتب عن مشاهدة شخصية كابن حوقل الذى زار مدينة سجلماسه والبعض الآخر ، كالبكري ، اعتمد فى معلوماته على من التقى بهم من التجار وغيرهم ممن يمثلون مصادر مطلعة نتيجة اشتراكهم المباشر فى التجارة أو فى مجالات ذات ارتباط وثيق بها .

تمهيد

كانت الصحراء الكبرى هي الطريق الرئيس للتجارة بين الشمال الافريقي والمنطقة المسماه بجنوب الصحراء . لهذا نجد الكتاب يطلقون على هذه التجارة اصطلاح أو مسمى (التجارة عبر الصحراء) (The Trans-Saharan Trade) .

وتمر هذه التجارة بثلاث مناطق مناخية واضحة المعالم وتتدرج من الاعتدال فى حوض البحر الأبيض المتوسط إلى المناخ الحار الجاف فى الصحراء الكبرى إلى المناخ شبه المداري والمداري فى غرب أفريقيا (١) .

وقد قسم الكتاب المسلمون بلاد المغرب إلى ثلاثة أقسام هي : المغرب الأدنى ، والمغرب الأوسط ، والمغرب الأقصى (٢) .

أما السودان الغربي فإنه يشمل حوض نهر السنغال وغامبيا وبوركينا فاسو (فولتا العليا) إلى الحوض الأوسط لنهر النيجر (٣) .

وإلى جانب الاختلاف فى المناخ بين هذه المناطق ، هناك اختلاف حياة وثقافات شعوبها ، ولاشك فى أن لهذا دوره الواضح فى قيام التجارة بين الشمال الافريقي والسودان حيث اختلف الإنتاج وكميته والاحتياج ومداه لكل منطقة ، فكانت التجارة بينهما متبادلة ولم تكن قط فى اتجاه واحد (٤) .

والملاحظ أنه بالرغم من وجود الصحراء الكبرى والتي مثلت أعظم حاجز طبيعي ممكن أن يقف فى وجه حركة الإنسان ، إلا أن هذه الصحراء لم تكن فى أي فترة من الفترات عائقا يمنع الاتصال بين شمال افريقيا والسودان . فقد وجد الاتصال التجاري منذ القدم (٥) .

ولقد كشفت التنقيبات الحديثة عن وجود سلسلتين من النقوش الصخرية لعربات تجر بواسطة الخيول ، وتبدأ هذه النقوش من مكانين شمال الصحراء أحدهما من جنوب المغرب الأقصى ، والآخر من

فزان ثم تتجهان فى مسارين نحو ثنية نهر النيجر . مما يشير إلى أن هذين المسارين يمثلان طريقين كانا يربطان شمال افريقيا بالسودان (٦) .

والجدير بالملاحظة أن هذين المسارين نفسيهما استخدما من قبل القوافل التجارية فى العصر التاريخي المعروف لعبور الصحراء ونقل التجارة بين المنطقتين المعروفتين (٧) .

ولعلنا نجد فيما قام به الفينيقيون عندما سيطروا على السواحل الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط (٨٤١ – ١٤٦ ق . م) مثالا واضحا على قدم الاتصال بين المنطقتين ، إذ استطاعوا أن يتصلوا مباشرة بغرب افريقيا وأن يجروا معها مبادلات تجارية ، كما اتصلوا بالجارامانتيز Garamantes (٨) أحد شعوب الصحراء الكبرى ، حيث استفاد الفينيقيون من عمل هؤلاء كوسطاء لنقل السلع التجارية (٩) . فقد كانت قوافلهم تحمل إلى المدن الساحلية على البحر الأبيض المتوسط مسحوق الذهب والرقيق وتجلب معها إلى الجنوب النحاس وبعض المصنوعات والأقمشة . إلا أنه مهما يكن من أمر ، فإن ذلك التبادل التجاري لم يكن بالأهمية التي وصل إليها فى الأزمنة اللاحقة (١٠) .

ولما خلف الرومان الفينيقين فى شمال افريقيا واصلوا الاتصال بالجارامانتيز الذين استمروا فى العمل كوسيط فى التجارة بين الشمال والجنوب كما كان حالهم عليه أيام الفينيقيين (١١) .

وقد استفاد الرومان من الجمل عندما أدخل إلى المنطقة (١٢) وذلك لما لهذا الحيوان من مزايا عظيمة للنقل عبر الصحراء ، فكان له أثر فى انعاش حركة التبادل التجاري بشكل ملحوظ فى تلك الفترة (١٣) . وكان النقل قبل ذلك يتم بواسطة الحمير والثيران والخيل (١٤) .

ومما يشير إلى وجود صلات تجارية بين الرومان والصحراء الكبرى وجنوبها ماعثر عليه فى فزان وغيرها من مخلفات أثرية تتمثل فى بعض المنتجات الزجاجية والفخارية والخرز والأقمشة الصوفية الملونة ، هذا بالإضافة إلى النقود الرومانية المعدنية التي اكتشفت فى تغازا Taghaza (١٥) ضمن طبقات ملحية عميقة والنقود الفضية التي عثر عليها فى بعض جهات النيجر (١٦) .

لم يستمر وضع التجارة على ذلك الحال فقد تأثر بغزو الوندال لشمال افريقيا فى القرن السادس ميلادي ، فقل حجم التبادل التجاري واستمر فى التراجع حتى مجيء المسلمين إلى المنطقة ، حيث عاد الازدهار إلى التجارة عبر الصحراء (١٧) . والحقيقة أن فتح المسلمين لشمال افريقيا واستقرارهم فيها وتغلغل الإسلام فى الصحراء الكبرى وفى بلاد السودان أعطى هذه التجارة دفعة قوية جعلتها تبلغ فى حجمها وازدهارها درجة لم تبلغها من قبل كما سنرى فى هذا البحث . ولعل هذا هو السبب الذى حدا بالبعض لأن يتساءل ويقول : هل المسلمون هم الذين بدأوا التجارة عبر الصحراء ؟ ! (١٨) .

الاتصال بالسودان

لم يتأخر اتصال المسلمين بالسودان الغربي كثيرا بعد استقرارهم فى شمال افريقيا . فيذكر ابن عبدالحكم أن عبيدالله بن الحبحاب والي افريقيا أرسل حبيب بن أبي عبيدة الفهري فى حملة فغزا السوس وبلغ أرض السودان وحصل على كميات من الذهب وكان ذلك حوالي سنة ١١٨هـ (١٩) .

ونجد مايشبه التكملة لهذه الرواية فيما أورده أبو عبيد الله البكري الذى أشار إلى وجود أناس فى بلاد غانه هم من بقايا جيش كان بنو أمية قد سيروه إلى تلك البلاد (٢٠) ، وبصرف النظر عن مدى دقة الرواية فيما يتعلق بالوقت الذى أرسل فيه الجيش والمناطق التي وصل إليها بالتحديد وبالتالي علاقة هؤلاء الناس بالجيش ، إلا أنه من الممكن أن نرى فيما أورده الكاتبان إشارة قوية إلى أن المسلمين استطاعوا فى ذلك الوقت الوصول إلى السودان الغربي .

وأثناء حكم عبد الرحمن بن حبيب الفهري (٢١) لافريقية (١٢٧ - ١٣٧هـ) أمر بحفر سلسلة آبار وإصلاح الموجود منها بين واحات افريقية ومدينة أودغشت فى الجانب الغربي من الصحراء الكبرى والتي كانت من أهم المراكز التجارية القريبة من امبراطورية غانه الوثنية (٢٢) . ويبدو أن المسلمين هم أول من قام بهذا النوع من العمل خدمة للتجارة عبر الصحراء منذ أن تدهورت هذه التجارة إثر غزو الوندال للشمال الافريقي .

ولقد كانت القيروان ، فى المغرب الأدنى ، منذ القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) تمثل واحدا من المراكز الهامة للقاء القوافل التجارية من المشرق والمغرب مع القوافل التي كانت تعبر الصحراء (٢٣) مما يدل على وجود نشاط تجاري بين هذه المنطقة ومنطقة السودان الغربي منذ ذلك الوقت .

وفى المغرب الأقصى تأسست مدينة سجلماسه سنة ١٤٠هـ (٧٥٧م) كعاصمة لدولة بني المدرار الخوارج (٢٤) وبرزت كمركز تجاري بالغ الأهمية للتجارة بين بلاد المغرب والسودان الغربي .

ولما أسس بنو رستم الخوارج عاصمتهم تاهرت فى المغرب الأوسط سنة ١٤٤هـ (٧٦١م) (٢٥) وأنشأوا دولتهم كان للتجارة دور بارز فى اقتصادياتها . فقد بادروا بإقامة علاقات تجارية مع ممالك السودان الغربي وعلى الأخص مملكة جاو (كوكو) (٢٦) . ومارسوا دور الوسيط فى التجارة بين الشمال والجنوب واشتركوا فى ذلك مع دولة بني المدرار فى سجلماسه ولم تحل الاختلافات بين هاتين الدولتين والاختلافات المذهبية والسياسية بينهما من جهة والدول الأخرى فى المغرب من جهة أخرى دون استمرار الصلات التجارية بينهم (٢٧) .

وسنشير فى حديثنا عن المراكز التجارية ، فيما بعد ، إلى تطور هاتين المدينتين نتيجة رواج التجارة مع السودان الغربي .

ومع مضي الوقت ازدادت معرفة المسلمين ببلاد السودان واهتم فى نفس الوقت بعض الجغرافيين والكتاب المسلمين بوصفها والكتابة عنها . فعلى سبيل المثال ، الفزاري (٢٨) فى النصف الثاني من القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) ذكر غانه ووصفها بأنها بلاد الذهب (٢٩) . والخوارزمي ، أوائل القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) أورد معلومات جغرافية عن غانه وكوكو والزغاوة (٣٠) . أما اليعقوبي ، فى القرن الثالث الهجري أيضا ، فإنه يعتبر صاحب أقدم نص يتضمن وصفا لمدينة أودغشت المجاورة لمملكة غانه (٣١) كما أنه تحدث عن غانه نفسها وأشار إلى كثرة الذهب فى أرضها ، وأورد مزيدا من المعلومات عن الزغاوة وكوكو (٣٢) .

وكان ذلك ، على مايدو ، مما شجع التجار للاتجاه إلى السودان الغربي حيث تكاثرت أعدادهم من فارس والعراق وغيرهما من أقاليم الدولة الإسلامية خلال النصف الثاني من القرن الثاني الهجري ، وخلال القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) أصبح معظم القائمين على التجارة بين بلاد المغرب والسودان الغربي من التجار المسلمين (٣٣) .

ومن هذا العرض السريع لبداية اتصال المسلمين بالسودان الغربي وتطور معرفتهم به ، يمكننا أن نعتبر القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) نقطة تحول بالنسبة للتجارة بين بلاد المغرب والسودان فى تلك الفترة التي تلت غزو الوندال للشمال الافريقي ، حيث مثل المسلمون دماء جديدة ودفعة قوية لهذه التجارة جعلتها تبدأ من جديد وتنتعش فى تلك الفترة . ثم يزداد اتساعها ورواجها على مدى القرون الثلاثة التالية بشكل لم يسبق له مثيل (٣٤) .

الاستقرار فى ممالك السودان

فى مملكة غانه

لما بدأ التجار المسلمون يدخلون بلاد السودان بعد استقرارهم فى شمال افريقيا والمناطق المجاورة لها ، وجدوا غانه أقوى وأهم الممالك فى المنطقة . وقد عبر ابن خلدون عن ذلك بقوله : «ولما فتحت افريقية والمغرب دخل التجار بلاد (السودان) فلم يجدوا فيهم أعظم من ملوك غانه . . وكانوا أعظم أمة ولهم أضخم ملك وحاضرة ملكهم غانه . . .» (٣٥) .

ثم أن التجار المسلمين استقروا فى حي خاص بهم قرب عاصمة هذه المملكة . ولقد نما هذا الحي حتى أصبح مع مرور الوقت مدينة خاصة بالمسلمين فى نفس الوقت الذي كان يمثل الشطر الأهم من عاصمة المملكة إلى جانب الشطر الآخر ، وهو مقر الملك ورعاياه من الوثنيين ، وذلك حسب ما أورده البكري من معلومات عندما كتب عن غانه ، وهي المعلومات التي اعتمد عليها كثير ممن تحدث عن هذه المملكة فيما بعد . فقد وصف البكري عاصمة غانه وبدأ بالقسم الخاص بالمسلمين فقال : «ومدينة غانه مدينتان سهليتان إحداهما المدينة التي يسكنها المسلمون وهي مدينة كبيرة فيها إثنا عشر مسجدا أحدهما يجمعون فيه (يؤدون صلاة الجمعة) . . وحواليها آبار عذبة منها يشربون وعليها يعتملون الخضروات» (٣٦) .

إن ذلك يؤكد أن التجار المسلمين وجدوا الظروف مواتية فى هذه المملكة للاتجار معها والتخطيط على المدى البعيد فى العمل فى التجارة بينها وبين المغرب . ولاشك أن أهم تلك الظروف المواتية التي شجعت التجار على الاستقرار كان موقف السودانيين الإيجابي من المسلمين . ولا نعتقد أن ذلك جاء فقط نتيجة لما فى أيدي هؤلاء التجار من تجارة ، فالمسلمون لم يأتوا إلى السودان بالسلع والمال فقط ، بل حملوا معهم الإسلام كدين جديد على المنطقة تميز بمبادئه السامية وأنظمته المالية والاجتماعية المتقدمة . فمن الأنظمة المالية تحريم الربا والغش والاحتكار وتوضيح أنواع البيوع والديون ، أما الأنظمة

الاجتماعية فيأتي على رأسها مبدأ المساواة بين الناس ومحاربة الطبقية والتشديد على الأمانة فى التعامل (٣٧) .

وكان من أهم ما قدمه التجار المسلمون لتجارة غانه تشكيلهم مايمكن أن نصفه بحلقة وصل فعالة ليس بين غانه وبلاد المغرب فحسب ، بل بينها وبين المراكز التجارية الأخرى فى السودان الغربي ، وذلك لتيسر الاتصالات التجارية نتيجة لوجود المسلمين فى تلك المراكز . فكان فى هذا العمل دعم حقيقي لعملية التبادل التجاري بين بلاد المغرب والسودان من ناحية وإثراء للمراكز التجارية فى غانه والسودان الغربي عموما من ناحية أخرى .

فكان لهذا أثره على السوادنيين وبالتالي على موقفهم من المسلمين والذى تمثل فى القبول وحسن المعاملة (٣٨) . بل وتطور الحال إلى أن بلغ المسلمون فى مملكة غانه الوثنية مكانة عظيمة ، ولا أدل على ذلك من وصولهم إلى مناصب رفيعة المستوى فى حكومتها . فلقد وصفت المصادر ملك غانه بأنه كان محبا للعدل محمود السيرة ومؤثرا للمسلمين وإن تراجمته وصاحب بيت ماله من المسلمين وكذلك كثير من وزرائه (٣٩) .

ومن مظاهر إعزاز أهل غانه للمسلمين وتقديرهم لهم وجود مسجد فى القسم الوثني من العاصمة على مقربة من المكان الذى يجلس فيه ملك غانه للحكم . يقول البكري فى ذلك : «وفى مدينة الملك مسجد يصلي فيه من يفد إليه من المسلمين على مقربة من مجلس حكم الملك» (٤٠) ، ومن مظاهر الإعزاز أيضا أن الملك قَبِل أن تكون تحيتهم له بالتصفيق باليدين فقط أما بقية رعيته ممن هم على دينه فإنهم يحيونه بالجثو على الركب ونثر التراب على رؤوسهم (٤١) .

ولم يقتصر سكان المدينة الإسلامية فى غانه على الوافدين من خارج السودان ، إذ بمرور الوقت دخلت أعداد من أهل غانه ، وأغلبهم من الصوننك Soninke (٤٢) فى الإسلام وتحمسوا له فى الوقت الذى مازالت فيه حكومة غانه وغالبية السكان على الوثنية (٤٣) .

كما أن مدينة المسلمين لم تكن هي المكان الوحيد الذى وجد فيه المسلمون فى مملكة غانه ، إذ كانت هناك مدينتان اشتهرتا بوجود المسلمين فيهما . أما أولاهما فهي مدينة غيارو Ghiyaru ، والتي تبعد عن العاصمة مسيرة ثمانية عشر يوما وكانت من مراكز تجارة الذهب ، ويبدو أنها كانت آخر أقاليم غانه ناحية الجنوب . وبالرغم من كثرة المسلمين فيها إلا أنها لم تكن خاصة بهم (٤٤) .

أما المدينة الثانية فهي يرسني Yaresna ، وتقع غرب غيارو ، وكانت خاصة بالمسلمين ، فقد ذكر البكري أن سكانها كانوا من المسلمين أما ماحولها فهم مشركون . وهي الأخرى اعتمدت على تجارة الذهب حيث عمل تجارها بتصدير التبر منها إلى المناطق الأخرى فى غانه (٤٥) .

وذكر البكري أيضا بلدة كوغه Kugha كمركز تجاري خاص بالمسلمين ، وتقع فيما بين غانه ومملكة كوكو . وذكرها كذلك ابن حوقل الذى قال إن بينها وبين مدينة غانه مسيرة شهر (٤٦) .

فى مملكة جاو «كوكو»

اختلفت الروايات حول تحديد نشوء هذه المملكة (٤٧) . أما اسمها كوكو Kawkaw ، فقد أشار بعض الكتاب المحدثين إلى الاختلاف فى اشتقاقه (٤٨) ، إلا أن الذى يهمنا هنا هو أن المصادر الأولية أوردت هذا الاسم لتعني تلك المملكة التي قامت فى المدينة التي عرفت بجاو Gao وتقع فى الجهة الشرقية من ثنية نهر النيجر (٤٩) .

وقد اقتصرت المملكة فى الفترة الأولى على هذه المدينة ، فالروايات تشير إلى أنه من المحتمل أن جاو تأسست كمحطة فى نهاية أحد الطرق التجارية القادمة من الصحراء فى القرن الثاني الهجري (٨م) . ثم استولى عليها شعب الصنغاي Songhay (٥٠) فى نفس القرن أو الذى يليه (٥١) ، وكون مملكة صغيرة قويت بمرور الوقت حتى أنها استطاعت أن تتحرر من هيمنة امبراطورية مالي عندما أقدمت هذه الأخيرة على مد نفوذها عليها طمعا فى ثرائها (٥٢) .

تميزت مدينة جاو بموقع فريد أكسبها أهمية تجارية عظيمة ، وجعل لها الريادة على المراكز التجارية الأخرى فى السودان الغربية لفترة من الزمن . فبالإضافة إلى وقوعها على نهر النيجر حيث تيسرت الملاحة البحرية ، كان هناك طريق تجاري بري قديم قادم من الشمال وتصل نهايته الجنوبية إلى هذه المدينة ، كما كان يقع قريبا منها مركزان داخليان على مسيرة بضعة أيام منها : تادمكة Tadmakka إلى الشمال ، وتاكدا Takedda إلى الشرق منها (٥٣) .

أما من ناحية علاقة مملكة جاو بالمغرب ، فقد ساعد وضعها كمركز تجاري حيوي فى اجتذاب كثير من التجار المسلمين إليها منذ بدأ هؤلاء فى الاتجاه إلى السودان الغربي (٥٤) .

ومن الأمثلة التي تدل على اهتمام التجار المسلمين بمملكة جاو ، قيام علاقات تجارية وثيقة بين هذه المملكة وبين تاهرت عاصمة الدولة الرستمية منذ أن تأسست هذه الأخيرة فى القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) . وكان تجار تاهرت ، ومن ضمنهم ممثلين وعملاء لبعض الأمراء الرستميين ، يفدون إلى جاو بقوافلهم التجارية الكبيرة (٥٥) .

ولم تقتصر أعمال التجار المسلمين ، على اختلاف فئاتهم ، على المهمات المؤقتة ، بل أقدم الكثير منهم على الاستقرار الدائم (٥٦) .

وقد اتخذ المسلمون لأنفسهم مكانا خاصا بهم قريبا من العاصمة فمن الوصف الذى أورده كل من المهلبي (ت ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م) والبكري يتضح أن جاو كانت شبيهة بعاصمة مملكة غانه ، إذ تكونت هي الأخرى من قسمين أحدهما الجزء الخاص بالمسلمين الذى اتسع وتطور حتى أصبح مدينة ضاهت مدينة جاو الأصلية (٥٧) .

ويصف المهلبي مدينة المسلمين بأنها كانت تقع على الضفة الشرقية للنهر (النيجر) ، وأن بها أسواقا ومتاجر والمواصلات بينها وبين المناطق المجاورة متيسرة . أما مدينة الملك جاو الأصلية فيذكر أنها كانت تقع فى الجهة الغربية من النهر (٥٨) .

ويمكننا أن نستنتج من الإشارات القليلة التي أوردتها المصادر عن أوضاع المسلمين فى هذه المملكة أن حكامها لابد وأن يكونوا أدركوا قدرات التجار المسلمين فى مجال التجارة وتأثيرهم الإيجابي على مملكتهم فى نواحي كثيرة ، وإلا لما حظى أولئك التجار بالترحيب والقبول وكفل لهم الأمان فى المملكة ومارسوا تجارة واسعة فيها .

وعلى هذا الأساس يمكننا أن نستنتج أيضا أن المسلمين لابد وأن يكونوا قد بلغوا فى هذه المملكة مكانة اجتماعية عالية كما كانت الحال بالنسبة لإخوانهم فى مملكة غانه . فتأثير المسلمين لم يقتصر على الناحية الاقتصادية ، بل امتد إلى قمة السلطة فى مملكة جاو فى ذلك الوقت . ولعل أوضح دليل على ذلك ماذكرته المصادر من أن ملكها تحول إلى الإسلام فى النصف الثاني من القرن الرابع الهجري (القرن العاشر الميلادي) ، وبنى مسجدا فى القسم الوثني من العاصمة يصلي فيه هو ومن أسلم من خاصته (٥٩) .

فى مملكة التكرور

أشار الكتاب المسلمون إلى وجود ثلاث ممالك سودانية فى منطقة وادي نهر السنغال غربي مملكة غانه وهي : التكرور Takrur ، وسلا Silla ، وصنغانا Sanghana (٦٠) . إلا أن المعلومات التي أوردوها عن هذه الممالك قليلة ، ونجد القصور واضحا فيما يخص نشاطات التجار المسلمين ومراكز تجمعاتهم واستقرارهم .

ويعلل البعض ذلك بأن هذه الممالك لم يوجد فيها الذهب أو وجد وإنما بكميات قليلة لذا لم يتجه إليها التجار بأعداد كبيرة بعكس مملكة غانه التي اشتهرت بذهبها ومملكة جاو التي تميزت بموقع جغرافي أكسبها أهمية تجارية مرموقة (٦١) .

ولكن المتتبع لما أوردته المصادر من معلومات عن مملكة التكرور لايجد مايشير بوجه الخصوص إلى أن التجار المتجهين إليها كانوا بأعداد ضئيلة ، وإن لم يكونوا بطبيعة الحال بنفس كثافة أولئك الذين اتجهوا إلى مملكة غانه أو مملكة جاو . والتعليل السابق ، قد ينطبق على مملكتي سلا وصنغانا ، أما بالنسبة لمملكة التكرور فيبدو أنه لايمثل الواقع ، فقلة الذهب الموجود فى أرضها لم تمنع من تمتعها بأهمية سياسية واقتصادية كما سنرى فى فقرات تالية . فلماذا لم يول الكتاب أوضاع التجار أهمية كبيرة عند حديثهم عن هذه المملكة ؟ إن الإجابة على هذا التساؤل يمكن أن تركز فى سببين : أولا : يلاحظ أن المصادر اهتمت بالدرجة الأولى بالحديث عن الإسلام فى التكرور ، حيث كانت أول مملكة سودانية تتحول بكاملها إلى الإسلام فقد اعتنق ملكها وارديابي Wardyabe الإسلام فى أواخر القرن الرابع الهجري (أواخر القرن العاشر الميلادي) وتحول بالتالي غالبية شعبه إلى الإسلام . كما أن ملكها عمل على تطبيق الشريعة الإسلامية فى حكم بلاده . ليس ذلك فحسب ، بل أسهمت هذه المملكة فى نشر الإسلام فى المنطقة وكانت فى ذلك الوقت على درجة من التحمس حتى أنها أعانت المرابطين فى بعض حروبهم فى الصحراء (٦٢) .

أما السبب الثاني : فيتمثل فى نوعية إسلام هذه المملكة ، فقد اتخذ ملكها الاتجاه الصحيح فلم يحاول الجمع بين تعاليم الإسلام والطقوس والتقاليد الوثنية كما حصل فى جهات أخرى من السودان . وقد يكون فى ذلك تفسير لما كان عليه ملك التكرور من تحمس لتطبيق شرائع الإسلام فى مملكته والعمل على نشر الدين الجديد فى المناطق المجاورة . وقد أثنى الكتاب عليه فى ذلك ، فالبكري يشير إلى أن أهل التكرور كانوا على الوثنية كغيرهم من ممالك السودان الأخرى حتى وليهم وارديابي فأسلم ونشر الإسلام بين قومه وأنار بصائرهم على أموره وشرائعه . أما عن جهوده فى نشر الإسلام فى مملكة سلا وما نتج عن ذلك فيقول : «وتسير من مدينة التكرور إلى مدينة سلا وهما مدينتان على شاطىء النيل (نهر السنغال) أيضا وأهلها مسلمون أسلموا على يد وارديابي رحمه الله . . وملك سلا يحارب كفارهم وليس بينه وبين أولهم إلا مسيرة يوم واحد» (٦٣) .

فالمصادر إذن لم تهتم بالحديث عن التجار إذ لم يعد ، كما يبدو ، هناك سبب للنظر إليهم كفئة منفصلة عن بقية الناس فلم يكن لهم حي مستقل عن العاصمة ، حيث أخذوا وضعهم الطبيعي فى هذه المملكة التي تحولت إلى الإسلام ، وصاروا كغيرهم من رعايا الملك ، الشيء الذى لم يحصل فى مملكة غانه الوثنية ومملكة جاو التي عندما اعتنق ملكها الإسلام بقيت الغالبية العظمى من رعاياه على الوثنية فى تلك الفترة ، فكان التجار المسلمون فى هاتين المملكتين يعيشون فى أحياء منفصلة مثلت مدنا خاصة بهم .

ومهما يكن من أمر ، فالمصادر لم تخل من إشارات هنا وهناك إلى ما اشتهرت به منطقة التكرور من صناعة وتعدين . وبالتالي ماترتب عليهما من منتوجات وتبادل تجاري سواء مع بلاد المغرب أو المناطق المجاورة . فقد تميزت بلاد التكرور بوجودها قرب بلدة أوليل Awlil ، المنجم الوحيد للملح فى السودان (٦٤) .

ونظرا لشدة حاجة سكان السودان إلى الملح (٦٥) فإنه مثل سلعة بالغة الأهمية لايمكن الاستغناء عنها ، وبالتالي غالية الثمن . ومن هنا اكتسبت أوليل أهميتها الاقتصادية خاصة وأنها كانت تقع على المحيط الأطلسي قريبا من مصب نهر السنغال (٦٦) .

وكان الملح ينقل من أوليل إلى مدينتي التكرور وسلا بواسطتين : عن طريق القوارب حيث استغل التجار قربها من مصب نهر السنغال ، وبواسطة القوافل عبر الصحراء . ومن التكرور وسلا يصدر الملح إلى مملكة غانه وغيرها من مناطق السودان (٦٧) .

ويمكننا الاستدلال من اهتمام الكتاب المسلمين ببلدة أوليل على أنها كانت تقع قريبا من طريق تجاري هام يربط المغرب الأقصى بهذه المنطقة من الساحل ، وبالتالي بمنطقة التكرور عموما . فقد ذكر ابن حوقل أن أوليل كانت آخر ماعرفه المسلمون ناحية الجنوب من ساحل البحر المحيط وهي بمحاذاة مدينة أودغشت الواقعة إلى الشرق منها ، وبينهما مسيرة شهر سفرا بالقوافل ، وبين أوليل وسجلماسه مسيرة أكثر من شهر (٦٨) ، كما أن أوليل بالرغم من موقعها بالنسبة للسودان الغربي ، إلا أنها كانت

تحت سيطرة قبيلة جداله أحد فروع صنهاجه (٦٩) .

وهذا كله يقودنا إلى الاعتقاد بأن أعداد كبيرة من التجار من بلاد المغرب خاصة من المغرب الأقصى ، قد اشتركت فى تجارة ملح أوليل ، وبالأخص فيما يتعلق بنقله بالقوافل إلى بلاد التكرور ثم توزيعه إلى الجهات الأخرى وذلك لقدراتهم الكبيرة فى توفير وسيلة النقل الصحراوية ورؤوس الأموال الكافية .

ويمكننا أن نتصور مدى ما أضفته مشاركة هؤلاء التجار على ذلك الجانب من تجارة مملكة التكرور من حيوية ورواج ، وبالتالي على التجارة فى هذه المملكة بشكل عام وعلى حركة التبادل التجاري بينها وبين بلاد المغرب بشكل خاص . فقد أسهمت تجارة الملح فى جلب كميات من الذهب إلى أسواقها حيث كان الملح يباع فى غانه وغيرها بالذهب بأسعار باهظة ، وربما بيع وزنا بوزن حسب كثرة التجار وقلتهم (٧٠) . وبذلك أصبحت عائدات الملح من الذهب تمثل مصدرا هاما لتوفير الكميات المطلوبة من هذا المعدن النفيس فى أسواق مملكة التكرور ، مما جعلها لاتتأثر كثيرا بندرته فى أرضها .

ومن ثم كان لتوافر الذهب فى أسواق هذه المملكة دور كبير فى تنشيط حركة التبادل التجاري بينها وبين بلاد المغرب ، مما جعل مهمة التجار من بلاد المغرب لاتقتصر على المشاركة فى تجارة ملح أوليل فقط ، إذ ساهموا فى توريد الصوف والنحاس والصدف وأنواع أخرى من منتوجات بلاد المغرب وواحات الصحراء إلى مملكة التكرور مقابل ماتوفره بدورها من ذهب ورقيق وشيء من منسوجاتها القطنية (٧١) .

أما الصناعة الرئيسة فى مملكة التكرور ، فكانت حياكة الأقمشة القطنية وذلك لوجود شجرة القطن . ولم يقتصر استهلاك الإنتاج على الأسواق المحلية حيث ساهم التجار فى تصدير كميات من المنسوجات إلى واحات الصحراء وبلاد المغرب . وقد اشتهرت حياكة نوع من الأزر تسمى الشكيات على مستوى السودان (٧٢) .

النتائج الفعلية لمجهودات التجار المسلمين

رأينا فى الصفحات السابقة من البحث كيف أن قدوم التجار المسلمين إلى منطقة شمال افريقيا ومشاركتهم فى التجارة عبر الصحراء ، واتجاه أعداد كبيرة منهم إلى الاستقرار الدائم فى ممالك السودان الغربي أدى بالتدريج إلى نشاط واتساع حركة التبادل التجاري بين هذه الممالك من جهة وبلاد المغرب من جهة أخرى . وأن المتتبع لإشارات المصادر عن أحوال التجارة عبر الصحراء وفى السودان الغربي فى هذه الفترة يلاحظ أن طور الرواج والازدهار الذى بلغ أوجه فيما بين القرنين الرابع والخامس الهجريين (العاشر والحادي عشر الميلاديين) ، تميز بالظواهر الثلاث التالية :

١ – ازدياد حجم التبادل التجاري فى السلع ، خاصة الذهب والرقيق والملح .

٢ – إدخال بعض الترتيبات والتنظيمات الجديدة التي أسهمت فى تسهيل أمور التبادل التجاري بين بلاد المغرب والسودان الغربي .

٣ – تطور وازدهار المراكز التجارية فى المنطقتين .

وهذه الظواهر تمثل فى الواقع النتائج الفعلية لما قام به التجار المسلمون من أعمال ومجهودات فى سبيل التجارة بين بلاد المغرب والسودان الغربي .

ومن تناولنا لكل ظاهرة منها بشيء من التفصيل فى الفقرات التالية سيتبين لنا مدى التطور فى أنواع السلع وأحجام المتبادل منها ووضع الأسعار خاصة لتلك السلع المميزة كالملح والنحاس ، وأعداد القوافل وكذلك مدى نمو المراكز التجارية وازدياد ثرائها وبالأخص تلك التي كانت تقع على طرق تجارية هامة .

أولا – ازدياد حجم التبادل التجاري فى السلع خاصة الذهب والرقيق والملح

لاشك فى أن الذهب والرقيق كانا هما السلعتين الأساسيتين فى صادرات السودان الغربي إلى بلاد المغرب (٧٣) . ويأتي الذهب فى المرتبة الأولى من ناحية الأهمية والقيمة ، وهو ماتؤكده المصادر فى إشاراتها إلى ذهب السودان (٧٤) .

وبالرغم من أن الذهب وجد فى مناطق مختلفة من غرب افريقيا ، إلا أن مناجم المناطق الاستوائية الداخلية والواقعة جنوب مملكة غانه تعتبر المصدر الرئيس للذهب فى السودان . والجدير بالملاحظة أن مملكة غانه لم تسيطر على هذه المناطق مباشرة ولكنها ، فى الحقيقة ، سيطرت على مرور الذهب إلى الأسواق سيطرة محكمة . فكان هناك من التجار من يذهب إلى تلك المناطق ويحصلون على الذهب من السكان الأصليين غالبا عن طريق مايسمى بالتجارة الصامتة Silant Trade (٧٥) ، ثم يجلب إلى أسواق غانه ومراكزها التجارية حيث تتم عملية التبادل مع التجار الذين ينقلونه إلى شمال افريقيا ومن ثم إلى جهات أخرى (٧٦) .

ونجد نفس الظاهرة تماما بالنسبة للملح ، فمملكة غانه الوثنية لم تصل بنفوذها قط إلى مناجمه فى الصحراء بالرغم من حاجة شعوبها الماسة إليه ، إلا أنها تحكمت فى مروره إلى أسواقها وإلى المناطق الجنوبية حيث تزداد الحاجة إليه (٧٧) .

واستطاعت مملكة غانه الاستفادة من واقع الأهمية الاقتصادية العظيمة لهاتين السلعتين معتمدة على موقعها الذى جعل منها حلقة وصل بين المنطقتين ، فأهل الجنوب يمتلكون فى أرضهم الذهب وفى نفس الوقت هم فى حاجة إلى منتجات الشمال وعلى رأسها الملح ، وأهل الشمال فى ذات الوقت لاتقل حاجتهم ورغبتهم فى الذهب عن حاجة ورغبة السودانيين فى الملح .

وقد مارست مملكة غانه سيطرتها على تجارة سلعتي الذهب والملح الهامتين عن طريق نظام دقيق للضرائب أساسه الذهب ، فاستفادت بذلك فوائد مادية هائلة حيث فرضت حكومتها دينار ذهب على حمل الحمار من الملح الداخل من الشمال أو من التكرور إلى غانه . وديناران على الخارج منه إلى الجهات الأخرى من السودان ، وهذا يعني أن مملكة غانه كانت تجني ثلاثة دنانير ذهب عن كل حمل حمار من الملح يمر عبر أراضيها . كما فرضت أيضا خمسة مثاقيل من الذهب على حمل النحاس وعشرة

مثاقيل على الحمل من البضائع الأخرى كالقماش والزبيب والتمر المجفف والعطور وما شابه (٧٨) .

بالإضافة إلى ذلك يشير البكري إلى ما كان يقوم به ملك غانه من احتكار للنوع النادر من الذهب . وقد علل ذلك بأنه إجراء لتفادي كثرة الذهب بأيدي الناس فيضمن بذلك عدم تدني أسعاره حيث قال : «ولولا ذلك لكثر الذهب بأيدي الناس حتى يهون» (٧٩) . ولا يرى بعض الكتاب بأسا فيما ذهب إليه البكري من تفسير لهذا الإجراء من قبل الملك (٨٠) . إلا أن المتفحص لوضع تجارة الذهب فى ذلك الوقت لا يرى فى ذلك تعليلا مقنعا ، إذ لا يعتقد أن مجرد منع وصول النادر من الذهب إلى الأسواق سيحول دون تكاثر المتداول منه بأيدي الناس والدليل على ذلك أن المصادر ، ومن ضمنها كتابات البكري نفسه تحدثت عن وفرة عظيمة للذهب فى المراكز التجارية فى الجنوب والشمال حتى أن الذهب كان يبادل فى بعض أسواق السودان بالملح وزنا بوزن ، بل وأكثر من وزنه فى بعض المناطق ، وما إلى ذلك من الشواهد التي سنأتي على ذكرها فى فقرات تالية .

ولا يعتقد أيضا أن كميات الذهب التي تعود الملك الاحتفاظ بها كانت ستؤدي إلى انخفاض مؤثر وعلى نطاق واسع فى أسعاره لو أنها أنزلت إلى الأسواق ، وذلك لأن الطلب على ذهب السودان من قبل تجار بلاد المغرب وغيرهم كان عظيما (٨١) .

فماذا كان الهدف إذن ؟ هل كان ملك غانه ، باحتفاظه لنفسه بالقطع النادرة والغالية الثمن من ذهب السودان يهدف إلى تأكيد سيادة مملكته على سوق هذا المعدن النفيس ؟ أم أن ذلك كان نوع من الضرائب خاصة والمصادر لم تذكر أن غانه فرضت أي نوع من الضرائب على الذهب كسلعة تباع وتنقل خارج حدودها كما عملت بالنسبة للسلع الأخرى ؟ (٨٢) وعلى أية حال قد يكمن الجواب فى أحد الاحتمالين وقد يكون فيهما معا .

أما الرقيق فبالرغم من أنه كانت هناك مصادر أخرى يجلب منها إلى العالم الإسلامي ، إلا أن السودان مع حلول القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) أصبح يمثل مصدرا أساسيا للرقيق (٨٣) . فقد أشار الاصطخرى (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م) إلى كثرة الرقيق السودان وأنهم كانوا يجلبون من أعماق بلاد السودان مستنتجا ذلك من شدة سواد ألوانهم (٨٤) . ووصف البكري أهل أودغشت بالغنى ، فذكر أن من تجارهم من كان يملك ألفا من الرقيق (٨٥) .

وقد جنت مملكة غانه أرباحا كبيرة من تجارة الرقيق ، فكان فى عاصمتها سوقا رائجة لهذه السلعة وكانت تمون من المناطق الجنوبية حيث يوجد الزنوج البدائيون ، مما جعل غانه بذلك تمثل مصدرا مهما يجلب منه التجار الرقيق إلى أسواق بلاد المغرب (٨٦) .

كما برزت بلاد التكرور كمصدر آخر للرقيق حيث كان هناك نشاط واضح من قبل تجارها فى تصدير الرقيق إلى الشمال وعلى الأخص إلى أسواق المغرب الأقصى (٨٧) .

ويمثل الملح للتجارة بين السودان الغربي وبلاد المغرب سلعة لاتقل أهمية عن الذهب ، فالملح فى السودان الغربي ، بدون الصادر من الشمال ، يعتبر سلعة بالغة الندرة . ويمكن حصر أسباب هذه

الأهمية للملح فى الأمور التالية :

١ - بالإضافة إلى حاجة الناس الاعتيادية للملح فى مجالات الطعام وغيرها ، تشتد حاجة السودانيين إليه نظرا لظروف المناخ فى بلادهم .

٢ - وقوع مناجم الملح الرئيسة فى الصحراء .

٣ - ويمكن أن يضاف إلى ذلك سبب ثالث وهو أن ملح الصحراء تميز على الملح المستخرج من البحر بصلابته وجفافه ، الأمر الذي جعله قابلا للحمل لمسافات طويلة حتى داخل المناطق ذات الرطوبة العالية وهو على شكل ألواح بأحجام مناسبة للحمل ، فيستمر محتفظا بصلابته ، الأمر الذي يسهل تجزئته إلى قطع ذات أحجام مناسبة للبيع فى الأسواق (٨٨) .

لذلك فالملح المستخرج من بلدة أوليل قرب مصب نهر السنغال لايمكن أن ينافس ملح الصحراء خاصة فى المناطق الداخلية ، حيث المناجم الرئيسة للذهب والتي يشتد الطلب فيها على الملح (٨٩) هذا بالإضافة إلى أن ملح أوليل لايكفي أصلا لسد حاجة السودان الغربي من هذه السلعة .

ومما يدلل على قلة الملح وشدة الطلب عليه قبل اتساع التجارة عبر الصحراء ماذكر من أن الواحد من الرقيق كان يباع مقابل لوح صغير من الملح لايعدو فى حجمه حجم رجله (٩٠) . ويعبر ابن حوقل عن مدى أهمية الملح للسودانيين بقوله : «وحاجتهم (أي ملوك السودان) إلى ملوك أودغشت ماسة من أجل الملح الخارج إليهم من ناحية (بلاد) الإسلام فإنه لاقوام لهم إلا به» (٩١) .

وإن المتفحص لما أوردته المصادر المعاصرة من معلومات عن تجارة الذهب والملح ، ليجد فيها أقوى الشواهد الدالة على أن حجم المتبادل منهما بين بلاد المغرب والسودان الغربي زاد زيادة عظيمة عما كان عليه فى الفترات السابقة ، وذلك نتيجة للدور الذى اضطلع به التجار المسلمون فى التجارة بين المنطقتين .

ولنبدأ بأسواق السودان الغربي ، وهي مصدر الذهب لنرى أن التاجر فى أسواق غانه ، وكما سبقت الإشارة إليه ، كان على استعداد لدفع ثلاثة دنانير ذهب على كل حمل حمار من الملح يعبر أراضي غانه . هذا بالإضافة إلى ضريبة النحاس وضريبة البضائع الأخرى ، وكلها كانت تجبى بالذهب ولنرى أيضا أن الملح فى بعض المناطق كان يبادل بالذهب بنفس الوزن (٩٢) ، بل ربما بيع بوزنين أو أكثر على قدر كثرة التجار وقلتهم حسب ما أورده أبو حامد الغرناطي فى حديثه عن غانه (٩٣) .

وبالرغم من قلة الذهب فى أرض التكرور ، إلا أن تجارها كانوا يحصلون على كميات كبيرة منه فى أسواق مملكة غانه مقابل بضائعهم وعلى رأسها الملح المجلوب من أوليل ، فتوفر بذلك الذهب فى أسواق مملكة التكرور نفسها إلى درجة جعلته فى مقدمة السلع التي كانت تقدمها هذه المملكة مقابل ما تحتاجه من منتجات بلاد المغرب وأهمها النحاس والصوف (٩٤) .

ويتحدث البكري عن أودغشت فيذكر أن وسيلة التعامل فى البيع والشراء كان الذهب وذلك على هيئة تبر . كما وصف أهل هذه المدينة بأنهم كانوا أصحاب نعم وأموال جليلة (٩٥) .

أما أهل تادمكه وهي أحد المراكز التجارية القريبة من مملكة جاو ، فقد كانوا يتبايعون بدنانير ذهب خالص تسمى الصلع لانها غير مختومة (٩٦) وقد قابل هذه الكثرة فى كميات الذهب الصادر من السودان الغربي وفرة فى كميات الملح الواردة من الشمال ، فكان من نتيجة ذلك أن انخفض سعره . فابن حوقل الذى عاش فى القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) يشير إلى أن أسعار الملح كانت تتراوح فيما بين المائتين والثلاثمائة دينار (٩٧) . بدل أن كان يباع بأكثر من ذلك أو بمثل وزنه ذهبا فى بعض المناطق . ثم إن الواحد من الرقيق صار يباع بحمل جمل من الملح بدل أن كان ثمنه لايتجاوز قطعة صغيرة منه (٩٨) . بل نزل سعر الملح فيما بعد إلى أقل من ذلك بكثير (٩٩) .

ولاشك أن الملح كان يشغل حيزا كبيرا من حمولة القوافل التي كانت تعبر الصحراء ، نظرا لكبر حجم ألواحه وثقل وزنها . لهذا فالقوافل فى عودتها من السودان الغربي تكون أحمالها أقل مما كانت عليه فى ذهابها إلى هناك ، فكان فى بعض الأوقات ، على سبيل المثال ، الثلاثون حملا فى القافلة المتجهة إلى السودان الغربي يقابلها ثلاثة أحمال من التبر وسلع السودان الأخرى عند عودة القافلة إلى بلاد المغرب (١٠٠) .

وفى الجهة المقابلة ، ونقصد الضفة الشمالية من الصحراء ، مثلت مدينة القيروان مركزا تجاريا مرموقا . يقول عنها ابن حوقل أنها كانت من أعظم مدن المغرب وأكثرها تجرا وأموالا (١٠١) بفضل موقعها كنقطة التقاء للقوافل التجارية من المشرق والمغرب مع القوافل التي كانت تعبر الصحراء للإتجار مع السودان .

ثم هناك مدينة سجلماسه والتي امتازت بأسواق غنية بالذهب إلى درجة جعلت الكتاب المسلمين يكتبون عنها باستغراب ، ومن أولئك البكري الذى قال عن أهل سجلماسه : «ومن الغرائب عندهم أن الذهب جزاف عدد بلا وزن والكراث يتبايعونه وزنا بلا عدد» (١٠٢) أما ابن حوقل فقد وصف ثراء أهل سجلماسه وعظم قوافلهم وتجاراتهم بقوله : «ويقارب القيروان سجلماسه فى صحة الهواء ومجاورة البيداء مع تجارة غير منقطعة منها إلى بلد السودان . . وأرباح متوافرة ورفاق متقاطرة» (١٠٣) .

وقد أكد ابن حوقل ما ذهب إليه فى وصفه لأهل سجلماسه والقوافل التي كانت تعبر الصحراء منها وإليها ، حينما روى قصة مشاهدته لصك مالي بمبلغ اثنين وأربعين ألف دينار ذهب كدين لأحد تجار سجلماسه على تاجر آخر بمدينة أودغشت (١٠٤) . ولاشك أن ما سجله ابن حوقل عن ذلك الصك ، كشخص معاصر لتلك الفترة وكشاهد عيان ، يعتبر بحق وثيقة ذات دلالة واضحة على الرواج الواسع الذي كانت تشهده التجارة بين بلاد المغرب والسودان الغربي وعلى رأسها السلعتان الأساسيتان الذهب والملح . مما يدعم ماقلناه فى هذا الصدد فى الفقرات السابقة .

والواضح أن المبلغ الذى أشار إليه هذا الصك ضخم قياسا على أي مستوى كان ، فالمبلغ قد يعادل الآن أكثر من نصف مليون دولار على أساس سعر الذهب فى الوقت الحاضر (١٠٥) . فإذا بدا المبلغ فى الوقت الحاضر بهذه الضخامة ، فإنه لابد وأن يبدو أكثر ضخامة فى ذلك الوقت كمحصلة

عملية تجارية بين تاجرين أخذا فى الاعتبار حجم وسائل النقل والحفظ والمسافات وغير ذلك من ظروف ذلك الزمن التى لها تأثيرها على التعامل التجاري . لهذا لا نستغرب أن ينظر إلى حجم المبلغ بدهشة وتعجب ليس من ابن حوقل فحسب ، بل ممن سمعوا منه القصة من أهل المشرق . يقول ابن حوقل : «وما رأيت ولا سمعت بالمشرق لهذه الحكاية شبها ولا نظيرا ، ولقد حكيتها بالعراق وفارس وخراسان فاستطرفت» (١٠٦) .

سلع أخـــرى : ولقد سارت التجارة فى السلع الأخرى كالعاج والنحاس والمنسوجات وما إلى ذلك جنبا إلى جنب مع تجارة الذهب والملح والرقيق ، حيث كان السودان الغربي يتلقى من بلاد المغرب والصحراء سلعا أخرى إلى جانب الملح ويصدر أيضا سلعا أخرى إلى جانب ذهبه ورقيقه .

ونشير فيما يلي إلى أهم تلك السلع .

كان العاج من السلع التي استحوذت على اهتمام التجار ، لذا فهو يعتبر من السلع التي كانت لها أهميتها فى صادرات السودان الغربي إلى الشمال ، وقد ازداد حجم هذه السلعة مع التوسع فى تجارة الذهب واشتهر العاج الافريقي ووصل إلى مناطق كثيرة من الشرق بفضل التجار المسلمين (١٠٧) .

نقل المالكي فى رياض النفوس قصة الرجل الذى تورع عن أخذ إرث زاد عن ألف دينار تركه له والده معللاً ذلك بقوله : إن ذلك المال جمع من المتاجرة فى العاج وأنه لم يكن ليأخذه وقد تكلم العلماء ضد هذا النوع من المتاجرة (١٠٨) . وبالإضافة إلى ماتشير إليه هذه القصة من أن العاج كان سلعة رائجة ، قد نجد فيها مؤشرا أيضا إلى غلاء ثمنها ، إذ يبدو أن فحش الأسعار كان من بين الأسباب التي جعلت البعض ينظر إلى المتاجرة فى العاج نظرة الشك (١٠٩) .

ومن السلع التي صدرها السودان الغربي إلى بلاد المغرب أيضا الجلود والصمغ والعسل (١١٠) والشب (١١١) وخشب الأبنوس (١١٢) .

وبالنسبة للسلع الأخرى التي صدرتها بلاد المغرب إلى السودان الغربي ، فإن هناك ثلاث سلع تأتي فى المقدمة وهي الصدف أو الودع Cowries ، والخرز Beads ، والنحاس .

ذكر البكري عندما تحدث عن كوغه ، إحدى المدن التابعة لمملكة غانه ، أن أهم السلع التي اعتاد التجار حملها إلى هذه المدينة الودع ، حيث وجد فيه التجار سلعة رائجة وذلك لكثرة إقبال الناس عليه هناك (١١٣) .

ويستخدم الودع فى أغراض اجتماعية متعددة مثل اتخاذه للزينة أو تمائم ورموز يعتقد السودانيون خاصة الوثنيون منهم فى دلالاتها المعنوية والروحية (١١٤) .

ولم تكن منطقة بلاد المغرب هى المصدر الأساسي للودع ، بل إنه كان يجلب إليها من مناطق أخرى ثم يعاد تصديره إلى السودان الغربي (١١٥) .

ويستخدم الخرز فى أدوات الحلية والزينة وكانت مدينة أغمات الواقعة إلى الجنوب الغربي من سجلماسه تصدر الخرز المصنوع من الزجاج إلى السودان الغربي (١١٦) . واشتهرت مدينة سبته بصناعة

الخرز من المرجان وكان يصدر إلى السودان الغربي ، وعلى الأخص إلى مملكة غانه لكثرة الطلب عليه هناك [١١٧] .

وكان النحاس المصنع يمثل سلعة ذات أهمية كبيرة ضمن صادرات بلاد المغرب إلى السودان الغربي . وقد عمل التجار المسلمون على نقله إلى أسواق مدينة أودغشت ومدينة كوغه ، وكذلك إلى المناطق الداخلية من السودان الغربي حيث يبادل هناك مع سلع أخرى بالذهب عن طريق التجارة الصامتة [١١٨] .

وتشير المصادر إلى أن القوافل التجارية المتجهة من مدينة أغمات إلى السودان الغربي كانت تحمل كميات كبيرة من النحاس الملون ، وقد كان من الاستخدامات المهمة له عمل أنواع من الحلي [١١٩] . ويبدو أنه كان للون النحاس ، خاصة الأحمر منه ، دور في رواجه بين السودانيين [١٢٠] .

وتجدر الإشارة إلى أن النحاس استخدم في غانه وجهات أخرى من السودان الغربي كعملة ، فكان يصنع على شكل حلق مناسبة للتداول [١٢١] .

وقد سبق وأشرنا إلى أن حكومة غانه كانت تفرض خمسة مثاقيل من الذهب ضريبة على حمل الحمار من النحاس ، ولاشك في أن مقدار هذه الضريبة دلالة قوية على أهمية النحاس بالنسبة للسودانيين وبالتالي لتجارتهم مع بلاد المغرب .

ومن الأماكن التي اشتهرت كمعدن للنحاس بلدة تيحماًمين وتقع في منتصف الطريق بين مدينة أغمات ووادي درعه جنوب المغرب الأقصى [١٢٢] .

واستورد السودان الغربي من بلاد المغرب كذلك التمر المجفف ، والذى كان مصدره الرئيس مدينة سجلماسه ، والزبيب والقمح ، وقد علق البكري على هذه السلع بقوله إن بعد المسافة بين المنطقتين لم يمنع من جلبها إلى السودان وأن القنطار من كل سلعة من هذه السلع كان يباع في أكثر الأوقات بستة مثاقيل ذهب ، إلا أن البكري لم يوضح هل كانت هذه السلع في حالة غلاء أم رخص مع تلك الأسعار [١٢٣] .

كما استورد السودان الغربي أيضا الفضة . وقد أشارت المصادر إلى وجود بعض المناجم للفضة في بلاد المغرب ، منها منجم كان يوجد بمدينة درعه الواقعة جنوب المغرب الأقصى [١٢٤] . وآخر بموضع يقال له تازرارت ويقع إلى الغرب من جبل درن القريب من بلاد السوس . وقد وصف البكري هذا المنجم الأخير بأنه كان غزير الإنتاج [١٢٥] .

واستورد السودان الغربي بالإضافة إلى السلع السابقة القماش وبعض المنسوجات القطنية [١٢٦] والصوفية [١٢٧] والأدوات المصنوعة من الحديد وبعض الأحجار الكريمة والعطور [١٢٨] .

ثانيا – إدخال بعض الترتيبات والتنظيمات الجديدة التي أسهمت في تسهيل أمور التبادل التجاري بين المنطقتين

لقد كان استمرار التجارة بين المنطقتين ورواجها مطلبا ملحا سواء للتجار أنفسهم أو للسلطات

فى مختلف المناطق التي كانت تمر بها القوافل . وقد أدت الحاجة فى ذلك مع مرور الوقت إلى ظهور تنظيمات وترتيبات منها ماهدف إلى تسهيل المعاملات التجارية ونقل السلع من منطقة إلى أخرى ، ومنها ماهدف إلى ضمان أمن وسلامة القوافل أثناء تنقلها بين المناطق على اختلاف قبائلها وشعوبها .

فبالنسبة لتصدير السلع إلى السودان ، فقد وجدت طريقة التوكيل المعروفة والتي يقوم بالمهمة فيها من يمكن تسميته بالوكيل التجاري والذى قد يكون وكيلا لتاجر واحد أو لأكثر ، وإلى جانب هذه الطريقة وجدت صيغة أخرى مكنت أصحاب الصنائع الصغيرة من تصدير إنتاجهم ضمن القوافل التجارية . فقد كان بإمكان الصانع إما أن يقوم بدفع سلعته إلى أحد التجار ليبيعها له مقابل جزء من الربح أو أن يكلف عبدا أو أجيرا ليذهب ضمن القافلة (١٢٩) . ولعلنا نجد فى الرواية التالية مثالا واضحا على هذا الأسلوب فى تصدير السلع إلى السودان : حدث سكن ، وكان أحد الصاغة بالقيروان وقال إنه كان يصنع سلاسل من نحاس كالتي تستخدم فى لجم الدواب ويطليها بماء الذهب ويبعث بها لتباع فى بلاد السودان . ولما أراد أن يعلم مدى شرعية مايفعله كان الذى أفتاه بأن ذلك غش فقيه القيروان عبدالله بن فروخ الفارسي المتوفي سنة ١٧٦هـ/ ٧٩٢م (١٣٠) .

أيضا كان هناك من التجار وغيرهم ، سواء من بلاد المغرب أو السودان الغربي من اشترك فى التجارة عبر الصحراء عن طريق مايسمى بالقراض أو المقارضة ، حيث يعهد المالك بماله لطرف آخر ليقوم بالاتجار فيه على أن يكون الربح بينهما حسب مايشترطان والخسارة من رأس المال (١٣١) . ونجد مثالا واضحا لهذا الأسلوب فيما أورده الونشريسي فى كتابه «المعيار المعرب» عن فتوى للفقيه ابن القابسى القيرواني (١٣٢) تتعلق بالاتجار عبر الصحراء ، إذ كانت تلك الفتوى بخصوص رجل دفع إلى عامل قراضا ليمضي به إلى تادمكه فى السودان الغربي ، فسافر إليها ومضى منها إلى غانه وأودغشت واستمر غيابه منذ أن أخذ المال ليتاجر فيه أحد عشر عاما (١٣٣) ، فكان هذا التأخير هو الذى دفع صاحب المال للاستفسار هل من حقه شرعا المطالبة بتعويضه عن ماله من أملاك ذلك العامل عندما بيعت لسداد حقوق مالية كانت عليه لغرماء آخرين .

أما فى السودان فنجد لدى الإدريسي إشارة واضحة عن ذلك الأسلوب حيث ذكر أنه كان هناك من الأغنياء وعلية القوم من أهل مملكة جاو من كانوا يخالطون التجار ويساهمون معهم فى تجاراتهم عن طريق المقارضة (١٣٤) .

كما مارس التجار كتابة الصكوك المالية لما فى ذلك من تسهيل على المتعاملين ، نظرا لما بين المراكز التجارية من مسافات طويلة . حيث كان بإمكان الدائن أن يستلم ماله فى مركز آخر من المدين أو وكيله ، فلا يضطر إلى حمله معه . ويمكننا أن نجد فيما ذكره ابن حوقل عن الصك المالي الذى رآه مع الدائن فى مدينة سجلماسه مثالا حيا لهذه الظاهرة ، فحسب رواية ابن حوقل كان الدائن أحد تجار سجلماسه المشتغلين بالتجارة مع السودان والمدين أيضا من أهل سجلماسه ، إلا أنه كان مقيما فى مدينة أودغشت . فالصك إذن كتب فى أودغشت وقبض المبلغ فى سجلماسه (١٣٥) .

وقد استشهد آدم متز بهذه النصة بالإضافة إلى أمثلة أخرى فى توضيحه لتطور المعاملات التجارية عند المسلمين فى القرن الرابع الهجري نظرا لضخامة المعاملات وعلق فى حديثه عن ذلك قائلا : إن الصك فى العراق فى تلك الفترة أشبه ما يكون (بالشيك) الرسمي فى الوقت الحاضر (١٣٦) .

أما بالنسبة لأمن القوافل فإن من الأمور التي استجدت نتيجة مجيء المسلمين وازدهار التجارة عبر الصحراء ، اهتمام القبائل القاطنة قريبا من الطرق التجارية بأمن تلك الطرق ومحاولتها تنظيم ذلك . فكان هناك من القبائل من اختص بمهنة خفارة القوافل التجارية مقابل مبالغ من المال محددة (١٣٧) ومنها من كان يفرض ضرائب أو مكوس على القوافل مقابل تأمين مرورها عبر أراضيها . وهناك من القبائل أيضا من عمل كوسيط لنقل البضائع عبر المراكز التجارية (١٣٨) وفى بعض المناطق تلجأ القوافل التجارية إلى استئجار عملاء ، خاصة من الجماعات القوية ليتولوا حمايتها وتأمين مرورها عبر منطقتهم ، وعند الوصول إلى منطقة أخرى يتم استئجار عملاء آخرين وهكذا (١٣٩) .

ثالثا – تطور وازدهار المراكز التجارية فى المنطقتين

لقد كانت هناك محطات ومراكز تجارية على الطرق القديمة التي كانت تربط شمال الصحراء بجنوبها ، وإنه من الطبيعي أن تنمو هذه المراكز وتزدهر نتيجة اتساع الحركة التجارية بين المنطقتين وتضاعف حجمها . ففي الضفة الشمالية للصحراء نجد المراكز التالية :

سجلماسة Sijilmasa : وتقع فى منطقة تافللت جنوب المغرب الأقصى . ولقد كان من أهم العوامل التى أدت إلى تطورها من مجرد موضع براح يقيم فيه بربر تلك النواحي سوقا سنويا إلى قرية صغيرة ثم إلى مدينة كبيرة وغنية وقوعها على طريق تجاري قديم تسلكه القوافل ويربط بلاد السودان ومنطقة تافللت بمدن الشمال (١٤٠) والذى أصبح من أهم طرق القوافل المتجهة إلى السودان الغربي بعد أن صارت القوافل التجارية المتجهة من مصر إلى غانه تسير عبر بلاد المغرب قاصدة مدينة سجلماسه لتنطلق منها إلى السودان الغربي بدل أن كانت تسير من مصر إلى غانه مباشرة (١٤١) . فصارت سجلماسه بذلك تمثل آخر مرحلة للقوافل القادمة من الشمال فى اتجاه الطريق الصحراوي الطويل وأول مركز تجاري كبير فى بلاد المغرب يستقبل سلع السودان فاعتبرت بذلك بوابة التبر (١٤٢) .

ويلاحظ بوضوح تام أن المصادر تربط ثراء سجلماسه وازدهارها كمركز تجاري بالتجارة مع السودان ، فابن حوقل ، الذى زار هذه المدينة فى القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ذكر أن منطقة سجلماسه كانت تساهم فى خزينة الدولة بحوالي أربعمائة ألف دينار كضريبة على القوافل المتجهة إلى السودان وعلى السلع المباعة فى أسواقها ، وكذلك الخراج وما إلى ذلك ويؤكد ابن حوقل ضخامة المبلغ عندما يشير إلى أنه كان يختص فقط بمنطقة سجلماسه وأن المبلغ فى بعض الأوقات كان يمثل نصف مايرد على خزينة الدولة ، حيث إن جباية بلاد المغرب بكاملها ربما زادت قليلا عن الثمانمائة ألف دينار وربما نقصت كثيرا عن هذا المبلغ (١٤٣) .

وعندما تحدث ياقوت الحموي عن سجلماسه أشار إلى أن أهلها كانوا من أغنى الناس وأكثرهم أموالا ، وعلل ذلك بوقوع المدينة على طريق الذاهب إلى غانه (١٤٤) .

تاهــرت Tahart : لقد أصبحت هذه المدينة ، التي تقع إلى الجنوب من تلمسان فى المغرب الأوسط ، بعد إنشائها كعاصمة لدولة بني رستم ، مركزا تجاريا ذا أهمية للتجارة مع السودان الغربي . وكان ارتباطها التجاري القوي مع مملكة جاو عن طريق يمر بمدينتي وارجلان وتادمكه ، وهو الطريق الذى فى اتجاهه إلى الشمال يصل إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط ، كما كان لها اتصال تجاري بجهات أخرى من السودان الغربي عن طريق سجلماسه وأودغشت (١٤٥) .

ولا أدل على أهمية التجارة مع السودان لهذه المدينة من اهتمام أمرائها بأمرها بل واشتراك بعضهم فيها ، فقد كان عبد الوهاب تاجرا فى أيام أبيه عبد الرحمن بن رستم (١٤٥ - ١٧١هـ) ، وكانت قوافله تتردد على مملكة جاو . واشتغل أفلح بن عبد الوهاب بالتجارة مع السودان قبل توليه الحكم ، وأثناء ولايته بعث بأحد كبار تجار تاهرت كمبعوث للدولة الرستمية إلى أحد ملوك السودان الغربي . وكذلك اشتغل ابنه محمد بن أفلح فى هذه التجارة . وعلى العموم فقد رحبت دولتهم بالتجار السودانيين وأحسنت معاملتهم وقدمت لهم التسهيلات التجارية ، كما أن ممالك السودان عاملت بدورها تجار تاهرت بالمثل فرحبت بهم وكفلت لهم الأمان (١٤٦) .

وارجــلان Wargalan : وتقع فى منطقة الزاب على الطريق التجاري الذي يصل المغرب الأدنى «افريقية» بتادمكه ومنطقة ثنية نهر النيجر حيث تقع مملكة جاو . كما كان هناك طريق آخر يصلها بسجلماسه مارا بتاهرت (١٤٧) ، فكانت وارجلان بذلك على اتصال بالعديد من المراكز التجارية الهامة فى المنطقة : القيروان فى المغرب الأدنى وتاهرت فى المغرب الأوسط وسجلماسه فى المغرب الأقصى وتادمكه وجاو فى السودان .

وقد اعتمد تطور هذه المدينة واتساع الحركة التجارية فيها على موقعها واتصالها التجاري بالمدن المذكورة ، خاصة بعد أن تدهورت تاهرت فى أواخر القرن الثالث الهجري (أوائل القرن العاشر الميلادي) (١٤٨) .

تحدث الإدريسي عن وارجلان واصفا بعض جوانب الحياة الاقتصادية فيها ، فذكر أن قبائلها كانت غنية وتجارها عرفوا بالثراء ، حيث كان لهم نشاط بارز فى عملية شراء ذهب غانه والمتاجرة به فى الأسواق التجارية فى بلاد المغرب ، كما كانوا على رأس القائمين بتصدير التمر الجاف من سجلماسه ومنطقة الزاب إلى السودان الغربي (١٤٩) .

أغمــــات Aghmat : وتقع قرب منطقة وادي درعه ، وهو الوادي الذى يتجمع فيه التجار منها ومن سجلماسه ومن المناطق القريبة منهما لينطلقوا بقوافلهم عبر الطريق التجاري المتجه إلى أودغشت (١٥٠) .

وأغمات من المدن التي عظمت أسواقها وانتفع أهلها انتفاعا كبيرا بسبب موقعها الذى مكنها من الاشتراك فى التجارة مع السودان . فقد أشار إليها ابن حوقل كأحد المراكز التجارية الهامة فى منطقة سجلماسه والتي كانت تساهم بنصيب وافر فى جباية المغرب عن طريق ما كانت تفرضه الدولة من ضرائب على القوافل المتجهة إلى السودان والخراج وغير ذلك من الدخول (١٥١) . كما أورد الإدريسي بعض التفصيل عن تجارتها مع السودان فقال إن من أهل أغمات تجار كانوا يملكون أموالا كثيرة ، فهم يذهبون إلى السودان بالقوافل الكبيرة المحملة بالنحاس والأكسية من ثياب الصوف والعمائم والمآزر وأنواع من الأصداف والزجاج والأحجار الكريمة والعطور وبعض الآلات المصنوعة من الحديد ، وربما سير بعضهم فى القافلة الواحدة ماقد يصل إلى مائة وثمانين من الجمال المحملة بالبضائع (١٥٢) .

وفى السودان الغربي نجد المراكز التجارية التالية :

كومبي صالح Kumbi-Salih : لقد سبق وأشرنا فى حديثنا عن مملكة غانه كيف أن الحي الذى تجمع فيه التجار المسلمون قرب عاصمتها تحول إلى مدينة خاصة بالمسلمين مثلت الشطر الأهم من العاصمة ، واستشهدنا فى ذلك بوصف البكري لها بأنها كانت مدينة كبيرة احتوت على اثنى عشر مسجدا .

ومع مرور الوقت تطورت هذه المدينة حتى أصبحت ، حسب ماقاله الإدريسي عنها ، أعظم مدينة فى السودان الغربي مساحة وسكانا وتجارة ، وقد كان كبار التجار يأتون إليها من مختلف المناطق للالتقاء بعملائهم (١٥٣) .

وقد أيدت التنقيبات الحديثة ما أورده البكري والإدريسي وغيرهما من الكتاب المسلمين عن هذه المدينة ، حيث كشفت الحفريات التي قام بها موني Mauny وزميلاه فى الموقع المسمى كومبي صالح عن وجود مدينة تغطي من المساحة ميل مربع تقريبا يتكون قسم منها من مبان ضخمة وفخمة فى نفس الوقت مبنية بالحجارة وبعضها مكون من طابقين ، ويرجح أن الطابق السفلي كان يستخدم كمخزن للبضائع . ومن المحتمل أن هذا الجزء من المدينة كان يخص كبار التجار من شمال افريقيا . وإلى جانب ذلك كانت هناك آثار المساجد ومنها مسجد كبير قد يكون هو المسجد الجامع للمدينة (١٥٤) .

كما عثر المنقبون على موجودات كثيرة منها حراب وسكاكين ومسامير وأدوات زراعية ومقص دقيق الصنع وعدد من الحجارة منقوش عليها آيات قرآنية (١٥٥) .

ولاشك أن مدينة كومبي صالح بهذا تعطي مثالا على ما كان لمجيء التجار المسلمين من دور فى تطور وازدهار المراكز التجارية هناك فى السودان الغربي .

جـــاو Gao : لقد سبقت الإشارة إلى أن اتصال جاو ببلاد المغرب كان من خلال الطريق التجاري الذى يربط ثنية نهر النيجر بالمغرب الأدنى عبر مدينتي تادمكه ووارجلان وبالمغرب الأوسط عبر مدينة تاهرت .

ومما ذكرناه سابقا عن هذه المدينة ، اتضح أنها كانت تشبه تماما عاصمة مملكة غانه ، حيث

كانت تنقسم إلى قسمين : القسم الخاص بالمسلمين والقسم الآخر وهو مدينة الملك أو جاو القديمة . كما اتضح معنا كيف أن الجزء الخاص بالمسلمين اتسع وتطور إلى أن أصبح مدينة فاقت جاو القديمة فى العمران والنشاط التجاري [١٥٦] . وقد اكتسبت جاو بذلك شهرة على نطاق واسع فى بلاد السودان كما أشار إلى ذلك الإدريسي فى وصفه لها فيما بعد [١٥٧] .

وتبرز مدينة جاو كمثال آخر لتأكيد أثر التجار المسلمين فى تطور المراكز التجارية فى السودان الغربي .

أودغشت Awdaghast : وتقع فى الطرف الجنوبي من الصحراء إلى الشمال الغربي من غانه وبينهما مسيرة حوالي خمسة عشر يوما ، أما المسافة بينها وبين مدينة سجلماسه ، فإن القوافل تقطعها فى مسيرة شهرين تقريبا [١٥٨] .

وأودغشت لم تكن مجرد محطة استراحة للقوافل القادمة من الشمال فقد مثلت النهاية الجنوبية لواحد من أهم الطرق التجارية فى تلك الفترة ألا وهو الطريق القادم من سجلماسه مرورا بوادي درعه ليصل ، بعد رحلة شاقة وطويلة عبر الصحراء ، إلى أودغشت كأول محطة له فى بلاد السودان . لذلك قامت فيها حركة تبادل تجاري عظيمة حيث شهدت أسواقها مبادلة البضائع المختلفة من الشمال ومن الجنوب [١٥٩] .

وقد وصف البكري مدينة أودغشت بأنها كبيرة حسنة المباني ومساجدها كثيرة وقال عن أهلها أنهم كانوا أصحاب نعم وأموال جليلة . ويؤكد البكري ذلك بحديثه عن تجارتها وأسواقها حيث قال عن تجارتها : «ويتجهز إلى أودغشت بالنحاس المصنوع وبثياب مصبغة . . . ويجلب إليها القمح والتمر والزبيب من بلاد الإسلام على بعد . ويجلب منها العنبر المخلوق الجيد لقرب البحر المحيط منهم والذهب الابريز الخالص خيوطا مفتوله ، وذهب أودغشت أجود من ذهب أهل الأرض وأصحه» [١٦٠] أما وصفه لأسواقها فإنه يؤكد ماسبق وقلناه عن كثافة النشاط التجاري فيها ، يقول البكري «وسوقها عامرة الدهر كله لايسمع الرجل فيها كلام جليسه لكثرة جمعه وضوضاء أهله» [١٦١] .

ومدينة أودغشت بهذا الوضع الاقتصادي شابهت مدينة سجلماسه ، فموضع أودغشت الحيوي أدى إلى تطورها وازدهارها كمركز تجاري هام حيث كونت حلقة وصل بين السودان الغربي وبلاد المغرب فى تلك الناحية ، وهو نفس الدور الذى لعبته سجلماسه بالنسبة للجهة الشمالية من الصحراء [١٦٢] .

تادمكه Tadmakka : وهي شبيهه بمدينة أودغشت . إذ إنها هي الأخرى لم تكن مجرد محطة استراحة للقوافل القادمة من الشمال ، بل كانت تتم فيها مبادلة السلع المجلوبة من المغرب الأدنى بسلع منطقة ثنية النيجر حيث كانت هذه المدينة تمثل أهم مركز تجاري للقوافل القادمة من القيروان وورجلان قبل وصولها إلى مملكة جاو .

وقد وصف البكري تادمكه على أنها مدينة كبيرة وأنها أحسن بناء من مدينتي غانه وجاو القديمة . كما ذكر أن أهلها كانوا يتعاملون بالذهب الخالص [١٦٣] .



المراكز التجارية على الطريقين التجاريين : الشرقي والذي يربط المغرب الأدنى بثنية النيجر والغربي والذي يربط المغرب الأقصى بغانه .

المصدر : J.Fage, *An Atlas of African History*, p.17

التعليقـــات

(١) H.R. **Jarrett**, *An Outline Geography of Africa*, London: Methuen Educational, Ltd., 1971, pp.87-88, 138 .

(٢) انظر على سبيل المثال **عبد الرحمن بن خلدون** ، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر . . . بيروت : مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، ١٩٧١ ، جـ٦ ، ص ٩٩ . ويقابل هذا التقسيم في الوقت الحاضر : تونس والجزائر والمملكة المغربية ، ولكن ليس بالضرورة حسب الحدود لهذه الدول . ولتفصيل أكثر عن تسمية المغـــرب

وأقسامه ، انظر **سعد زغلول عبد الحميد** ،تاريخ المغرب العربي، الاسكندرية : منشأة المعارف ، ١٩٧٩ ، جـ ١ ، ص ص ٦١ - ٦٩ ، **أحمد مختار العبادي** ، فى تاريخ المغرب والأندلس ، بيروت : دار النهضة العربية ، ١٩٧٨ ، ص ص ١٠ - ١٦ .

(٣) *Encyclopaedia of Isam,* Leyden, 1934, vol. IV,p.495 .

(٤) *See* **E.W. Bovill,** *The Golden Trade of the Moors,* Oxford, 1978, introd., p. xi .

(٥) *Ibid.,* pp. 1-2 .

(٦) **R. Oliver** and **J.D. Fage,** *A Short History of Africa*, Middlesex: Penguin Books Ltd., 1975, p. 61.

محمد الغربي ، بداية الحكم المغربي فى السودان الغربي ، الكويت : ١٩٨٢ ، ص ٢٦ .

(٧) **Oliver** and **Fage,** *op. cit.,* p. 61 .

(٨) كان موطن الجارامانتيز فزان وعاصمتهم جرما Djerma ، ويذكر أنهم الأجداد الأول للطوارق ، انظر :

J.Fage,*A History of West Africa,* Cambridge: Cambridge Universtiy Prss,1972, p. 14 .

دنيس بولم ، الحضارات الافريقية ، ترجمة على شاهين ، بيروت : دار مكتبة الحياة ، ١٩٧٤ ، ص ٣٤ .

(٩) **T. Shaw,** "The Prehistory of West Africa",*in*:**J.Ade Ajayi,** and **M. Crowder(eds.),** *History of West Africa,* London, 1976,vol. 1, p. 62.

الغربي ، بداية الحكم ، ص ٢٧ .

(١٠) **J.S. Trimingham,** *A History of Islam in West Africa*. London: Oxford UniversityPress, 1975, p. 13 .

(١١) **Bovill,** *op. cit.,* pp. 30, 39

(١٢) يشير البعض إلى أن إدخال الجمل وبداية استخدامه فى الصحراء الكبرى كان خلال القرن الميلادي الأول وأنه وجد فى أجزاء أخرى من افريقيا قبل هذا التاريخ انظر :

Ibid.,pp. 15, 36-38; **C. McEvedy,** *The Penguin Atlas of African History.* Middlesex, 1985, p. 44 .

(١٣) **N. Levtzion,** *Ancient Ghana and Mali.* London: Methuen and Co. Ltd., p. 126 .

(١٤) **بولم** ، الحضارات الافريقية ، ص ٣٥ .

(١٥) أصبحت تغازا بعد مجيء المسلمين إلى المنطقة أهم منجم للملح فى الصحراء وتقع إلى الجنوب من سجلماسه على الطريق التجاري الذى يربط هذه المدينة بغانه ، انظر :

Fage, *An Atlas of African History,* 1st ed., 1985,p.17 .

(١٦) **الغربي** ، بداية الحكم ، ص ص ٢٧ - ٢٨ ، **ريموند موني** ، طرق التجارة عبر الصحراء بين ليبيا ومناطق السفانا فى النيجر وتشاد قبل الفتح العربي ، مجلة البحوث التاريخية ، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، طرابلس ، السنة الثالثة ، العدد الأول ، ١٩٨١ ، ص ص ١٢٨ - ١٢٩ .

(١٧) **B. Davidson,** *Africa in History.* New York: Macmillan Publishing Company, 1974,p. 74 .

(١٨) **D.F. McCall,** *Islamization of the Western and Central Sudan in the llth Century*. Boston University Papers on Africa, Boston, 1971, vol. 5, p. 3 .

(١٩) **عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم** ، فتوح مصر والمغرب ، تحقيق عبد المنعم عامر ، القاهرة : لجنة البيان العربي ، ١٩٦١ ، ص ٢٩٣ ، كما أشار البلاذري إلى هذه الرواية ، انظر فتوح البلدان ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٨٣ ، ص ٣٣ .

(٢٠) **عبد الله بن عبد العزيز البكري** ، المُغرِب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، باريس : المكتبة الشرقية الأمريكية ، ١٩٦٥ ، ص ١٧٩ .

(٢١) هو أحد أحفاد عقبة بن نافع الفهري ، ثار عليه أخواه الياس وعبد الوارث أثناء حكمه لافريقية «المغرب الأدنى» فقتل سنة ١٣٧هـ ، انظر الرقيق القيرواني ، تاريخ افريقيه والمغرب ، تحقيق المنجي الكعبي ، تونس : ١٩٦٨ ، ص ص ١٣٥ – ١٣٦ .

(٢٢) **البكري** ، المُغرب ، ص ١٥٦ – ١٥٧ .

(٢٣) **الحبيب الجنحاني** ، المغرب الإسلامي : الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، تونس : الدار التونسية للنشر ، ١٩٧٨ ، ص ٦٢ .

(٢٤) **البكري** ، المُغرب ، ص ١٤٨ .

(٢٥) **محمود إسماعيل** ، الخوارج في المغرب الإسلامي ، بيروت : دار العودة ١٩٧٦ ، ص ٢٧٤ ، حاشية ٢٧٠ ، أشار إلى أن هذا التاريخ لبناء تاهرت ذكره **ابن خلدون** ، العبر ، جـ٦ ، ص ١٢١ ، ومن أخذ عنه وشك الكاتب في صحة التاريخ المذكور ورجح سنة ١٦١هـ مشيرا إلى أن مصدره **ابن عذاري** ، البيان المغرب ، جـ١ ، ص ٢٧٧ ، والحقيقة أن **ابن خلدون** ليس هو أول من ذكر أن تاهرت أسست سنة ١٤٤هـ بل ذكر ذلك قبله كل من **البكري** ، المغرب ، ص ٦٨ ، **وابن عذاري** ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق كولان وبروفنسال ، ليدن ، بريل ، ١٩٤٨ ، جـ١ ، ص ٧١ – ٧٢ حيث قال في أحداث سنة ١٤٤هـ ما نصه «ولما انتهى إلى عبد الرحمن بن رستم قتل أبي الخطاب ولى هاربا إلى موضع تيهرت فاختطها ونزلها» . وانظر **الجنحاني** ، المغرب الإسلامي ، ص ١٠٢ حيث ناقش الخلاف في تحديد تاريخ بناء تاهرت .

(٢٦) **Levtzion**, *Ancient Ghana*, p. 27 .

(٢٧) **محمود إسماعيل** ، الخوارج ، ص ٢٠٧ .

(٢٨) هو محمد بن إبراهيم الفزاري توفي أواخر القرن الثاني الهجري ، انظر **ياقوت الحموي** ، معجم الأدباء ، القاهرة : دار المأمون ، ١٣٥٧هـ ، جـ١٧ ، ص ١١٧ .

(٢٩) انظر **علي بن الحسين المسعودي** ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، بيروت : دار المعرفة ، جـ٢ ، ص ٢٣٤ .

(٣٠) انظر: **J.F. Hopkins**, ed., *Corpus of Early Arabic Sources for West African History*, Cambridge, 1981, pp.7-9 .

(٣١) **أحمد بن اسحاق اليعقوبي** ، كتاب البلدان ، ليدن ، ١٩٦٧ ، ص ٣٦٠ وانظر **الجنحاني** ، المغرب الإسلامي ، ص ١٩٧ .

(٣٢) انظر **تاريخ اليعقوبي** ، بيروت : ١٩٦٠ ، جـ١ ، ص ص ١٩٣ – ١٩٤ .

(٣٣) **Levtzion**, *Ancient Ghana*, pp. 116, 118 .

(٣٤) **ترمنجهام** Trimingham ، مرجع سابق ، ص ٢٧ ، أشار إلى أنه بنهاية القرن السابع الميلادي (حوالي ٨١هـ) كان هناك تجار مسلمون من مصر وتونس والمغرب الأقصى يشهدون أسواق السودان التجارية . وقد استقر بعضهم فى المراكز التجارية كممثلين لتجار كبار من بلدانهم (شركات ؟) . والكاتب لم يشر إلى مصدر معين لما أورده من معلومات والمبالغة واضحة على ماقاله الكاتب ، فكما أوضحنا فى الصفحات السابقة ، حسب أهم المصادر المعروفة ، فإن اتصال التجار المسلمين من شمال افريقيا بالسودان الغربي لم يشاهد إلا فى القرن الثاني الهجري (النصف الاول من القرن الثامن الميلادي) فصاعدا ، فالمسلمون لم ينهوا فتح شمال افريقيا ويستقر الأمر لهم فيها إلا حوالي سنة ٩١هـ (٧٠٩م) ثم انشغل المسلمون ، سواء من العرب أو البربر ، بعد ذلك مباشرة بفتح اسبانيا . أما بالنسبة للتجار من مصر ، فكما أشار الكاتب نفسه فى الصفحة ذاتها فإن ذلك كان مواصلة لما كان يمارس قبل الإسلام ، لذلك لايمكن لأحد أن يجزم أن أولئك التجار كانوا من المسلمين ، إضافة إلى أن الكاتب لم يوضح هل كان التجار من هذه المناطق بالكثرة التي يمكن أن تؤدي إلى أهمية تجارية أم أنهم كانوا مجرد أفراد قلة ؟؟ .

(٣٥) **ابن خلدون** ، العبر ، جـ٦ ، ص ١٩٩ .

(٣٦) **البكري** ، المغرب ، ص ١٧٥ ، وقد كتب البكري هذا الوصف سنة ٤٦٠هـ (١٠٦٧م) أي قبل حوالي تسع سنوات من مجيء المرابطين إلى غانه .

(٣٧) أشار آدم متز Adam Mez فى حديثه عن التجارة فى الإسلام فى القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) إلى أنه اشتهر عن التاجر المسلم التزامه بالأمانة فى تعامله ، فكان أهلا لأن يوثق به كل الثقة . انظر الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجري (أو عصر النهضة فى الإسلام) ، ترجمة محمد أبو ريده ، بيروت : ط ٥ ، د ت ، جـ٢ ، ص ٣٩٠ .

(٣٨) أبرز الدكتور حسن إبراهيم حسن مبدأ المساواة كعامل مهم فى انتشار الإسلام فى افريقيا . كما ناقش دور التجار المسلمين فى نشر الإسلام فى غرب افريقيا وكيف أنهم كانوا نماذج حية تمثلت فيها مبادىء الإسلام مما كان له أكبر الأثر فى اجتذاب السودانيين إليهم . انظر انتشار الإسلام فى القارة الأفريقية ، القاهرة : ١٩٦٤ ، ص ص ٧٣ – ٨١ ، **وتوماس أرنولد** ، الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرون ، القاهرة : ١٩٧٠ ، ص ص ٣٩١ – ٣٩٧ .

(٣٩) انظر **البكري** ، المغرب ، ص ١٧٤ – ١٧٥ .

(٤٠) نفس المصدر ، ص ١٧٥ .

(٤١) نفس المصدر ، ص ١٧٦ .

(٤٢) الصوننك هم من الماندنجو Mandingo (أو الشعوب المتكلمة بلغة الماندي) : Mande-Speaking Peoples لتفصيل أكثر عنهم انظر

A. Mabogunje, "The Land and Peoples of West Africa," *In:* **Ajayi** *and* **Crowder**, eds., *History of West Africa,* vol. 1, pp. 15-18 .

(٤٣) **إبراهيم علي طرخان** ، امبراطورية غانه الإسلامية ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧٠ ، ص ٤٨ . ولم تصبح حكومة غانه إسلامية إلا بعد غزو المرابطين لها سنة ٤٦٩هـ (١٠٧٦م) الذين أقاموا عليها حاكماً مسلماً . ومنذ ذلك الوقت وحكومتها إسلامية حتى زوالها على أيدي الصوصو . انظر نفس المرجع ص ص ٥٢ – ٥٣ .

(٤٤) **البكري** ، المغرب ، ص ١٧٦ ، وانظر **Levtzion**, *Ancient Ghana*, p. 28 .

(٤٥) **البكري** ، المغرب ، ص ١٧٧ ، وانظر **طرخان** ، امبراطورية غانه ، ص ٤٨ .

(٤٦) **البكري** ، المغرب ص ١٧٩ ، **محمد بن حوقل النصيبي** ، صورة الأرض ، بيروت : ١٩٧٩ ، ص ٩١ .

(٤٧) انظر : **Trimingham**, *op. cit.*, pp. 84-85; **Davidson**, *Africa in History*, p. 71 .

(٤٨) **Hopkins**, ed., *op. cit.*, p. 450; **Trimingham**, *op. cit.*, p. 85 .

(٤٩) **Hopkins**, ed., *op. cit.*, p. 6; **Levtzion**, "The Early States of the Western Sudan to 1500", In: **Ajayi and Crowder**, eds., *History of West Africa*, vol. 1, p. 136 .

(٥٠) عن شعب الصنغاي انظر :

J. Hunwick, "Religion and States in the Songhay Empire," In: **I. Lewis**, *ed.*, *Islam in Tropical Africa*, Oxford, 1969, pp. 296-297 .

(٥١) **Davidson**, *Africa in History*, p. 88; **Levtzion**, *The Early States of the Western Sudan*, pp. 135-136 .

(٥٢) **Davidson**, *Africa in History*, p. 88 .

ويلاحظ أن هذه المملكة الصغيرة كانت هي النواة الأولى لامبراطورية الصنغاي العظمى آخر امبراطوريات السودان والتي قامت سنة ٨٦٩هـ (١٤٦٤م) متخذة جاو عاصمة لها ، انظر :

Hunwick, *op. cit.*, pp. 297-298 .

(٥٣) **Bovill**, *op. cit.*, p. 133 .

(٥٤) **B. Davidson**, *The Lost Cities of Africa*, Boston, 1970, p. 100 .

(٥٥) **Levtzion**, *Ancient Ghana*, pp. 136, 183 .

(٥٦) *Ibid.*, p. 161 .

(٥٧) **البكري** ، **المغرب** ، ص ١٨٣ ، وتجدر الإشارة هنا إلى أن اتجاه المسلمين فى المجتمعات غير المسلمة إلى الإقامة فى أماكن أو أحياء خاصة بهم ظاهرة لم يختص بها التجار المسلمون فى السودان فى ذلك الوقت ، بل وجدت فى أماكن وأزمان أخرى عندما يكون هناك أقلية إسلامية بين أكثرية أو أغلبية غير مسلمة . انظر على سبيل المثال : **محمود شاكر** ، العالم الإسلامي ، بيروت : المكتب الإسلامي ، ١٤٠٣هـ ، الصفحات ٢٠٢ ، ٢١٠ ، ٢٧٥ . **Levtzion**, *Ancient Ghana*, p. 161 .

(٥٨) كتاب العزيزي ، نقلا عن **ياقوت الحموي** ، معجم البلدان ، بيروت ، ١٩٧٩ ، جـ ٤ ، ص ٤٩٥ (مادة كوكو) .

(٥٩) انظر **البكري** ، المغرب ، ص ١٨٣ ، **ياقوت الحموي** ، معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ٤٩٥ .

(٦٠) انظر **البكري** ، المغرب ، ص ١٧٢ .

(٦١) انظر على سبيل المثال **Fage**, *A History of West Africa*, p.3

(٦٢) البكرى ، المغرب ١٦٧ – ١٦٨ ، ١٧٢ ، وانظر : **Trimingham**, *op. cit.*, pp. **41-42** .

(٦٣) **البكري** ، المغرب ، ص ١٧٢ .

(٦٤) يعتبر ابن حوقل (ت ٣٦٧هـ/٩٧٧م) أول من ذكر أوليل كمنجم بحري للملح (صورة الأرض ، ص ٩١) ، كما ذكرها بعد ذلك كل من **البكري** (المغرب ، ص ١٧١) والإدريسي (انظر **Hopkins**, ed., *op. cit.*, p. 106)

(٦٥) انظر ماكتب عن الملح فى موضوع «النتائج الفعلية لمجهودات التجار المسلمين» فى هذا البحث .

(٦٦) فى إشارة ابن حوقل إلى أوليل ذكر أنها تقع على نحر البحر (صورة الأرض ، ص ٩١) ، وكذلك الإدريسي أشار إلى أنها جزيرة فى البحر قرب الساحل ، (انظر **Hopkins**, ed., *op. cit.*, p. 166)

(٦٧) **Levtzion**, *Ancient Ghana*, p. 171 .

(٦٨) **ابن حوقل** ، صورة الأرض ، ص ٩١ .

(٦٩) **البكري** ، المغرب ، ص ١٧١ .

(٧٠) انظر نفس المصدر ، ص ١٧٤ ، **وطرخان** ، امبراطورية غانه ، ص ص ٦٦ – ٦٧ .

(٧١) **Bovill**, *op. cit.*, p. 83 .

(٧٢) *Ibid.*

(٧٣) **الجنحاني** ، المغرب الإسلامي ، ص ١٨١ .

(٧٤) انظر على سبيل المثال : **البكري** ، المغرب ، ص ١٧٤ و **محمد بن عبدالرحيم الأندلسي** ، تحفة الألباب ، تحقيق ج . فيراند فى : *Journal Asiatique, Paris, 1929,* Vol. **207**, pp. 41-42.

(٧٥) يبدو أن أول إشارة فى المصادر العربية إلى التجارة الصامتة فى تبادل الذهب بأرض السودان ظهرت عند **المسعودي** ، (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م) فى كتاب مروج الذهب (جـ ٢ ، ص ٢٦١) . ففي هذا الموضع ذكر أن مبايعة الذهب كانت تتم بدون مشاهدة ولا مخاطبة حيث يأتي التجار بالأمتعة ويضعونها أكواما على شاطىء النهر وينصرفون بعيدا عن الأنظار ، ثم يعودون ليجدوا أكوام الذهب إلى جانب البضائع . فإن اقتنع التاجر بكمية الذهب أخذها وترك الأمتعة وإن لم يقتنع وأراد المزيد ترك الجميع وانصرف . وقد لايحصل على زيادة فى الذهب وربما تكرر هذه المحاولات . . وهكذا . ويلاحظ أن هذه الطريقة فى التبادل لم تكن مقصورة على السودان الغربي ، إذ يشير المسعودي فى نفس الصفحة إلى أنها وجدت فى بقاع أخرى ، وذكر أقاصي بلاد خراسان كمثال على ذلك .

أما سبب ممارسة هذه الطريقة فى السودان فإن البعض علل ذلك بأن السكان الأصليين التجأوا إليها لئلا يعرف التجار وغيرهم مواقع مناجم الذهب فتبقى بذلك سرا لايعرفه إلا الأهالي . انظر :

Hopkins, ed., *op. cit.*, p. 30; **Levtzion**, *Ancient Ghana*, p. 153.

(٧٦) **طرخان** ، امبراطورية غانه ، ص ص ٦٧ – ٦٨ ، **Davidson**, *The Lost Cities*, p. 82.

(٧٧) **محمد الغربي** ، بداية الحكم ، ص ٤٠ – ٤١ .

(٧٨) **البكري** ، المغرب ، ص ١٧٦ . ويبدو أنه قبيل دخول القوافل إلى أراضي مملكة غانه يجزىء التجار أحمال

الجمال إلى أقسام صغيرة لتنقلها الحمير داخل غانه كإجراء فرضته السلطات فيها من أجل الضرائب ، انظر :
Davidson, *Africa in History*, p. 76.

(٧٩) **البكري** ، المغرب ، ص ١٧٧ .

(٨٠) انظر **Bovill**, *op. cit.*, pp. 81-82

(٨١) انظر **Davidson**, *Africa in History*, p. 76.

(٨٢) انظر **Levtzion**, *Ancient Ghana*, pp. 115-116.

(٨٣) **الجنحاني** ، المغرب الإسلامي ، ص ٢٩ .

(٨٤) انظر **Hopkins**, ed., *op. cit.*, p. 41.

(٨٥) **البكري** ، المغرب ، ص ١٦٨ .

(٨٦) **طرخان** ، امبراطورية غانه ، ص ص ٧٣ — ٧٤ .

(٨٧) انظر **Hopkins**,ed., *op. cit.*, p. 107.

(٨٨) **Levtzion**, *Ancient Ghana*, p. 171.

(٨٩) *Ibid.*, pp. 171-172.

(٩٠) انظر **طرخان** ، امبراطورية غانه ، ص ص ٧٤ — ٧٥ .

(٩١) **ابن حوقل** ، صورة الأرض ، ص ٩٨ .

(٩٢) **البكري** ، المغرب ، ص ١٧٤ .

(٩٣) تحفة الألباب ، ص ص ٤١ — ٤٢ .

(٩٤) انظر **Hopkins**, ed., *op. cit.*, p. 107.

(٩٥) **البكري** ، المغرب ، ص ١٥٨ .

(٩٦) نفس المصدر ، ص ١٨١ .

(٩٧) **ابن حوقل** ، صورة الأرض ، ص ٩٨ .

(٩٨) **طرخان** ، امبراطورية غانه ، ص ص ٧٤ — ٧٥ .

(٩٩) انظر **Levtzion**, *Ancient Ghana*, p. 173.

(١٠٠) **الجنحاني** ، «الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى سجلماسه عاصمة بني المدرار» مجلة المؤرخ العربي ، بغداد : العدد الخامس ، ص ١٤٨ .

(١٠١) صورة الأرض ، ص ٩٤ .

(١٠٢) **البكري** ، المغرب ، ص ١٥١ .

(١٠٣) **ابن حوقل** ، صورة الأرض ، ص ٩٦ .

(١٠٤) نفس المصدر ، ص ٦٥ . ولقد ساد الاعتقاد أن ابن حوقل زار أودغشت وذلك استنتاجا على مايبدو من عبارة أخرى للمؤلف (نفس المصدر ، ص ٩٦) أخبر فيها عن مشاهدته للصك فى هذه المدينة ، إلا أن الدراسة التي قدمها لفتزيون **Levtzion** فى بحث له بعنوان
"Ibn Hawqal, The Cheque, and Awdaghost" *Journal of African History*, 1968, Vol.IX, Part 2, pp. 223-233, أظهرت أن ما أورده ابن حوقل من نصوص عن الصحراء والسودان الغربي لاتؤيد أنه زار

أودغشت ، كما أشارت الدراسة أيضا إلى الغموض الذى اكتنف العبارة الثانية ، لذلك رجح كاتب البحث المذكور أن ابن حوقل لم يزر أودغشت ، وأن الصك كتب فى هذه المدينة وشاهده ابن حوقل فى سجلماسه وهي المكان الذى استلم فيه الدائن المبلغ ، وهذا فى الحقيقة مايفهم من العبارة الأولى (ص ٩٦) وهي التي اعتمدنا عليها فى البحث الذى بين أيدينا .

(١٠٥) **Fage**, *A History of West Africa*, p. 2.

ويلاحظ أن الأستاذ فيج Fage ذكر فى إشارته إلى الصك أن المبلغ كان ٤٠,٠٠٠ دينار هذا بالرغم من أن ابن حوقل ذكر بالنص أن المبلغ كان ٤٢,٠٠٠ فى موضعين من كتابة صورة الأرض (ص ٦٥ و ٩٦) والأستاذ فيج لم يشر إلى مصدره . ويبدو أن الالتباس وجد فى الترجمة الفرنسية للجزء الخاص بأفريقيا من كتاب ابن حوقل حيث وقع فى نفس الالتباس الأستاذ بوفل Bovill (مرجع سابق ، ص ٧١) ، وأشار إلى هذه الترجمة كمرجع له .

(١٠٦) **ابن حوقل** ، صورة الأرض ، ص ٩٦ .

(١٠٧) انظر : **Bovill**, *op. cit.*, p. 101; **Davidson**, *Africa in History*, p. 61.

(١٠٨) **أبو بكر عبدالله بن ابي عبدالله المالكي** ، رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان ، جـ ١ ، تحقيق حسين مؤنس ، القاهرة : ١٩٥١ ، ص ٣٨٨ .

(١٠٩) ربما كانت هناك أسبابا أخرى أدت إلى عزوف ذلك الرجل عن أخذ الأرث ، فعلى سبيل المثال ، الفقيه عبدالله بن أبي زيد القيرواني المالكي (ت ٣٨٦هـ/٩٩٦م) يرى عدم إباحة ناب الفيل الذى لم يذبح حسب الطريقة الشرعية . عن الفقيه القيرواني ونص فتواه انظر : **Hopkins**, ed., *op. cit.*, p. 55.

(١١٠) **طرخان** ، امبراطورية غانه ، ص ٦٥ .

(١١١) **متـز** ، الحضارة الإسلامية ، جـ ٢ ، ص ص ٣١٦ - ٣١٧ .

(١١٢) **Bovill**, *op. cit.*, p. 101.

(١١٣) **البكري** ، المغرب ، ص ١٧٩ .

(١١٤) **Hiskett**, "Material Relating to the Cowry Currency of the Western Sudan" *Bulletin of the School of Oriental and African Studies,* 1966, **29**, Part 2, p. 30.

(١١٥) *Ibid.*, p. 347 . ولمزيد من المعلومات عن قيمة الودع المادية واستخدامه فيما بعد كعملة فى منطقة غرب افريقيا ، انظر :

Ibid., pp. 346-358; **Johnson**, "The Cowrie Currencies of West Africa" *Journal of African History,* 1970, Vol. **11**, part 3, pp. 331-353.

(١١٦) انظر **Hopkins**, ed., *op. cit.*, p. 128.

(١١٧) *Ibid.*, p. 130.

(١١٨) **البكري** ، المغرب ، ص ١٥٩ و ١٧٩ وانظر :

Hopkins, ed., *op. cit.*, pp. 38-39.

(١١٩) **Hopkins**, ed., *op. cit.*, pp. 39,128.

(١٢٠) **Bovill**, *op. cit.*, p. 105.

(١٢١) **البكري** ، المغرب ، ص ١٧٣ .

(١٢٢) نفس المصدر ، ص ١٥٢ .

(١٢٣) نفس المصدر ، ص ١٥٨ ، **متز** ، الحضارة الإسلامية ، جـ٢ ، ص ٣١٠ .

(١٢٤) **ابن الفقيه الهمذاني** ، مختصر كتاب البلدان ، ليدن ، ١٨٨٥ ، وأعادت نشره مكتبة المثنى ، بغداد : د.ت ، ص ٨٠ .

(١٢٥) **البكري** ، المغرب ، ص ١٦١ .

(١٢٦) **البكري** ، المغرب ، ص ١٥٩ ، ويلاحظ أنه سبقت الإشارة إلى أن بلاد التكرور كانت تصدر نوعا من المنسوجات القطنية تسمى الشكات ، وهو نوع مشهور ، ولاشك أن فى إشارة المصادر إلى أن السودان كان يستورد المنسوجات القطنية دليل على أن إنتاج السودان من هذه السلعة لم يكن يسد حاجة السكان هناك .

(١٢٧) **Brett**, "Ifriqiya as a Market for Saharan Trade From the 10th to the 12th Century A.D." *Journal of African History*, 1969, Vol. **10**, part 3, p. 357.

(١٢٨) **Hopkins**, ed., *op. cit.*, p. 128.

(١٢٩) **الجنحاني** ، المغرب الإسلامي ، ص ٥٨ و ٥٩ .

(١٣٠) **المالكي** ، رياض النفوس ، ص ١١٧ ، وعن **الفقيه ابن فروخ** ، انظر نفس المصدر ، ص ص ١١٣ – ١٢٢ .

(١٣١) ويقال أيضا المضاربة ، راجع **ابن منظور** ، لسان العرب ، بيروت : جـ٧ ، ص ٢١٨ .

(١٣٢) وهو علي بن محمد المعافري ، ويعرف بابن القابسي ، توفى سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م ، انظر **ابن العماد الحنبلي** ، شذرات الذهب ، بيروت : جـ٣ ، ص ١٦٨ .

(١٣٣) عن ما أورده الونشريسي بخصوص الفتوى والإجابة عليها انظر **ميتشل برت** ، «فتويان من أواخر القرن الرابع الهجري تتعلقان بالتجارة عبر الصحراء» ، مجلة البحوث التاريخية ، العدد الأول ١٩٨١ ، ص ٦٢ و ٦٣ .

(١٣٤) **Hopkins**, ed., *op. cit.*, p. 113.

(١٣٥) **ابن حوقل** ، صورة الأرض ، ص ٦٥ ، وانظر الحاشية رقم ١٠٤ من هذا البحث .

(١٣٦) الحضارة الإسلامية ، جـ٢ ، ص ٣٧٩ و ٣٨٠ .

(١٣٧) انظر **ابن حوقل** ، صورة الأرض ، ص ٩٩ ، **الجنحاني** ، المغرب الإسلامي ، ص ١٧٧ .

(١٣٨) **C. Julien**, *History of North Africa*, Translated by **J. Petrie**, London, 1970, p. 77.

(١٣٩) **Lewis**, ed., *Islam in Tropical Africa*, Intro., pp. 23-24.

(١٤٠) **محمد بن عبدالمنعم الحميري** ، الروض المعطار فى خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت : ١٩٧٥م ، ص ٣٠٦ ، وانظر **الجنحاني** ، المغرب الإسلامي ، ص ١٥٢ .

(١٤١) انظر ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٦٥ .

(١٤٢) **الحميري** ، الروض المعطار ، ص ٣٠٦ ، الجنحاني ، المغرب الإسلامي ، ص ١٤٩ .

(١٤٣) **ابن حوقل** ، صورة الأرض ، ص ٩٧ .

(١٤٤) **ياقوت الحموي** ، معجم البلدان ، جـ٣ ، ص ١٩٢ .

(١٤٥) **Levtzion**, *Ancient Ghana*, p. 136; **Brett**, *"Ifriqiya as a Market"*, p. 356.

(١٤٦) **محمود إسماعيل** ، الخوارج ، ص٢١١ .

(١٤٧) **Levtzion,** *Ancient Ghana,* p. 136.

(١٤٨) *Ibid.,* p. 137.

(١٤٩) انظر **Hopkins,** ed., *op. cit.,* pp. 108, 111, 128.

(١٥٠) انظر **الحميري** ، الروض المعطار ، ص ٤٦ .

(١٥١) **ابن حوقل** ، صورة الأرض ، ص ٩٧ .

(١٥٢) انظر **Hopkins,** ed., *op. cit.,* p. 128.

(١٥٣) انظر *Ibid.,* p. 108.

(١٥٤) **Davidson,** *The Lost Cities,* pp. 85-88; **Levtzion,** *Ancient Ghana,* pp. 23-24.

(١٥٥) *Ibid.,* p. 24.

(١٥٦) انظر ماكتب عن مملكة جاو فى الصفحات السابقة من هذا البحث .

(١٥٧) انظر **Hopkins,** ed., *op. cit.,* p. 113.

(١٥٨) **ابن حوقل** ، صورة الأرض ، ص ٩١ .

(١٥٩) انظر **الجنحاني** ، المغرب الإسلامي ، ص ١٩٤ .

(١٦٠) **البكري** ، المغرب ، ١٥٩ .

(١٦١) نفس المصدر ، ص ١٥٨ .

(١٦٢) انظر **الجنحاني** ، المغرب الإسلامي ، ص ٢٠٩ .

(١٦٣) **البكري** ، المغرب ، ص ١٨١ .

المراجـــع

أولا : المراجع العربيـة

آرنولد ، توماس ، الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرون ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٠ .

إسماعيل ، محمود ، الخوارج فى المغرب الإسلامي ، بيروت ، دار العودة ، ١٩٧٦ .

الأندلسي ، أبو حامد محمد بن عبدالرحيم (ت ٥٦٥هـ) تحفة الألباب ، تحقيق ج . فيراند ، نشر فى :
Journal Asiatique, Tom, 207 Paris, 1925.

برت ، ميتشل ، «فتويان من أواخر القرن الرابع الهجري تتعلقان بالتجارة عبر الصحراء» مجلة البحوث التاريخية ، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، طرابلس ، السنة الثالثة العدد الأول ، ١٩٨١ .

البكري ، أبو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز (ت ٤٨٧هـ) المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، تحقيق م . ج . دي سلان ، الجزائر ، ١٨٥٧ ، وأعادت نشره المكتبة الشرقية الأمريكية ، باريس ، ١٩٦٥ .

البلاذري ، أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ) فتوح البلدان ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤٠٣هـ .

بولم ، دنيس ، الحضارات الأفريقية ، ترجمة على شاهين ، بيروت ، دار مكتبة الحياة ، ١٩٧٤.

الجنحاني ، الحبيب ، المغرب الإسلامي : الحياة الاقتصادية والاجتماعية (٣ - ٤هـ / ٩ - ١٠م) ، تونس ، الدار التونسية للنشر ، ١٣٩٨هـ .

الجنحاني ، الحبيب ، «الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى سجلماسه عاصمة بني المدرار» ، مجلة المؤرخ العربي ، بغداد ، العدد الخامس ، د . ت .

حسن ، حسن إبراهيم ، انتشار الإسلام فى القارة الافريقية ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٤ .

الحموي ، ياقوت بن عبدالله (ت ٦٢٦هـ) معجم الأدباء ، القاهرة ، دار المأمون ، ١٣٥٧هـ .

الحموي ، ياقوت بن عبدالله ، معجم البلدان ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، ١٩٧٩ .

الحميري ، محمد بن عبدالمنعم (ت ٧٢٧هـ ؟) الروض المعطار فى خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ، مكتبة لبنان ، ١٩٧٥م .

الحنبلي ، عبدالحي بن أحمد بن العماد (١٠٨٩هـ) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، د . ت .

ابن حوقل ، أبو القاسم محمد بن حوقل (ت بعد ٣٦٧هـ) صورة الأرض ، بيروت ، دار مكتبة الحياة ، ١٩٧٩م .

ابن خلدون ، عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ) كتاب العبر وديون المبتدأ والخبر . . ، بيروت ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، ١٣٩١هـ .

طرخان ، إبراهيم على ، امبراطورية غانه الإسلامية ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٣٩٠هـ .

ابن عبدالحكم ، عبدالرحمن بن عبدالله (ت ٢٥٧هـ) فتوح مصر والمغرب ، تحقيق عبدالمنعم عامر ، القاهرة ، لجنة البيان العربي ، ١٩٦١ .

ابن عذاري ، أبو العباس أحمد بن محمد (ت بعد ٧١٢هـ) البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق ج . س . كولان و ا . ل . بروفنسال ، ليدن ، بريل ، ١٩٤٨ .

الغربي ، محمد ، بداية الحكم المغربي فى السودان الغربي ، الكويت ، مؤسسة الخليج للطباعة والنشر ، ١٩٨٢ .

القيرواني ، الرقيق أبو اسحاق إبراهيم بن القاسم (ت بعد ٤١٧هـ) تاريخ افريقية والمغرب : قطعة منه تبدأ من أواسط القرن الأول إلى أواخر القرن الثاني هـ ، تحقيق المنجي الكعبي ، تونس ، ١٩٦٨ .

المالكي ، أبو بكر عبدالله بن ابي عبدالله (ت بعد ٤٤٩هـ) رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان ، جـ١ ، تحقيق حسين مؤنس ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥١ .

متز ، آدم ، الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع هـ (أو عصر النهضة فى الإسلام) ، ط ٥ ، ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريده ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، د . ت .

المسعودي ، على بن الحسين (ت ٣٤٦هـ) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد ، بيروت ، دار المعرفه ، د . ت .

ابن منظور ، أبو الفضل محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ) لسان العرب ، بيروت ، دار صادر ، د . ت .

موني ، ريموند ، «طرق التجارة عبر الصحراء بين ليبيا ومناطق السفانا فى النيجر وتشاد قبل الفتح العربي» مجلة البحوث التاريخية ، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، طرابلس ، السنة الثالثة ، العدد الأول ، ١٩٨١ .

الهمذاني ، أحمد بن محمد بن الفقية ، (ت . نحو ٣٤٠هـ) مختصر كتاب البلدان ، تحقيق دى غوية ، ليدن ، ١٨٨٥م ، وأعادت نشره مكتبة المثنى ببغداد ، د . ت .

اليعقوبي ، أحمد بن اسحاق ، (ت بعد ٢٩٢هـ) ، كتاب البلدان ، ليدن ، بريل ، ١٩٦٧ .

اليقوبي ، أحمد بن اسحاق ، تاريخ اليعقوبي ، بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٠ .

ثانياً : المراجع الأجنبية

Ajayi, J.F. and **Crowder, M.,** eds., *History of West Africa.* vol. 1, London: Longman, 1976.

Bovill, E.W., *The Golden Trade of the Moors.* Oxford: Oxford University Press, 1978.

Brett, M., Ifriqiya as a Market for Saharan Trade from the 10th to the 12th century A.D., *Journal of African History,* **10,** part 3, 1969.

Davidson, B., *Africa in History.* New York: Macmillan Publishing Company, 1974.

————, *The Lost Cities of Africa.* Boston: Little Brown and Company, 1970.

Encyclopaedia of Islam, Vol. IV, Leyden, 1934.

Fage, J.D., *A History of West Africa.* Cambridge: Cambridge University Press, 1972.

————, *An Atlas of African History,* Edward Arnold Ltd., 1st ed., 1958.

Hiskett, M., Material Relating to the Cowry Currency of the Western Sudan, *Bulletin of the School of Oriental and African Studies,* **29,** part 2, 1966.

Hopkins, J.F. ed., *Corpus of Early Arabic Sources of West African History.* Cambridge: Cambridge University Press, 1981.

Hunwick, J., Religion and State in the Songhay Empire, *In:* **Lewis,** ed., *Islam in Tropical Africa.* Oxford: Oxford University Press, 1969.

Jarrett, H.R., *An Outline Geography of Africa.* London: Methuen Educational Ltd., 1971.

Julien, C., *History of North Africa: Tunisia, Algeria, Morocco.* Translated by **J. Petrie,** London: Routledge and Kegan Paul, 1970.

Levtzion, N., *Ancient Ghana and Mali.* London: Methuen and Co. Ltd., 1973.

————, The Early States of the Western Sudan to 1500, *in:* **Ajayi** and **Crowder,** eds., *History of West Africa,* Vol. 1, London, 1976.

————, Ibn Hawqal, The Cheque, and Awdaghost, *Journal of African History,* **9,** part 2, 1968.

Lewis, I.M., ed., *Islam in Tropical Africa.* Oxford, 1969.

Mabogunje, A., The Land and Peoples of West Africa. *In:* **Ajayi** and **Crowder,** eds., *History of West Africa,* Vol. 1, London, 1976.

McCall, D.F., Islamization of the Western and Central Sudan in the 11th Century. *Boston University, Papers on Africa,* Vol. **5,** 1971.

McEvedy, C., *The Penguin Atlas of African History.* Middlesex: Penguin Books Ltd., 1985.

Oliver, R. and **Fage, J.D.,** *A Short History of Africa.* Middlesex: Penguin Books Ltd., 1975.

Shaw, T., The Prehistory of West Africa. *In:* **Ajayi** and **Crowder,** eds., *History of West Africa,* Vol. 1, London, 1976.

Trimingham, J.S., *A History of Islam in West Africa.* London: Oxford University Press, 1975.

The Role of Muslim Traders in the Promotion of Trade between Al-Maghrib and Western Sudan from the Early 3rd Century Up to the End of the 5th Century A.H.

SAUD HAMAD AL-KHATHLAN
Assistant Professor, Department of History,
Faculty of Arts and Humanities,
King Abdulaziz University, Jeddah, Saudi Arabia

ABSTRACT. The present paper aims at shedding light on the active role played by Muslim traders in the trans-Saharan trade between Al-Maghrib and Western Sudan in the period referred to above. In handling this topic the researcher hopes to illustrate the enormous effort and painstaking work which those traders undertook to benefit these countries on both sides of the Sahara.

This area of commercial relationships, as a topic of study has not received due attention from researchers. In this respect we do not have more than scattered references in some related works.

Commercial contact between north and south of the Sahara was old and caravans crossed the desert carrying trade for centuries. The Phoenicians and the Romans participated in it for a long time.

When Muslims appeared on the scene they gave the Saharan trade new impetus. During their time the Saharan trade prospered immensely.

In conclusion, the paper shows that never at any previous era has this trade increased in value and volume as it has done during the Muslim time. Volume of goods, especially gold and salt, increased enormously. New arrangements and a code of commercial rules were introduced to the area to facilitate the flux of the trade. The centers of trade in both areas flourished and expanded.

Eventually, it is worth mentioning that the paper depended largely on primary sources provided by Muslims writers such as Ibn Hawqal, who visisted Sijilmasa and Al-Bakry who depended on first hand information from traders and other authorities.

مجلة جامعة الملك عبدالعزيز : الآداب والعلوم الإنسانية ، م ٥ ، ص ص ٧٥ - ١٠١ (١٤١٢هـ/١٩٩٢م) .

أنموذج لتقدير المتوسط الشهري لكمية التبخر فى المملكة العربية السعودية مقارنة بأنموذجي بنمان وإيڤانوف

محمد بن عبدالله الجراش

أستاذ ، قسم الجغرافيا ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة الملك عبدالعزيز
جـــــدة ، المملكة العربية السعودية

المستخلص : تقدم هذه الدراسة أنموذجا لتقدير المتوسط الشهري لكمية التبخر فى أي موقع فى الحيز الجغرافي للمملكة العربية السعودية . وصياغة هذا الأنموذج ترتكز على :

- التحويراللوغارتمي للمتوسطات الشهرية لقياسات كمية التبخر فى ثمانية مواقع متباعدة مكانيا ومتباينة فى خصائصها السطحية .

- تحليل العلاقة الاعتيادية لعنصر التبخر على عنصري الحرارة والرطوبة .

ولغرض المقارنة تم تطبيق أنموذجي بنمان وإيڤانوف على نفس المواقع . وقـــد تمخضت مقارنة نتائج النماذج الثلاث بالقياسات الفعلية وببعضها البعض عن :

- أن من غير المناسب تطبيق أنموذج بنمان على بيئة دفيئة - حارة مثل بيئة الجزيرة العربية ، حيث إنه يفرز نتائج متطرفة للغاية لشهور الفترة الحارة من السنة .

- أن الفروق بين القيم المقاسة والمقدرة بتطبيق أنموذجـــي إيڤانـــوف والأنموذج المقترح هي فروق قليلة نسبيا ، كما أن مسيرة القيم المقدرة هي أفضل توازنا على مدار السنة وبالتالي أنسب للتطبيق .

مقــدمــــة

تهدف هذه الدراسة إلى وضع صيغة أنموذج مقترح لتقدير المتوسط الشهري لكمية التبخر فى المملكة العربية السعودية يكون بديلا للنماذج العامة شائعة التطبيق ، والتـي تستند أصولها على تحليل حسابي لقياسات كمية التبخر فى بيئات جغرافية مغايرة للبيئة الجغرافية للجزيرة العربية . ومامن شك فى أن

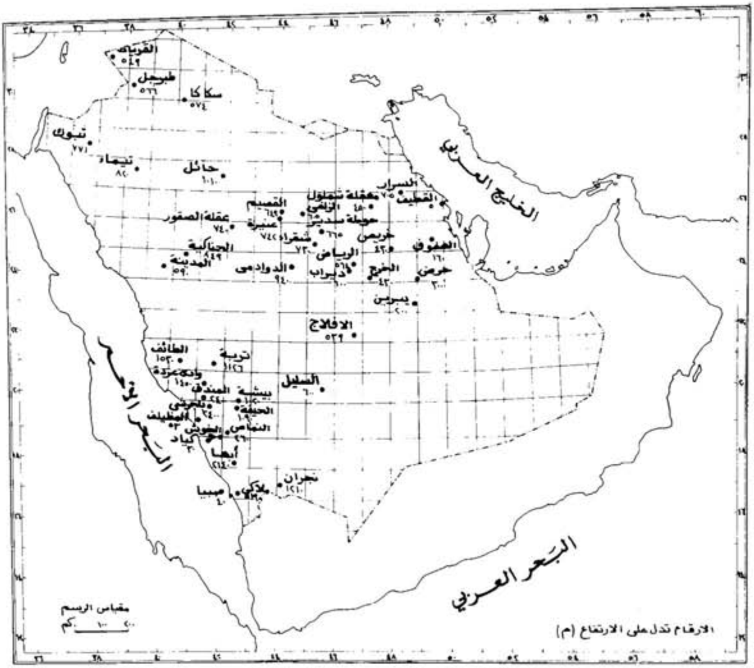
التوصل إلى صيغة مقبولة ، لتقدير المتوسط الشهري لكمية التبخر ، تستند على تحليلات إحصائية لمتوسطات القياسات الفعلية لكمية التبخر في المواقع التي يتم فيها قياس التبخر في المملكة (٤٢ موقعا) ، ستكون أدق في تمثيلها للخصائص الطبيعية الفاعلة في تحديد كمية التبخر ، وضبط الاختلافات المكانية والزمانية في الحيز الجغرافي للمملكة لهذا العنصر المناخي البالغ الأهمية من وجهة النظر العملية - التطبيقية .

والحاجة إلى وضع أنموذج لتقدير كمية التبخر في المملكة تفرضها حقيقة أن التوزيع المكاني لمواقع قياس التبخر يرتبط بمواقع فروع وزارة الزراعة والمياه ، وبالتالي يأخذ نمطا مكانيا ، بحكم طبيعة توزيع الإمكانات الزراعية ، يتسم بالتركز غير المتناسق . هذا الوضع نجم عنه أن تكون شبكة قياس التبخر ، مثلها مثل الشبكة العامة لقياس العناصر المناخية ، ضئيلة في كثافتها العددية وغير منتظمة في توزيعها المكاني على طول البلاد وعرضها ، (خريطة ١) . ولأن هذا الوضع لن يتحسن بايقاع زمني وانتشار مكاني يكفل مستوى مقبولا من الكثافة العددية والانتظام في التوزيع المكاني في المستقبل القريب ، فإن البحث عن بديل للقياس المباشر في شكل أنموذج للتقدير يظل البديل لتمثيل الفراغات المكانية الفاصلة بين المواقع التي يتم فيها قياس التبخر . وهذا الدور الأساسي لأنموذج التقدير يصحبه دور ثانوي يتمثل في تقديم وسيلة لتقدير كمية التبخر في المواقع التي يتم فيها قياس التبخر وذلك للفترات الزمنية التي لسبب أو لآخر لايتم فيها قياس التبخر . وقد تم تطوير صيغة الأنموذج المقترح هنا عبر التحرير اللوغارثمي للإحصائيات الممثلة للمتوسطات الشهرية لكمية التبخر ، ومن ثم حساب معاملات العلاقة الاعتمادية للتبخر على عنصري الحرارة والرطوبة النسبية . وأن قصر بناء النموذج على هذه العناصر الثلاث يهدف إلى :

- تحقيق مبدأ البساطة في التركيب ، وبالتالي سهولة التطبيق .
- تقليص الجهد اللازم لجمع وتحليل الإحصائيات المناخية اللازمة لتطبيق الأنموذج في الدراسات المستقبلية .

ومن الحري أن نشير هنا إلى أن هذا التبسيط لايتأتى عنه تأثير سلبي على مستوى دقة التقدير ، وذلك لأن مجمل العوامل الأساسية التي تتقاسم التحكم بظاهرة التبخر تتمثل في مجملها في عنصري الحرارة والرطوبة النسبية . فالحرارة تمثل بشكل غير مباشر تأثيرات عاملي خط العرض والارتفاع التضاريسي ، كما أن الرطوبة النسبية تمثل بشكل غير مباشر تأثير عنصر الرياح في تنشيط أو كبت ظاهرة التبخر .

ولغرض مقارنة تقدير المتوسطات الشهرية لكمية التبخر حسب الأنموذج المقترح ، وذلك في مواقع جغرافية متباينة في خصائصها الطبيعية ، بالتقديرات التي تفرزها نماذج أخرى شائعة التطبيق ، تم اختيار أنموذجي بنمان لتمثيل المدرسة الغربية وأنموذج ايفانوف لتمثيل المدرسة الروسية . وقد فرضت هذه



خريطة [١] مواقع محطات قياس التبخر

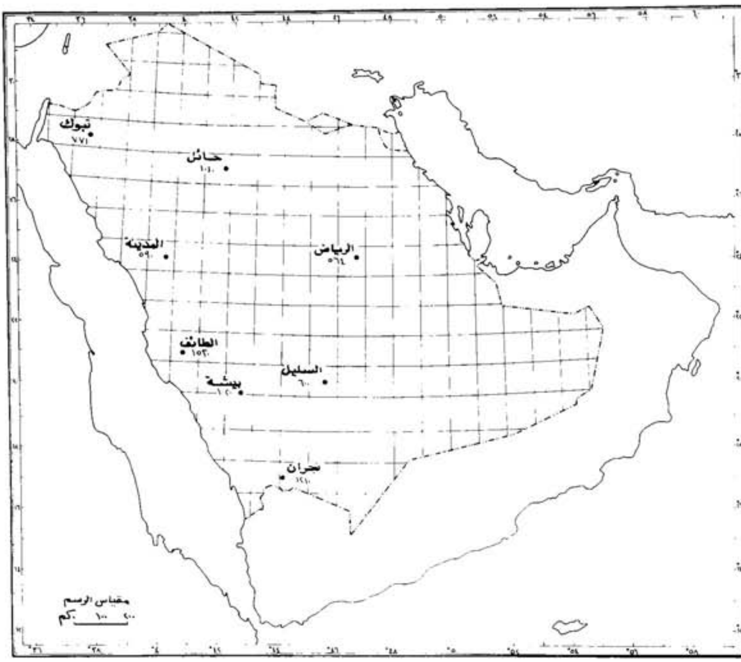
الاستراتيجية قصر تطبيق النماذج الثلاث على ثمانية مواقع وذلك لأن عنصر ضغط البخر اللازم لتطبيق أنموذج بنمان يتصادف قياسه مع قياس التبخر فى ثمانية مواقع فقط (الجدول ١ والخريطة ٢) . ومن حسن الحظ أن هذه المواقع تتوزع بشكل متباعد مكانيا وأنها متباينة فى خصائص السطح .

النمـــاذج

أ – أنموذج بنمان

وضع بنمان الصيغة الأساسية لمعادلة أنموذجه فى سنة ١٩٤٨ ، وأجرى عليها تعديلا أولا فى سنة ١٩٥٢ ، ثم تعديلا ثانيا فى سنة ١٩٥٤ (Penman, 1984, 1952, 1954) . وقد تبنت هذه الدراسة صيغة التعديل الثاني والتي يمكن أن نكتب صيغتها العربية على النحو التالي :

ت = ٠,٣٥ (٠,٥ + ر/١٠٠) (ض١ – ض٢)



خريطة [٢] مواقع تطبيق النماذج

وفيها نجد أن :

ت = كمية البخر بالملم فى اليوم .

ر = سرعة الريح على ارتفاع مترين عن السطح بالميل فى اليوم .

ض$_{1}$ = ضغط التشبع البخري بالملم .

ض$_{2}$ = ضغط البخر بالملم .

ب - أنموذج ايڤانوف

نشر ايڤانوف أنموذجه فى مجلة الجمعية الجغرافية الروسية فى سنة ١٩٥٤ (Ivanov, 1954) . ويمكن أن نكتب الصيغة العربية لمعادلة أنموذج ايفانوف على النحو التالي :

ت = ٠,٠٠١٨ (٢٥ + ح)^{2} (١٠٠ − ط)

وفيها نجد أن :

ت = كمية التبخر بالملم فى الشهر .

ح = متوسط درجة الحرارة بالدرجة المئوية فى الشهر .

ط = المتوسط الشهري للرطوبة النسبية (٪) .

جـ - الأنموذج المقترح

تأخذ معادلة الأنموذج المقترح الصيغة التالية :

ت = ١٨٥ (٢,٧١٨١٨)$^{(٠,٠٣٦\ ح\ -\ ٠,٠١٤\ ط)}$

وفيها نجد أن :

ت = كمية التبخر ملم فى الشهر .

ح = متوسط درجة الحرارة بالدرجة المئوية فى الشهر .

ط = المتوسط الشهري للرطوبة النسبية (٪) .

نتائج تطبيق النماذج

تم تطبيق هذه النماذج ، بالضروره ، على ثمانية مواقع جغرافية هي : تبوك ، حائل ، الرياض ، المدينة ، السليل ، بيشه ونجران . وقد تم تقدير المتوسطات الشهرية لكمية التبخر فى هذه المواقع ، ومن ثم فى بقية المواقع الأخرى (انظر الملحق ٢) باستخدام الحاسب الآلي وذلك من خلال ثلاث برامج كتبها الباحث بلغة البيسك (انظر الملحق ١) ويلخص الجدول التالي (جدول ١) والرسوم (١ - ٨) نتائج هذه التطبيقات فى المواقع المختارة ، إضافة إلى قيم القياس الفعلي .

ولمعرفة مدى التطابق بين المتوسطات الشهرية لكمية التبخر التي تحصلنا عليها من خلال تطبيق النماذج مقارنة بمتوسطات القياس الفعلي تمت صياغة مؤشر يعكس مدى التطابق بين القراءات ، على مدار السنة ، يأخذ الصيغة التالية :

ق = مج $\left(\frac{|م_{١} - م_{٢}|}{١٠٠}\right)$

وفيها نجد أن :

ق = مؤشر التطابق

مج = مجموع قيم المؤشر لشهور السنة .

$م_{١}$ = متوسط كمية التبخر حسب القياس الفعلي فى الشهر .

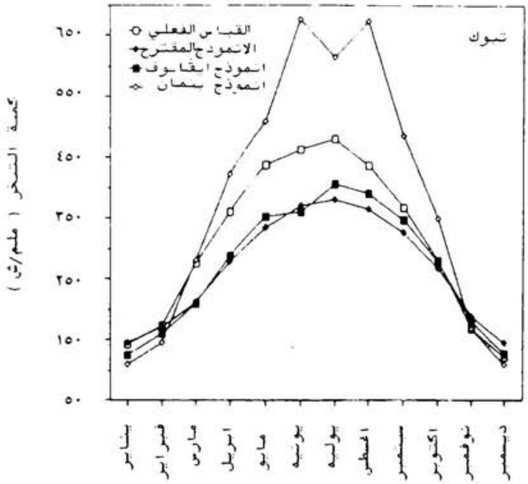
$م_{٢}$ = متوسط كمية التبخر حسب الأنموذج المعين فى الشهر .

جدول (١) المتوسطات الشهرية لكمية التبخر حسب الوسائل المقارنة (ملم)

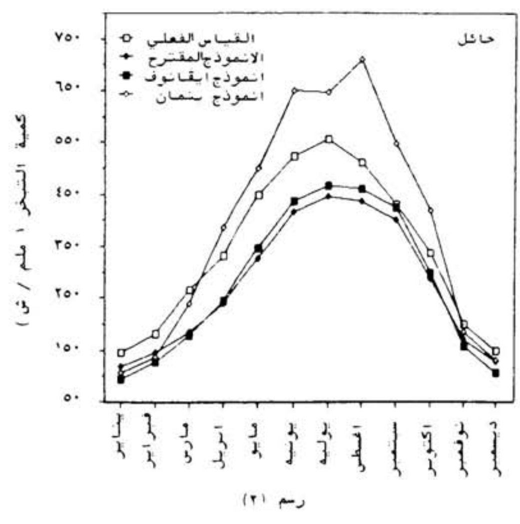
الموقع		الشهر											
		يناير	فبراير	مارس	إبريل	مايو	يونيه	يوليه	أغسطس	سبتمبر	أكتوبر	نوفمبر	ديسمبر
تبوك	القياس الفعلي	١٤٢,٢	١٧٤,٦	٢٧٥,٦	٣٦١,٢	٤٣٧,٠	٤٦٣,٧	٤٨٢,٦	٤٣٩,٠	٣٦٧,٧	٢٨٢,٠	١٦٧,٢	١٢٠,٨
	أنموذج بنمان	١٠٩,٨	١٤٥,٦	٢٨١,٩	٤٢٣,٣	٥٠٩,٨	٦٧٦,٩	٦١٥,٩	٦٧٥,٤	٤٨٦,٧	٣٥٠,٧	١٦٧,٨	١٠٧,٩
	أنموذج ايفانوف	١٢٥,٧	١٥٩,٧	٢٠٨,٢	٢٨٨,٧	٣٥٣,٠	٣٥٩,٦	٤٠٦,٢	٣٩٠,٨	٣٤٨,١	٢٧٩,٣	١٨١,٧	١٢٧,٦
	الأنموذج المقترح	١٤٤,٣	١٧١,٧	٢١٠,٩	٢٧٨,١	٣٣٤,٧	٣٧٢,٢	٣٨١,٤	٣٦٦,٨	٣٢٧,٩	٢٦٧,٩	١٨٧,٥	١٤٥,٦
حائل	القياس الفعلي	١٤٥,٨	١٨١,٤	٢٦٧,٢	٣٣٢,٥	٤٤٨,٢	٥٢٤,٢	٥٥٦,٥	٥١٢,٢	٤٣٠,٤	٣٣٨,٢	٢٠٠,١	١٤٨,١
	أنموذج بنمان	١٠٧,٨	١٣٧,٧	٢٢٩,٥	٣٨٦,٧	٥٠١,١	٦٤٩,٣	٦٤٦,١	٧٠٨,٩	٥٤٨,٢	٤١٨,٣	١٨٣,٩	١٣١,٤
	أنموذج ايفانوف	٩٤,٨	١٢٨,١	١٧٨,١	٢٤٥,٠	٣٤٦,٣	٤٧٣,٣	٤٦٧,٩	٤٥٩,٦	٤٢٤,٠	٢٩٩,٧	١٥٨,٢	١٠٦,٣
	الأنموذج المقترح	١١٩,٤	١٤٥,٤	١٨٤,٩	٢٣٨,٩	٣٢٧,٤	٤١٤,٥	٤٤٤,٨	٤٣٦,٠	٤٠١,٤	٢٨٦,٤	١٦٨,٨	١٢٨,٤
الرياض	القياس الفعلي	١٠٦,٥	١٣٩,٧	٢٠٢,٤	٢٤٩,٧	٣٢٠,٧	٣٧٠,٨	٣٩١,٧	٣٦٠,٠	٣٠١,١	٢٤١,٠	١٣٦,٧	١٠٢,٣
	أنموذج بنمان	١٤٧,٩	٢٠٨,٠	٣٣٤,٣	٣٦٣,٩	٥٣٢,٢	٧٠٨,١	٩٠٧,٢	٧٦٨,١	٦٣٨,٧	٣٢١,٦	١٨٤,٩	١١٥,٦
	أنموذج ايفانوف	١٢٧,٦	١٦٩,٥	٢٠٩,٦	٢٧٤,٣	٣٧١,٨	٤٦٠,٨	٤٩٣,٠	٤٨٦,٩	٤٣٠,٨	٣٠٦,١	١٩٠,٤	١٣٧,٣
	الأنموذج المقترح	١٤٥,٠	١٧٧,٧	٢٠٩,٧	٢٦٣,٤	٣٤٩,٦	٤٣٤,٧	٤٦٧,١	٤٦١,١	٤٠٥,٥	٢٩٠,٨	١٩٤,٦	١٥٢,٧
المدينة	القياس الفعلي	١٧٨,١	٢١٧,٦	٣٠٧,٦	٣٧٨,٦	٤٩٠,٢	٥٢٨,٣	٥٦٦,٩	٥٤٢,٠	٤٦٠,٤	٣٤٢,٢	٢١٩,٠	١٧٧,٨
	أنموذج بنمان	١٨٧,٠	٢٢٢,٨	٤١٢,٧	٥٩٦,٣	٦٦٦,١	٧٩٥,٦	٩٢٧,٥	٩٤٠,٨	٦٦٠,٢	٤٨٨,٢	٤٨٠,٢	٢٠٢,٤
	أنموذج ايفانوف	١٧١,٤	٢١٤,٤	٢٥٨,٢	٣٢١,٥	٤١٨,٧	٤٨٩,١	٤٩٣,٠	٤٩٢,٧	٤٧٥,٧	٣٧٥,٩	٢٤٠,٥	١٧٧,٢
	الأنموذج المقترح	١٧٩,٣	٢١٣,٦	٢٤٩,٧	٣٠٤,٧	٣٩٣,٤	٤٦٢,٧	٤٦٦,٧	٤٦٦,٣	٤٤٩,٣	٣٥٣,٥	٢٣٥,٢	١٨٤,٠

تابع جـــدول (١)

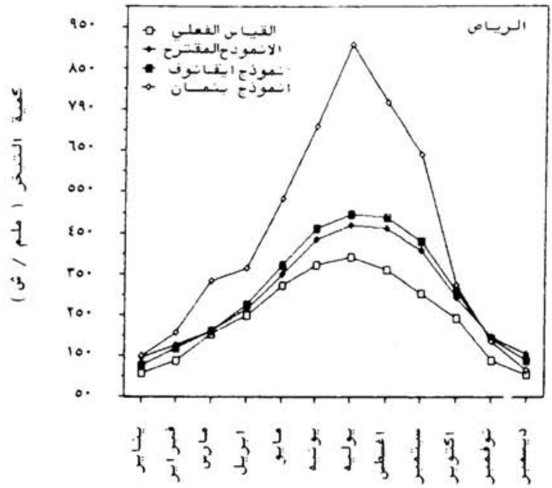
الموقع		الشهـــــر											
		يناير	فبراير	مارس	إبريل	مايو	يونيه	يوليه	أغسطس	سبتمبر	أكتوبر	نوفمبر	ديسمبر
الطائف	القياس الفعلي	١٤٩٫٤	١٦٥٫٨	٢٣٨٫٢	٢٥٧٫٠	٢٩٧٫٧	٣٦٩٫٧	٤١٦٫٢	٣٨٥٫٦	٢٩٨٫٦	٢٤٦٫٠	١٦٤٫٨	١٤٤٫٠
	أنموذج بنهان	١٢٢٫٩	١٧٣٫٦	٢٣٧٫٥	٢٨٦٫٢	٣١٥٫٥	٥٠٠٫٢	٦٣٥٫٣	٦٢٢٫٧	٣٧٥٫٨	٢٥٧٫٢	١٥٩٫٢	١١٦٫٨
	أنموذج ايفانوف	١٣٢٫٦	١٥١٫٢	١٧٤٫٣	٢٠٨٫١	٢٦٦٫٦	٣٧٥٫٦	٣٩٣٫٣	٣٨٦٫٠	٣٤٨٫٨	٣٥٥٫٤	١٦٥٫١	١٢٩٫٥
	الأنموذج المقترح	١٤٩٫٣	١٦٣٫٥	١٨٢٫٠	٢٠٨٫٨	٢٥٦٫٧	٣٥٥٫٥	٣٧٣٫٣	٣٦٥٫٣	٣٣١٫٣	٢٤٨٫٣	١٧٤٫٨	١٤٧٫١
السليل	القياس الفعلي	٢٢٩٫٦	٢٦٠٫٩	٣٨١٫٦	٤١٨٫٤	٥١٩٫٢	٥١٣٫٧	٥٥٤٫٨	٥٤٣٫٢	٤٧٤٫٩	٣٨٧٫٣	٢٨٢٫٣	٢٣٢٫٥
	أنموذج بنهان	١٩٨٫٨	٢٥٧٫١	٣٩٥٫١	٦١٤٫٩	٦٩٥٫٥	٦٦٦٫٥	٨٨٢٫٨	٧٤٢٫١	٦٧٥٫٣	٣٩٢٫١	٢٤٠٫٦	١٥٤٫٦
	أنموذج ايفانوف	١٧٥٫٠	٢١٤٫٩	٢٨٨٫٢	٣٤٩٫٩	٤٧٦٫٤	٥٤٢٫٧	٥٧٥٫١	٥٥٥٫٧	٤٩١٫٨	٣٧٣٫٤	٢٥٧٫٨	١٧٨٫٥
	الأنموذج المقترح	١٨٢٫٦	٢١٤٫٩	٢٧٥٫٧	٣٢٩٫٦	٤٥١٫٣	٥٢٣٫١	٥٥٥٫٩	٥٣٤٫٠	٤٦٨٫٩	٣٥٥٫٩	٢٥١٫٠	١٨٥٫١
بيشـه	القياس الفعلي	١٨٣٫٥	١٩٩٫٨	٢٧٦٫٢	٣٠٣٫٨	٣٤٢٫٥	٣٧٥٫٠	٤٠٥٫٠	٣٩٧٫٢	٣٥٣٫١	٣١٤٫٠	٢٢١٫٠	١٨٨٫٦
	أنموذج بنهان	١٥٨٫٧	٢٠١٫٠	٣٢٤٫١	٤٢٦٫٣	٥٦٥٫٣	٥٩٦٫٥	٧٩٧٫١	٥٥٣٫٠	٤٥٨٫٦	٣٩٢٫١	٢٣٥٫٦	١٥٤٫٣
	أنموذج ايفانوف	١٥٣٫٩	١٨٠٫٦	٢٠٩٫٩	٢٤٧٫٥	٢٩٤٫٧	٣٦٧٫٧	٣٧٦٫٨	٣٧١٫٨	٣٣٣٫٢	٢٦٧٫٠	١٩٦٫٣	١٥٣٫٩
	الأنموذج المقترح	١٦٦٫٤	١٨٧٫٤	٢١٢٫٥	٢٤٣٫٣	٢٨٣٫٧	٣٤٥٫٩	٣٥٤٫٥	٣٥٠٫٤	٣١٤٫٥	٢٥٧٫١	١٩٩٫٤	١٦٦٫٤
نجران	القياس الفعلي	١٧٦٫٦	١٩٣٫٩	٢٦٦٫٠	٢٧١٫٨	٣٤٦٫٨	٣٤٠٫٨	٣٩٩٫٤	٣٥١٫١	٣٣٤٫٧	٢٤٤٫٢	١٨٤٫٣	١٥٦٫٧
	أنموذج بنهان	١٤١٫٢	١٨٩٫٠	٢٣٣٫٤	٣٦٤٫٥	٥٠٥٫٩	٥٣٨٫٥	٧٦٣٫٨	٦٤٣٫٣	٥٢٢٫٧	٣٢٢٫٣	١٨٥٫٢	١٤٦٫٠
	أنموذج ايفانوف	١٧٩٫٥	٢١٧٫١	٢٥٣٫٩	٢٩١٫٢	٣٧٨٫٧	٤٥٤٫٧	٤٨٠٫٩	٤٥٧٫٠	٤٠٩٫٥	٣٠٦٫٨	٢٣٣٫٤	١٧٩٫٩
	الأنموذج المقترح	١٨٦٫٠	٢١٦٫٣	٢٤٦٫١	٢٧٧٫٦	٣٥٦٫٩	٤٣٢٫١	٤٥٧٫٩	٤٣٢٫١	٣٨٨٫٣	٢٩٤٫٤	٢٣١٫٠	١٨٦٫٠


تبوك
القياس الفعلي
الانموذج المقترح
انموذج ايفانوف
انموذج بنمان
كمية التبخر (ملم/ش)
٦٥٠
٥٥٠
٤٥٠
٣٥٠
٢٥٠
١٥٠
٥٠
يناير
فبراير
مارس
ابريل
مايو
يونيه
يوليه
اغسطس
سبتمبر
اكتوبر
نوفمبر
ديسمبر

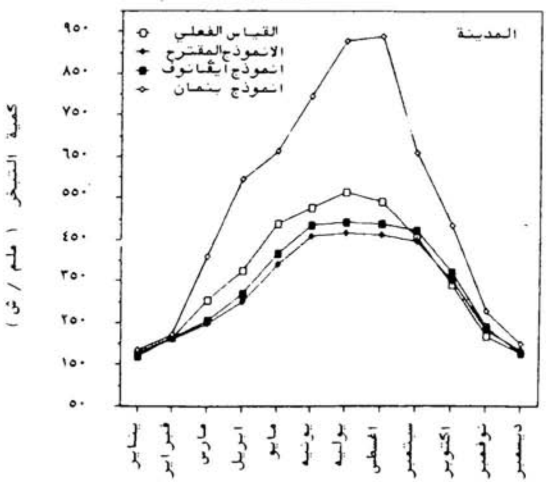
رسم (١)


حائل
القياس الفعلي
الانموذج المقترح
انموذج ايفانوف
انموذج بنمان
كمية التبخر (ملم / ش)
٧٥٠
٦٥٠
٥٥٠
٤٥٠
٣٥٠
٢٥٠
١٥٠
٥٠
يناير
فبراير
مارس
ابريل
مايو
يونيه
يوليه
اغسطس
سبتمبر
اكتوبر
نوفمبر
ديسمبر

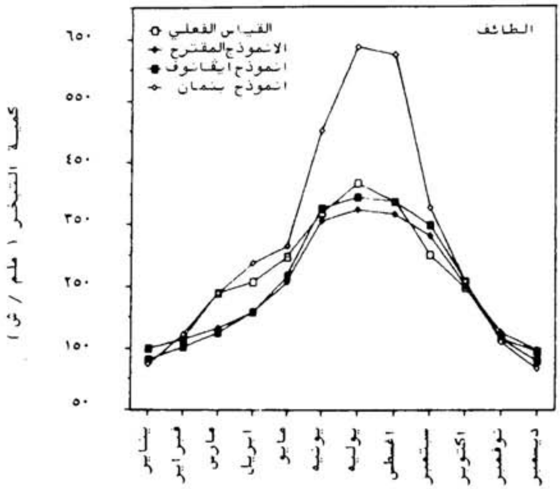
رسم (٢)


الرياض
القياس الفعلي
الانموذج المقترح
انموذج ايفانوف
انموذج بنمان
كمية التبخر (ملم / ش)
٩٥٠
٨٥٠
٧٩٠
٦٥٠
٥٥٠
٤٥٠
٣٥٠
٢٥٠
١٥٠
٥٠
يناير
فبراير
مارس
ابريل
مايو
يونيه
يوليه
اغسطس
سبتمبر
اكتوبر
نوفمبر
ديسمبر

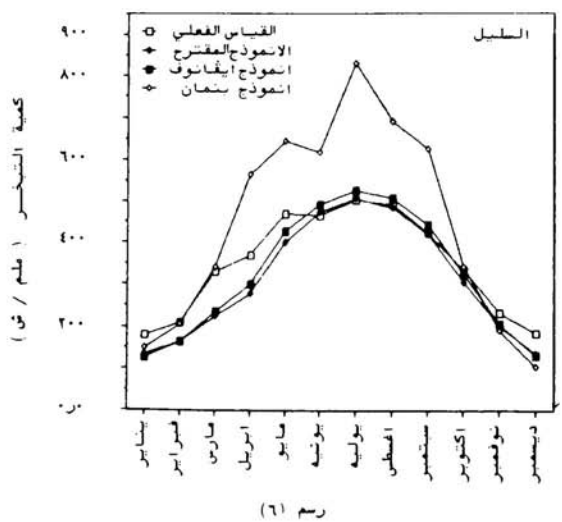
رسم (٣)


المدينة
القياس الفعلي
الانموذج المقترح
انموذج ايفانوف
انموذج بنمان
كمية التبخر (ملم / ش)
٩٥٠
٨٥٠
٧٥٠
٦٥٠
٥٥٠
٤٥٠
٣٥٠
٢٥٠
١٥٠
٥٠
يناير
فبراير
مارس
ابريل
مايو
يونيه
يوليه
اغسطس
سبتمبر
اكتوبر
نوفمبر
ديسمبر

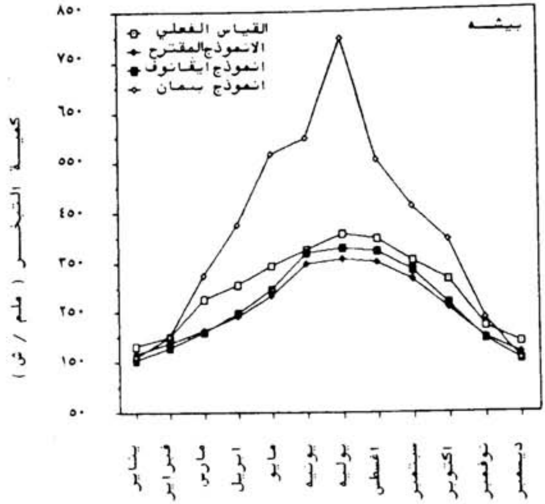
رسم (٤)


الطائف
القياس الفعلي
الانموذج المقترح
انموذج ايفانوف
انموذج بنمان
كمية التبخر (ملم / ش)
٦٥٠
٥٥٠
٤٥٠
٣٥٠
٢٥٠
١٥٠
٥٠
يناير
فبراير
مارس
ابريل
مايو
يونيه
يوليه
اغسطس
سبتمبر
اكتوبر
نوفمبر
ديسمبر

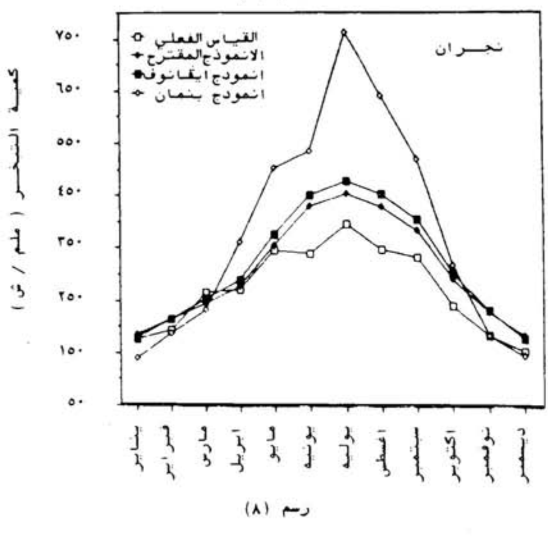
رسم (٥)


السليل
القياس الفعلي
الانموذج المقترح
انموذج ايفانوف
انموذج بنمان
كمية التبخر (ملم / ش)
٩٠٠
٨٠٠
٦٠٠
٤٠٠
٢٠٠
٠ر٠
يناير
فبراير
مارس
ابريل
مايو
يونيه
يوليه
اغسطس
سبتمبر
اكتوبر
نوفمبر
ديسمبر

رسم (٦)


بيشـــه
القياس الفعلي
الانموذج المقترح
انموذج ايفانوف
انموذج بنمان
كمية التبخر (ملم / ش)
٨٥٠
٧٥٠
٦٥٠
٥٥٠
٤٥٠
٣٥٠
٢٥٠
١٥٠
٥٠
يناير
فبراير
مارس
ابريل
مايو
يونيه
يوليه
اغسطس
سبتمبر
اكتوبر
نوفمبر
ديسمبر

رسم (٧)


نجـــران
القياس الفعلي
الانموذج المقترح
انموذج ايفانوف
انموذج بنمان
كمية التبخر (ملم / ش)
٧٥٠
٦٥٠
٥٥٠
٤٥٠
٣٥٠
٢٥٠
١٥٠
٥٠
يناير
فبراير
مارس
ابريل
مايو
يونيه
يوليه
اغسطس
سبتمبر
اكتوبر
نوفمبر
ديسمبر

رسم (٨)

ويوضح الجدول التالي (جدول ٢) نتائج تطبيق مؤشر التطابق على قراءات الجدول (١) .

جدول (٢) مؤشر التطابق بين قيم النماذج ومتوسطات القياس الفعلي

الموقـع	قيمـة المؤشـر		
	أنموذج بنهان	أنموذج ايفانوف	الأنموذج المقترح
تبـوك	٨٫٨٤٣	٤٫٩١٢	٥٫٦١٥
حـائل	٨٫٥٨٦	٧٫٤٠٥	٧٫٨٨١
الريـاض	٢٣٫٨٩٥	٧٫٣٥٥	٦٫٢٩٣
المدينة	١٩٫٧٠٨	٤٫١٦٤	٥٫٢٠٧
الطائـف	٧٫٨٩٩	٢٫٧٨٥	٢٫٧٣٣
السليل	١٤٫٢٥٩	٤٫٧٦٤	٤٫٩١٣
بيشـه	١٣٫٩٤١	٤٫٠٦٤	٤٫٧٨١
نجـران	١٤٫٥٦٦	٦٫٠٠٤	٤٫٧٨٢

ولأن تفسير قيم المؤشر يتمثل فى أن الصفر يعكس التطابق التام بين القيم المقارنة ، وأن ابتعاد قيمة المؤشر عن الصفر يعكس اتساع الفجوة بين القيم المقارنة ، فإننا نجد بالنتائج التي يحتويها الجدول (٢) أن أنموذج بنهان هو الأقل دقة فى تقدير كمية التبخر على مدار السنة فى المملكة العربية السعودية . والسبب ، كما يبدو من تفحص الجدول (١) ومن النظر فى الرسوم (١ – ٨) أن الفروق بين المتوسطات الشهرية التي يقدرها الأنموذج وبين المتوسطات الشهرية المقاسة تأخذ وضعا متطرفا فى الفترة من إبريل إلى أغسطس . وهذا التطرف أثر على المجموع السنوي للمؤشرات الشهرية ، على الرغم من أن الفروق بين القراءات تكون طفيفة نسبيا فى بقية أشهر السنة ، أي فى الفترة الباردة ، من سبتمبر إلى مارس . وهذا معناه أن أنموذج بنهان غير مناسب للتطبيق فى الفترة الحارة من السنة فى بيئة حارة – دفيئة مثل بيئة الجزيرة العربية . ويبدو أن هذا العجز فى أنموذج بنهان يكمن فى أن جذوره تتمثل فى تحليل نتائج التجارب التي أجراها بنهان فى محطة التجارب الشهيرة والمعروفة باسم (روثمستد) فى جنوب انجلترا ذات البيئة الباردة – المعتدلة على مدار السنة .

وبهذا نخلص إلى أنه من غير المناسب تطبيق أنموذج بنهان فى صيغته التي تم تطبيقها فى هذه الدراسة وذلك لتقدير المتوسط الشهري لكمية التبخر فى المملكة العربية السعودية .

وإذا نظرنا فى قيم المؤشر لأنموذجي ايڤانوف والأنموذج المقترح نجد أنها متقاربة إلى حد كبير ، حيث تتراوح بين ٢٫٧٨٥ و ٧٫٤٠٥ بالنسبة لأنموذج ايڤانوف و ٢٫٧٣٣ و ٧٫٨٨١ بالنسبة للأنموذج المقترح . وهذه القيم تمثل تحسنا كبيرا فى دقة التقدير ، مقارنة بأنموذج بنهان ، مرجعه انخفاض

حدة التطرف في الفروق بين القيم المقدرة والقيم المقاسة في الأشهر الحارة من السنة . وهذا يعني توازنا مقبولا في مسيرة القيم التي يقدرها الأنموذجين على مدار السنة (الرسوم ٩ - ١٦) . ويبدو أن الدقة النسبية لأنموذج ايڤانوف في تقدير المتوسط الشهري لكمية التبخر في دراستنا هذه ترجع إلى أن صياغة معادلة الأنموذج تستند على تحليلات إحصائية لمجموعات من قراءات الحرارة والرطوبة النسبية تمثل بيئات جغرافية متباينة في خصائصها المناخية والسطحية ممتدة من شمال الاتحاد السوفيتي على سواحل بارنتز (خط عرض ٧٠° شمالا) حتى جنوبه على سواحل البحر الأسود (خط عرض ٤٥° شمالا) .

وعلى أية حال ، فإن القلة النسبية للفروق بين القيم المقدرة والقيم المقاسة ، وأخذا في الاعتبار هامش الخطأ بالنسبة للقياس ، تعكس مستوى مقبولا من الدقة في التقدير للأنموذج المقترح . كما أن تقارب قيم مؤشر التطابق لأنموذج ايڤانوف مع مثيلاتها للأنموذج المقترح ، يؤكد سلامة تركيبة الأنموذج المقترح ، وبالتالي صلاحيته كبديل مقبول لتقدير التبخر في المملكة . هذه الاستنتاجات يعززها حقيقة أن الأنموذج المقترح يرتكز على تحليل لقراءات تعكس الخصائص الطبيعية المحلية للمناخ وللسطح مما يجعله أجدى بالتفضيل . ويجدر بنا أن نشير عند هذه النقطة إلى أن صيغة الأنموذج المقترح والتي تقدمها هذه الدراسة هي صيغة أولية لأنها ترتبط بسلسلة زمنية من القياسات قصيرة نسبيا قدرها تسعة عشر سنة (١٩٧٠ - ١٩٨٨) . ومن المتوقع أن إعادة صياغة تركيبة الأنموذج على أبعاد فترة زمنية أكبر في المستقبل ستفرز تحسنا في مستوى دقته تجعله يفوق في دقة تقديره أي أنموذج مقارن آخر .

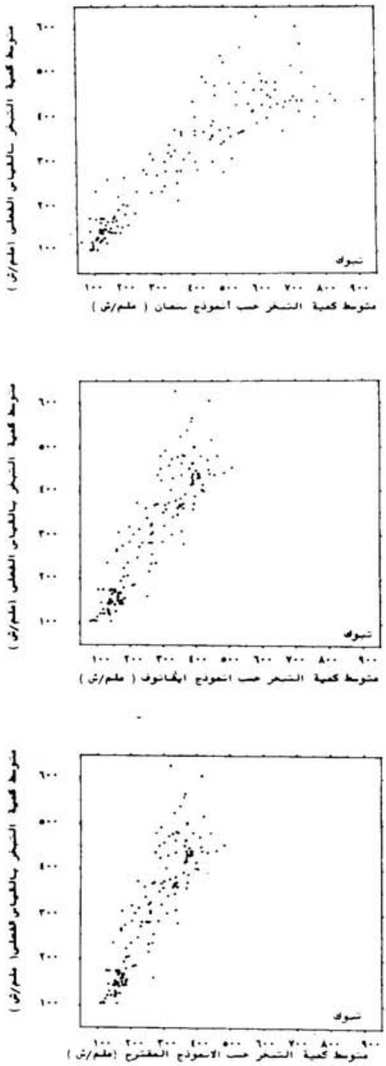
الخلاصـــة

تتلخص النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة في النقاط التالية :

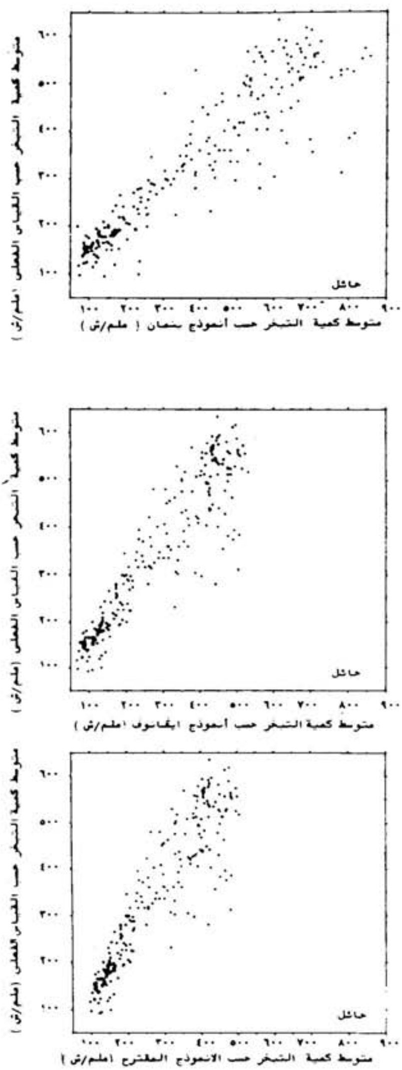
١ - أن أنموذج بنهان لتقدير التبخر في صيغته التي نشرها في سنة ١٩٥٤ ، وبالتالي الصيغ السابقة لها ، غير مناسب للتطبيق على بيئة دفيئة جافة مثل بيئة الجزيرة العربية . وهذا الوضع سببه التطرف الواضح في تقدير المتوسط الشهري لكمية التبخر في أشهر الفترة الحارة من السنة مما ينجم عنه تشويه لمسيرة المتوسط الشهري لكمية التبخر على مدار السنة .

٢ - أن الفروق بين القيم التي يقدرها أنموذج ايڤانوف والأنموذج المقترح وبين قيم القياسات الفعلية هي فروق ضئيلة نسبيا ، كما أن حدة التطرف الموسمي أضعف كثيرا مما يضفي على مسيرة القيم المقدرة توازنا أقرب إلى توازن مسيرة القيم الممثلة للقياسات الفعلية للتبخر .

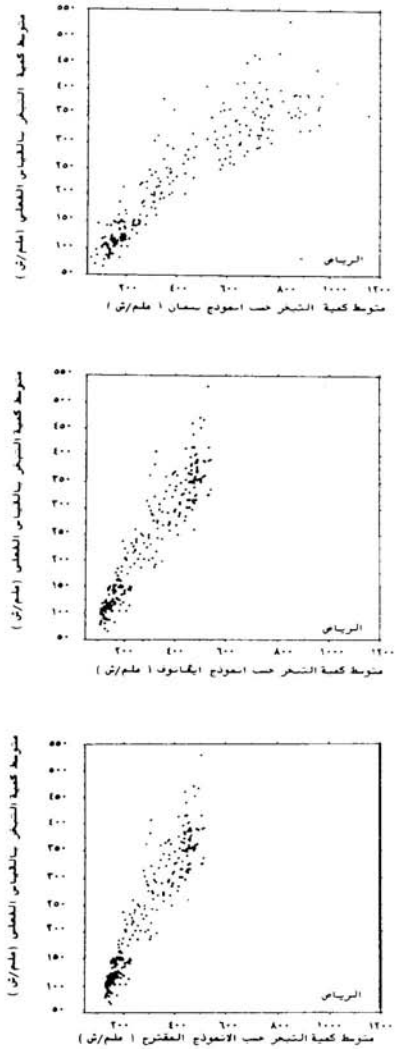
٣ - أن صيغة الأنموذج المقترح التي تقدمها هذه الدراسة هي ذات مستوى مقبول لتقدير المتوسطات الشهرية للتبخر ، أخذا في الاعتبار هامش الخطأ في القياس الفعلي ، وبالتالي في القيم الممثلة لمتوسطاته الشهرية . كما أنها أجدى بالتفضيل لأنها تستند على تحليلات لقياسات التبخر في مواقع متباينة مكانا وطبيعة ، ولذلك فإنها تمثل تباينات طبيعة السطح والمناخ في المملكة ، وبالتالي تجسم الاختلافات المحلية للعوامل الفاعلة في ضبط كمية التبخر .


متوسط كمية التبخر بالقياس الفعلي (ملم/ش)
١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠ ٤٠٠ ٥٠٠ ٦٠٠
تبوك
١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠ ٤٠٠ ٥٠٠ ٦٠٠ ٧٠٠ ٨٠٠ ٩٠٠
متوسط كمية التبخر حسب أنموذج ستمان (ملم/ش)
متوسط كمية التبخر بالقياس الفعلي (ملم/ش)
١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠ ٤٠٠ ٥٠٠ ٦٠٠
تبوك
١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠ ٤٠٠ ٥٠٠ ٦٠٠ ٧٠٠ ٨٠٠ ٩٠٠
متوسط كمية التبخر حسب انموذج ايفانوف (ملم/ش)
متوسط كمية التبخر بالقياس الفعلي (ملم/ش)
١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠ ٤٠٠ ٥٠٠ ٦٠٠
تبوك
١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠ ٤٠٠ ٥٠٠ ٦٠٠ ٧٠٠ ٨٠٠ ٩٠٠
متوسط كمية التبخر حسب الانموذج المقترح (ملم/ش)

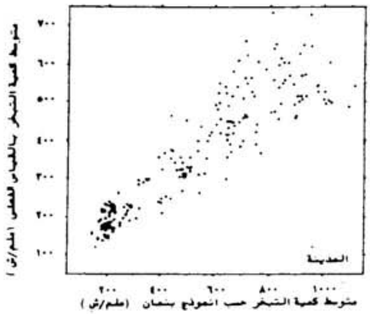
رسم (٩١)

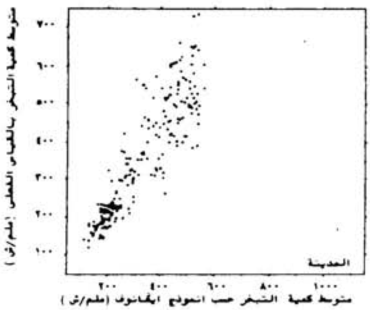

متوسط كمية التبخر حسب القياس العملي (ملم/ش)
حائل
متوسط كمية التبخر حسب أنموذج بنمان (ملم/ش)
متوسط كمية التبخر حسب القياس العملي (ملم/ش)
حائل
متوسط كمية التبخر حسب أنموذج ايفانوف (ملم/ش)
متوسط كمية التبخر حسب القياس العملي (ملم/ش)
حائل
متوسط كمية التبخر حسب الانموذج المقترح (ملم/ش)

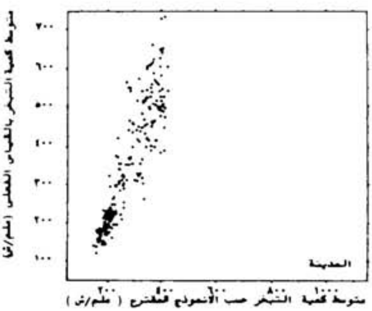
رسم (١٠)


متوسط كمية التبخر بالقياس الفعلي (ملم/ش)
٥٠ ١٠٠ ١٥٠ ٢٠٠ ٢٥٠ ٣٠٠ ٣٥٠ ٤٠٠ ٤٥٠ ٥٠٠ ٥٥٠
الرياض
٢٠٠ ٤٠٠ ٦٠٠ ٨٠٠ ١٠٠٠ ١٢٠٠
متوسط كمية التبخر حسب انموذج سمان (ملم/ش)
متوسط كمية التبخر بالقياس الفعلي (ملم/ش)
٥٠ ١٠٠ ١٥٠ ٢٠٠ ٢٥٠ ٣٠٠ ٣٥٠ ٤٠٠ ٤٥٠ ٥٠٠ ٥٥٠
الرياض
٢٠٠ ٤٠٠ ٦٠٠ ٨٠٠ ١٠٠٠ ١٢٠٠
متوسط كمية التبخر حسب انموذج ايفانوف (ملم/ش)
متوسط كمية التبخر بالقياس الفعلي (ملم/ش)
٥٠ ١٠٠ ١٥٠ ٢٠٠ ٢٥٠ ٣٠٠ ٣٥٠ ٤٠٠ ٤٥٠ ٥٠٠ ٥٥٠
الرياض
٢٠٠ ٤٠٠ ٦٠٠ ٨٠٠ ١٠٠٠ ١٢٠٠
متوسط كمية التبخر حسب الانموذج المقترح (ملم/ش)

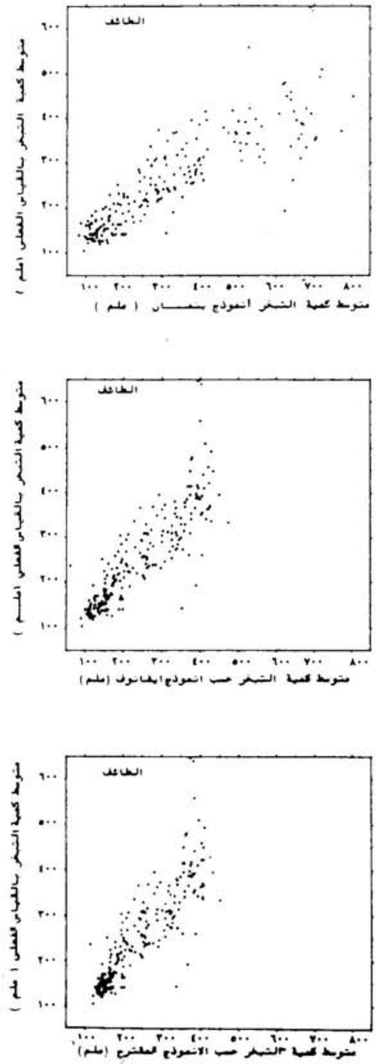
رسم (١١)


متوسط كمية التبخر بالقياس الفعلي (ملم/ش)
المدينة
متوسط كمية التبخر حسب انموذج بنمان (ملم/ش)

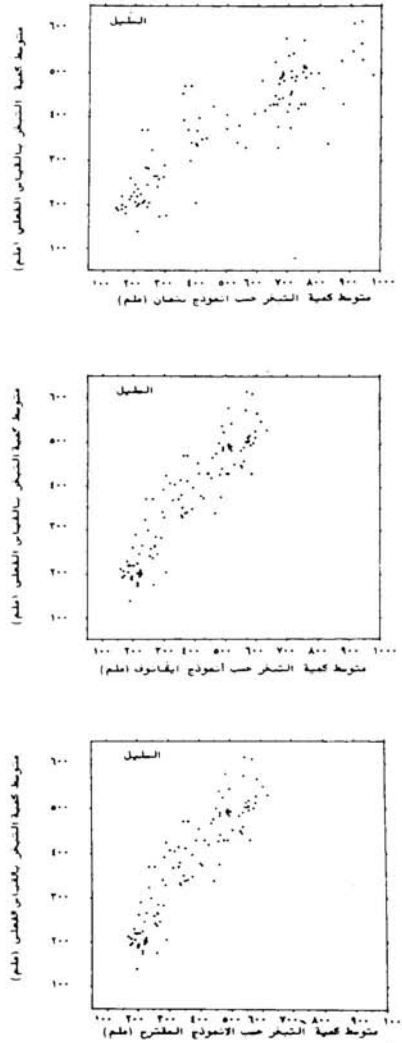

متوسط كمية التبخر بالقياس الفعلي (ملم/ش)
المدينة
متوسط كمية التبخر حسب انموذج ايفانوف (ملم/ش)


متوسط كمية التبخر بالقياس الفعلي (ملم/ش)
المدينة
متوسط كمية التبخر حسب الأنموذج المقترح (ملم/ش)

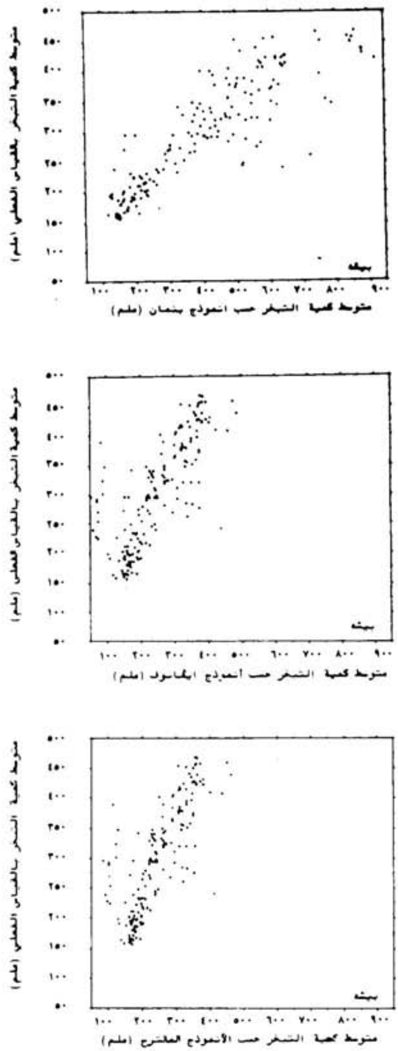
رسم (١٢١)


الطائف
متوسط كمية التبخر بالقياس الفعلي (ملم)
متوسط كمية التبخر أنموذج بنمان (ملم)
الطائف
متوسط كمية التبخر بالقياس الفعلي (ملم)
متوسط كمية التبخر حسب أنموذج ايفانوف (ملم)
الطائف
متوسط كمية التبخر بالقياس الفعلي (ملم)
متوسط كمية التبخر حسب الأنموذج المقترح (ملم)

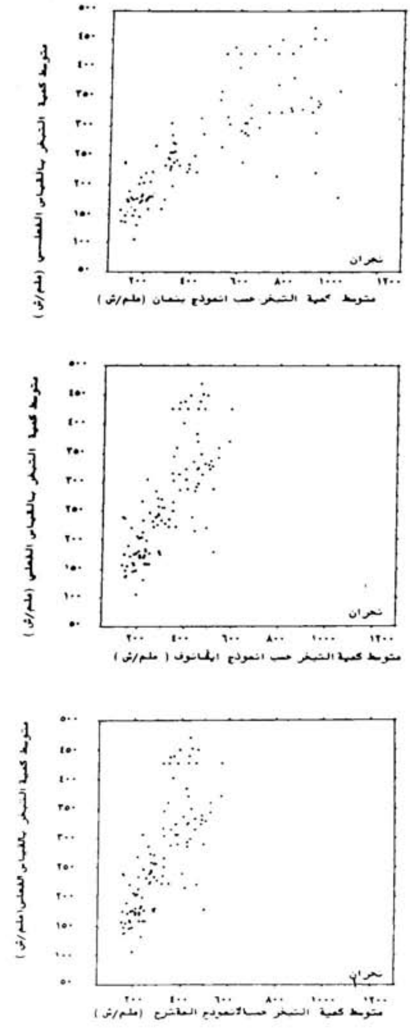
رسم (١٢١)


السليل
متوسط كمية التبخر بالقياس الفعلي (ملم)
١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠ ٤٠٠ ٥٠٠ ٦٠٠
١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠ ٤٠٠ ٥٠٠ ٦٠٠ ٧٠٠ ٨٠٠ ٩٠٠ ١٠٠٠
متوسط كمية التبخر حسب أنموذج بنمان (ملم)
السليل
متوسط كمية التبخر بالقياس الفعلي (ملم)
١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠ ٤٠٠ ٥٠٠ ٦٠٠
١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠ ٤٠٠ ٥٠٠ ٦٠٠ ٧٠٠ ٨٠٠ ٩٠٠ ١٠٠٠
متوسط كمية التبخر حسب أنموذج ايفانوف (ملم)
السليل
متوسط كمية التبخر بالقياس الفعلي (ملم)
١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠ ٤٠٠ ٥٠٠ ٦٠٠
١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠ ٤٠٠ ٥٠٠ ٦٠٠ ٧٠٠ ٨٠٠ ٩٠٠ ١٠٠٠
متوسط كمية التبخر حسب الأنموذج المقترح (ملم)

رسم (١٤)


٥٠٠
٤٥٠
٤٠٠
٣٥٠
٣٠٠
٢٥٠
٢٠٠
١٥٠
١٠٠
٥٠
بيشة
١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠ ٤٠٠ ٥٠٠ ٦٠٠ ٧٠٠ ٨٠٠ ٩٠٠
متوسط كمية التبخر حسب انموذج بنمان (ملم)
بيشة
متوسط كمية التبخر حسب الأنموذج المقترح (ملم)

رسم (١٥)


متوسط كمية التبخر بالقياس الفعلي (ملم/ش)
٥٠٠
٤٥٠
٤٠٠
٣٥٠
٣٠٠
٢٥٠
٢٠٠
١٥٠
١٠٠
٥٠
نجران
٢٠٠
٤٠٠
٦٠٠
٨٠٠
١٠٠٠
١٢٠٠
متوسط كمية التبخر حسب انموذج بنمان (ملم/ش)
متوسط كمية التبخر بالقياس الفعلي (ملم/ش)
نجران
متوسط كمية التبخر حسب انموذج ايفانوف (ملم/ش)
متوسط كمية التبخر بالقياس الفعلي (ملم/ش)
نجران
متوسط كمية التبخر حسب الانموذج المقترح (ملم/ش)

رسم (١٦)

مصادر قيم المتوسطات الشهرية

أ – قيم المتوسطات الشهرية لعناصر الحرارة ، الرطوبة ، والتبخر التي بنيت عليها هذه الدراسة تم استخلاصها على النحو التالي :

١ – النشرة الهيدرولوجية التي يصدرها قسم الهيدرولوجيا بوزارة الزراعة والمياه وذلك بالنسبة للفترة ١٩٧٠ – ١٩٨٤ . وأرقام النشرات المستخلص منها قيم المتوسطات الشهرية لكل سنة هي كالتالي :
٤٥ (١٩٧٠) ، ٥٣ (١٩٧١) ، ٦١ (١٩٧٢) ، ٧٤ (١٩٧٣) ، ٨٢ (١٩٧٤) ،
٨٩ (١٩٧٥) ، ٩٠ (١٩٧٦) ، ٩١ (١٩٧٧) ، ٩٢ (١٩٧٨) ، ٩٤ (١٩٧٩) ،
٩٦ (١٩٨٠) ، ٩٩ (١٩٨١) ، ١٠٢ (١٩٨٢) ، ١٠٧ (١٩٨٣) ، ١١٠ (١٩٨٤) .

٢ – ملفات المحطات الهيدرولوجية التي يحتفظ بها قسم الهيدرولوجيا بوزارة الزراعة والمياه بمدينة الرياض وذلك بالنسبة للسنوات ١٩٨٥ – ١٩٨٨ .

ب – قيم المتوسطات الشهرية لضغط البخر والحرارة والرطوبة للمحطات التي جرى لها تقدير كمية التبخر حسب أنموذج بنمان تم استخلاصها من مطبوعات مصلحة الأرصاد وحماية البيئة على النحو التالي :

١ – التقدير السنوي (١٩٧٠ – ١٩٧٦) .

٢ – التقدير البيئي السنوي (ملحق أ) (١٩٧٧ – ١٩٨٥) .

٣ – بالنسبة للفترة ١٩٨٦ – ١٩٨٨ تم استخلاصها من ملفات المحطات المناخية التي يحتفظ بها قسم المناخ وأساليب الرصد بالمقر الرئيس للمصلحة بمدينة جدة .

References

Ivanov, N.N. (1954) Ob opredelem Velichiny Isparyaemosti, *Izvesta Vsesoyuznogo Obshchestva*, Tom **86** vyy. 2, Mart-Apray.

Penman, H.L. (1948) Natural evaporation from open water, bare soil and grass. *Proc. Roy. Soc. A* **193:** 120-145.

Penman, H.L. (1952) Experiments on Irrigation of Sugar Beet. *Neth. J. of Agri. Sci.*, **42**(3): 286-292.

———, (1954) Evaporation over parts of Europe. *Assoc. Inten. d'Hydrologie*, Pub. No. 38, Assemblée Générale de Rome, tome III.

ملحــق (١)
برامج تقدير المتوسطات الشهرية لكمية التبخر

```
10 CLS
20  REM **** CALCULATION OF EVAPORATION SATURATION PRESSURE (ea) ****
30 REM ==============================================================
40 WIDTH "LPT1:", 132
50  DATA
60  DATA
70  DATA
80  DATA
90  DATA
100 DATA
110 DATA
120 DATA
130 DATA
140 DATA
150 DATA
160 DATA
170 DATA
180 READ N,M
190 DIM OS(M), T(M,N), EA(M,N)
200 FOR I=1 TO M  :  READ OS(I)      :  NEXT I
210 FOR I=1 TO M
220 FOR J=1 TO N  :  READ T(I,J)     :  NEXT J,I
230 FOR I=1 TO M  :  FOR J=1 TO N
240 EA(I,J)=6.1*10^((7.4475*T(I,J))/(234.07+T(I,J)))
250 NEXT J,I
260 LPRINT "  DATE  : ";DATES
270 LPRINT "-------------------"
280 LPRINT  :   LPRINT
290 LPRINT "THE VALUES OF EVAPORATION SATURATION PRESSURE (ea)"
300 LPRINT "=================================================="
310 LPRINT
320 LPRINT TAB(1)"STATION      ";TAB(19)"JAN. ";TAB(28)"FEB. ";TAB(36)"MARCH";TAB
(45)"APRIL";TAB(54)"MAYO";TAB(63)"JUNE ";
330 LPRINT TAB(72)"JULY ";TAB(81)"AUG. ";TAB(90)"SEPT.";TAB(99)"OCT. ";TAB(108)"
NOV. ";TAB(117)"DIC. "
340 LPRINT
350 LPRINT TAB(1)"-------      ";TAB(19)"---- ";TAB(28)"---- ";TAB(36)"-----";TAB
(45)"-----";TAB(54)"----";TAB(63)"---- ";
360 LPRINT TAB(72)"---- ";TAB(81)"---- ";TAB(90)"-----";TAB(99)"---- ";TAB(108)"
---- ";TAB(117)"---- "
370 LPRINT
380 FOR I=1 TO M
390 LPRINT TAB(1)I; TAB(5)OS(I);TAB(17);
400 FOR J=1 TO N
410 LPRINT USING "##.###";EA(I,J);  : LPRINT "   ";
420 NEXT J
430 LPRINT
440 NEXT I
450 END
```

```
10 CLS
20 REM **** CALCULATION OF EVAPORATION BY THE EQUATION OF PENAMNN (1952) ****
30 REM ===================================================================
40 WIDTH "LPT1:", 132
50 DATA
60 DATA
70 DATA
80 DATA
90 DATA
100 DATA
110 DATA
120 DATA
130 DATA
140 READ N,M
150 DIM OS(M), E1(M,N), E2(M,N), EA(M,N), ED(M,N), W(M,N), U(M,N), M(M,N), E(M,N
)
160 FOR I=1 TO M  :  READ OS(I)      :  NEXT I
170 FOR I=1 TO M
180 FOR J=1 TO N  :  READ E1(I,J)    :  NEXT J
190 FOR J=1 TO N  :  READ E2(I,J)    :  NEXT J
200 FOR J=1 TO N  :  READ W(I,J)     :  NEXT J
210 FOR J=1 TO N  :  READ M(I,J)     :  NEXT J,I
220 FOR I=1 TO M  :  FOR J=1 TO N
230 EA(I,J)=E1(I,J)*.75
240 NEXT J,I
250 FOR I=1 TO M  :  FOR J=1 TO N
260 ED(I,J)=E2(I,J)*.1*.75
270 NEXT J,I
280 FOR I=1 TO M  :  FOR J=1 TO N
290 U(I,J)=W(I,J)*.621371
300 NEXT J,I
310 FOR I=1 TO M  :  FOR J=1 TO N
320 E(I,J)=.35*(.5+U(I,J)/100)*(EA(I,J)-ED(I,J))*M(I,J)
330 NEXT J,I
340 LPRINT "  DATE  : ";DATE$
350 LPRINT "-------------------"
360 LPRINT  :   LPRINT
370 LPRINT "THE VALUES OF EVAPORATION CALCULATED BY THE EQUATION OF PENMANN"
380 LPRINT "================================================================"
390 LPRINT
400 LPRINT TAB(1)"STATION     ";TAB(19)"JANUA";TAB(28)"FEBRU";TAB(36)"MARCH";TAB(
45)"APRIL";TAB(54)"MAYO";TAB(63)"JUNE ";
410 LPRINT TAB(1)"_______     ";TAB(19)"_____";TAB(28)"_____";TAB(36)"_____";TAB(
45)"_____";TAB(54)"____";TAB(63)"____ ";
420 LPRINT TAB(72)"JULY ";TAB(81)"AUG. ";TAB(90)"SEP. ";TAB(99)"OCT. ";TAB(108)"
NOV. ";TAB(117)"DIC. "
430 LPRINT TAB(72)"____ ";TAB(81)"____ ";TAB(90)"____ ";TAB(99)"____ ";TAB(108)"
____ ";TAB(117)"____ "
440 LPRINT
450 FOR I=1 TO M
460 LPRINT TAB(1)I; TAB(5)OS(I);TAB(17);
470 FOR J=1 TO N
480 LPRINT USING "####.#";E(I,J);  : LPRINT "   ";
490 NEXT J
500 LPRINT
510 NEXT I
520 END
```

```
10 CLS
20 REM **** CALCULATION OF EVAPORATION BY THE EQUATION OF IVANOV ****
30 REM ===============================================================
40 WIDTH "LPT1:", 132
50 DATA
60 DATA
70 DATA
80 DATA
90 DATA
100 DATA
110 DATA
120 DATA
130 DATA
140 READ N,M
150 DIM OS(M), T(M,N), RH(M,N), M(M,N), EC(M,N)
160 FOR I=1 TO M  :  READ OS(I)      :  NEXT I
170 FOR I=1 TO M
180 FOR J=1 TO N  :  READ T(I,J)     :  NEXT J
190 FOR J=1 TO N  :  READ RH(I,J)    :  NEXT J
200 FOR J=1 TO N  :  READ M(I,J)     :  NEXT J,I
210 FOR I=1 TO M  :  FOR J=1 TO N
220 EC(I,J)=.0018*(T(I,J)+25)^2*(100-RH(I,J))
230 NEXT J,I
240 LPRINT "  DATE  : ";DATE$
250 LPRINT "-------------------"
260 LPRINT  :  LPRINT
270 LPRINT "THE VALUES OF EVAPORATION CALCULATED BY THE EQUATION OF IVANOV"
280 LPRINT "=============================================================="
290 LPRINT
300 LPRINT TAB(1)"STATION      ";TAB(19)"JAN. ";TAB(28)"FEB. ";TAB(36)"MARCH";TAB
(45)"APRIL";TAB(54)"MAYO";TAB(63)"JUNE ";
310 LPRINT TAB(1)"________      ";TAB(19)"____ ";TAB(28)"____ ";TAB(36)"_____";TAB
(45)"_____";TAB(54)"____";TAB(63)"____ ";
320 LPRINT TAB(72)"JULY ";TAB(81)"AUG. ";TAB(90)"SEPT.";TAB(99)"OCT. ";TAB(108)"
NOV. ";TAB(117)"DIC. "
330 LPRINT TAB(72)"____ ";TAB(81)"____ ";TAB(90)"_____";TAB(99)"____ ";TAB(108)"
____ ";TAB(117)"____ "
340 LPRINT
350 FOR I=1 TO M
360 LPRINT TAB(1)I; TAB(5)OS(I);TAB(17);
370 FOR J=1 TO N
380 LPRINT USING "###.#";EC(I,J);  : LPRINT "    ";
390 NEXT J
400 LPRINT
410 NEXT I
420 END
```

```
10 CLS
20 REM * CALCULATION OF MONTHLY AVERAGE OF EVAPORATION BY THE PROPOSED EQUATION
*
30 REM ========================================================================
40 WIDTH "LPT1:", 132
50 DATA
60  DATA
70  DATA
80  DATA
90  DATA
100 DATA
110 READ N,M
120 DIM OS(M), T(M,N), RH(M,N), X(M,N), LT(M,N), E(M,N)
130 FOR I=1 TO M  :  READ OS(I)      :  NEXT I
140 FOR I=1 TO M
150 FOR J=1 TO N  :  READ T(I,J)     :  NEXT J
160 FOR J=1 TO N  :  READ RH(I,J)    :  NEXT J,I
170 FOR I=1 TO M  :  FOR J=1 TO N
180  LT(I,J)=LOG (T(I,J))
190   NEXT J,I
200 FOR I=1 TO M  :  FOR J=1 TO N
210 E(I,J)=(185*(2.718281828#^((T(I,J)^.036)-(.014*RH(I,J)))))
220 NEXT J,I
230 LPRINT " DATE   : ";DATES
240 LPRINT "-------------------"
250 LPRINT  :  LPRINT
260 LPRINT "MONTHLY AVERAGES OF EVAPORATION CALCULATED BY THE PROPOSED EQUATION"
270 LPRINT "__________________________________________________________________"
280 LPRINT
290 LPRINT TAB(1)"STATION":TAB(19)"JAN. ";TAB(28)"FEB. ":TAB(36)"MARCH":
300 LPRINT TAB(45)"APRIL";TAB(54)"MAYO";TAB(63)"JUNE ";
310 LPRINT TAB(72)"JULY ";TAB(81)"AUG. ";TAB(90)"SEPT.":TAB(99)"OCT. ":
320 LPRINT TAB(108)"NOV. ";TAB(117)"DIC. "
330 LPRINT TAB(1)"________";TAB(19)"______";TAB(28)"______":TAB(36)"______":
340 LPRINT TAB(45)"______";TAB(54)"_____";TAB(63)"______";
350 LPRINT TAB(72)"______";TAB(81)"______";TAB(90)"______";TAB(99)"______":
360 LPRINT TAB(108)"______";TAB(117)"______"
370 LPRINT
380 FOR I=1 TO M
390 LPRINT TAB(1)I; TAB(5)OS(I);TAB(17);
400 FOR J=1 TO N
410 LPRINT USING "####.#";E(I,J);  : LPRINT "   ";
420 NEXT J
430 LPRINT
440 NEXT I
450 END
```

A Model for the Estimation of the Monthly Averages of Evaporation in Saudi Arabia in Comparison with the Models of Penman and Ivanov

MOHAMMAD A. AL-JERASH
Professor of Geography, Department of Geography,
Faculty of Arts and Humanities,
King Abdulaziz University, Jeddah, Saudi Arabia

ABSTRACT. The present study proposes a model for the estimation of the monthly averages of evaporation in Saudi Arabia. The Model is based on a logarithmic conversion of the measured evaporation data and on an extensive multiple regression analysis of the monthly averages of evaporation on its equivalents for temperature and relative humidity. For comparative purposes the models of Penman and of Ivanov were applied. An analysis of the obtained results of the three models reveals :

– The inadequacy of the Penman model as a tool for the estimation of evaporation in a warm hot-dry environment such as that of Saudi Arabia. The reason being that the Penman model produces inflated values for the months of the hot period of the year and thus distorting the annual march of the estimated averages.

– The suitability of the other two models as a tool for the estimation of evaporation averages in Saudi Arabia. They produce relatively lower values of the index of correspondence between the measured and estimated averages.

مجلة جامعة الملك عبدالعزيز : الآداب والعلوم الإنسانية ، م ٥ ، ص ص ١٠٣ - ١٥٢ (١٤١٢هـ/١٩٩٢م) .

في علاقة عبدالله بن عباس بالشعر

فهد العرابي الحارثي

أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية ، كلية الآداب ، جامعة الملك سعود ، الرياض
المملكة العربية السعودية

المستخلص : ظل المشتهر من علاقة عبدالله بن عباس رضي الله عنه بالشعر هو الجانب الذي يقع ضمن إطار منهجه في التفسير ، وهو المنهج الذي كان الشعر فيه - كما نعرف - مصدراً من مصادر شرح الغريب وتأويله . وهو ، لاشك ، منهج ثر يتسع لأكثر من رؤية ومازال قابلاً لمزيد من الاهتمام والدرس .

إن هذا البحث ، الذي بين أيدينا ، يعالج جانباً آخر من علاقة ابن عباس بالشعر ، وهو الجانب الذي يقع خارج إطار منهجه في التفسير . فهو يتناول ابن عباس من حيث كونه ولعاً بهذا الفن وكلفاً به ، لاسيما من الوجهة الامتاعية والتذوقية . فلقد كان رضي الله عنه على صلات ببعض شعراء عصره ، ولقد كان يجعل للشعر «يوما خاصاً» به فلا يقال فيه إلا الشعر وما يتعلق بالشعر . فهو ، إذن ، يستمع إلى الشعر ، وهو يتمثل به ويحفظه ويرويه ويقوّمه ويحكم فيه ، وهو - فوق كل ذلك - يعد ، بين معاصريه ، «أعلم الناس» بهذا الفن دون منازع . بل إن حميمية العلاقة هنا قد ترتفع ، أحياناً إلى مستوى دقيق وحاد ، فلا نعدم بعض الأخبار والمرويات التي تشير إلى أن تلك العلاقة لم تقف عند تلك الحدود السابق ذكرها ، بل لقد تجاوزت إلى ما هو أبعد ، إذ كان يحدث أن يتحول ، هو نفسه ، إلى منشيء للشعر .

لقد كان رضي الله عنه منحازاً دائماً إلى الشعر من حيث هو تعبير ، وصوت وجدان ، وصدى عاطفة ، ومصدر معلومة فيما يتعلق بالتاريخ والأيام والمواقع وغيرها . لكن ذلك لم يمنع أن يتحفظ ، تحفظاً شديداً ، على بعض الأغراض كالهجاء الذي رفضه أحياناً ، بل عاقب بعض شعرائه بالسجن والنفي .

إن هذا البحث يناقش جميع الأمور التي سبق ذكرها من خلال الأخبار والروايات التي تعرضت لهذا الجانب من حياة الصحابي الجليل .

وإن هذا البحث يغير ، هكذا ، المسار المألوف لاستحضار النموذج المشتهر لعلاقة ابن عباس بالشعر : فمن المسار المعتاد لعلاقة قامت لأغراض علمية بحتة : أي اللجوء إلى الشعر في شرح الغريب ، إلى المسار الآخر لعلاقة إمتاعية تذوقية ، تنصب على الشعر من حيث هو مخزون يشتمل على قيم ثقافية وإبداعية وفنية متعددة . وهذا المسار يمكن ، لاشك ، أن يسهم في كشف المساحة الحقيقية التي كان يحتلها هذا الفن في عقل ابن عباس ووجدانه ، ويمكن ، في الوقت نفسه ، أن يلقي مزيداً من الضوء على علاقة الإسلام بالشعر بشكل عام .

مقدمة

إن كان هناك أحد من علماء الصحابة يتميز في علاقته بالشعر عن كل من سواه من هؤلاء فهو ، لابد ، عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، وذلك من عدة وجوه أبرزها :

أولاً : ريادته ، منهجيا ، لموضوع اللجوء إلى الشعر في تفسير الغريب ، فقد كان الشعر عنده مصدراً من مصادر التفسير ، موجداً بذلك أرضية مشتركة مباحة لالتقاء القرآن الكريم بالشعر ، وتلك الأرضية هي اللغة العجمية الواحدة .

ثانياً : اهتمامه بالشعر سماعاً وحفظاً ورواية ومتابعة وتقويماً ، فقد كان هذا الفن القولي من أبرز اهتمامات ابن عباس الثقافية . وإذا كان العلم الشرعي ، بمختلف صنوفه وفروعه ، يشغل حيزاً فسيحاً في عقل ابن عباس ووجدانه ، فلا شك أن الشعر لم يكن دون ذلك من حيث الاهتمام به ، ومن حيث منحه الدور الذي يليق به .

وليس هناك ، من الصحابة ، من يضاهي ، ابن عباس في الجمع بين الثقافتين : القديمة المتوارثة والجديدة المقدسة ، بل لعله أول من اضطلع بوضع اللبنات الأولى في صرح التعاون بينهما في مشروع تآخيهما في ثقافة العرب بعد الإسلام .

وفي كل الأحوال فإن من اللافت للانتباه أن أخبار ابن عباس على الوجهين السابقين – على الرغم من أهميتهما واعتداد الرواة بهما – لاتنقل إلينا من المعلومات ، في تنوعها ، مايتلاءم فعلاً وحجم السمعة الكبيرة التي يتمتع بها ابن عباس بين معاصريه من حيث صلته بالشعر . فهي ، فيما يتعلق بمشروعه في التفسير وتأويل الكتاب ، لاتركز ، في الأغلب ، إلّا على قصة ابن عباس في إجاباته على سؤالات نافع بن الأزرق المشهورة[1] ، وهي – أي تلك الأخبار – بالنسبة إلى اهتمامه بالشعر من حيث هو فن وتعبير ، تقف غالباً عند حدود التنويه بذلك الاهتمام والتأكيد عليه ، في شكل شهادات مكررة ، تفتقر عموماً إلى الأمثلة أو الأحداث أو المواقف المتنوعة . فالشهادات التي تلح على عمق علاقة ابن

عباس بالشعر ، قد تكون كثيرة ومتعددة ، وهي تجعل منه مرجعية مهمة فى هذا الحقل ، مما يؤكد أنه لا خلاف بين معاصريه ، أو من تولوا متابعة أخباره ، حول هذه المسألة ، ولكن الصعوبة الحقيقية إنما تكمن فى عدم وجود «مادة» متنوعة فى أحداثها أو مواقفها أو شواهدها ، بحيث تتلاءم مع توالي تلك الشهادات أو تواترها أو تكررها . أو تنسجم حقاً مع ضخامة ما اشتهر به ابن عباس ثقافياً وتاريخياً .

إننا لانظن أن إجابات ابن عباس على سؤالات نافع هي كل ماقاله ابن عباس فيما يتعلق بموقع الشعر من إنجازه العلمي الذي كان رائداً فيه . بل إن مانعتقده هو أن الرواة إنما قصروا اهتمامهم على لقاء نافع بن الأزرق بابن عباس لأنه كان أبرز الأمثلة وأظهرها فيما يتعلق بمنهج هذا الأخير وطريقته . أما ماعدا ذلك فإنه ربما كان يدخل – فى نظرهم – فى باب «الاعتيادي» أو التلقائي المتكرر الذي لايحمل فى ذاته مايثير أو يضيف جديداً ، وإلّا فكيف نفهم أنه قد أصبح من الذائع عند اللغويين أن ابن عباس لايشرح شيئاً من الغريب إلا بإنشاد شيء من الشعر عليه (٢) فى ظل غياب أمثلة متعددة أخرى غير ماورد فى إجاباته على سؤالات نافع بن الأزرق .

وهذا وضع يمكن أن ينطبق أيضا على مايتردد ، وبإلحاح ، حول علاقة ابن عباس بالشعر خارج مشروعة فى التفسير . فالأخبار فى هذا الصدد ، فى عمومها ، لاتنقل لنا أحداثاً متنوعة تتلاءم مع عمق مدلولات الشهادات التي تجعل من ابن عباس صديقاً كبيراً للشعر ، ومتذوقا له ومهتما به ، متفرداً فى كل ذلك عن جيله أو الجيل الذى سبقه من الصحابة . ومن تلك الأخبار أو الشهادات ، مثلاً ، مايقوله عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما : «ابن عباس أعلمنا بما مضى وأفقهنا فيما نزل مما لم يأت فيه شيء» (٣) وفى هذا إشارة إلى الموروث العربي الذى سبق الإسلام / الجاهلي / «ما مضى» ، وفى مقدمته الشعر حتماً ، وعبد الله بن عمرو بن العاص لايستثني أحداًحتى نفسه – إذْ يختار صيغة المتكلمين – فى عدم مضاهاة ابن عباس فى العلم بهذا الـ «ما مضى» وفى الفقه فيما نزل .

ويقول عمرو بن دينار : «مارأيت مجلساً أجمع لكل خير من مجلس ابن عباس : الحلال والحرام ، وتفسير القرآن ، والعربية والشعر والطعام» (٤) .

ويقول عطاء : «مارأيت قط أكرم من مجلس ابن عباس ، أكثر فقهاً ، وأعظم خشية . إن أصحاب الفقه عنده ، وأصحاب القرآن عنده ، وأصحاب الشعر عنده ، يصدرهم كلهم من واد واسع» (٥) .

فابن عباس يشهد له معاصروه بعلمه بالشعر . ولاهتمامه وعنايته به كان يجعل له يوماًبذاته لا يذكر فيه علم آخر غيره ، وما جلس إليه عالم قط إلا خضع له ، ولا سأله سائل إلا وجد عنده علماً (٦) .

و «كان ناس يأتون ابن عباس فى الشعر والأنساب ، وناس يأتونه لأيام العرب ووقائعهم ، وناس يأتونه للفقه والعلم ، فما من صنف إلا يقبل عليهم بما يشاؤون ، وكثيراً مايجعل أيامه يوماً للفقه ويوماً للتأويل ، ويوماً للمغازي ، ويوماً للشعر ، ويوماً لوقائع العرب (٧)» .

ونلاحظ أن أمثال هذه الشهادات لاتقدم لنا تفاصيل أكثر حول ثقافة ابن عباس الشعرية ، أو حول علاقاته بالشعراء الذين يرتادون مجلسه ، أو حول ماكان يدور فى «يوم الشعر» من حوارات أو مساجلات أو تناشد للشعر . ونظن أنه لو بلغنا ما كان يلقى على ابن عباس من أسئلة حول الشعر فى مجلسه ، أو لو وصلتنا أخبار «يوم الشعر» الذى يلتقي فيه حتماً الشعراء ومحبو الشعر ، لوجدنا أنفسنا أمام ثروة لا يستهان بها من الأفكار والآثار والآراء والمواقف . ولكنه – مرة أخرى – ربما دخل الكثير من أخبار «يوم الشعر» ، وأخبار مجلس ابن عباس ، فى باب «الاعتيادي» والمألوف مما لم يكن ليثير الرواة بما كان ينبغي لهم فى تلك الأيام . هذا فضلاً عن أن نشاط ابن عباس فى جانب القرآن وعلومه ، والحديث وشؤونه ، والفقه وشجونه ، هو الذى كان ، لابد ، يجد الاهتمام الأكبر والعناية الأمثل لدى الرواة . وذلك لما لهذه العلوم والفنون من فضل ، ومن تقدم ، على كل ماسواها من العلوم والفنون الأخرى .

وفى كل الأحوال فإن ابن عباس كان ، بالنسبة إلى جيله ومعاصريه ، محسوباً على الثقافة الشرعية أكثر مما هو محسوب على ماعداها .

إن ما تقدم يمثل وجه الصعوبة الأوضح فيما يصادف الباحث الذى يتصدى لموضوع ابن عباس والشعر .

وفى كل الأحوال فإننا لن نتعرض فى هذا البحث لمسألة الشعر فى منهج ابن عباس فى التفسير ، فذلك موضوع يستحق بحثاً مستقلاً بذاته ، لثرائه وأهميته ، ثم لأنه يشكل وجهاً آخر من وجوه علاقة ابن عباس بالشعر ، وهو الوجه الموضوعي الذى كان وراءه أغراض علمية بحتة بالدرجة الأولى .

إننا ، بالأحرى ، سنقصر متابعتنا واهتمامنا فى بحثنا هذا على ولع ابن عباس بالشعر ، وعلى عنايته به من حيث هو تعبير ، وصوت وجدان ، وصدى عاطفة ، حفظاً ، وسماعاً ، ورواية ، وتقويماً الخ .

فسنحاول ، إذن ، بما توافر لدينا من أخبار وروايات تحمل بعض الأحداث والشواهد والتفاصيل ، أن نبني تصوراً معقولاً ومقبولاً عن صلات ابن عباس بالشعراء ، وعن مواقفه من أغراض الشعر ، وعن حقيقة تطورات وتفاعلات موقع هذا الفن فى ثقافته ووجدانه ، مستندين ، فى بعض الآراء أو الاستنتاجات التى توصلنا إليها ، إلى ماتوحي به تلك الأخبار والروايات نفسها من تمكن راسخ لعلاقة ابن عباس بالشعر . ونظن ، بناء عليه ، أن ماعثرنا عليه من روايات وأخبار ، فى هذا المجال ، كاف إلى الحد المعقول لبناء ذلك التصور المطلوب ، فى الحدود المتوخاة أو المتوقعة .

ومادام أن الشعر كان يشغل فعلاً حيزاً كبيراً من اهتمامات ابن عباس العلمية ومن نشاطاته وممارساته اليومية فإننا سنفترض – أن تلك الأخبار والروايات التى بين أيدينا ماهي سوى عينات ضيقة النطاق ، لماهي عليه ، واقعاً ، حقيقة تطورات وتفاعلات علاقة ابن عباس بالشعر ، فهي – أي تلك الأخبار والروايات – مجرد مؤشرات ، لها إمكاناتها المحدودة ، ولكنها فى الوقت ذاته إمكانات مقبولة من حيث الدلالة على واقع أكثر ثراء . أي أنه قد حدث فى حياة ابن عباس ، لاشك ، كثير مما هو مثلها أو أهم منها ، ولكنه لم يصل إلينا كل شيء ، نظراً لما أوضحناه قبل قليل .

وهذا الموقف نفسه سنطبقة على نظرتنا إلى ما استخدمناه فى هذا البحث من تلك الأخبار والروايات من حيث صحتها وثبوتها ، فلأنه من المتعذر ، منهجياً ، التحقق تماماً من صحة تلك الروايات ، أو بعضها على الأقل فإننا سنأخذ بها من جانب أنها ، على أهون الاحتمالات ، مؤشرات إلى مزاج معقول اتسمت به علاقة ابن عباس بالشعر والشعراء ، وهو مزاج يتهادن مع الشهادات المتواترة المتكررة عن علم ابن عباس بالشعر واهتمامة به ، ولا يتناقض أبداً معها . فالروايات والأخبار التى سنلجأ إليها ، إذن ، هي روايات وأخبار منسجمة مع ما هو معروف عن ابن عباس بالتواتر ، وهي أيضاً متفقة مع الملامح العامة لما هو مشهود به له ، وهذا هو – فى نظرنا – شفيعها الأول ، فى عمومها ، من حيث قيمتها العلمية فى بحث كهذا .

وليس فى حدود علمنا أن أحداً قد أفرد لعلاقة ابن عباس بالشعر ، فى الإطار الذى ذكرنا ، بحثاً مستقلاً بذاته ، محاولاً أن يستقصي ما روى أو نقل فى هذا المجال ، بهدف الخلوص إلى صورة نهائية ، أو شبه نهائية ، عن أبعاد تلك العلاقة فى حدودها وملامحها المتوخاة . ونستثني من ذلك ما يرد أحياناً فى بعض المؤلفات – الحديثة بالذات – من ذكر لبعض أخبار ابن عباس مع الشعر والشعراء مما يخدم أغراضاً أخرى غير أغراض استقصاء علاقة ابن عباس بالشعر والشعراء .

إننا ، هكذا ، سنحاول فى هذا البحث أن نستقصي ، ما أمكن ، الأخبار والروايات ، المتاحة ، التي تتناول علاقة ابن عباس بالشعر ، أو تتعرض لصلاته بالشعراء ، أو تشير إلى بعض مواقفه من أغراض الشعر وفنونه .

سنحاور تلك الأخبار والروايات ، وسنمضي معها إلى أقصى ما يمكن أن تفضي بنا إليه من استنتاجات واستقراءات نعتقد أنها ستخدم – إن شاء الله – غايات هذا البحث وأغراضه .

الوشيجة وحميمية الصلة

لاشك إن الملمح الأكثر وضوحاً فى علاقة ابن عباس رضي الله عنه بالشعر هو تسخيره هذا الفن أو توظيفه إياه فى خدمة التأويل (مشروعه فى التفسير) حيث اللجوء إلى الشعر فى تأويل الغريب .

حدث سعيد بن جبير ويوسف بن مهران : «أن ابن عباس كان يسأل عن القرآن كثيراً فيقول : هو كذا وكذا ، أما سمعتم الشاعر يقول كذا وكذا» (٨) .

وعن عبدالله بن عبدالله بن عتبة ، عن ابن عباس : «أنه كان يسأل عن القرآن فينشد فيه الشعر» (٩) .

وعن عكرمة أن ابن عباس قال : «إذا سئلتم عن شيء من غريب القرآن فالتمسوه فى الشعر» (١٠) .

ويورد المبرد حكاية عن أبي عبيدة تقول : «إنه مما سأله – أي نافع بن الأزرق – عنه : «الم ذلك الكتاب» فقال ابن عباس : تأويله : هذا القرآن هكذا جاء . قال أبوعبيدة : ولا احفظ عليه شاهداً عن ابن عباس ، وأنا أحسبه لم يقبله إلّا بشاهد» (١١) .

أجل ! . . لقد ظهرت الملامح الأوضح لعلاقة ابن عباس بالشعر فى هذا النوع من الممارسات العلمية المنهجية .

والعلاقة ، على هذا النحو ، تبدو موضوعية ، وهي ربما اتصفت ، لأول وهلة ، بالجفاف ، فهي لاتشترط بالضرورة أية حميمية فى الصلة ، فإنما تستدرجها أغراض علمية محضة بالدرجة الأولى .

فأخبار ابن عباس المتصلة بالشعر ، والشهادات التي تدور حول علاقته به ، إنما تصب ، فى غالبها ، فى هذا الجدول ، أو تتجه هذا الاتجاه . فأكثر ماكان يهم الرواة ، فيما يبدو ، هو هذا الجانب ، أو هذا الوجه ، من علاقة ابن عباس بشعر العرب ، وهم فى ذلك غير ملومين ، نظراً لما دار من جدل وخلاف حول هذه المسألة فى حياة ابن عباس وبعد مماته (١٢) ، ونظراً للأهمية الخاصة التي تكتسبها الأخبار المتعلقة بذلك ، بحكم علاقتها بمنهج ابن عباس فى التفسير ، وبعلوم القرآن الأخرى ، وبحكم ماانتج عن كل ذلك من تداخل وتفاعل بين «الأدبي» و «الشرعي» ، انعكست إيجابياته على مستقبل الثقافة العربية برمتها .

وموضوع اللجوء إلى الشعر فى تأويل الغريب هو موضوع آخر يستحق بحثاً مستقلاً يقتصر عليه كما مر بنا ، وإن مايهمنا نحن هنا هو العلاقة مافوق الموضوعية ، أو مافوق العلمية ، أي العلاقة العاطفية ، التذوقية ، الذاتية ، التي لم تقم بالضرورة لأغراض علمية محضة .

ولا يمكن أن نظن أن علاقة ابن عباس بالشعر ، مهما استأثر بمعظم وهجها مشروعه العلمي فى التفسير ، كانت مجرد علاقة جافة ، خالية من أية وشيجة عاطفية إنسانية ذائقية ، هي التي كان لها ، أصلاً ، دورها الذى لايجحد فى خلق الخيط السحري الذى ربط ، فى الأساس ، الصانع فى ذلك المشروع (ابن عباس) بالأداة (الشعر) ، وهو ماأثرى فيما بعد ذلك المشروع وساعد فى التهيئة لإنجازه .

إن من منطق الأشياء ، إذن أن تكون تلك الوشيجة العاطفية الإنسانية الذائقية ، بين ابن عباس والشعر ، فى أحسن أوضاعها وأفضل مستوياتها .

إن الشعر عند ابن عباس لم يكن فى هامش وعيه ، بل ظل دائماً فى البؤرة منه . وهذا وضع يفترض – بدوره – أن يكون هناك قدر من الحميمية الخاصة التي تربط بين الطرفين ، وتصبغ العلاقة بينهما ، وتلونها ، وتهبها مذاقها الخاص . فإذا أضيف إلى ذلك مستوى النتائج التي توصل إليها ابن عباس فى «مشروعه» العلمي ، كان ذلك يعني تعزيزاً تلقائياً إضافياً لحميمية الصلة .

الشعر ديوان العرب

لقد كان ابن عباس من أجدر من يعطي للشعر العربي المنزلة التي هو قمين بها : «ديوان العرب»(١٣) ومجمع علمهم . فهو ، إلى جانب القيم الفنية والجمالية التي تشكل جزءاً أساساً فى بنيته ، ومبرراً أصيلاً لوجوده ، وتميزه عما سواه من أشكال القول الأخرى ، يُعدّ بالنسبة إلى العرب بالذات ، باعتبارهم أمة لم تعرف التاريخ المكتوب عموماً قبل الإسلام ، سجلاً حافلاً للأحداث التي مرت بهم ولوقائعهم ، وأيامهم

ولغتهم وأحسابهم وأنسابهم ، ولهذا قيل :

الشعر يحفظ ما أودى الزمان به   والشعر أفخر ماينبي عن الكرم
لولا مقال زهير في قصائده   ماكنت تعرف جوداً كان فى هرم (١٤)

فالشعر إذن «علم قوم لم يكن لهم علم سواه» ، ولقد استطاع مشروع ابن عباس فى التفسير أن يؤكد هذه الحقيقة ويدعمها ، لاسيما فى مجال اللغة . إذ كان ابن عباس نفسه خير من أدرك أن الشعر هو بالفعل ، وعاء اللغة فى صفائها ونقائها ومثاليتها . وانطلاقا من جهوده ، وتجاربه ، ونتائجه التي توصل إليها ، زاد تنبُّه العرب إلى هذه الحقيقة فجمعوا الشعر ، ودوّنوه ، وعكفوا على دراسته (١٥) .

لقد ظل ابن عباس يحض على شيء من هذا فى أقواله حول الشعر ، أي حين يردد فى مناسبات مختلفة بأن «الشعر ديوان العرب» ويزيد فيضيف : «فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذى أنزله الله بلغة العرب ، رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه» (١٦) وحين يقول أيضا : «إذا تعاجم شيء من القرآن فانظروا فى الشعر فإن الشعر عربي» (١٧) وحين يقول كذلك : «إذا سألتم عن شيء من غريب القرآن فالتمسوه فى الشعر فإن الشعر ديوان العرب» (١٨) .

إنه هنا إلى جانب أنه يكشف لنا عن مفتاح منهجه فى التفسير ، يعطي لشعر العرب المنزلة ، لاسيما العلمية ، التي هو حري بها ، فيحرص على تعلُّمة ، والمحافظة عليه ، والعودة إليه . فهو قاموس العرب الأول ، ومعجمهم الفريد ، فى وقت لم يكن لهم فيه من قاموس آخر غيره ، أو معجم بديل سواه .

يلجأ إلى الشعر فى غير التفسير

لقد قلنا بأننا لن نتعرض فى هذا البحث إلى مسألة الشعر فى منهج ابن عباس فى التفسير ، ولكننا سنذكر بأن ابن عباس الذى يدرك حقيقة ذلك الثراء فى شعر العرب ، لم يفد منه ، أو يلجأ إليه ، فى مسألة التأويل أو التفسير فحسب ، على الرغم من استئثار هذا الجانب بالنصيب الأوفر من اهتمامه وجهده ، بل لقد كان يلجأ إلى الشعر فى غير ذلك الأمر . فهناك بعض الأخبار التي تشير إلى أنه رضي الله عنه كان يجعل من الشعر مرجعاً مهماً ، له مصداقيته ، فى التاريخ ، وفى غيره ، ليس فقط بالنسبة إلى أمور ذات صلة بالجاهلية التي لم تعرف الكتابة ، فى صورتها النشطة على الأقل ، بل حتى فى أمور ذات صلة ببدايات الإسلام الأولى التي مازال يعيشها الناس ، ومنهم ابن عباس نفسه .

ومن ذلك أن الشعبي يقول : «سألت ابن عباس : أي الناس كان أول إسلاماً ؟ قال : أبو بكر الصديق . ألم تسمع قول حسان :

إذا تذكرت شجواً من أخي ثقة   فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا
خير البرية اتقاها وأعدلها   إلّا النبي ، وأوفاها بما حملا
والثاني التالي المحمود مشهده   وأول الناس منهم صدق الرسلا» (١٩)

إن ابن عباس يلجأ إلى الشعر هنا في مسألة تاريخية بحتة ، فهو يبحث فيه عن الشاهد أو الدليل . أو أنه بمعنى آخر ، يترك للشعر ذاته مهمة نقل المعلومة التي احتاج إليها الشعبي . إنه هكذا يدعم الشعر إذ يعطيه حق الكلام قبل أي شيء آخر ، وإذ يمنحه في الوقت نفسه البراءة حول مصداقيته . والشعر من جانبه ، هو الآخر ، يدعم ابن عباس ، ويسعفه بما يريد ، فيمنحه الشاهد ، ويقدم بين يديه الدليل ، على أمر يعرفه حتماً سلفاً ، وهو من كان في الناس أول إسلاماً .

ومثل هذا اللجوء إلى الشعر يتكرر عند ابن عباس في أمور تتعلق بما هو فوق التاريخ ، وما هو فوق الطبيعة ، ونعني مسألة العرش ، وعند مَنْ ؟ عند مَنْ هو أعلم من الشعر ، ومن ابن عباس نفسه ، ونعني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى لا ينكر ذلك بل «يبتسم كالمصدق له» .

ففى رواية أن ابن عباس رضي الله عنه قال : «أنشدت النبي صلى الله عليه وسلم أبياتاً لأمية بن أبي الصلت يذكر فيها حملة العرش ، وهي :

رجـــل وثـــور تحت رِجْـــــل يمينـــــه والـــنّسر للأخـــرى ولـــيث مُرْصد [٢٠]
والشمس تطلـــــع كل آخر ليلـــــــة فجـــــراً ويصبـــــح لونها يتوقـــــد
تـــــبدو فمــــا تبـــــدو لهم فى وقتها إلّا معذبــــــــة وإلا تُجلــــــــد

فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم كالمصدق له» [٢١]

وفى خبر آخر ، قال السيوطي : [٢٢] «دخل ابن عباس على معاوية وعنده عمرو بن العاص ، فقال عمرو : إن قريشا تزعم أنك (أي ابن عباس) أعلمها ، فلم سميت قريش قريشا ؟ قال : بأمر بيِّن . قال : فسره لنا . ففسره . قال : وهل قال أحد فيه شعرا ؟ قال : نعم . قال : سميت قريش بدابة في البحر ، وقد قال المشمرخ بن عمر الحميري :

وقـــريش هي التـــي تسكـــن البحـــر بها سميت قريش قريشا
تأكل الـــغث والسمين ولاتتـــــــــــرك فيك لذي الجنــــاحين ريشا
هكـــــذا فى البـــــلاد حيُّ قريش يأكلـــون البـــلاد أكـــلاً هميشا
ولهم آخر الزمـــــــان نبـــــــيٌّ يكثر القتـــــل فيهم والخمـــــوشا
تملأ الأرض خيلـــــه ورجـــــال يحشرون المطـــــــيّ حشراً كشيشا»

فعلى الرغم من أن عمْرو بن العاص كان يقف أمام رجل يزعم قومه أنه أعلمهم ، وأن مايقوله – بناء عليه – يفترض فيه الصدق والصحة ، فهو موثوق به للثقة فى علمه ، إلا أن عمْراً لم يجد بدّاً من استدراج ابن عباس إلى ساحة الشعر ، ربما لأنه كان يريد أن يسمع فى ذلك غير ماقاله ابن عباس ، أي إن كان شعر العرب قد احتفى بهذه التسمية فسجلها وخلدها ، وربما لأنه كان يطلب فعلاً الدليل أو الشاهد فى الشعر كي يزداد قلبه اطمئنانا إلى ماقاله ابن عباس . وقد فعل هذا ما أراده منه عمرو بن العاص .

ولا ندري إن كان ابن عباس يحفظ ذلك الشعر دليلاً أو شاهداً على معلومة يعرفها سلفاً من دون الشعر ، أو أن الشعر نفسه كان هو مرجعه الأصلي الذي استقى منه تلك المعلومة ، فهو لم يكن يعرفها قبل أن يستمع إلى شعر المشمرخ بن عمر الحميري .

وفى كلتا الحالين فإن الشعر هكذا ، عند ابن عباس ، «ديوان العرب» فعلاً ، وعلمهم الذى لم يكن لهم من علم سواه ، فهو لم يطلق عليه صفة «ديوان العرب» دون اختبار مباشر لصحة تلك الصفة ولمدى مطابقتها لواقع الشعر بالنسبة إلى العرب ، وإلى حضارتهم وتاريخهم ولغتهم .

إن الشعر على هذا النحو لم يكن يلجأ إليه ابن عباس فى مجال التفسير وتأويل غريب القرآن فحسب ولكنه كان يلجأ إليه فى معارف أخرى غير ذلك .

ينشىء الشعر ويتمثل به ويسعى إلى تعلُّمه

إن تلك القيمة العلمية للشعر ، هي ، موضوعياً، من أبرز الأمور التي شدت ابن عباس إليه ، ودفعته إلى الحض على رعايته ، وصيانته ، وحمايته من الضياع . تسندها دون أدنى شك — كما ذكرنا سابقاً - عاطفة خاصة راسخة ووشيجة إنسانية محضة ثابتة ، تتعلق بذائقة ابن عباس نفسه ، من حيث هو ولع بالشعر ، كلف به ، منساق إليه . تلك الذائقة التي يذهب البعض فى تصويرها إلى درجة الاعتقاد بأن ابن عباس ذاته كان منشئاً للشعر .

ففي رواية أن ابن عباس رضي الله عنه حين فقد بصره ، فى أخريات عمره ، أنشأ شعرا حوّل فيه تلك المصيبة ، التي حلّت به ، إلى نعمة ، إذ يقول :

إن يأخـــذ الله من عينـــي نورهما ... ففـي لساني وقلبـي منهمـا نور
قلبـي ذكـي وعـقلي غير ذي دخـل ... وفى فمـي صارم كالسيف مأثـور (٢٣)

وفى قصة أخرى أن ابن عباس أنشأ شعراً آخر هو :

إذا طارقـات الهم ضاجـعت الفتـي ... واعمـل فكـرَ الليـل والليـل عاكـر
وباكـر من فى حاجـة لم يجد بها ... سوايَ ولا من نكبـة الدهـر ناصر
فَرّجْتُ بمالي همه من مقامـه ... وزايلـه هم طروق مسامـر
وكان له فضل علـيَّ بظنـه ... بي الخير إني للـذي ظن شاكـر (٢٤)

وقيل إنه ، وهو فى طريقه من البصرة إلى مكة ، كان يحدو الإبل ويقول :

أولي إلى أهـلك ياربـاب ... أولي فقـد هان لك الإيـاب (٢٥)

إن البتّ القاطع فى صحة نسبة هذه الأبيات إلى ابن عباس من عدمها يبدو ، من وجهة نظر منهجية علمية ، أمراً صعباً ،لكننا لا نرى بأساً فى أن يُقاد النظر إليها ، أو الحوار معها ، ضمن السياق البسيط التالي : وهو أنه من الممكن أن نفترض أن إنشاء مثل تلك الأبيات ، بالنظر إلى تواضع فكرتها ، وبساطة صورها وأخيلتها ، واعتيادية بنائها العام ، لايتطلب موهبة فذّة ، أو استعدادا فطريا خاصاً ، فهو

ليس بالعسير على أي عربي ، فما بالك بابن عباس ، وهو المشهود له بالبلاغة والفصاحة والعلم بالشعر وحبه وتذوقه .

ليس هناك ، إذن ، مايمنع أن يكون ابن عباس هو قائل تلك الأبيات فى زمن كان الشعر فيه هو المتسيِّد على أنواع التعبير الأخرى . إننا ، فى النتيجة ، لسنا أمام نص شعري بالغ التعقيد ، حافل بالصراع ، بحيث لا يتأتى إلّا لذى باع ، أو صاحب ذراع ، فى صناعة الشعر .

وإنه للذى يهمنا أكثر فأكثر هنا ، وبعد هذا وقبله ، سواء قال هذا الأبيات ابن عباس فعلاً أولم يقلها ، هو الُمتخَّيل من حميمية ابن عباس مع فن الشعر ، وهو مستوى متقدم من مستويات العلاقة ، أو الوشيجة الشخصية ، التي تربط ابن عباس بالشعر ، صدى لعاطفة وصوتاً لوجدان . فهذا الُمتخيَّل لم يدفع أحداً ، فيما نعرف ، إلى إنكار ، قول الشعر على ابن عباس ، مهما كان حجم أو وزن ما روي عنه فى هذا الشأن ، وإنما ينطبق عليه رضي الله عنه ماينطبق على بقية كبار الصحابة ، بمقتضى ما أورده القرطبي ، من أنه «ليس أحد من كبار الصحابة ، وأهل العلم ، وموضوع القدوة إلّا وقد قال الشعر ، أو تمثل به ، أو سمعه ، فرضيه ما كان حكمة أو مباحاً ، ولم يكن فيه فحش ولا خنا ولا لمسلم أذى [٢٦]» .

إن هذا الُمتخيل أيضاً من حميمية الرابطة بين ابن عباس والشعر هو الذى ، فى نوع آخر من العلاقة ، ينسجم تمام الانسجام مع ماعرف عنه رضي الله عنه من تأثر بالشعر وتفاعل معه . فمن أقل مايمكن أن يلاحظ فى هذا السياق أن ابن عباس كان من شدة تأثره بالشعر يحزن ويطرب له .

ففي رواية عن أبي مليكة قال : «رأيتهم (يعني بني أمية) يتتابعون نحو ابن عباس حين نفى ابن الزبير بني أمية عن الحجاز ، فذهبت معهم ، وأنا غلام ، فلقينا رجلاً خارجاً من عنده ، فدخلنا عليه ، فقال له عبيد بن عمير : مالي أراك تذرف عيناك ؟ فقال له : إن هذا (يعني عبدالرحمن بن الحكم) قال بيتاً أبكاني وهو :

ماكـنت أخشى أن ترى الـذل نسوتي وعبـد منـاف لم تغلهـا الغوائـل

فذكر قرابة بيننا وبين بني عمنا بني أمية ، وإنا إنما كنا أهل بيت واحد فى الجاهلية حتى جاء الإسلام فدخل الشيطان بيننا أيما دخل . . [٢٧]» .

وليس هذا بأقل من تمثل ابن عباس بالشعر . والمقصود هو حالة اللجوء إلى ذاكرة الشعر ، أو ، بعبارة أخرى ، المحفوظ منه ، للبوح ، أو لتجسيد حالة أو موقف ، بحيث يستعير المرء صوت الشاعر ، فيأخذ من فنه مايراه كفيلاً بالتعبير عما فى نفسه ، أو على الأقل الكناية عنه . وهو أسلوب عرفه العرب منذ القديم ، إذ كثيراً ما يلجأون إلى ما يحفظون من الشعر لإنابته عنهم فيما يريدون قوله ، تماماً كما يفعلون ذلك بغرض البحث عن قرينه أو شاهد يدعم الرأي أو يقوي الحجة . وكأن اللجوء إلى الشعر – عندهم – يعطي وهجاً خاصاً للتعبير عن الحالة أو الموقف ، أو أنه يهب «مصداقية» بعينها للرأي والحجة .

وفى هذه المسؤولية التي يتحملها الشعراء مايجعل لرؤيتهم ، حول العلاقة بالكون والحياة والأشياء ، ثقلاً خاصاً يبرر – عند العرب – الرجوع إلى أقوالهم ، أو اللجوء إليها .

وابن عباس كان – طبعاً – واحداً من هؤلاء العرب ، وليس له إلّا أن يفعل مايفعله العرب . فهو يتمثل بالشعر فى بعض المواقف تعبيراً عن حالة ، أو بحثاً عن قرينه ، أو طلباً لشاهد ، يضيء الحالة ، أو يدعم الرأي ، أو يقوي الحجة ، معطياً للشعراء هو الآخر حقهم فى تميُّز الرؤية ونقائها ، بصفتهم من الموهوبين ، ومن أصحاب الشفافية والإبداع – وهو بهذا ، يكرس ، هنا أيضاً ، صورة من صورة وشيجته الشخصية بالشعر ، وشكلاً من أشكال الحميمية التي تربطه به . فهذا الشعر إنما يعيش فى ذاكرته ، وإنما يتحرك حياً نشطاً فى وجدانه . إنه حاضر حين يطلبه ، موجود حين ينوي اللجوء إليه ، فى طربه وفى حزنه ، كما فى تطلعه ، أو توقه ، أو طموحه .

فمن أخبار ابن عباس فى هذا الصدد ما يرويه المدائني من أن عبدالله بن عباس وفد إلى معاوية ، فأمر معاوية ابنه يزيد أن يأتيه فيعزيه فى الحسن بن على ، فلما دخل على ابن عباس رحب به وأكرمه وجلس عنده بين يديه ، فأراد ابن عباس أن يرفع مجلسه فأبى وقال : إنما أجلس مجلس المعزي لا المهني ، ثم ذكر الحسن ، فقال : رحم الله أبا محمد أوسع الرحمة وأفسحها ، وأعظم الله أجرك ، وأحسن عزاءك ، وعوضك من مصابك ماهو خير لك ثواباً وخير عقبى . فلما نهض يزيد من عنده قال ابن عباس : إذا ذهب بنو حرب ذهب علماء الناس ! ثم (تمثل) :

مغـــاض عن العـــوراء لاينطقـــوا بها   وأصل وراثـــات الحلـــوم الأوائـــل [٢٨]

أما موقفه من ابن الزبير فإن الرواية تقول : «بأنه قد تمنى أن يكون له الملك على أرض الحرمين ، عندما ضمه مجلس – بقدر الله – مع عبدالله بن مروان ، وأخويه مصعب وعروه ابني الزبير عند الكعبة وطلب كل منهم من الله مايتمناه ، ولكن أنى لهذه الأمنية أن تتحقق ، وهو لايستطيع أن يطلب هذا الأمر لنفسه ، والحسين بن على معه فى مكة ، لذلك رأيناه يحاول اقناع الحسين بالخروج إلى الكوفة ، وعندما يخرج ترجمان القرآن من عند الحسين وهو يائس من اقناعه ، مدرك لهذه الحقيقة يمر بأبى الزبير فيقول له : «قرت عينك ياابن الزبير» ثم يتمثل :

يالك من قُنْبُـــــرة بمَعْمَـــــرِ   خلا لك الجو فبـــيضي واصفـــري

ونَقِّـــري ماشئت أن تنقـــري

هذا الحسين يخرج إلى العراق ، وعليك بالحجاز» [٢٩]

ويروى أن ابن عباس اختلف وعمرو بن العاص عند معاوية . فقال ابن عباس : ألا أغنيك . قال : بلى ! فأنشده :

والشمس تغـــرب كل آخر ليلـــة   فى عين ذي خُلُب وثـأط حَرْمـد [٣٠] .

إن فى لجوء ابن عباس إلى الشعر للإيحاء ، أو الكناية ، أو إضاءة حالة ، تأكيداً لرؤيته الخاصة المتعلقة بالشعر . وإنه لايختلف فى ذلك – كما قلنا – عن غيره من العرب الآخرين ، الذين يتمثلون

بالشعر ، ويلجأون إليه حين تقتضي الحاجة ذلك ، ولكن إذا ما تذكرنا مجمل الصلة التي تربط ابن عباس بالشعر ، لم نستطع أن نفلت من أن ننسب هذا اللجوء المتكرر إلى الشعر إلى المستوى المتقدم لحميمية تلك الصلة . وإذا وضعنا فى الاعتبار حدة بصيرة ابن عباس ، ونفاذ حاسته ، وقوة ذائقته ، وقدرته على نقد الشعر وتقويمه ، كان لذلك التمثل ، منه بالذات ، طعمه الخاص ، وقيمته الخاصة أيضاً . فهو لابد أن يكون قد جاء فى مكانه الملائم ، وهو لابد أن يكون قد أتى محملاً بالعديد من المعاني والدلالات ، بعد أن يكون قد مرّ فى خياله – رضي الله عنه – بما يستحقه من اختبار وانتقاء . وهذا كله يضاف إلى رصيد ابن عباس فى سلطته على الشعر : تقويماً ، واختباراً ، وانتقاء ، وسرياناً على اللسان . فهو ينظر إليه من خارجه ، عندما ينقده ويفاضل بين شعرائه كما سيأتي ، وهو يعيشه من الداخل ، عندما يلجأ إليه ، ويتمثل به .

إن ابن عباس الذى يطرب للشعر ويحزن له ، ويحبه ، ويتذوقه ، ويتمثل به ، سيكون من القلائل ، فى تلك المرحلة ، الذين عبروا عن ذلك بالسعي إلى تعلمه والسؤال عن جديده .

لقد نقلت إلينا بعض الأخبار أنه كان يسأل عن شعر عمر بن أبي ربيعة ، فهو دائم القول : «هل أحدث هذا المغيري شيئاً بعدنا» (٣١) .

وفى حال القبول بهذا الخبر لا بد أن نتوقع أن ابن عباس كان يفعل مثل ذلك بالنسبة إلى شعراء آخرين غير عمر بن أبي ربيعة ، فيسأل عن جديدهم ، يحاط به علماً ، ويستزيد ، من خلاله ، معرفة بتطور الشعر والشاعر . ولابد ، بعد هذا ، أن نلاحظ مانعدّه أمراً هاماً فى صيغة سؤال ابن عباس عن «جديد» عمر بن أبي ربيعة ، فهو يسأل عما أحدثه الشاعر «بعده» ، أي أنه كان على علم بما كان قبل ذلك ، وهومايعني أن ابن عباس كان من المتابعين لإنتاج الشاعر ، ومن الحريصين على تقصيه ، هذا فضلاً عما يمكن أن يتضمنه كل ذلك من معاني الإعجاب بالموهبة والإبداع عند ابن أبي ربيعة ، وهذا ما سيأتي ذكره بعد قليل .

أما فى مسألة تعلُّم الشعر تحديداً فقد أخرج الحاكم عن يحيى بن سعيد قال : «سمعت عجوزاً من الأنصار تقول : رأيت عبدالله بن عباس رضي الله عنهما يختلف إلى صرمة بن قيس يتعلَّم منه هذه الأبيات :

ثوى فى قريش بضع عشرة حجـــة ... يذكّـر لو ألفـى صديقـاً مواتيـا
ويعـــرض فى أهـــل المواسم نفسه ... فلـــم ير من يؤوي ولم ير داعيـــاً
فلمـا أتانـا واستقـرت به النـوى ... وأصبـح مسروراً بطيبـة راضيـا
وأصبـح مايخشى ظلامـة ظالم ... بعيـد ومـايخشى من النـاس باغيـا
بذلنـا له الأمـوال من حل مالنـا ... وأنفسنـا عنـد الوغـى والتأسيـا
نعـادي الـذى عادى من النـاس كلهـم ... بحق وإن كان الحبـيب المواتيـا
ونعلــم أن الله لاشيء غيره ... وأن كتـاب الله أصبـح هاديـا (٣٢)

ولا ندري أي شيء بالتحديد كان يريد أن يتعلمه ابن عباس وهو يختلف إلى صرمة بن قيس . فلا عدد الأبيات المذكورة أعلاه ، ولا حجم قيمتها الشعرية ، يدعوان إلى كل ذلك أو شيء منه . وما نظنه ، بالأحرى ، هو أن ابن عباس ، إذا تأكدت بالفعل مسألة زياراته لصرمة بن قيس ، لم يكن ، ليكتفي بتعلم تلك الأبيات فقط ، بل إنه فى الأرجح قد تعلم من صرمة هذا الشعر وغيره من الأشعار . أمّا إذا لم يكن الأمر كذلك ، فإن هذا يعني أن الرواية نفسها يشوبها بعض الغموض ، فيكفينا هنا معنى أن ابن عباس كان يتجشم الانتقال إلى صرمة ، ويعوده فى داره ، ولو لمرة واحدة ، من أجل أن يتعلم منه هذه الأضمومة الشعرية القليلة ، أو هذا «النص» الشعري . وهو نص ، مهما كان متواضعاً فنياً ، إلّا أنه ، فى كل الأحوال ، يحمل معاني لها أهميتها بالنسبة إلى ابن عباس ، وبالنسبة إلى الصحابة من المهاجرين والأنصار ، وبالنسبة إلى المرحلة كلها . فهو يعرض لقصة الرسول صلى الله عليه وسلم مع مشركي مكة ، وما كان من هجرته إلى المدينة ، ومن ثم انتصار أهلها له . إن ابن عباس يدرك ما لهذا الشعر من قيمة تاريخية ، وأبعاد نفسية وعاطفية ، فهو يسجل لإحدى نقاط التحول الهامة الحاسمة فى مسيرة «الدعوة» ، وهي هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة . وهو ، فى الوقت ذاته ، يكشف ما واجهه النبي من عناء ، ومالقيه صحابته رضوان الله عليهم من أذى ، ثم ، تحديداً ، ما قدمه الأنصار من بذل وتضحية ، من أجل احتضان الدعوة وتعضيدها .

إن ابن عباس يعرف مالمثل هذا الشعر من قيمة تاريخية بالنسبة إلى الدعوة ، ومن بعد عاطفي ووجداني بالنسبة إلى الرجال المؤمنين الذين كابدوا ، وجاهدوا ، ولاقوا المحنة والأذى .

ويتضح ، أكثر فأكثر ، موقفه هذا من ذلك النوع من الشعر حين نرى ماكان منه رضي الله عنه حيال شاعر مثل حسان بن ثابت الأنصاري ، ففي رواية عن سعيد بن جبير أنه قال : «كان عند ابن عباس فجاء حسان فقالوا : قد جان اللعين ! فقال ابن عباس : ماهو بلعين لقد نصر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلسانه ويده» (٣٣) .

لاشك أن ابن عباس من خير من يقدِّر ثقل حسان بن ثابت ، وأهميته ، وقيمة شعره وتأثيره ، سابقاً : حين كان الصراع محتدماً مع المشركين ، وحين كانت المواجهة فى حاجة إلى الهجاء . ولاحقاً : حين يظل شعر حسان يتردد فى أحياء العرب وهو الشعر الذى يطري النبي وصحابته ، منوهاً بكفاحهم ، مشيداً بصبرهم ، وجهادهم ، وبالبلاء العظيم الذى أبلوه .

إن ابن عباس ، فى موقفه هذا ، لايريد فقط أن يذكر الناس بحق حسان بن ثابت وفضله فى جهاد المشركين إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام الحرب والمحنة ، ولكنه يريد أيضاً أن يكرس أهمية الشاعر ، وأهمية شعره ، فلا ينصرف الناس عنه حتى بعد إنجلاء الغمة ، وحتى بعد ذهاب دواعي الحرب والفتنة ، وذلك لما لهذا الشعر من قيمة وتأثير مستمرين لاينقطعان ، وهما القيمة والتأثير اللذان كان يدركهما ويقدرهما حق قدرهما الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه وهو يكوِّن فريقه من الشعراء ،

وفى مقدمتهم حسان نفسه ، للتصدي للمشركين ، وللترويج للإسلام ومبادئه .

أجل لقد كان ابن عباس ، يعرف المدى الحقيقي لتأثير الشعر على العرب ، ولسريانه فى عقولهم ووجداناتهم . وهو يريد لمثل هذا الشعر الذى يذكر مراحل الدعوة الدقيقة ، والذى يصرح ببذل الباذلين ، وجهاد المجاهدين ، البقاء والاستمرار . ومن هو ابن عباس غير ابن عم رسول الله ، وأحد فقهاء الدين ، والأمناء عليه . فالدعوة جزء أساسي من ذاته ، وهي كل عاطفته واحساسه .

هكذا يجب أن نتصور السياق الأصيل الذى يندرج فيه تطلع ابن عباس إلى تعلُّم ذلك الشعر من صرمة بن قيس ، وهكذا ، بالتالي ، يجب أن نحدد القياس الأولى لبعض مقومات ذائقة ابن عباس الأدبية ، ولبعض عناصر الوشيجة الخاصة التي تربطه بالشعر .

يحفظ الشعر ويرويـــه

إن تذوق ابن عباس الشعر ، وولعه به ، وحبه له ، لايدفعه ، كل ذلك ، إلى تعلُّمه والدفاع عن القيم المتضمنة فيه فقط ، بل يجعل منه – هو نفسه – راوية من رواته . ورواية الشعر هي ، فى ذاتها ، علم ، وهي – فوق ذلك – فن خاص له شروطه ومتعته ، وما تلك المتعة إلّا بعض أنواع التعبير عن حميمة الصلة بين ابن عباس وبين «كلام العرب» ، أو تراثهم ، أو فنهم الشعري .

فقد اشتهر عن ابن عباس ، بالفعل ، روايته الشعر . فكان يعرف بين أهل زمانه بأنه من أبرز من يضطلع بهذا العلم أو هذا الفن الخاص .

وفرق بين أن يستحضر ابن عباس ذاكرته ويستحثها ، من أجل غاية علمية فى التأويل ، بحثاً عن الشاهد فى تفسير الغريب ، وأن يستحضر تلك الذاكرة لأغراض أخرى ، كالمتعة المحضة ، أو الاستجابة لطلب من يقدر فيه علمه بالشعر ، وقدرته على حفظه وروايته .

لقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعرف كل ذلك فى ابن عباس ، فلا ينكره عليه ، بل على العكس ، يطلبه منه ، فهو يستنشده من شعر الشعراء الذين يأخذون باهتمامه وإعجابه .

ومن ذلك ، الخبر الذى يرويه ابن عباس عن نفسه ، إذ قال له عمر : «أنشدني لأشعر شعرائكم ؟ قلت (أي ابن عباس) : ومن هو ياأمير المؤمنين ؟ قال زهير ، قلت : وكان كذلك ؟ قال : وكان لا يعاظل بين الكلام ، ولا يتبع حوشيه ، ولا يمدح الرجل إلّا بما فيه» (٣٤) .

وبغض النظر عن «ثقافة» هذا النوع من الحوار النقدية ، فإننا نلمس فيه معرفة عمرأصلاً لما يسأل ابن عباس عنه ، ولما يرجو طلبه عنده . والشاهد ، على أيه حال ، ليس هنا ، وإنما هو فى أن عمر كان يريد ، بالأحرى ، أن يستنشد ابن عباس بعض شعر زهير ، لأنه كان يرى فيه رضي الله عنه راوية مجيداً للشعر عموماً ، وربما لشعر هذا الشاعر بالذات .

وقد قال عبد الله بن عتبة ، فى مناسبة أخرى ، بعد أن عدَّد خصال ابن عباس ، وأطرى علمه فى الفقه والتأويل والمغازي والشعر : «وربما حفظت القصيدة من فيه ينشدها ثلاثين بيتاً» (٣٥) .

ولا نظن أن عمر بن الخطاب كان الوحيد الذى يطلب إلى ابن عباس أن يروي له الشعر . فهو حتماً يواجه بأسئلة مماثلة من آخرين غير عمر . لأن من طبيعة الأمور ألا يكون ماحدث له مع عمر حادثة فريدة ، بل حادثة تتكرر ، نظراً لسمعة ابن عباس ، وصيته الذائع فى حفظ الشعر وروايته ، والعلم به .

أما قصة ابن عباس مع نافع بن الأزرق ، وسؤالاته ، فهي من أقوى الشواهد على إحاطاته – رضي الله عنه – الشعرية ، أي على حفظه وروايته ، وعلى «"تنوع" مايحفظ ومايروي من أشعار من حيث أزمنتها ، ومن حيث أغراضها . وقد قال المبرد : «وروى الزبيريون أن نافعاً قال له (أي لابن عباس فى نهاية تلك السؤالات) «ما رأيت أروى منك قط . فقال له ابن عباس : مارأيت أروى من عمر ، ولا أعلم من علي» (٣٦) . وهكذا نلاحظ من هذا القول ، ومن مجمل ماسبق من أقوال ، أن مفهومي «الرواية» و «الحفظ» يتداخلان تداخلاً شديداً ، بحيث يمكن أن يأخذا أحياناً معنى واحداً ، وذلك تجاوباً مع تداعي النسق المنطقي لما يمكن أن يفضيا إليه من دلالات فالرواية تقتضي ، بالضرورة ، الحفظ . والحفظ يحرض ، غالباً ، على الرواية . فكل راوٍللشعر هو حافظ له بالضرورة ، وكل حافظ له يرويه فى أغلب الأحيان . وهذه ، فى النتيجة ، هي حال ابن عباس مع الشعر ، فهو يحفظه ، وهو يرويه .

ولن نهتم هنا إذن ، فيما يخص سؤالات نافع إلّا بما ينسجم مع أطروحتنا المركزية فى هذا البحث ، فلايعنينا ماهو متعلق بأهميتها ، أو قيمتها ، أو مركزها ، فى منهج ابن عباس فى التفسير ، أو فى طريقته فى اللجوء إلى الشعر فى شرح الغريب ، فذاك موضوع آخر مستقل ، (قلنا ، فى مقدمة هذا البحث ، بأننا لن نتعرض له) وسنقصر اهتمامنا فى السطور التالية على مايمكن أن يلقي مزيداً من الضوء على حفظ ابن عباس الشعر وروايته (٣٧) ، وذلك من حيث تنوع مصادر الإجابات على تلك السؤالات ، ومن حيث تنوع أزمنتها ، ومن حيث ، أخيراً ، شموليتها لأغراض الشعر المختلفة .

إن الشواهد الشعرية ، مما يرويه ابن عباس فى إجاباته على سؤالات نافع ، تنتمي ، فعلاً ، إلى أزمنة تاريخية وحضارية مختلفة ، ففيها – مثلاً – الجاهلي ، وفيها – مثلاً – الإسلامي أيضا . كما أنها تنتسب ، من حيث أغراضها ، إلى أكثر أغراض الشعر رواجاً ، كالمديح والهجاء والفخر والغزل ، وحتى الخمريات . وهي حتماً لا تغفل المعاني الدينية التي لايجد ابن عباس نفسه ، بحكم ثقافته الأساسية وبحكم موقعه من الدعوة ، إلّا فيها ، فهو لا يمتح إلّا من معينها .

ثم إن رواية ابن عباس للشعر ، بمقتضى تلك الإجابات ، لاتقتصر على شعر الرجال ، بل لقد شملت أيضاً شعر النساء .

وعليه فإن من أمثلة الشواهد الجاهلية :

قال نافع : يا ابن عباس أخبرني عن قول الله عز وجل : «وابتغوا إليه الوسيلة» (٣٨) . (قال ابن عباس : الحاجة ، قال : أو تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت عنترة العبسي وهو يقول :

إن الرجـــال لهم إلـــيك وسيلـــة أن يأخذوكِ تكـحلي وتخضبـي (٣٩)

وقال (نافع) : يا ابن عباس أخبرني عن قول الله عز وجل : «القانع والمعتر» (٤٠) .

قال (ابن عباس) : القانع الذى يقنع بما يعطي ، والمعتر الذى يعترض الأبواب ، قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت الشاعر وهو يقول : (زهير بن أبي سلمى) .

على مكثريهم حق من يعتـــريهم وعنـد المقـلين السماحـة والبـذل (٤١)

وقال (نافع) : يا ابن عباس أخبرني عن قول الله عز وجل «وجفان كالجوابي» (٤٢) . قال : جفان كالحياض تتسع الجفنة للجزور ، قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت طرفة بن العبد وهو يقول :

كالجوابي لاتنـــي وهـــي مترعـــة لقرى الأضيـاف أو للمحتـضر (٤٣)

ومن أمثلة شعر الإسلاميين :

إن نافعا قال : يا ابن عباس أخبرني عن قول الله عز وجل «شرعة ومنهاجا» (٤٤) .

قال : الشرعة : الدين ، والمنهاج : الطريق . قال : وهل تعرف العرب ذلك ، قال : نعم ، أما سمعت أبا سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب وهو يقول :

لقــد نطــق المأمــون بالصدق والهدى وبين للإسلام دينـــا ومنهجـــا

قال : يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤٥) .

وقال (نافع) : يا ابن عباس أخبرني عن قول الله عز وجل : «فأجاءها المخاض» (٤٦) .

قال : فألجأها المخاض إلى جذع النخلة . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أماسمعت الشاعر (حسان بن ثابت) وهو يقول :

إذا شددنـــا شدة صادقـــة فاجأنـــاكم إلى سفـح الجبـل (٤٧)

وقال (نافع) : يا ابن عباس أخبرني عن قول الله عز وجل : «والله يؤيد بنصره من يشاء» (٤٨) ، قال : يقوي بنصره من يشاء ، قال فهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت حسان بن ثابت وهو يقول :

برجـــال لستم أمثـــالهم أيـدوا جبريـل نصراً فنـزل (٤٩)
وعلونـــا يوم بدر بالتقـــى طاعـة الله وتصديـق الـرسل

أما أغلب الأغراض التي تنتمي إليها تلك الشواهد فهي :

المـــدح :

قال (نافع) يا ابن عباس أخبرني عن قول الله عز وجل : «يكاد سنا برقه يذهب الأبصار» (٥٠) قال : السنا الضوء الذى يدخل فى الكوة ، قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟

قال : نعم ، أما سمعت أبا سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب وهو يقول :

يدعـــو إلى الحق لايبغـــي به بدلاً يجلـو بضوء سناه داجـي الظلـم (٥١)

وقال : (نافع) : يا ابن عباس أخبرني عن قول الله عز وجل : «فيطمع الذى فى قلبه مرض» (٥٢) .

قال : فى قلبه الفجور وهو الزنى ، قال : فهل تعرف العرب ذلك ، قال : نعم ، أما سمعت الأعشى وهو يقول :

حافظ للفرج راض بالتقى   ليس ممن قلبه فيه مرض(٥٣)

ومن الهجاء :

قال (نافع) : يا ابن عباس أخبرني عن قول الله عز وجل : «شواظ من نار» (٥٤) .

قال : الشواظ اللهب الذى لادخان له ، قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت أمية بن أبي الصلت يهجو حسان بن ثابت وهو يقول :

ألا من مبلغ حسان عني   مغلغلة تدب إلى عكاظ
أليس أبوك فينا كان قيناً   لدى القينات فسلاً فى الحفاظ
يمانياً يظل يشب كيراً   وينفخ دائباً لهب الشواظ

فأجابه حسان بن ثابت :

أتاني عن أميّ ثنا كلام   وماهو فى المغيب بذي حفاظ
ستأتيه قصائد محكمات   وتنشد بالمجاز إلى عكاظ
همزتك فاختضعت بذل لفظ   بقافية تأجج كالشواظ (٥٥)

وقال (نافع) يا ابن عباس أخبرني عن قول الله عز وجل : « بينها وبين حميم آن» (٥٦) . قال الآن الذى انتهى طبخه وحرّه ، قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت نابغة بني ذبيان وهو يقول :

وتخضب لحية غدرت وخانت   بأحمر من نجيع الخوف آن (٥٧)

ومن الفخر :

قال (نافع) : يا ابن عباس أخبرني عن قول الله عز وجل : «إذْ تحسونهم بإذنه» (٥٨) . قال تقتلونهم بأمر محمد . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أماسمعت الشاعر وهو يقول :

ومن الذى لاقى بسيف محمد   فحس به الأعداء عرض العساكر (٥٩)

وقال أوس بن حجر :

فما غضبوا أنا نحس عليهم   ولكن رأوا ناراً تحص وتسفع

وقال (نافع) : يا ابن عباس أخبرني عن قول الله عز وجل : «فى الفلك المشحون» (٦٠) قال : السفينة الموقرة الممتلئة ، قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول :

شحنا أرضهم بالخيل حتى   تركناهم أذل من الصراط (٦١)

ومن الغــزل :

قال (نافع) : يا ابن عباس أخبرني عن قول الله عز وجل : «إذا أثمر وينْعِه» (٦٢) .

قال : نضجه وبلاغه ، قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أماسمعت الشاعر وهو يقول :

إذا ما مشت وسط النســـاء تأوّدت كما اهتـز غصن ناعـم النبت يانـع (٦٣)

وقال (نافع) : يا ابن عباس أخبرني عن قول الله عز وجل : «وأنك لاتظمأ فيها ولاتضحَى» (٦٤) . قال : لا تعرف فيها من شدة حرّ الشمس ، قال : فهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت قول الشاعر (عمر بن أبي ربيعة) وهو يقول :

رأت رجــلاً أمـا إذا الشمس عارضت فيضحـي وأمـا بالعشيّ فيــخصر (٦٥)

وقال (نافع) : يا ابن عباس أخبرني عن قول الله عز وجل : « ولات حين مناص» (٦٦) . قال : ليس بحين فرار ، قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت الأعشى وهو يقول :

تذكــرت ليلى حين لات تذكــر وقــد بنت عنها والمنــاص بعيــد (٦٧)

ومن الشواهد التي قيلت فى الأيام والمواقع :

قال (نافع) يا ابـن عبـاس أخبرني عن قول الله عز وجـل : «إن عذابها كان غرامـا» (٦٨) . قال : عذاب جهنم بلاء ملازم شديد كلزوم الغريم للغريم . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعـم ، أمـا سمعت بشر بن أبي خازم وهو يقول :

ويــوم النســار ويــوم الجفــار كان عذابــاً وكانــا غرامــا (٦٩)

وقال (نافع) : يا ابن عباس أخبرني عن قول الله عز وجل : «وجوه يومئذ باسرة» (٧٠) . قال : كالحة قاطبة ، قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول :

صبحنــا تميمــاً غداة النســار بشهبــاء ملمومــة باسره (٧١)

ومن الشعر الذى ورد فيه ذكر للخمر :

قال (نافـع) : يا ابـن عبـاس أخبرني عن قول الله عز وجـل : «لا فيها غَول» (٧٢) قال : يقـول : ليس فيها نتن ولا كراهية كخمر الدنيا ، قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعـم ، أمـاسمعت امـرأ القيس وهو يقول :

رُبّ كأس شربت لا غول فيها وسقـيت النـديم منها مزاجــاً (٧٣)

وقال (نافع) : يا ابـن عبـاس أخبرني عن قول الله عز وجـل : «وحـور عين» (٧٤) قال : الحوراء : البيضاء المنعَّمة ، وقال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال أما سمعت الأعشى وهو يقول :

وحــور كأمثــال الدمــى ومنــاسف ومــاء وريحان وراح يُصنَّــع (٧٥)

وقـال (نافـع) : يا ابـن عبـاس أخبرني عن قول الله عز وجـل : «بعجـل حنيــذ» (٧٦) . قال : الحنيذ : النضيج مايشوى بالحجارة ، وقال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت الشاعر

وهو يقول :

لهم راح وفـــــــــــار المسك فيهم وشاديهم إذا شاءوا حنيـــــــــذ (٧٧)

ومن شواهد المعاني الدينية :

قال (نافع) : يا ابن عباس أخبرني عن قول الله عز وجل : «جَدُّ ربنا» (٧٨) قال : ارتفعت عظمة ربنا ، قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت أمية بن أبي الصلت وهو يقول :

لك الحمـــد والنعمـــاء والملك ربنـــا فلا شيء أعلى منك جداً وأمجد(٧٩)
ملـــيك على عرش السمـــاء مهيمـــن لعزتـــه تعنـــو الوجـــوه وتسجـــد
عليه حجـاب النـــور والنـــور حولـــه وانهار نور حولـــــه تتوقـــــد

وقال (نافع) : يا ابن عباس أخبرني عن قول الله عز وجل : «الذين يؤمنون بالغيب» (٨٠) . قال: ماغاب عنهم من أمر الجنة والنار . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت أبا سفيان بن الحارث وهو يقول :

وبالغـــيب آمنـــا وقـــد كان قومنـــا يصلـــون للأوثـــان قبـــل محمـــد (٨١)

وقال (نافع) : يا ابن عباس أخبرني عن قول الله عز وجل : «وتجعلون له أنداداً» (٨٢) . قال : الأنداد : الأشباه والأمثال ، قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت لبيد وهو يقول :

أحمـــــد الله فـــــلا ندّ لـــــه بيديـــــه الخير ما شاء فعـــــل (٨٣)

وقال (نافع) : يا ابن عباس أخبرني عن قول الله عز وجل : «بالبأساء والضراء» (٨٤) قال : البأساء : الخصب ، والضراء : الجدب . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أماسمعت زيد بن عمرو وهويقول :

إن الالـــــه عزيـــــز واسع حكـــــم بكفّـــه الضر والبـــأساء والنعـــم (٨٥)

ومن شواهد الأحكــام :

قال (نافع) : يا ابن عباس أخبرني عن قول الله عز وجل : «الطلاق مرتان» (٨٦) هل كانت العرب تعرف الطلاق ثلاثاً فى الجاهلية ؟ قال : نعم ، كانت العرب تعرفه ثلاثاً باتاً ، ويحك يا ابن أم الأزرق أماسمعت قول الأعشى وقد أخذه اختانه ، فقالوا : والله لانرفع عنك العصا أو تطلق أهلك ، فإنك قد أضررت بها . فقال :

ياجـــــارتى بينـــــي فإنك طالقـــــه كذاك أمـور النـــاس غاد وطارقـــه (٨٧)

فقالوا : والله لانرفع عنك العصا أو تثني لها الطلاق ، فقال :

بينـــي فإن الـــبين خير من الـــعصا وإن لا تزال فوق رأسي بارقـــــــــه

فقالوا : والله لانرفع عنك العصا أوتثلث لها الطلاق ، فقال :

وبينـــي حصان الفـــرج غير ذميمـــة وموموقـــة فينـــا كذاك وواقعـــه
وذوقي فتـــــى حيّ فإني ذائـــــق فتـــاة أنـــاس مثـــل ما أنت ذائقـــه

ومن شعر النســـــاء :

قال (نافع) : يا ابن عباس أخبرني عن قول الله عز وجل : «وأنتم سامدون» (٨٨) قال : السمود اللهو والباطل . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أماسمعت هزيلة بنت أبي بكر تبكي قوم عاد وهي تقول :

ليت عاداً قبلـــــــــــوا الحق ولم يـــــــــــدوا الجحـــــــــودا (٨٩)
قيـــــــل قم فانظـــــــر إليهم ثم ذر عنك السمـــــــــــــــــودا
لن تراهـــم آخر الدهـــر كما كانوا قعـــودا

وإكباراً لهذا التدفق الملحوظ فى رواية الشعر عند ابن عباس ، أو هو إعجاب بذلك التدفق ، قال نافع – كما مربنا – : «ما رأيت أروى منك قط» والسؤالات تمرّ على نحو مائتين وخمسين موضعاً فى القرآن الكريم (٩٠) وفى كل موضع من هذه المواضع يلجأ ابن عباس إلى ذاكرته ، وإلى موهبته فى رواية الشعر وحفظه ، فلا تخونه تلك الذاكرة ، ولا تخذله تلك الموهبة . فهو ينتقل من الجاهلي إلى الإسلامي ، ومن شعر الرجال إلى شعر النساء ، ومن المدح ، إلى الهجاء ، إلى الغزل ، إلى الفخر ، إلى بقية الأغراض الأخرى ، دون عناء يذكر . فالتعدد فى أزمنة الشعر التاريخية والحضارية موجود ، والتنوع فى أغراض الشعر وفنونه موجود كذلك .

وإن تجاوب المخزون الشعري عند ابن عباس مع سؤالات نافع بن الأزرق ليس له ، هكذا ، إلّا أن يدل على ثراء ذلك المخزون ، وعلى حيويته . وإن توالي تلك الشواهد وتعددها ليسا بالأمر الهين جداً ، كما قد يبدو ذلك لأول وهلة ، لأنهما يمران ، فى واقع الأمر ، بمرحلة حادة من المهارة فى الانتقاء من رصيد شعري لابد أن يكون ضخماً . إن منطق التأهيل لمهمة كهذه يشترط تلك الضخامة ، وإن منطق الممارسة ، فى الوقت نفسه ، يفضي إلى الإقرار بها . فلا يمكن أن نظن أن ذاكرة ابن عباس تتوقف عند مجرد اختزان تلك الشواهد وحدها ، بل هي ، حتماً ، عملية أكثر تعقيداً ، ولعل من أبسط آلياتها الاختزان نفسه ، ثم ذكائية الفرز بين مايلائم الغريب من المخزون الشعري ، الأوسع أو الأكبر ، وما لايلائمه .

إننا نحصر أنفسنا فى مثل هذه الدلالات فيما يتعلق بإجابات ابن عباس على سؤالات نافع ، لأنها هي الدلالات التي تهمنا فى هذا البحث ، من حيث التأكيد على رواية ابن عباس الشعر وحفظه له ، أو من حيث اتساع مخزونه من هذا الفن ، وبالتالي تنوع ذلك المخزون وتعدد أزمنته .

وحقاً إن استخدامات الشعر عند ابن عباس فى مثل هذه الحالة تتم لأغراض علمية منهجية محضة ، مما قد يدفع إلى الظن ، أول وهلة ، بأن اهتمام ابن عباس بالشعر إنما هو مقصور على مايخدم تلك الأغراض ، أو مايصب فى قنواتها المحددة ، ولكن فرضية كهذه لاتستقيم بحال مع التطورات المختلفة لعلاقة ابن عباس بالشعر فى أوجهها المختلفة كما مر بنا وكما سيمر . وإذن فإن إجابات ابن عباس على

سؤالات نافع ليس لها إلّا أن تؤخذ دليلاً إيجابياً على ثراء المخزون الشعري عموماً عنده – رضي الله عنه – فهو يتعلم الشعر ، ويحفظه ، ويشكل جزءاً مهماً من ثقافته ، فيوظفه للبوح حيناً ، ويستمد منه الشاهد حيناً آخر ، هو صوت العاطفة وصدى الوجدان مرةً ، وهو الدليل والمرجعية الصادقة مرة أخرى .

إن الشعر عند ابن عباس ، هكذا ، هو الشعر فى قيمه الخاصة ، وفى مقوماته الذاتية ، فلا اعتبار كبير لموضوعه ، أو غرضه ، أو هوية منشئة ، ما دام يتوافر على عناصر الشعر وجمالياته ، ومادام لايتناقض مع قيم المجتمع الجديد «ولم يكن فيه فحش ولا خنا ، ولا لمسلم أذى» .

إن الشعر عند ابن عباس ، باختصار ، هو إحدى لغاته فى التعبير ، وهو إحدى وسائله فى استخداماته العلمية ، ولهذا ظل أحد مدخراته الثقافية المهمة بلا منازع .

صلته بالشعـــراء

فى جملة أخبار ابن عباس المتعلقة بالشعر ، نستطيع أن نعثر على ما يشير إلى أنه رضي الله عنه كان على صلة مباشرة ببعض شعراء عصره : يجالسهم ويستنشدهم ، ويحاورهم حول الشعر وبعض شؤونه وقضاياه .

ونستطيع أن نميز ، بمقتضى النظر إلى تلك الأخبار ، ثلاثة شعراء كانت لهم صلة واضحة بابن عباس ، وهم من مشارب شعرية مختلفة ، إذ اشتهر كل واحد منهم فى غرض شعري بعينه ، وذلك إما من حيث وجه الإجادة فيه ، أو من حيث إن معظم نتاجه المأثور عنه كان يصب فى ذلك الغرض ، أو أنه ، على الأقل ، عرف تاريخياً به ، بالنظر إلى طبيعة الدور الذى لعبه حسب مقتضيات مرحلته : فهذا عمر بن أبي ربيعة شاعر الغزل ، وهذا الحطيئة شاعر الهجاء ، وهذا حسان بن ثابت شاعر الحماسة ، أو الدفاع عن الإسلام . وثلاثتهم من أبرز شعراء زمانهم ، كل فى فنه الذى عرف به . وقد كشفت لنا أخبار ابن عباس عن صلات ما ربطته بهم ، وهي فى ظاهرها صلات أدبية محضة ، تتمحور حول الشعر ومسائله وشؤونه .

وما تلك الصلات بهؤلاء الشعراء ، ذوي المشارب الشعرية المختلفة ، إلا تعبير آخر عن تنوع الثقافة الشعرية عن ابن عباس نفسه ، وذلك من ناحية تذوقية وموضوعية . وهو تنوع يمس ، على حد سواء ، مصادر ذلك الشعر وأغراضه ، فهو – مرة أخرى – يعدد فى شعرائه الذين يهتم بهم ، وهو – مرة أخرى أيضا – يأخذ بالغزل ، ويأخذ بالهجاء ، ويأخذ بالحماسة وبما قيل فى الدفاع عن الإسلام . والمهم قبل هذا وبعده هو «الشعر» نفسه ، من حيث هو فن ، وتعبير ، وشاهد على العصر والتاريخ والأحداث .

وسنرى ، فيما بعد ، أن هناك بعض التحفظات التي أعلنها ابن عباس ، حول بعض أنواع الشعر أو أغراضه ، ولكن تلك التحفظات ، كما هو واضح من أخبار صلته بالشعراء الثلاثة المذكورين ، لا تصادر أهمية الشاعر ، أو تلغي شاعريته ، أو تنفي قدراته ومؤهلاته الفنية التي تميزه .

إن تلك الأخبار المتعلقة بصلة ابن عباس ببعض الشعراء ، إضافة إلى ماتفضي إليه من تصور واضح لحجم الحظوة التي ينالها الموهوبون من الشعراء عند ابن عباس ، فإنها تشير صراحة إلى مدى تقديره لفنهم ، واعتداده بآرائهم فى الشعر . وهذا فى حدّ ذاته ، موقف من الصحابي الجليل له وزنه وأهميته ، بالنسبة إلى الشعر ، وبالنسبة إلى الشعراء ، فى وقت كان فيه الشعر ، وكان فيه الشعراء ، فى أمس الحاجة إلى المزيد من مواقف كهذه ، فالشعر ، على الرغم من كل شيء ، كان مايزال ، فى تلك المرحلة ، يتقاذفه بينهم «المجيزون» و «المتحرجون» إيجاباً وسلباً (٩١) . أما الشعراء عموماً فمازالت صفة السفه الملحقة بهم ، وصفة «الغواية» الملصقة بمن اتبعهم ، (٩٢) تطاردانهم ، لاسيما حين تكون المسألة غزل أو هجاء . وسيتضح شيء من هذا ، فيما بعد ، أثناء حوار نافع بن الأزرق مع ابن عباس حول شعر عمر بن أبي ربيعة .

وأيضاً فإن طبيعة الحوار الذى كان ينشأ بين ابن عباس وأولئك الشعراء تفضي ، فيما تفضى إليه ، إلى نتيجة واضحة ، وهي رغبة ابن عباس فى «التعلُّم» من هؤلاء الشعراء ، أو بعبارة أخرى : الأخذ مباشرة ، فيما يتعلق بالشعر وشؤونه ، عن «أهل الصناعة» أنفسهم ، سواء بالاطلاع على إنتاجهم ، وتلقيه ، دون وسيط منهم ، أو بمعرفة آرائهم حول بعض مسائل الشعر وقضاياه . وابن عباس فى كلتا الحالين لن يجد ، بالفعل ، من يروي عطشه ، فى هذا وذاك ، أكثر من الشعراء أنفسهم . فالشعر هو حرفتهم الأولى . هم يبدعونه ، وهم ينشئونه ، وآراؤهم فيه لها قيمتها ، ولها مشروعيتها ، ولها بعدها الخاص منهم ، بصفتهم أصحاب الكلمة الأولى فى هذا الشأن .

وما هذا المستوى من الصلة المباشرة بين ابن عباس والشعراء إلا انعكاس طبعي ، فى الوقت نفسه ، لحميميته القديمة مع الشعر ذاته ، فهو – كما سبق أن ذكرنا – يعيشه فى وجدانه وعقله . وهو ماينفك يلجأ إليه فى بوحه وتجلياته وامتاعاته .

لقد نقلت إلينا بعض أخبار ابن عباس صلته بعمر بن أبي ربيعة ، وإقباله على شعره ، فلقد كان رضي الله عنه ، فيما تفيد تلك الأخبار ، يسأل عن شعر هذا الشاعر : «هل أحدث هذا المغيري شيئاًبعدنا» (٩٣) . إن الكلمة المفتاح فى تساؤل ابن عباس هذا هي كلمة «بعدنا» فابن عباس يستفسر بالتحديد عن جديد الشاعر ، فهو على علم بقديمه . كما أن صيغة التساؤل فى مجملها لاتكشف فقط عن رغبة ابن عباس فى معرفة ما أنشأه عمر من جديد ، ولكنها تكشف أيضاً عن رغبته فى أن يصل الجديد بالقديم ، تأكيداً لمتابعته إنتاج الشاعر نتيجة جودة تثمينه .

إن تلك الكلمة المفتاح : «بعدنا» تقودنا أيضاً ، كما يهمنا هنا بالتحديد ، إلى تأكيد صلة ابن عباس بعمر بن أبي ربيعة ، فهو يسأل عما أنتجه الشاعر «بعده» ، أي بعد انقطاعه عنه بغياب أو سفر أو ماشابه ذلك ، مما يؤكد أن صلتهما أو لقاءاتهما ، بعيداً عن هذا الطارىء ، كانت متصلة وغير منقطعة .

ولكن هناك مواقف أخرى لابن عباس ، مع هذا الشاعر ، تتجاوز حدّ السؤال عن إنتاجه وحدّ سماعه والاصغاء إليه ، إلى مستوى حفظه عن ظهر قلب ، وذلك بطريقة كانت تدعو معاصري ابن عباس إلى الدهشة والعجب ، ليس فقط لسرعة حفظه ذلك الشعر ، ولكن حتماً لما يعكسه ذلك ، فى شكل ما ، من إعجاب شديد بعمر وبما ينشيء من شعر . فمهما كانت قوة الحافظة التي يتمتع بها ابن عباس ، إلا أن الإعجاب نفسه يعد عاملاً حاسماً فى إذكاء درجة الحفظ سرعة واتقانا .

يروي المبرد (٩٤) أن نافعاً بن الأزرق أتى ابن عباس يوماً ، فجعل يسأله حتى أملّه ، فجعل ابن عباس يظهر الضجر ، فطلع عمر بن أبي ربيعة عليه ، وهو يومئذ غلام ، فسلّم وجلس ، فقال له (ابن عباس) ألا تنشدنا شيئاً من شعرك ؟ فأنشده .

أمـــن آل نعـــم أنت غاد فمبكـــــر غداة غد أم رائـــــح فمهجـــــر (٩٥)

حتى أتمها ، وهي ثمانون بيتاً . فقال له ابن الأزرق : لله أنت يا ابن عباس ! أنضرب إليك أكباد الإبل ، نسألك عن الدين فتعرض ، ويأتيك غلام من قريش فينشدك سفهاً فتسمعه ؟! فقال : تالله ماسمعت سفهاً . فقال ابن الأزرق : أما أنشدك :

رأت رجـــلاً أمـــا إذا الشمس عارضت فيخـــزى وأمـــا بالـــعشي فيخســـــر

فقال ابن عباس : ماهكذا قال ، إنما قال : «فيضحي وأما بالعشي فيخصر» قال : أو تحفظ الذى قال ؟ قال : والله ماسمعتها إلا ساعتي هذه ، ولو شئت أن أردها لرددتها ! قال : فأرددها . فأنشده إياها كلها .

إن فى هذه القصة ، إجمالاً ،بعض الدلالات التي تحسن الإشارة إليها هنا :

أولاً : إن عمر بن أبي ربيعة «الشاعر» هو من رواد مجلس ابن عباس وهو على صلة به ، وهذا من أكثر مايهمنا فى هذه المرحلة من سياق بحثنا هذا .

ثانياً : إنه قد يبدو ، لأول وهلة ، أن ابن عباس إنما التجأ إلى عمر بن أبي ربيعة يستنشده شيئاً من شعره تخلصاً من نافع بن الأزرق ، أو هروباً منه بعد أن «أملّه وأضجره» . فهو لم يطلب الشعر حباً فى الشعر ولكنه فعل ذلك ليشتغل بشيء آخر غير حوار نافع وأسئلته . ولكن مثل هذا الظن لايستقيم مع باقي القصة ، لأن ابن عباس ، ولعاً بالشعر فى ذاته وفى جمالياته ، ينتهي بحفظ قصيدة عمر بن أبي ربيعة عن ظهر قلب .

ثالثاً : الانكار الصريح من نافع بن الأزرق على ابن عباس أن يعطى وقتاً للاستماع إلى شعر عمر بن أبي ربيعة ، أو «سفهه» على حد تعبيره ، وفى هذا ما يوحي ببعض التذمر ، والاستخفاف ، اللذين كان يواجههما الشعراء وشعرهم من بعض معاصري ابن عباس ، مما يدل على أن وضع الشعر ، ووضع الشعراء بالتالي ، لم يستقر بعد ، تمام الاستقرار ، فى مجتمعهم الجديد .

رابعاً : لكن ابن عباس ، صديق الشعر ، يردّ على نافع مقسماً : «تالله ماسمعت سفهاً !» معلناً بذلك دفاعه الصريح عن الشعر والشاعر .

بل يزيد فيزيل «التشويه» الذى طال أحد أبيات القصيدة على لسان نافع .

بل يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك فى تبنّيه قضية الشعر أمام نافع بن الأزرق ، فيعيد إنشاد القصيدة على مسامعه كاملة ، .مؤكداً من جديد انحيازه لـ «الشعر»عموماً من حيث هو فن وتعبير ، ومعززاً إعجابه بشعر عمر بن أبي ربيعة خصوصاً من حيث إنه – فى نظره – ليس بـ «سفـه» بل إبداع وموهبة ، كاشفاً عن حافظة كانت مثار دهشة نافع بن الأزرق ، وهي ، حتماً ، كذلك بالنسبة إلى الآخرين ممن كانوا بالمجلس غيره .

ودفاع ابن عباس عن الشعر يرد مرة أخرى فى مناسبة شبيهة ، فهو إذ ينفي عن الشعر «السفـه» فى القصة السابقة ، نراه يدفع عنه التهمة بأنه «من رفث القول» فى قصة أخرى . فقد روى أن ابن عباس سئل : هل الشعر من رفث القول ؟ فقال : إنما الرفث عند النساء ، ثم أحرم للصلاة [٩٦] .

وبالعودة إلى قوة الحافظة عند ابن عباس ، فإن المشهود به هو أنه ، بالفعل ، يحفظ الشعر عموماً بدرجة ملفتة للانتباه ، فلنتذكر أن نافعاً نفسه يقول عنه ، كما مر بنا : «ما رأيت أروى منك قط» [٩٧] . وقد كانت تأخذه – هو نفسه – الغرابة ممن يسمعون (الشعر) فلا يحفظونه ، فيقول : «أومنكم من يسمع شيئاً ولا يحفظه» [٩٨] والمقصود هنا ، بحكم موضوع الرواية التي وردت فيها هذه العبارة وسياقها ، هو الشعر .

ومسألة حفظة رائية عمر بن أبي ربيعة المذكورة أعلاه ، وردت فى أكثر من مصدر مثل : «صفة الصفوة» [٩٩] و«حلية الأولياء» [١٠٠] و«نكت الهميان» [١٠١] فهذه المصادر كلها تجمع على أنه حفظها فى مرة واحدة .

وهناك قصة أخرى ، فيما يروى من صلة ابن عباس بعمر بن أبي ربيعة ، تشير ، إن صحَّت ، إلى مستوى أبعد وأعقد فى العلاقة بينهما . فهي ، فضلاً عما يمكن أن توحي به من محاولة لابن عباس فى تجريب نظم الشعر حتى وإن لم يتعد ذلك عجزاً لبيت واحد ، تكشف ، من جانب ما ، التقاء الاثنين (ابن عباس وعمر) عند نقطة حادة جداً من الحدس الشعري . وفى رؤية ما قد يتخذ ذلك مؤشراً إلى إمكانية تفضي إلى اكتشاف متابعة لصيقة محتملة من ابن عباس لكيفية الولادات الشعرية ، وهيئتها ، وشكلها ، عند عمر بن أبي ربيعة ، أو ربما ، بمعنى آخر ، اتخذ ذلك شاهداً على معرفة ابن عباس ، معرفة دقيقة ، لتقنيات الشعر عند هذا الشاعر ، أي «نَفَسه» فى الفكرة من حيث هي ، ثم ، بالتالي ، وسائله فى اللغة ، وفى البناء ، وفى التركيب .

تقول القصة : «أقبل (ابن عباس) على ابن أبي ربيعة فقال : أنشد ! فأنشده :

تشط غداً دار جيراننا

وسكت ، فقال ابن عباس :

وللدار بعد غد أبعدُ

فقال له عمر : كذلك قلت أصلحك الله ، أفسمعته ؟ ! قال : لا ، ولكن كذلك ينبغي !» (١٠٢) .

إنه مهما كان للصدفة المحضة من دور فى هذا الالتقاء ، إلّا أن ذلك لايُقضي بخال ماتوحي به هذه القصة من مستوى متقدم فى العلاقة . وهذا ، فى شكل ما ، يمكن أن يعتبر أيضاً وجهاً من وجوه الوشيجة الشخصية الداخلية التي تربط ابن عباس بالشعر عموماً ، وشعر عمر ابن أبى ربيعة خصوصاً . إنها حميمية متقدمة مع الشعر فناً ومع عمر بن أبي ربيعة شاعراً .

أما الحطيئة فأول مايصادفنا من أخباره مع ابن عباس ، ويبدو أنه أول لقاء بين الاثنين ، «أنه رآه فى مجلس عمر وقد قرع بكلامه ، فقال : من هذا الذى نزل على القوم بسنه وعلاهم فى قوله ، فقالوا هذا ابن عباس ، فأنشأ يقول :

إني وجـدت بيـان المرء نافلـة يهدي له ووجـدت العـي كالصمـم
المرء يبلى ويبقـى الكلـم سائـرة وقد يلام الفتى يومـاً ولم يلـم» (١٠٣)

وهو ، هكذا ، لقاء اتسم بالإعجاب بمواهب ابن عباس ، مما سيساعد ، حتماً ، لاحقاً فى تهيئة أرضية مناسبة للصلة . ففي أخبار أخرى أن الحطيئة ، هو الآخر كانت له صلة بابن عباس .

لقد كان ممن التقاهم رضي الله عنه ، وناقشهم ، وحاورهم ، وسألهم ، كما يتضح ذلك – مثلاً – من القصة التالية : «عن ابن عباس أنه سأل الحطيئة من أشعر الناس من الماضين والباقين فقال : إذن من الماضين فهو الذى يقول :

ومن يجعـل المعـروف من دون عرضه يفره ، ومن لايتقـي الشتم يشتم (١٠٤)

وما الذى يقول :

ولَسْتَ بمستبـق أخـا لا تلُمُّـه على شعث ، أي الرجال المهذبُ (١٠٥)

بدون ذلك . ولكن الضراعة أفسدته ، كما أفسدت جرولاً – يعني نفسه – والله يا ابن عباس لولا الجشع والطمع لكنت أشعر الماضين ، فأما الباقون فلا شك أني أشعرهم» (١٠٦)وحسب ابن رشيق (١٠٧) ، يقول له ابن عباس : «كذلك أنت يا أبا مليكة» أي أن الحطيئة كان بالفعل أشعر الباقين فى نظر ابن عباس أيضاً . وهذا مما يشير إلى أن صلته به لم تعد صلة طارئة أو عابرة ، ولكنها ، بالأحرى ، صلة متابعة ، فهو يقدر الحطيئة تقدير العارف بمواهب الشاعر فيه ، وتقدير المدرك لإمكانات الإبداع فى إنتاجه ، إذْ يقدمه على غيره من معاصريه من الشعراء ، رغم تحفظه على غرض الهجاء الذى عرف الحطيئة بقوته وإقذاعه فيه ، كما سيأتي .

إن حوار ابن عباس مع الحطيئة هو حوار المعتد بآراء محاوره ، فهو «أشعر الباقين» ، وابن عباس يريد أن يستمع إلى رأيه فى من يجد أنهم الأشعر فى الماضين (١٠٨) .إن حكمه سيكون له أهميته الخاصة عند ابن عباس ، فهو لم يكن مجرد واحد من أصحاب «صناعة» الشعر ، بل إنه من أكثر هؤلاء تمكناً فى تلك الصناعة ، ومن أشدهم رسوخاً فى الحرفة .

إنه على الرغم مما قد يعترض بعض شعر الغزل من شبهات ، وعلى الرغم من تحفظ ابن عباس على بعض شعراء الهجاء ، لم يمنعه ذلك رضي الله عنه من أن تكون له صلة ببعض الشعراء الذين باتوا محسوبين على هذين الغرضين من الشعر . فالانحياز هو ، بالأحرى ، إلى «الشعر» من حيث هو فن ، وتعبير ، وصدى لعاطفة ، وصوت لوجدان ، وهذان الشاعران (عمر والحطيئة) هما ، فى النتيجة ، من أصحاب الموهبة ، والقدرة على الإبداع ، ولا يمنع ايغالهما فى الهجاء أو الغزل أن يقدر فيهما رجل كابن عباس موهبتهما فى الشعر وقدرتهما على الإبداع ، ولهذا تراه رضي الله عنه ، قبل قليل ، يقسم معلقاً على قصيدة عمر بن أبي ربيعة ، وهو يرد على نافع بن الأزرق : «تالله ماسمعت سفهاً» فالتقدير فى نهاية الأمر - كما ألمحنا - هو لحس عمر بن أبي ربيعة ، ولعبقرية الإبداع عنده . وكذلك الحال بالنسبة إلى الحطيئة ، فعلى الرغم من انقيادة للهجاء ، وتغلبه عليه ، لم يمنع ذلك ابن عباس رضي الله عنه من أن يؤكد ماقاله الحطيئة عن نفسه من أنه «أشعر الباقين» وأكثرهم مهارة ، وحذقاً ، وذكاء ، فى صناعة الشعر .

إن صلة ابن عباس بشعراء من صنف عمر بن أبي ربيعة والحطيئة ، لم تكن لتتعارض أو تتناقض مع صلته بشاعر الإسلام حسان بن ثابت ، فالقاسم المشترك بين هؤلاء الثلاثة هو ، فى النهاية ، «الشعر» الموهبة ، «والشعر» الإبداع ، قدرة واستعداداً وإمكانات . على أننا لانشك فى أن حسان ، بالذات ، كان يتمتع عنده رضي الله عنه بمنزلة خاصة تميزه ، عن غيره ، وذلك بالنظر إلى موقعه الهام من تاريخ الدعوة ، وتطور الرسالة ، فهو الذى جاهد مع الرسول صلى الله عليه وسلم بسيفه ولسانه ، وهو الذى كان لشعره أشد الوقع على نفوس المشركين ، وأبلغ الأثر فى قلوب المؤمنين الذين نصروا الدين .

فابن عباس يدافع عنه - كما مر بنا - عندما قالوا عنه «اللعين» (١٠٩) إذ يرد هذا الشتم ويدحضه ، منوهاً بفضل «شاعر الرسول» ، مؤكداً ذلك الفضل فلا يدع مجالاً لأحد بالتشكيك فيه .

وهنا أيضاً انحياز إلى «الشعر» الموهبة و «الشعر» الإبداع عند حسان ، ولكننا نلمس - فوق ذلك - الوشيجة القوية التي تربط ابن عباس بنوعية إنتاج حسان ، من حيث غاياته وأهدافه .

إن الموقع الذى يحتله شعر حسان من وجدان ابن عباس لمختلف ، حتماً وبالضرورة ، عن موقع شعر عمر بن أبي ربيعة وشعر الحطيئة .

ولكن ليس هذا وحده الذى يجعل من حسان شاعراً بارزاً فى نظر ابن عباس ، فبعيداً عن هذا كان حسان دائماً من أبرز شعراء العصر ، ولقد اشتهر ببراعته فى هذه الصناعة فى الجاهلية والإسلام . وهو فى نظر مؤرخي الشعر ونقاده من الفحول (١١٠) .

ومما بلغنا من أخبار ابن عباس مع حسان هذه القصة : «قال حسان : كانت لنا عند عثمان أو غيره من الأمراء حاجة ، فطلبناها إليه بجماعة من الصحابة ، منهم ابن عباس ، وكانت حاجة صعبة شديدة ، فاعتل علينا ، فراجعوه إلى أن عذروه ، وقاموا إلّا ابن عباس ، فلم يزل يراجعه بكلام جامع

حتى سد عليه كل حاجة ، فلم ير بداً من أن يقضي حاجتنا ، فخرجنا من عنده وأنا اخذ بيد ابن عباس ، فمررنا على أولئك الذين عذروا وضعفوا فقلت : كان عبد الله أولاكم بهم . قال : أجل . فقلت أمدحه :

إذا ما ابـــن عبـــاس بدا لك وجهـــه ... رأيت له فى كل أقوالـــــــه فضلا
إذا قال لم يتـــرك مقـــالاً لقائـــل ... بمنتظمـــات لاتـــرى بينها فصلا
كفـــى وشفـــى ما فى الصدور ولم يدع ... لذي اربـــة فى القـــول جداً ولا هزلا
سموت إلى العليـــا بغير مشقـــة ... فنـــلت ذراهـــا لا دنيـــا ولا وغـــلا
خلـــقت حليفـــاً للمـــروءة والنـــدى ... بليغـــاً ولم تخلق كهامـــاً ولا خبـــلا (١١١)

ولم يكن أمراً استثنائياً أن نجد رجلاً كابن عباس موضوعاً لشعرمديح ، فقد مدح غيره من الخلفاء والصحابة ، ومدح الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه ، ولكن شاهدنا هنا ، هو أن ابن عباس كانت له صلاته بشعراء آخرين ممن عرفوا بغير الغزل والهجاء . فقد كان يقدر فيه شاعريتهم ، ونقاء فنهم ، وفوق ذلك كان يقدر فيهم عفتهم ، ونبل غاياتهم ، وهو ماينطبق على شاعر كحسان بن ثابت رضي الله عنه ، الذى دافع عنه – كما مر بنا – حينما شتمه من يريدون النيل منه .

فكما أن الحطيئة التقى بابن عباس ، وأن عمر بن أبي ربيعة كان ممن يفدون إلى مجلسه ، فإن حسان أيضاً كانت له صلته بابن عباس ، وكان ممن يختلفون إلى داره .

إن مثل تلك الصلات ، فى عمومها ، أمر متوقع ، وهي حدث منتظر من رجل كابن عباس ، أثبت سلوكه العلمي ، المتمثل فى منهجه فى التفسير ، كما أثبت تصرفه الشخصي ، من حيث احساسه وتذوقه ، أنه منحاز إلى «الشعر» صدى العاطفة ، وصوت الوجدان . بل هو كلف به .

ولا نستبعد أن تكون لابن عباس صلات أخرى ، بشعراء آخرين من معاصريه ، فما وصلنا من أخباره لم ينقل لنا بالضرورة كل شيء ، بل لعله قد أهمل مايندرج فى حكم الاعتيادي واللاطريف ، ومالا يضيف شيئاً جديداً ذا أهمية بالنسبة إلى أبعاد شخصية ابن عباس العلمية أو الاجتماعية .

وعلى سبيل المثال فنحن لانظن أن مجالسه كانت تخلو من الشعراء الذين ربطتهم به بعض الصلات لاسيما تلك المجالس التي كان يخصصها – كما أشرنا سابقاً – للشعر (يوم الشعر) فالطبيعي والبدهي أن يكون فى مجلس ابن عباس فى ذلك اليوم شعراء ، فهذا يوم لفنهم ، وهو يوم يعنيهم ، وما يدور فيه يمسهم ، وتعلق مباشرة بهم ، فهو حتماً يستمع إليهم ، وهم بالضرورة ، يتبادلون معه الآراء ، والأفكار ، حول الشعر ، وإنشاده ، وروايته ، وشئونه وشجونه ، ومن ذلك ما رواه أبو بكر الأنباري ، قال : «أتى أعرابي إلى ابن عباس فقال :

تخوّفنـــــــــــي مالي أخُ لي ظالم ... فلا تخذلنـــي المال ياخير من بقـــي

فقال (ابن عباس) : تخوفك : تنقصك ؟ قال : (الأعرابي) : نعم ، قال : الله أكبر : «أو يأخذهم على تخوّف ، أي على تنقّص من خيارهم» (١١٢) .

لابد أن هذا كله يحدث فى مجلس ابن عباس ، وفى اليوم الذى خصصه للشعر بالذات . فهو أصلاً لم يكن ليخصص يوما للشعر مالم يشكل هذا الفن ، بالفعل ، هماً ثقافياً متمكناً يعمر ذاكرته وحسه وعقله ، وهو لكي يكون كذلك لابد أن يكون متفاعلاً مع الشعر ، تذوقاً وتقويماً وحكماً . ولعل مما تجدر ملاحظته ، فيما أوردنا قبل قليل من صلات لابن عباس ببعض الشعراء ، (ابن أبي ربيعة والحطيئة بالذات) أن صلته رضي الله عنه بأولئك الشعراء لم تكن ، فيما يبدو ، صلة «محايدة» سلبية الجانب – إن صح هذا التعبير – فيكون موقفه فيها مقتصراً على موقف المتلقي المستهلك الساكن ، الذى يكتفي بالاستنشاد والاستماع ، فلا تدخُّل ولا حوار ، إننا نظن أن ابن عباس كان على العكس من ذلك ، فقد لاحظنا أنه رضي الله عنه يتدخل ، ويحاور ، وقد كان فى كل ذلك ، لابد ، محسوب الجانب . وهذا مايجعلنا نصف صلاته تلك بأنها صلات مثاقفة ، فهو يتابع إبداع الشعراء . والشعراء – أو المهتمون بالشعر عموماً – يقدرون آراءه فى الشعر وعلمه به ، وهذا ما سيتضح ، أكثر فأكثر ، فيما يلي :

علمـه بالشعـر

أجل ! فابن عباس يحلو له أحياناً – كما مر بنا – أن يقف أمام أصحاب الصناعة موقف طالب الاستزادة من المعرفة ، أو موقف المؤيد لحكم نقدي ، حول بعض الشعر ، أو بعض الشعرا ء ، فتراه يسأل ويستطلع آراء هؤلاء ، مبدعي الشعر ، الخبيرين فى تقنيته ، ولكن ابن عباس هذا لا تخلو تدخلاته ، وسؤالاته نفسها ، من الافصاح عن ذائقة حية وعلم بالشعر .

إن ابن عباس ، بعيداً عن كل شيء ، ليعد – فى نظر أهل زمانه – من ذوي الرأي الثاقب ، والحكم المطلوب المنتظر فى مسائل الشعر . فلقد كان من المتعالم الذائع بين الصحابة رضوان الله عليهم أنه قد مُتّع بملكة نقدية تمكنه من تمييز جيد الشعر من رديئه . وهذا أقل ماهو منتظر من رجل شغل الشعر كل ذلك الحيز فى عقله وقلبه ووجدانه . فسعى إلى تعلُّمه وحفظه ، وروايته ، وإنشاده ، وجعل منه ، فوق ذلك ، أحد المصادر الرئيسة فى ثقافته (منهجه فى التفسير) . إنه ، والحالة هكذا ، لم يعد له أن يختار الموقع المحايد فى النظر إلى الشعر .

إن علاقة ابن عباس الواعية الوطيدة بالشعر ، وولعه به ، وتطلعه إليه ، كفيل – كل ذلك – بأن ينمي فيه علمه بهذا الفن ، فتتطور مداركه ، وتسمو ذائقته ، إلى مستوى يبرر ، فيما يبدو ، للناس من معاصريه ، ومن غير معاصريه ، أن يعطوا لآرائه فى الشعر الاعتبار اللائق بها .

ونعود ، مرة أخرى ، فنتذكر أن الحوار حول الشعر وقضاياه كان يستغرق «يومه الخاص» الذى أفرده له ابن عباس ضمن برنامجه أونشاطه العلمي اليومي ، فماذا يمكن أن يقال فى ذلك اليوم غير إنشاد الشعر ، ومناقشة قضاياه ، والحديث عن حسنه وقبيحه ، وذكرالشعراء ، ونقدهم ، وإبداء الرأي فيهم ، والمفاضلة بينهم .

ونحسب أنه لو نقلت إلينا أخبار ابن عباس كل ما كان يقال فى ذلك اليوم ، لكنا – كما سبق أن قلنا – وضعنا أيدينا على علم كثير ، وأفكار لها قيمتها ، وآراء لها وزنها ، فى مسائل الشعر . والعرب أنفسهم ، وهم من هم فى الاحساس بالشعر وتذوقه والعلم به ، لم يقصدوا ابن عباس ، أو يلتفوا حوله فى يوم الشعر المشهود ، إلّا اعترافاً منهم بعلمه رضي الله عنه به ، وإلا اعتداداً بأفكاره وآرائه وأحكامه فى هذا الشأن . وبدون ذلك فإنهم لن يقصدوه . وإلا لكانوا فعلوا ذلك مع الكثيرين غيره . وبدون ذلك أيضاً ما كان له هو ذاته أن ينصّب من نفسه مرجعية من مرجعيات الشعر فى زمانه ، فيجعل للناس يوماً من أيام مجلسه ، لا يذكر فيه إلّا الشعر ، تماماً كما يفعل بالنسبة للتأويل ، وبالنسبة للفقة والفتوى الخ . .

فكما أن لكل علم من هذه العلوم يومه ، فإن للشعر هو الآخر يومه . والناس الذين يرون فى ابن عباس حجة فى الفقه والفتوى والتأويل ، بماأتاه الله من ذكاء وفهم وعلم ، كما هو الدور الذى تهيأ له منذ دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يفقهه فى الدين ويعلمه التأويل (١١٣) ، هم أنفسهم الذين يرون فيه كذلك حجة فى معرفة الشعر والعلم به ، فيقصدونه من أجله ، كما كانوا يقصدونه من أجل إحاطاته العلمية الأخرى .

إنه على الرغم من شح الأخبار التي تعنى بتلك التفاصيل فى هذا الجانب ، فإن قصته التالية مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه يمكن أن تؤخذ مؤشرا له دلالاته الخاصة على سمعة ابن عباس وصيته فى مجال الشعر والعلم به وتقويمه ، ونظن أن مثل هذه القصة قد حدثت كثيراً ، وربما أن اهتمام الرواه بها – هي بالذات – إنما جاء لاقترانها بعمر بن الخطاب ، وبدون هذا فربما أنها كانت ستلاقي مصير القصص الأخرى التي حدثت ، كما نظن ، لابن عباس .

تقول القصة :

قال ابن عباس : بينما عمر بن الخطاب وأصحابه يتذاكرون الشعر ، فقال بعضهم : فلان أشعر ، وقال بعضهم : بل فلان ، فأقبلت ، فقال عمر : قد جاءكم أعلم الناس بها ، مَنْ أشعر الشعراء ؟ قال : قلت : زهير بن أبي سلمى . فقال : هلم من شعره ما تستدل به على ما ذكرت ، فقلت : امتدح قوماً من غطفان ، فقال :

لو كان يقعـــد فوق الشمس من كرم ... قوم بأولهم أو مجدهـــم قعـــدوا
قوم أبوهـــم سنـــان حين تنسبهم ... طابـــوا وطـــاب من الأولاد ما ولـــدوا
إنسٌ إذا أمنـــوا ، جن إذا فزعـــوا ... مرزأون بهاليـــلُ إذا حشدوا
محسدون على ما كان من نعـــم ، ... لا ينـــزع الله منهم مالـــه حسدوا

فقال عمر : أحسن والله ! وما أعلم أحداً أولى بهذا الشعر من هذا الحيّ من بني هاشم ، لفضل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقرابتهم منه (١١٤)» .

ونحن فى حوارنا مع هذه القصة سننطلق من النقطة نفسها التي انطلق منها الرواة حين اهتموا بها وتناقلوها : أي من نقطة اقترانها بعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكونه أحد أبطالها ، بكامل ثقله السياسي والاجتماعي والديني . ففي مجلس عمر ، كان الناس يتذاكرون الشعر ، ويبدو أنهم كانوا يختصمون فى مسألة نقدية هي المفاضلة بين الشعراء . وكتب النقد والأدب القديمة كثيراً ما تحفل بالأخبار المتصلة بهذه المسألة ، مما يدفع إلى جعلها فى مقدمة المسائل النقدية التي كانت تشغل الناس والمهتمين بالأدب والشعر فى تلك الأيام (١١٥) . وقد صادفتنا نحن هذه المسألة فى أخبار ابن عباس ، حتى الآن مرتين على الأقل ، مرة فى حواره مع الحطيئة ، وكانت – أي هذه المسألة – من أهم مانقلته إلينا أخبار ابن عباس فيما يتعلق بصلته بهذا الشاعر ، ومرة قبل قليل ، فى قصته مع عمر بن الخطاب ، إذ كانت لها أهميتها فى رأي الرواة ، إذْ إنها قد تسهم فى كشف بعض مانحتاجه حول ذائقة ابن عباس الشعرية ، وقدرته على النقد والحكم والتقويم . إن هذه المسألة إذن (المفاضلة بين الشعراء) كانت من المسائل النقدية الحاسمة والهامة فى القديم . وهي تناقش الآن – حسب قصتنا هذه – فى مجلس عمر بن الخطاب . وما كان الموقف يحتاج إلا لقدوم ابن عباس لينجلي الخلاف ، وتسوّى الخصومة ، فما سيقوله ابن عباس هو القول الفصل ، وهو الرأي الأنسب والأصوب ! ومن ذا الذى يرى هذا الرأي فى ابن عباس ؟ إنه عمر بن الخطاب نفسه . بل إنه يعبر عن ذلك صراحة حين يقطع فجأة حديث الآخرين ، أي منذ أن أقبل ابن عباس ، أو منذ أن رآه ، ويقول : «قد جاءكم أعلم الناس بها» كأنه ، هكذا ، يقدمه على كل من سواه فى شأن الشعر ، وتذوقه ، والحكم على جيده ورديئه ، وهو إن لم يكن يقصد إلى تقديم ابن عباس على جميع معاصريه ، فهو على الأقل يقدمه على من فى المجلس . ومن سيكون فى مجلس عمر ، غير نخبة المجتمع ، وعلمائه ، وبلغائه ، وفضلائه ؟ ومن سيجرؤ على الحديث عند عمر فى مسألة لا يجيدها أو يتقنها ، وبالذات حين يكون السؤال هو سؤال الشعر ؟

لقد أعطى عمر رضي الله عنه رأيه ، صراحة ، فى قدرات ابن عباس ومواهبه : «قد جاءكم أعلم الناس بها» وهو لم يفعل ذلك إلّا وهو مؤمن تمام الإيمان بذلك الرأي ، فيعتقد فى سداده ، ولا يشك لحظة فى صوابه ، لاسيما فى حضرة النوعية المتوقعة ممن ضمهم مجلسه .

ولكأننا نحس فى عمر بأنه يعرف فى هؤلاء بأنهم ، هم أيضاً ، يقاسمونه الرأي ، وبأنهم يشتركون معه فى ذلك القدر من الإيجابية فى الحكم على ذائقة ابن عباس ، وعلمه بالشعر . فدون أن ينتظر ما سيقولون ، نراه يوجه السؤال مباشرة إلى ابن عباس : «من أشعر الشعراء ؟» ليقول هذا الأخير قولته ، وينتهي الكلام !

يمكن أن تتوقف قراءتنا لهذه القصة عند هذا الحدّ . فهي ، هكذا ، غنية بما يوصل إلى المقصود .

ولكننا إذا أردنا أن نمنح تلك القراءة انسياباً أكثر ، سنلاحظ أن عمر ، كيلا يبدو حكم ابن عباس «النقدي» حكماً مرتجلاً وغير منهجي ، يطالبه بالشاهد ، أو الدليل على حكمه ، من شعر

زهير ، فيختار ابن عباس ، فعلاً ، أبياتا من أحسن ما قال الشاعر فى المديح – فى نظره ونظر عمر على الأقل ! – لدرجة أن هذا الأخير ، وإعجاباً بذلك الشعر ، يرى أن آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم هم الأحق به ، فيضن به على من سواهم ، مبتدئاً بهذا القسم الذى لا يقصد به ، بالضرورة ، القسم : أحسن (الشاعر) والله ! .

ولعلنا ، بالمناسبة ، نتذكر رأي عمر نفسه فى زهير ، إذ يقول : «كان لا يعاظل فى الكلام ، ولا يتبع وحشيه ولا يمدح الرجل إلّا بما فيه» (١١٦) فهو يلتقي مع ابن عباس ، أصلاً ، فى رأيه فى زهير وشعره ، وهو حين يعطي لابن عباس موقعه المتقدم فى العلم بالشعر والحكم عليه ، يفعل كذلك وهو نفسه القادر على التقويم والحكم ، فهو حين أقر بحكم ابن عباس على زهير ، وحين أعجب بشعره لم يكن يهادن ابن عباس أو يجامله ، بل كان ينصفه ويعطيه حقه .

إن ابن عباس ، بمعنى آخر ، لم يخلف ظن عمر . فهو قد رشحه ، عندما أقبل ، للفصل فى هذه المسألة ، اعتداداً بعلمه ، وتقديراً لمواهبه الرائجة بين الناس . وهو بعد أن أعطى حكمه ، وجرب ذائقته ، واختبر علمه ، أيده فيما ذهب إليه . فكان ابن عباس ، بهذا هو قاضي الشعر عند عمر . ولعلنا نعتقد أنه كان كذلك عند غير عمر أيضاً .

ففي خبر آخر أنه :

«قام رجل إلى ابن عباس فقال : أي الناس أشعر ؟ فقال ابن عباس : أخبره يا أبا الأسود الدؤلي . قال الذى يقول :

فإنك كالليـــل الـــذى هو مدركـــــي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع (١١٧)

يعني النابغة الذبياني .

فالناس – كما نرى – يدركون ، هم أيضاً ، فى ابن عباس علمه بالشعر ، فيستفتونه ، فى أي «الناس أشعر» ، فهو فى تقديرهم من خير من يستطيع أن يعطي حكماً فى هذه المسائل ، فهماً وعلماً وإحاطة وذائقة أدبية . يسألونه عن ذلك على الرغم من وجود أبي الأسود الدؤلي فى نفس المجلس ، دون أن يفكروا فى تقديمه على ابن عباس بتوجيه السؤال إليه ، وهو العالم باللغة والأدب والشعر . وابن عباس نفسه يدرك مدى رواج آرائه فى الشعر والشعراء ، حتى بين المختصين فى الشعر والأدب والعلم بهما ، فيطلب إلى أبي الأسود أن يقول للناس ما يعرفه من رأيه ، أو هو ، ربما ، يلتقي معه فيه ، حسب الظاهر من الرواية ، وهذا ما فعله أبو الأسود .

ومن الأخبار الأخرى التي نقلت إلينا بعض ما يكشف عن رؤية ابن عباس النقدية ، وعلمه بالشعر ، ما روي عن سفيان الثوري عن ليث بن طاووس عن ابن عباس قال : «إنها لكلمة نبي» يعني قول الشاعر :

ستبـدي لك الأيـــام ما كنت جاهـــلاً ويأتـــيك بالأخبـــــار من لم تُزود (١١٨)

وذلك لما يحويه هذا البيت من حكمة ظاهرة .

ولا شك أن تلقائية الأشياء ، بحكم موقع ابن عباس من بيت النبوة ، وبحكم المسؤولية التي ألقاها عليه رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم ، لا تدفع إلى ما هو مثير فى علم ابن عباس «الشرعي» فكل الشروط المحيطة بمراحل تكوينه العلمي تهيء لذلك وتفضي إليه ، بغض النظر عن حجم المنزلة العالية التي تحققت له فى وقت لاحق ، ودون الالتفات إلى المكانة التي تبوأها فيما بعد ، والتي جاءت نتيجة لاستعداداته الفطرية الخاصة ، ولمثابرته ، ولإخلاصه لعلمه .

إن ما قد يبدو مثيراً ، وخارجاً على تلقائية الأشياء وشاذاً عنها ، بالنظر إلى المعطيات الظاهرة للدور المنتظر من ابن عباس ، هو أن يكون على نفس المستوى ، وبنفس الدرجة ، من التمكن فى علمه بـ «الأدبي» .

ولا شك أن تحقيق غاية كهذه قد استغرق جهداً قد لا يقل عن الجهد الذى استغرقه التفقه فى «الشرعي» . وهذا هو ما يميز ابن عباس عن الكثيرين من معاصريه من الصحابة والتابعين الذين كان توجههم العلمي ، أساساً توجهاً شرعياً .

موقفــه من الهجـــاء

ومادام أن الخبر الذى مرَّ ذكره قبل قليل يكشف لنا ، من وجهة ما ، ميل ابن عباس الممكن إلى شعر الحكمة ، بالإضافة إلى بعض أغراض الشعر الأخرى كما ذكرنا ، فإنه حريٌّ بنا أن نقف عند بعض الأخبار التي ميزت موقفاً خاصاً لابن عباس من شعر الهجاء ، على الرغم من صلته بأبرز شعراء هذا الغرض فى ذلك الزمان (الحطيئة) وعلى الرغم من إقراره بموهبته وقدراته الابداعية .

لقد كان ابن عباس من خلال دفاعه عن حسان بن ثابت — كما مر بنا — يميز بين هجاء وهجاء . فهو ، ضمن مفارقة لها منطقها ، يهاجم هجاء ، ويدافع عن هجاء ، إنه يهاجم هجاء يفضي إلى الظلم والأذى والبهتان بين المسلمين ، وهو ، فى الوقت نفسه ، يدافع عن هجاء استدعته ضرورات مرحلية فى تطور الدعوة ، وقد قيل فى «الدفاع» عن الحق والدين ، بعد أن تألب المشركون لدحض ذلك الحق ومحاربة ذلك الدين .

إن ابن عباس ، الذى يدافع عن هذا اللون من الهجاء ، ممثلاً فى شخص أبرز شعرائه وهو حسان بن ثابت ، يتخذ ، هو نفسه ، موقفاً آخر من الهجاء على إطلاقه ، أو من ألوان الهجاء الأخرى . فهو لايخفي إدانته للهجاء «الظالم» ، ولا يواري تحفظاته على «البهتان» وأهله .

وموقف ابن عباس هذا ينطلق من قيم مبدئية ، ألزم نفسه بترديدها ، والإعلان عنها كلما واتت المناسبة . وهو ، فى جانب من تلك القيم ، يستلهم روح القرآن الكريم نفسه . وهو ، فى الجانب الآخر ، ينطلق من فلسفة أخلاقية خاصة ، لها معناها ودلالاتها .

فيقول فى قول الله عز وجل : «ولا تلمزوا أنفسكم» (١١٩) أي «لا يطعن بعضكم على بعض (١٢٠)» وهدف هذا التوجيه القرآني الكريم ، كما يفهمه ابن عباس ، هو المؤمنون ، وهو من أحرى الناس فى الأخذ به ، وتمثُّله والحض على اتباعه . إنه «ترجمان القرآن» فى أقواله ، ولابد أن يكون كذلك فى

أفعاله ، وسلوكه ، وطريقة تفكيره ، وأسلوب تعامله مع الأشياء والناس .

ويقول ابن عباس : «إذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك فاذكر عيوب نفسك (١٢١)»

وعن سعيد الجريري عن رجل قال : «رأيت ابن عباس رضي الله عنه أخذ بثمرة لسانه (طرفه) وهو يقول : ويحك قل خيراً تغنم ، واسكت عن شر تسلم . فقال له رجل : يا ابن عباس مالي أراك آخذ بثمرة لسانك تقول كذا ؟ قال : إنه بلغني أن العبد يوم القيامة ليس هو على شيء احنق منه على لسانه» (١٢٢) .

هذه هي فحوى الفلسفة الأخلاقية الخاصة التى ألزم ابن عباس نفسه بها ، فالمؤمن قبل أن يتتبع عيوب الآخرين عليه معالجة عيوبه ، والناس لهم ، دون شك ، عيوب يدارون افتضاحها فى الملأ ، وهي غالباً تظل مستورة ، أو مغفلة ، إلى أن يأتي الشعراء ، المأخوذون بالهجاء ، فيفضحونها ، كشفاً للعورات ، وتسقطاً للهنات ، وإصراراً على الإضرار بالآخرين ، وإمعاناً فى إيذائهم ، والنيل من كرامتهم وكبريائهم .

إن فيما تقدم اعتراضاً من ابن عباس على اللمز ، وذكر العيوب ، من ناحية مبدئية ، شعراً كان ذلك أو نثراً ، أدباً كان ذلك أو تعاملاً يومياً فى علاقات الناس بعضهم بالبعض الآخر : «إن الله لايحب الفاحش المتفحش» كما يعود فيقول ابن عباس نفسه (١٢٣) فى مناسبة أخرى . فعكرمة يحدث فيقول : «لا أدري أيهما جعل لصاحبه طعاماً ، ابن عباس أو ابن عمه . فبينما الجارية تعمل بين أيديهم إذ قال أحدهم لها : يا زانية ! فقال : مه ! إن لم تحدك فى الدنيا تحدك فى الآخرة . قال : أفرأيت إن كان كذلك ؟ إن الله لايحب الفاحش المتفحش (١٢٤)» .

أما فيما يتعلق بموقفه رضي الله عنه من شعر الهجاء تخصيصاً فيصادفنا هذا الخبر : «بينما ابن عباس جالس فى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم (أي مكان كان يجلس) بعدما كف بصره ، وحوله أناس من قريش ، إذ أقبل أعرابي يخطر وعليه مطرف وجبة وعمامة خز . حتى سلم على القوم ، فردوا عليه السلام . فقال : يا ابن عم رسول الله افتني : فقال فيماذا ؟ قال : أتخاف علي جناحاً إن ظلمني رجل فظلمته ، وشتمني فشتمته ، وقصر بي فقصرت به ؟ فقال : العفو خير . ومن انتصر فلا جناح عليه . فقال يا ابن عم رسول الله أرأيت امرأ أتاني فوعدني وعزني ومناني ، ثم أخلفني ، واستخف بحرمتي ، أيسعني أن أهجوه ؟ قال : لايصلح الهجاء ، لأنه لابد لك من أن تهجو غيره من عشيرته ، فتظلم من لم يظلمك ، وتشتم من لم يشتمك ، وتبغي على من لم يبغ عليك . والبغي مرتع وخيم ، وفى العفو ماقد علمت من الفضل . قال : صدقت وبررت . فلم ينشب أن قدم عبدالرحمن بن سيحان المحاربي ، حليف قريش ، فلما رأى الأعرابي أجلسه وأعظمه ، وألطف فى مسألته ، وقال : قرب الله دارك يا أبا مليكة ! فقال ابن عباس : أجرول ؟ ! قال : جرول ! . فإذا هو الحطيئة (١٢٥)» وتخلص القصة إلى إن ابن عباس قد رحب بالشاعر بعد أن عرفه . ولاندري سبب عدم معرفته أياه أول وهلة ، هل لأن ذلك اللقاء كان الأول بينهما ، أو لأن ابن عباس كان قد فقد بصره ، فلم يكن يدري تماماً من

الذى كان يتحدث إليه . وفى كلتا الحالتين فإن ذلك لايخل بفكرة الحديث الذى سقناه قبل قليل عن علاقة قامت ، أو كانت قائمة ، بين ابن عباس والحطيئة ، والفرق إنما هو فى كونها – أي تلك العلاقة – إما قديمة فتجددت ، وإما حديثة فتثبتت .

والمهم هنا هو أن ابن عباس قد كرر فى هذه القصة مسألة «العفو» مرتين ، محبباً ، ومشجعاً ومنوهاً ، بما لذلك من فضل . فهو يقدمه على الانتقام ، أو الانتصار للنفس ، مادامت هناك فسحة للتسامح .

كما وردت كلمة «البغي»مرتين فى سياق التكريه والتنفير ، أمّا فى الثالثة فقد وصف البغي صراحة بأنه «مرتع وخيم» معطياً بذلك حكمه النهائي على الأذى ، وعلى من يريد بالناس الأذى .

أما الهجاء فإنه – حسب رأي ابن عباس – «لايصلح» لأنه قد يطال ما هو أبعد من المهجو ، فـ «يظلم» الشاعر من لم يظلمه ، من أهل المهجو وعشيرته . فابن عباس يدرك أن مادة الهجاء الأولى ، عند العرب ، هي «الاحساب والأنساب» ومفاخر العرق والأرومة ، فلا مندوحة عن الطعن فى هذه الأشياء ، وإعلان مثالبها ومعايبها ، لأنها المنطقة الأكثر إيلاماً فى وجدان العربي . وكيف للشاعر ، وهو فى عنفوان الغضب ، وجنون شهوة البطش ، أن يتحاشى ذلك ، أو يتجنبه ، أو يبتعد عنه . وفى هذا ، دون ريب ، ظلم كبير يرفضه ابن عباس ، وينهى عنه .

وهاهو نفسه يقول للحطيئة ، فى المناسبة نفسها : «والله لو كنت عركت بجنبك بعض ماكرهت من أمر الزبرقان لكان خيراً لك ، ولقد ظلمت من قومه من لم يظلمك وشتمت من لم يشتمك . قال (الحطيئة) : إني والله بهم يا أبا العباس لعالم ! فقال : ما أنت أعلم بهم من غيرك . قال : بلى والله ! يرحمك الله ! ثم أنشد يقول :

أنـا ابــن بجدتهم علمــاً وتجربــة ... فسل بسعــد تجدني أعلــم النــاس
سعـــد بن زيـــد كثير إن عددتهم ... ورأس سعـــد بن زيـــد آل شماس
والزبرقـــان ذناباهـــم وشرهـــم ... ليس الذنـابي أبـا العبـاس كالـرأس

فقال ابن عباس : أقسمت عليك أن لاتقول إلا خيراً . قال : أفعل !» . (١٢٦)

وفى هذه القصة أيضاً يردد ابن عباس فكرة «الظلم» فيجادله الشاعر ، ويحاول اقناعه بموقفه نثراً وشعراً ، ولكن ابن عباس لايتزحزح ، فيقسم عليه أن يدع ذلك وأن «لا يقول إلّا خيراً» وقول الخير هنا لايشمل ، بالتأكيد الهجاء ولا يتضمنه .

إن الحطيئة الذى – كما ذكرنا سابقاً – يعجب ابن عباس بموهبته ، وبإمكاناته الإبداعية ، ثم يعتد رضي الله عنه بآرائه فى «المفاضلة» بين الشعراء ، فيسأله ، ويحاوره ، ويقره على مايقول ، هو ذاته الحطيئة الذى يجد نفسه فى موضع النقد والمؤاخذة من ابن عباس ذاته . وقد قلنا إن ابن عباس إنما يكبر الموهبة فى ذاتها ، وإنما ينحاز إلى الشعر فى إمكاناته ومقوماته ، فهو يتحفظ هنا على «الشتم» ، وعلى «الفحش» ، وعلى مايفضي إلى «الظلم» ، حتى وإن صدر ذلك عن الحطيئة نفسه وهو الشاعر المجيد ،

والموهبة الفذة ، كما يرى ذلك ابن عباس .

ومن أين لإعجاب ابن عباس بالحطيئة ، مهما عظم ، أن يمنع رجلاً مثله من أن يهتبل الفرصة المواتية للإعلان عن موقفه من «بعض» الشعر ، وللتعبير عن «بعض» مؤاخذته على الشاعر الذى هو محط إعجابه ، إن ذلك – على العكس – سيكون أظهر لحياده ، وموضوعية أحكامه وآرائه .

إن هذا الموقف من الهجاء يبدو أكثر وضوحاً ، مع شاعر آخر غير الحطيئة هو عتيبة بن مرداس الملقب بابن فسوة (١٢٧) وهو هجاء خبيث اللسان .

فأول مايصادفنا من أخبار ابن عباس مع هذا الشاعر ما أورده الجاحظ (١٢٨) من أنه لما مدحه قال : «لاأعطي من يعصى الرحمن ، ويطيع الشيطان ، ويقول البهتان» وهو هكذا يمنعه نواله لفحشه فى هجائه .

وروى أن ابن فسوة قال فى ذلك (١٢٩)

أتـيت ابـن عبـاس أرجّـي نوالـه ... فلـم يرْجُ معـروفي ولم يخش منكـري
وقـال لبوابيـه لاتدخلُنّـه ... وسدّ خصاص البـاب من كل مَنْظَـر
وتسمـع أصوات الخصوم وراءه ... كصوت حمام فى القلـيب المعـوَّر
فلـو كنت من زهـران قضّيت حاجتـي ... ولكنّني مولى جميـل ابـن معمـر (١٣٠)

وكان ابن عباس تزوج امرأة بالبصرة من زهران ، يقال لها شُميلة ، وقوله مولى جميل بن معمر أراد أنه وليُّه ومن قومه ، وكان جميل مضريا . (١٣١)

أما القصة التالية ، مع ابن فسوة نفسه ، فهي تظهر بجلاء الجانب الأكثر صلابة من موقف ابن عباس مع هذا الشاعر ومع شعره الهجائي البذيء ، فقد روى أنه «أتى عبدالله بن العباس عليهما السلام ، وهو عامل لعلي بن أبي طالب على البصرة (. . .) فاستأذن عليه ، فأذن له ، وكان مايزال يأتي أهل البصرة فيمدحهم فيعطونه ، ويخافون لسانه ، فلما دخل على ابن عباس قال له : ماجاء بكَ إليَّ يا ابن فسوة ؟ فقال له : وهل عنك مقصر أو وراءك معدى ؟ جئتك لتعينني على مروءتي ، وتصل قرابتي . فقال ابن عباس : وما مروءة من يعصى الرحمن ، ويقول البهتان ، ويقطع ما أمر الله به أن يوصل ؟ والله لئن اعطيتك لأعيننك على الكفر والعصيان . انطلق ، فأنا أقسم بالله لئن بلغني أنك هجوت أحداً من العرب لأقطعن لسانك ، فأراد الكلام ، فمنعه من حضر ، وحبسه يومه ذاك ثم أخرجه من البصرة . (١٣٢)

ونحن نقول : هل الهجاء «عصيان لله» ؟ ! أم أن ابن عباس كان قد عرف عن الشاعر أموراً أخرى ، فجعل ذلك مقدمة لما سيأتي ، وهو قول «البهتان» ، وما البهتان هنا إلّا الهجاء ؟

إن كانت الأولى فهذا يعني أن ابن عباس يظهر هنا أكثر وضوحاً وصلابة فى موقفه ، فهو يضع الهجاء صراحة فى منطقة المحظور والمحرم ، فهو سلوك من «يعصي الرحمن» ، وابن عباس قد يستلهم فى

هذا روح الإسلام وأخلاقه ، إذ ينهى عن أن يلمز المؤمنون بعضهم بعضاً ، كما أنه لايحب الفاحش المتفحش كما مر بنا .

وإن كانت الثانية ، بحيث لا يتعلق بالهجاء من قولة ابن عباس تلك سوى وصفه بـ «البهتان» ، فإن الموقف لايقل صلابة عنه فى الحالة الأولى ، إذ إن قول البهتان يضع - عند ابن عباس - مروءة المرء ، بكافة معانيها ، فى موضع التساؤل : «ما مروءة من يقول البهتان» ؟

ثم يطبق رضي الله عنه فى حق الشاعر ، إضافة إلى تأنيبه ، عقوبتين : السجن يومه ذاك ، والنفي عن البصرة .

لقد عرف ابن فسوة بفحشه ، وخبث لسانه ، فهو «يبهت» المسلمين ، و«يظلمهم» ، ويؤذيهم فى أنفسهم ، ويبتزهم فى أموالهم ، وقد رأى ابن عباس ، «العالم» بأمور الدين ، أن فى ذلك عصياناً لله ، فأنب الشاعر ، وأنكر عليه أفعاله ، وامتنع عن أن يعطيه . كما رأى ابن عباس ، «الحاكم» ، أن من حقوق المسلمين عليه أن يحميهم من الأذى والظلم والبهتان ، فتوعد الشاعر بقطع لسانه ، وسجنه ونفاه .

إننا هنا أمام موقف صلب ومتشدد ، فهو يُتخذ فى حق شاعر بذيء ، وفى حق شعر اشتهر بالفحش ، وانتهاك الحرمات .

إن موقفاً كهذا هو الموقف المنتظر من حاكم بيده أن يحمي الناس من الأذى ، فاختار تلك العقوبات جميعاً تجاوباً مع مسؤولياته التي أنيطت به ، وتناغماً مع الأمانة التي تقلّدها .

الوضع هنا ، بكل ظروفه وشروطه ومعطياته ، لم يعد يحتمل أن يتخذ ابن عباس موقفاً كالذى اتخذه مع الحطيئة ، فيكتفي بعبارة كهذه : «أقسمت عليك أن لا تقول إلّا خيراً» ، أو جملة كهـــذه « في العفو ما قد علمت من الفضل» .

إن ابن عباس - مرة أخرى - حين ينحاز إلى «الشعر» والموهبة لايعني ذلك ، بأي حال ، قبوله بكل مايقوله الشعراء ، لاسيما حين يكون مايقولونه هجاءً يحمل «الظلم» أو يتضمن «البهتان» أو يفضي إلى الأذى .

وابن عباس الذى قبل الهجاء بين مؤمنين ومشركين فى حالة حرب ، واقتتال وصراع بين الحق والباطل ، لا يمكن أن يقبله أو يقره ، لا سيما فى صورته المقذعة أو المتفحشة ، داخل جماعة واحدة أضحت الآن فى أمس الحاجة إلى حماية وحدتها ، وصيانة تضامنها ، ورعاية تآخيها . فلعل الهجاء مما يفسد تلك الوحدة ، ومما يضعف ذلك التضامن ، ومما يشرخ ذلك التآخي ويوهنه ، لما يثيره من عصبيات وإثارات وإحن وفتن . كما أن الإسلام نفسه ، الذي أضحى نظام حياة فى المجتمع الجديد ، كان عليه أن يضمن للمسلمين ، من المنتمين إليه ، حقوقهم فى الكرامة والاستقرار والاطمئنان ، بحيث لا «ظلم» ، ولا «بهتان» ، ولا أذى يستنزف مشاعرهم وأموالهم . والظلم والبهتان والأذى كانت ، كلها ، من الأمور المعتادة التي لا يتورع عنها شعراء الهجاء ، لاسيما المحترفون منهم ، ممن ظهروا فى وقت متأخر

من عصر الإسلام الأول (عصر بني أمية بالذات) حيث تفشى الهجاء ، وأمعن فى الفحش ، والتهتك ، والابتذال ، وذكر العورات ، وانتهاك الأعراض والحرمات (١٣٣) ، وحيث ازدهرت النقائض التي كانت ، بشكل ما ، إحدى الصيغ المعقدة للهجاء التقليدي . ولنا أن نقدر فداحة ما كانت تضمنه تلك الأهاجي – فى صيغها المختلفة – من فحش ، وبذاءة ، بالنظر إلى موقف بعض الرواة منها ، ثم – فيما بعد – بعض مؤرخي الأدب ، إذ كانوا يستحون من روايتها أو ترديدها أو تضمينها مصنفاتهم . (١٣٤)

ولاشك أن الفترة التي التقى فيها ابن عباس بابن فسوة هذا كانت قريبة ، بل شديدة القرب ، من فترة الهجاء المر الذى نتحدث عنه ، بل لعلها كانت إحدى مقدماتها ، أو إحدى المراحل التي مهدت لها ، فليس لابن عباس ، والحال هكذا ، إلّا أن يبدو متبرماً بما يحدث ، متجهماً فى وجه هذا النوع من الشعر ، مواجهاً منشئيه وأربابه بتلك الصلابة ، أوتلك القوة فى الموقف ، فيصفهم بعصيان الله ، ويتوعدهم بقطع ألسنتهم ، ثم يقذفهم فى السجن ، ويخرجهم من البصرة (ابن فسوة فى حالتنا هذه) .

وليس لنا أن نظن ، لحظة ، أن موقف ابن عباس هذا ، من شعر الهجاء ، متناقض مع الصورة التي سبق أن كوناها عن حميميته مع الشعر فناً وتعبيراً ، إذ يظهر ، هنا مثلاً ، صلباً عنيفاً يسجن الشعراء ، وينفيهم ، ويتوعدهم بقطع ألسنتهم . إننا نقول ، بالأحرى ، إن تلك الحميمية بالذات هي واحدة من الأسباب التي دفعته إلى اتخاذ موقف متشدد صلب كهذا الموقف ، فهي قد تأخذ شكل التعبير عن غيرته على «الشعر»إذ لا يريده أن يتحول من نبع للجمال والحرية إلى عصا غليظة تهوي على رقاب الناس ، فتؤذيهم فى أنفسهم وأموالهم . كأن ابن عباس يريد أن يحمي الشعر ، وكأنه يطمع فى أن ينقذه مما هو منساق إليه على أيدي السفهاء ممن لا يستنكفون عن معصية الله ، ومخالفة أخلاق الإسلام ، وإيذاء المسلمين .

وفى خبر ، له دلالاته ، أورده القرطبي ، عن ابن عباس أنه قال : «إن النبي صلى الله عليه وسلم لما افتتح مكة رنّ إبليس (أي صاح) رنة وجمع إليه ذريته ، فقال : ايئسوا أن تريدوا أمه محمد على الشرك بعد يومكم هذا ، ولكن افشوا فيهما – يعني مكة والمدينة – الشعر» (١٣٥) .

وهو خبر – كما نلاحظ – يتضمن ، ظاهراً ، ذماً للشعر (كله) وإنكاراً له .

وهو ، فى كل الأحوال ، خبر لم يمر بنا فى أخبار ابن عباس مثله . إذ لم يصل إلينا عن ابن عباس فى علاقته بالشعر ، فى عمومه ، إلّا كل ماهو إيجابي ، وإلّا كل ماهو منحاز إلى هذا الفن القولي من حيث هو صوت وجدان ، وصدى عاطفة ، ولكن ، مهما يكن من أمر ، فإن هناك احتمالات ممكنة لفهم هذا الخبر والتحاور معه ، ومن تلك الاحتمالات : أن المقصود إنما هو شعر الهجاء الذى دارت رحاه بين قريش ، فى مكة ، وأهل المدينة . أو بين المشركين والمؤمنين من المهاجرين والأنصار قبل الفتح ، وذلك لما يتضمنه ذلك الشعر من أهاج تبعث الثارات ، وتحيي الإحن ، وتنشر العصبيات ، وتذكي الأحقاد ، وتقسم المسلمين على أنفسهم ، بعد أن توحدوا ، وبعد أن ائتلفوا ، تحت راية الدين الجديد ،

فأصبح مشركو الأمس هم مؤمنو اليوم ، وأضحى أعداء الماضي هم أخوة الحاضر . إن في إحياء سيرة الأهاجي التي دارت رحاها بين الفريقين ، أيام الخصومة والحرب ، مايمكن أن ينشر الفتنة بين المسلمين في مكة والمدينة ، وربما أعادتها ، تلك الأهاجي ، جذعة بين قريش وأهل المدينة .

لم يعد هناك مجال لعودة الشرك إلى قلوب الذين ذاقوا طعم الإيمان ، ولكن إثارة الأحقاد ، وبعث الضغائن ، عبر الشعر مثلاً ، هما الطريق الأمثل إلى تفتيت هذا البناء الذي صعد ، وإلى توهين تلك القوة التي تكونت وسمقت .

ومن الاحتمالات ، الأخرى الممكنة ، لفهم الخبر السابق ، أن المقصود هو إفشاء الشعر لدرجة انشغال الناس به عن ذكر الله وعن القرآن الكريم ، كلام الله ، الذي انكب عليه الناس ، وانشغلوا به عن أي شيء سواه . وابن العربي ، مثلاً ، يقول : «فلا ينبغي أن يكون الغالب على العبد الشعر حتى يستغرق قوله وزمانه ، فذلك مذموم شرعاً . قال النبي صلى الله عليه وسلم : لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً حتى يريه خير له من أن يمتلىء شعراً» (١٣٦) والقرطبي يذكر أن أحسن ماقيل في تأويل هذا الحديث : «أنه الذي قد غلب عليه الشعر ، وامتلأ صدره منه دون علم سواه ، ولا شيء من الذكر ، ممن يخوض به في الباطل ، ويسلك به مسالك لا تحمد له ، كالمكثر من اللغط والهذر والغيبة . ومن كان الغالب عليه الشعر لزمته هذه الأوصاف المذمومة (. . .) وهذا المعنى هو الذي أشار إليه البخاري في صحيحه لما بوّب على هذا الحديث «باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر» (١٣٧) .

ولا شك أن ابن عباس لا يريد للإسلام أن يصبح ثانوياً في حياة المسلمين ، فيغلب عليهم الشعر الذي كان لايغريهم شيء آخر سواه قبل الإسلام .

ولا نرى تخريجاً آخر لهذا الخبر غير ما ذكرنا ، وهو بغير هذا المستوى من الفهم والحوار لا يستوي مع السياق العام المعروف لسيرة ابن عباس رضي الله عنه مع الشعراء ، ولا ينسجم مع النسق المنطقي لعلاقته بالشعر ، سواء بالنظر إلى الأخبار التي تنوه صراحة بحميمته مع الشعر حفظاً وتمثلاً ورواية وتقويماً ، أو بالنظر إلى مشروعه العلمي في التفسير ، إذ كان الشعر فيه – كما عرفنا – أحد العناصر الرئيسة . فلا يمكن أن يكون ابن عباس الذي ربطته تلك الصلة بالشعر هو ابن عباس نفسه الذي يرى في الشعر هذا الرأي الذي تضمنه الخبر السابق ، في ظاهره ، من حيث هو ذم للشعر (كله) وإنكار له .

وإذا كان لابد لنا من ترجيح أحد الاحتمالين السابقين في فهم الخبر المذكور ، فإننا نرجح الاحتمال الأول . . أي أن المقصود هو شعر الهجاء ، وذلك لما يلي :

أولاً : لأن الخبر ، في ذاته ، لاينسجم إلّا مع موقف واحد بعينه من مواقف ابن عباس من الشعر ، وهو موقفه من الهجاء كما مر بنا . فالهجاء هو نوع الشعر الوحيد الذي نقلت إلينا أخبار ابن عباس بأنه تحفظ عليه ، بل رفضه ، وأنكره ، وذمه ، وعاقب عليه ، وتوعد شعراءه . فهذه الروح في موقف ابن عباس من الهجاء هي الروح التي تُقرِّب إليها الخبر السابق ، وتشده نحوها .

ثانياً : إن السياق التاريخي للأحداث فى تطور الدعوة يجعل من فتح مكة نقطة تحول كبيرة فى تاريخ الإسلام ، إذ اتحدت القريتان ، وهذا كان أحد الأهداف الكبرى للدعوة نفسها . فانقاذ مكة من الشرك هو غاية لاتعادلها ، أو توازيها ، أية غاية أخرى غيرها . هذا فضلاً عن أن ذلك ، فى حد ذاته يعني انطفاء أقوى الخصومات التي كانت تواجه الإسلام فى ذلك الحين . وما الذى سبق ذلك الاتحاد ، وما الذى سبق ذلك الائتلاف ، وهو مازال ندياً طرياً ، غير الخصومة نفسها ؟ ولقد كان من أدواتها شعر الهجاء نفسه . إنها الشيء الوحيد الذى مازال فى الإمكان إثارته واستغلاله من أجل الهدم وتقويض البناء . إن ذلك السياق التاريخي فى تطور الدعوة هو الذى يجعل من الهجاء المرشح الوحيد لذلك الذم ، وذلك الإنكار ، اللذين صبهما ابن عباس على الشعر . فابليس إنما رنّ رنته تلك ، وإنما قال قوله ذلك ، بعد أن «افتتح الرسول صلى الله عليه وسلم مكة» فهو لم يفعل ذلك – عند ابن عباس – فى مناسبة أخرى ، بل فعله فى هذه المناسبة بالذات .

ثالثاً : إن تعيين مكة والمدينة ، بالاسم ، فى سياق الخبر ، لا يعيد إلى الذهن إلّا الخصومة ذاتها ، وما الهجاء – كما قلنا – إلّا أحد أدواتها ، فإبليس لم يقل «افشوا الشعر» بين المؤمنين ثم وقف ، بحيث يمكن أن يفهم من ذلك : الشعر كله (الهجاء وغير الهجاء) لكنه قال : «افشوا الشعر» . . «فيهما» أي مكة والمدينة تحديداً .

فإذا احتسبنا هذا الخبر ضمن موقف ابن عباس المعروف من الهجاء لم يزد ذلك على كونه تأكيداً على ذلك الموقف ، والتزاماً لازباً به ، فهو لا يناقضه ، بل ينسجم معه ويدعمه . وقد رأينا أن ابن عباس رضي الله عنه كان من أكثر الناس تقديراً للأضرار والمخاطر التي يمكن أن يسببها الهجاء على الأفراد وعلى الأمة الجديدة كلها .

خاتمــــة

إن علاقة ابن عباس بالشعر ، هكذا ، لم تنشأ استجابة لأغراض علمية بحتة فحسب ، ولكنها ، إلى جانب ذلك ، بل ربما قبل ذلك ، كانت علاقة ولع بهذا الفن فى ذاته .

لاشك أن الشعر يشكل عنصراً أساساً فى ثقافة ابن عباس ، ولا شك أنه يمثل همّاً ثقافياً له مساحته المقيدة فى عقله ووجدانه : يستنشده ، ويتابعه ، ويتطلع إلى جديده . يحفظه ، ويرويه ويقوِّمه ، ويحكم فيه ، بل إنه ليعد ، بين معاصريه ، «حجة» فى مسائله وشؤونه . لقد جعل ابن عباس للشعر «يومه الخاص» ، ولقد ربطته بشعرائه صلات كانت فى أغلبها إيجابية ومتفاعلة : فهو يتدخل ، ويحاور ، ويناقش ، ويأخذ ، ويرفض ، مستهدياً فى كل ذلك مرة بعلمه فى الشعر ، ومرة بأخلاق الدين الذى يعتبر رضي الله عنه أحد أبرز علمائه وفقهائه .

إن إمعان النظر فى هذا الوجه من علاقة ابن عباس بالشعر يسهم ، لاشك ، فى إلقاء مزيد من الضوء على الموقف الحقيقي للإسلام من الشعر . فالشعر ، فى النتيجة ، كلام ، ما كان منه حسن

فهو حسن ، وما كان منه قبيح فهو قبيح (١٣٨) ، ولقد كان ابن عباس ، إذن ، يُقبل على جميع أغراض الشعر دون استثناء ، ولكنه حين يحس أن فى ذلك ما يناقض أهداف الدعوة ، و يتعارض مع غايات الدين الجديد ، فإنه لا يتردد فى أن يرفضه ، بل يدينه ، ويعاقب أصحابه أو منشئيه .

التعليقـــات

(١) انظر **عبد الكريم الحسن بكار** ، ابن عباس مؤسس علوم العربية (جدة : مكتبة الوادي للتوزيع ١٤١١هـ/١٩٩٠م) ص ٦٣ . وتلك السؤالات تتعرض لحوالى مائتين وخمسين موضعاً فى القرآن الكريم وشواهد الغريب فيها – كما هو معروف – هي دائماً أشعار العرب .

(٢) **عبد الكريم الحسن بكار** ، ابن عباس مؤسس علوم العربية ، المرجع السابق ، ص ١٢٦ .

(٣) **الكاندهلوي** ، حياة الصحابة ، تحقيق نايف العباس ومحمد على دوله (دمشق : دار القلم ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) ج٢ ، ص ص ٤٨ – ٤٩ ، و ج٣ ، ص ٢٥٩ ، **وابن سعد** ، **الطبقات** ،(بيروت : دار صادر ، د . ت) ج٢ ، ص ٣٦٩ .

(٤) **ابن كثير** ، البداية والنهاية ، ط ٤ (بيروت : مكتبة المعارف ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م) ج٨ ، ص ٣٠٢ ، **خير الدين الزركلي** ، الأعلام ، ط ٥ ، (بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٨٠م) ج٤ ، ص ٩٥ .

(٥) **الخطيب البغدادي** ، تاريخ بغداد (بيروت : د . ت) ج١ ، ص ١٧٤ . وانظر أيضاً **ابن حجر العسقلاني** ، الإصابة ، ط ١ ، (القاهرة : ١٣٢٨هـ) ج٢ ، ص ٣٣٣ ، **وابن كثير** ، البداية والنهاية ، ج٨ ، ص ٣٠١ .

(٦) **ابن كثير** ، البداية والنهاية ، ج٨ ، ص ٣٠١ ، **الكاندهلوي** ، حياة الصحابة ، ج٣ ، ص ص ٣٦٠ – ٣٦١ ، **ابن سعد** ، الطبقات ، ج٢ ، ص ٣٦٨ ، **ابن الأثير** ، أسد الغابة ، تحقيق محمد إبراهيم البنا ، ومحمد أحمد عاشور ، ومحمود عبد الوهاب فايد (القاهرة : دار الشعب ، د. ت) ج٣ ، ص ص ١١١ – ١١٢ .

(٧) **الزركلي** ، الأعلام ، ج٤ ، ص ٩٥ .

(٨) **ابن سعد** ، الطبقات ، ج٢ ، ص ٣٦٧ .

(٩) **السيوطي** ، الاتقان ، تحقيق محمد شريف سكر ، ومصطفى القصاص ، ط ١ (بيروت : دار إحياء العلوم ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م) ، ج١ ، ص ٣٢٦ ، **محمد فؤاد عبد الباقي** ، معجم غريب القرآن ، ط ٢ (القاهرة : دار إحياء الكتب العربية ١٣٦٩هـ/١٩٥٠م) ص ٢٣٥ ، وروى ذلك أبو عبيد فى فضائله انظر **أبا تراب الظاهري** ، شواهد القرآن (جدة : النادي الأدبي ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م) ج١ ، ص ١٠ .

(١٠) **السيوطي** ، المزهر ، تحقيق محمد أحمد جاد المولى ، وعلى محمد البجاوي ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة : دار إحياء الكتب العربية ، د . ت) ج٢ ، ص ٣٠٢ ، **والزركشي** ، البرهان ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (بيروت : المكتبة العصرية ١٣٩١هـ/١٩٧٢م) ج١ ، ص ٢٩٣ ، **وأبو تراب الظاهري** ، شواهد القرآن ، ج١ ، ص ١٠ .

(١١) **المبرد** ، الكامل ، تحقيق محمد أحمد الدالى ، ط١ (بيروت : مؤسسة الرسالة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م) ج٣ ، ص ص ١١٤٩ – ١١٥٠ .

(١٢) لقد انقسم الصحابة فى صدر الإسلام قسمين :متحرج من القول فى القرآن ومن هؤلاء أبو بكر وعمر وعبدالله بن عمر ، وغيرهم ، وكان عبدالله بن عمر يأخذ على ابن عباس تفسير القرآن بالشعر . والقسم الثاني الذين لم يتحرجوا ، وفسروا القرآن حسب ما فهموا من الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو حسب فهمهم الخاص بالمقارنة إلى الشعر العربي وكلام العرب ، ومن هؤلاء على بن أبي طالب وعبدالله بن عباس ومن أخذ عنهما (قارن : **محمد زغلول سلام** ، أثر القرآن فى تطور النقد العربي ، ط٣ ، (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٨ ، ص ص ٣١ – ٣٢) ويبدو أن ذلك الخلاف ظل مستمراً بين المتحرجين والمجيزين إلى ما بعد عهد الصحابة ، إلى القرن الثالث الهجري ، إذ نلاحظ أن هناك من الفقهاء من يرون عدم جواز الاستشهاد بالشعر على القرآن (انظر **عبدالكريم الحسن بكار** ، ابن عباس ، ص ص ١٢٦ – ١٢٧) .

(١٣) وهكذا كان يفعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ كان يقول : «عليكم بديوانكم لا تضلوا . قالوا : وما ديواننا ؟ قال : شعر الجاهلية ، فإن فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم» . انظر **القرطبي** ، الجامع لأحكام القرآن) القاهرة : ١٣٦٣هـ/١٩٤٤م) ج١٠ ، ص ص ١١٠ – ١١١ .

(١٤) **السيوطي** ، المزهر ، ج١ ، ص ٣٤٤ .

(١٥) ارجع **محمد زغلول سلام** ، أثر القرآن فى تطور النقد العربي ، ص ٣٣ .

(١٦) **السيوطي** ، الاتقان ، ج١ ، ص ٣٢٦ ، **أبو تراب الظاهري** ، شواهد القرآن ، ج١ ، ص ١٠ . وانظر بلفظ آخر فى **الزركشي** ، البرهان ، تحقيق أبو الفضل إبراهيم (بيروت : المكتبة العصرية ، ١٣٩١هـ/١٩٧٢م) ج١ ، ص ٢٩٤ .

(١٧) **جولد تسهير عن الطبراني** ، ج٧ ، ص ١٢٩ نقله **محمد زغلول سلام** ، أثر القرآن فى تطور النقد العربي ، ص ٣٢ .

(١٨) مشكلة القرآن – مخطوط – ٤٧ ، نقله **محمد زغلول سلام** ، أثر القرآن فى تطور النقد العربي ، ص ٣٢ ، **والسيوطي** ، المزهر ، ج٢ ص ٣٠٢ ، **وأبو تراب الظاهري** ، شواهد القرآن ، ج١ ، ص ١٠ . وانظر هذا بلفظ آخر فى **الزركشي** ، البرهان ، ج١ ، ص ٢٩٣ .

(١٩) **السيوطي** ، تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد (القاهرة : ١٩٥٩) ص ٣٣ ، **والطبري** ، تاريخ الرسل والملوك (ليدن : ١٩٦٤) ج٣ ، ص ١١٦٥ .

(٢٠) قال **الجاحظ** فى كتاب الحيوان (ج٦ ، ص ٦٨) وقد جاء فى الخبر أن من الملائكة من هو فى صورة الرجال ، ومنهم من هو فى صورة الثيران ، ومنهم من هو فى صورة النسور ، ويدل على ذلك تصديق النبي صلى الله عليه وسلم لأمية بن أبي الصلت . . ثم ذكر البيت . انظر تعليق محققي العقد الفريد لابن عبدربه تحقيق أحمد أمين أحمد الزين وإبراهيم الأبياري (بيروت : دار الكتاب العربي ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م) ج٥ ، ص ٢٧٧ .

(٢١) **ابن عبدربه** ، العقد الفريد ، ج٥ ، ص ٢٧٧ . وانظر رواية أخرى فى الأصفهاني ، الأغاني ، تحقيق إبراهيم الأبيارى (القاهرة : دار الشعب ١٣٨٩هـ/١٩٦٩) ج٤ ، ص ١٣٤٢ .

(٢٢) **السيوطي** ، المزهر ، ص ص ٢٤٤ – ٢٤٥ .

(٢٣) **ابن عبدربه** ، العقد الفريد ، ج٥ ، ص ٢٨٧ . **ابن كثير** ، البداية والنهاية ، ج٨ ، ص ٣٠٥ ، **ابن الأثير** ، أسد الغابة ، تحقيق محمد إبراهيم البنا ، محمد أحمد عاشور ، محمود عبدالوهاب فايد (القاهرة : دار

الشعب د . ت) ج٣ ، ص ٢٩٤ . انظر «نكت الهميان» ٧١ نقل ذلك **مصطفى الخن** ، عبدالله بن عباس ، ص ٣٩ .

(٢٤) **ابن رشيق** ، العمدة ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، ط ٤ (بيروت : دار الجيل ، ١٩٧٢م)ج ١ ، ص ص ٣٦ – ٣٧ .

(٢٥) **ابن عبدربه** ، العقد الفريد ، ج٥ ، ص ٢٨٧ .

(٢٦) **القرطبي** ، الجامع لأحكام القرآن ، (طبعة دار الشعب) ج٦ ، ص ٤٨٦٣ .

(٢٧) **الأصفهاني** ، الأغاني ، (القاهرة : دار الكتب ١٣٤٥هـ/١٩٢٧م) ج١٣ ، ص ٢٦٤ .

(٢٨) **ابن كثير** ، البداية والنهاية ، ج٨ ، ص ص ٢٢٨ – ٢٢٩ .

(٢٩) انظر **ابن خلكان** ، وفيات الأعيان ، تحقيق إحسان عباس (بيروت : دار صادر ١٣٩٨هـ/١٩٨٧م) ج ١ ، ص ٣١٧ ، وتاريخ الطبري ج٦ ،ص ٢١٧ .

(٣٠) **الاصفهاني** ، الأغاني ، (طبعة دار الشعب) ج ٤ ، ص ١٣٤٥ . الخلّب : الطين بلغة حمير ، والثأط : الطين الحمأة (أي الأسود) وقيل : الطين حمأة كان أوغير حمأة . والحرمد : الأسود من الطين ورواية هذا الشعر فى اللسان مادة (ثأط) :

بلـــــغ المشارق والمغـــــارب يبتغـــــي　　أسباب أمر عن حكيم مرشد

فأتى مغـــــيب الشمس عنـــــد مآبها　　فى عين ذي خلب وثأط حرمد

وقد رواه صاحب اللسان لأميه بن أبي الصلت ، ثم قال : وأورد الأزهري هذا البيت مستشهداً به على الثأطة والحمأة ، وكذلك أورده ابن برّي وقال : إنه لتبّع يصف ذا القرنين .

(٣١) **الأصفهاني** ، الأغاني ، (طبعة دار الكتب) ج ١ ، ص ٧٣ .

(٣٢) **الكاندهلوي** ، حياة الصحابة ، ج ١ ، ص ص ٣٧٩ – ٣٨٠ .

(٣٣) **الأصفهاني** ، الأغاني ، (طبعة دار الكتب) ج ٤ ، ص ١٤٦ ، وانظر ذلك بلفظ آخر فى **الهيثمي** ، مجمع الزواد ومنبع الفوائد (القاهرة : دار الريان ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م) ج٩ ، ص ٣٧٧ . وهناك رواية شبيهة فى تاريخ **ابن عساكر** ، تاريخ دمشق الكبير (بيروت : ١٩٧٩م) ج ٤ ، ص ١٣١ ، وللسيدة عائشة كلام شبيه بهذا ، فقد روى عن عروة عن أبيه ، قال : «ذهبت أسب حسان عند عائشة ، فقالت : لا تسبه فإنه كان ينافح عن رسول اللهصلى الله عليه وسلم» انظر **البخاري** ، الجامع الصحيح ، تحقيق م . لودولف كرهل لي (بريل ١٨٦٢ – ١٩٠٨م) ج٣ ، ص ١٠٥ ، و**محب الدين الطبري** ، السمط الثمين ، تحقيق محمد على قطب (القاهرة : دار الحديث ، ١٩٨٩م) ص ١٠٧ .

(٣٤) **السيوطي** ، المزهر ، ج ٢ ، ص ٤٨٢ ، ثم يذكر السيوطي أن ابن سلام قال : قال أهل النظر : «كان زهير أحصفهم شعراً ، وأبعدهم من سخف ، وأجمعهم لكثير من المعاني فى قليل من المنطق» انظر أيضا **ابن سلام** ، طبقات فحول الشعراء ، تحقيق محمود شاكر (القاهرة : مطبعة المدني ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م) ج ١ ، ص ٦٣ .

(٣٥) **المبرد** ، الكامل ، ج٣ ، ص ١١٥٤ .

(٣٦) **ابن كثير** ، البداية والنهاية ، ج٨ ، ص ٣٠١ .

(٣٧) ليس من الضروري أن نورد هنا جميع تلك السؤالات ، فهي لكثرتها وتعددها ستستغرقنا طويلاً ، كما أننا لن نفعل بذكرها كلها أكثر من تكرارها وإعادةماسبقنا إليه غيرنا . وقد أخرج بعض تلك السؤالات الأنباري ف

الوقف والابتداء (ج ١ ، ص ص ٧٦ – ٩٨) وأخرج بعضها الآخر الطبراني فى معجمه الكبير (انظر **السيوطي** ، الاتقان ، ج ١ ، ص ٣٢٦) وكذلك **السيوطي** ، فى (الاتقان ج ١ ، ص ٣٢٦ ومابعدها) **والمبرد** فى الكامل (ج ٣ ، ص ٢٢٢) **والهيثمي** فى مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (ج ٦ ، ص ٣٠٣ ، و ج ٩ ، ص ٢٧٨) كما حقق مخطوطة عنها **إبراهيم السامرائي** ، ونشرها فى كتاب تحت عنوان «سؤالات نافع بن الأزرق إلى عبدالله بن عباس (نشر فى بغداد ، مطبعة المعارف ١٩٦٨م) وسنشير إليها فيما بعد ، حين نعود إليها فى هذا البحث ، بـ «سؤالات نافع» ، وأجرت دراسة حولها عائشة عبدالرحمن (انظر . **عبدالكريم الحسن بكار** ، ابن عباس مؤسس علوم العربية ، ص ٦٣) وألحقها **محمد فؤاد عبدالباقي** فى آخر معجم **أبو تراب الظاهري** ، فى كتابه شواهد القرآن (جدة : النادي الأدبي ، ١٤٠٤هـ) .

(٣٨) سورة المائدة ، الآية ٣٥ .

(٣٩) سؤالات نافع ، ص ٩ .

(٤٠) سورة الحج ، الآية ٣٦ .

(٤١) سؤالات نافع ، ص ١٢ .

(٤٢) سورة سبأ ، الآية ١٣ .

(٤٣) سؤالات نافع ، ص ص ١٥ – ١٦ .

(٤٤) سورة المائدة ، الآية ٤٨ .

(٤٥) سؤالات نافع ، ٩ .

(٤٦) سورة مريم ، الآية ٢٣ .

(٤٧) سؤالات نافع ، ص ١١ .

(٤٨) سورة آل عمران ، الآية ١٣ .

(٤٩) سؤالات نافع ، ص ١٣ .

(٥٠) سورة النور ، الآية ٤٣ .

(٥١) سؤالات نافع ، ص ١٠ .

(٥٢) سورة الأحزاب ، الآية ٣٢ .

(٥٣) سؤالات نافع ، ص ١٦ .

(٥٤) سورة الرحمن ، الآية ٣٥ .

(٥٥) سؤات نافع ، ص ١٣ .

(٥٦) سورة الرحمن ، الآية ٤٤ .

(٥٧) سؤالات نافع ، ص ٢٣ .

(٥٨) سورة آل عمران ، الآية ١٥ .

(٥٩) سؤالات نافع ، ص ٢٠ .

(٦٠) سورة الشعراء ، الآية ١١٩ .

(٦١) سؤالات نافع ، ص ٢٣ .

(٦٢) سورة الأنعام ، الآية ٩٩ .

(٦٣) سؤالات نافع ، ص ٩ .
(٦٤) سورة طه ، الآية ١١٩ .
(٦٥) سؤالات نافع ، ص ١٢ .
(٦٦) سورة ص ، الآية ٣ .
(٦٧) سؤالات نافع ، ص ٤٦ .
(٦٨) سورة الفرقان ، الآية ٢٥ .
(٦٩) سؤالات نافع ، ص ٤٤ .
(٧٠) سورة القيامة ، الآية ٢٤ .
(٧١) سؤالات نافع ، ص ٤٧ .
(٧٢) سورة الصافات ، الآية ٤٧ .
(٧٣) سؤالات نافع ، ص ١٥ .
(٧٤) سورة الواقعة ، الآية ٢٢ .
(٧٥) سؤالات نافع ، ص ٤٤ .
(٧٦) سورة هود ، الآية ٦٩ .
(٧٧) سؤالات نافع ، ص ٤٥ .
(٧٨) سورة الجن ، الآية ٣ .
(٧٩) سؤالات نافع ، ص ٢٢ .
(٨٠) سورة البقرة ، الآية ٣ .
(٨١) سؤالات نافع ، ص ٥٨ .
(٨٢) سورة البقرة ، الآية ٢٢ .
(٨٣) سؤالات نافع ، ص ١٦ .
(٨٤) سورة الأنعام ، الآية ٤٢ .
(٨٥) سؤالات نافع ، ص ٢١ .
(٨٦) سورة البقرة ، الآية ٢٢٩ .
(٨٧) سؤالات نافع ، ص ١٧ .
(٨٨) سورة النجم ، الآية ٦١ .
(٨٩) سؤالات نافع ، ص ص ٤١ — ٢٥ .
(٩٠) **عبدالكريم الحسن بكار** ، ابن عباس مؤسس علوم العربية ، ص ٦٣ .
(٩١) لقد أصاب الشعر أضرار كثيرة جراء إتهام قريش الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه «شاعر» ، والقرآن الكريم بأنه «شعر» ، فكان في تصدي القرآن لهذا الاتهام ما أفضى إلى الاعتقاد ، لدى الكثيرين ، بموقف متجهم من القرآن حيال الشعر ، بينما ظل آخرون يحصرون موقف القرآن ذاك ضمن مساحته المعقولة ، وهي «تبرئة» الرسول من أن يكون شاعراً ، و «تنزيه» كلام الله عن أن يكون شعراً ، وذلك من أجل التأكيد ، في نهاية الأمر ، على حقيقة الوحي وصدق النبوة ، وهما المسألتان اللتان كان من أغراض قريش دحضهما ومناهضتهما .

(٩٢) إشارة إلى قوله تعالى : «والشعراء يتبعهم الغاوون» سورة الشعراء ، الآية ٢٢٤ . فحتى إن كان المقصود ، حسب بعض الآراء ، الشعراء المشركين فى مكة ، إلّا أن الأمر لا يخلو من نَفس ساخن يطال الشعر كله حسب بعض الآراء ، وانظر مثلاً **القرطبي** ، الجامع لأحكام القرآن ، ج ٣ ، ص ١٥١ ، **والرازي** ، مفاتيح الغيب ، تحقيق **محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام** (القاهرة : ١٩٦٨م) ج ٧ ، ص ٦٧ ، **والطبري** ، تفسير ، (القاهرة : ١٣٠٢ - ١٣٢١هـ/ ١٨٨٤ - ١٩١٣م) ج ١٩ ، ص ٧٣ ، **والزمخشري** ، الكشاف ، تحقيق مصطفى حسين أحمد (القاهرة : مطبعة الاستقامة ١٣٧٣ هـ/١٩٥٣م) ج ٣ ، ص ٣٤٤ ، فيرى هذا الأخير أن المقصود هو : «ألا يتبع (الشعراء) على باطلهم وكذبهم وفضول قولهم وما هم عليه من الهجاء وتمزيق الأعراض والقدح فى الأنساب والنسيب بالحرم والغزل والابتهار ومدح من لايستحق المدح ولا يستحسن ذلك منهم ولا يطرب على قولهم إلّا الغاوون والسفهاء ، والشطار . .» .

(٩٣) انظر **الأصفهاني** ، الأغاني ، (طبعة دار الكتب) ج ١ ، ص ٧٣ .

(٩٤) **الكامل** ، ج ٣ ، ص ص ١١٥٢ - ١١٥٣ . وانظر الرواية بلفظ آخر فى **الأصفهاني** ، الأغاني ، (طبعة دار الكتب) ج ١ ، ص ٧٢ ، **والزركلي** فى الأعلام (ج ٤ ، ص ٩٥) يشير إلى هذه القصة .

(٩٥) الديوان

(٩٦) قارن : **ابن رشيق** ، العمدة ، ج ١ ، ص ٣٠ .

(٩٧) **المبرد** ، الكامل ، ج ٣ ، ص ١١٥٤ .

(٩٨) **القالي** ، ذيل الأمالي ، (القاهرة : دار الفكر ، د . ت) ص ١٤١ ، **وقيل** «إنه كان إذا سمع النوادب سد أذنيه بأصابعه مخافة أن يحفظ أقوالهم» **الزركلي** ، الأعلام ، ج ٤ ، ص ٩٥ .

(٩٩) **ابن الجوزي** ، صفة الصفوة ، تحقيق إبراهيم رمضان ، وسعيد اللحام ، ط ١ (بيروت : دار الكتب العلمية ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م) ج ١ ، ص ٣١٤ .

(١٠٠) **الحافظ الأصبهاني** ، حلية الأولياء ، ط ٥ (القاهرة : دار الريان للتراث ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م) ج ١ ، ص ٣١٤ .

(١٠١) **الجاحظ** ، نكت الهميان ، ص ١٨٠ .

(١٠٢) **الأصفهاني** ، الأغاني ، (طبعة دار الكتب) ج ١ ، ص ٧٣ .

(١٠٣) **ابن حجر العسقلاني** ، الإصابة ، ج ٢ ، ص ٣٣٤ .

(١٠٤) زهير بن أبي سلمى .

(١٠٥) النابغة الذبياني .

(١٠٦) **الجرجاني** ، الرسالة الشافية ، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام (القاهرة : ١٩٦٨م) ص ١٣١ . وانظر هذه الرواية بلفظ مشابه فى **الأصفهاني** ، الأغاني ، (طبعة دار الكتب) ج ٢ ، ص ١٩٣ ، **وابن رشيق** ، العمدة ، ج ١ ، ص ٩٧ .

(١٠٧) **ابن رشيق** ، العمدة ، ج ١ ، ص ٩٧ ، وكذلك **السيوطي** فى المزهر ، ج ٢ ، ص ٤٨١ .

(١٠٨) يبدو أن الحطيئة ، لمكانته والاحتجاج برأيه ، كان يسأل دائماً هذا السؤال حتى من غير ابن عباس ، وقد قيل إنه سئل مرة : من أشعر الناس ؟ فقال أبو دؤاد حيث يقول :

لا أعُـدّ الاقتـار عَدْمـا ولكـن فقـد من قد رزئتـه الاعـدام

ويعلق السيوطي : وهو وإن كان فحلاً قديماً ، وكان امرؤ القيس يتوكأ عليه ، ويروي شعره ، فلم يقل فيه أحد من النقاد مقاله الحطيئة ، انظر المزهر ، ج٢ ، ص ٤٨١ .

(١٠٩) انظر **الهيثمي** ، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، ج٩ ، ص ٣٧٧ . وانظر الرواية بلفظ مشابه فى **الأصفهاني** ، الأغاني ، (طبعة دار الكتب) ج٤ ، ص ١٤٦ . **وابن عساكر** ، تاريخ دمشق ، ج٤ ، ص ١٣١ .

(١١٠) انظر **المرزباني** ، الموشح ، تحقيق على البجاوي (مصر : دار النهضة ١٩٦٥م) ص ٢٧٠ **وابن قتيبة** ، الشعر والشعراء ، تحقيق . مفيد قميحة (بيروت : دار الكتب العلمية ١٩٨١م) ص ١٣٩ .

(١١١) انظر الإصابة ج٤ ، ص ٩٠ ، **والهيثمي** ، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، ج٩ ، ص ٢٨٥ . حيث يضيف : «فقال الوالي : والله ما أراد بالكهام غيري والله بيني وبينه» وحيث ترد روايه عجز البيت الأخير هكذا : «بليغاً ولم تخلق كهاماً ولا حلاً» وانظر رواية **الجاحظ** لهذا الشعر فى البيان والتبيين ، ج١ ، ص ٣٣٠ ، وانظر أيضا **ابن حجر العسقلاني** ، الإصابة ، ج٢ ، ص ٣٣٠ ، **والكاندهلوي** ، حياة الصحابة ، ج١ ، ص ص ٤٠٦ - ٤٠٧ .

(١١٢) **السيوطي** ، المزهر ، ج٢ ، ص ٣١١ .

(١١٣) **الهيثمي** ، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، ج٩ ، ص ٢٧٦ ، وانظر فى هذا المعنى **شمس الدين الذهبي** ، تذكرة الحافظ ، (دار الفكر العربي د . ت) ج١ ، ص ٤٠ .

(١١٤) **ابن الأثير** ، الكامل ، ج٣ ، ص ص ٣٣ - ٣٤ (نقله الحسن بكار ، ص ١٢٥) .

(١١٥) المفاضلة بين شاعر وشاعر والحكم بأفضلية هذا على ذالك من صميم النقد الأدبي . انظر **محمود غناوي الزهيري** ، نقائض جرير والفرزدق (القاهرة : ١٩٥٣م) ص ٢٠٤ .

(١١٦) **السيوطي** ، المزهر ، ج٢ ، ص ٤٨٢ .

(١١٧) **الأصفهاني** ، الأغاني (طبعة دار الكتب) ج١١ ، ص ٥ .

(١١٨) انظر هذه الرواية فى **البخاري** ، الأدب المفرد ، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي (القاهرة : ١٣٧٥هـ) ص ٢٠٦ ، وانظر **ابن عبدربه** ، العقد الفريد ، ج٥ ، ص ٢٧٦ ، وفى مكان آخر من العقد الفريد (ج٥ ، ص ٢٧١) هي حديث مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم : «هذا من كلام النبوة» .

(١١٩) سورة الحجرات ، الآية ١١ «ولاتلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب» .

(١٢٠) **البخاري** ، الأدب المفرد ، ص ٩١ .

(١٢١) **البخاري** ، الأدب المفرد ، ص ٩٠ .

(١٢٢) **الحافظ الأصبهاني** ، حلية الأولياء ، ج١ ، ص ٣٢٨ .

(١٢٣) **البخاري** ، الأدب المفرد ، ص ٩١ .

(١٢٤) **البخاري** ، الأدب المفرد ، ص ٩١ .

(١٢٥) **الأصفهاني** ، الأغاني ، (طبعة دار الكتب) ج٢ ، ص ١٩٢ ، وج٢ ، ص ٦١٠ (طبعة دار الشعب) .

(١٢٦) **الأصفهاني** ، الأغاني ، (طبعة دار الشعب) ج٢ ، ص ٦١٠ -٦١١ .

(١٢٧) عتيبة بن مرداس أحد بني كعب بن عمرو بن تميم ، شاعر مقل ، غير معدود فى الفحول ، ممن أدرك الجاهلية والإسلام ، وابن فسوة لقب لمزحه فى نفسه ، ولم يكن أبوه يلقب بفسوة وإنما لقب هو بهذا . انظر **الأصفهاني** ، الأغاني ، ج٢ ، ص ٢٣٢ ، وانظر **ابن حجر العسقلاني** ، الإصابة ، ج٣ ، ص ١٠٣ .

(١٢٨) **الجاحظ** ، البيان والتبيين ، تحقيق عبدالسلام محمد هارون (بيروت : دار الجيل ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م) ج١ ، ص ٢٨٤ .

(١٢٩) **ابن قتيبة** ، الشعر والشعراء ، تحقيق مفيد قميحة (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٨١م) ص ١٧٥ .

(١٣٠) قال هذه الأبيات «عندما وفد إلى المدينة بعد مقتل علي عليه السلام ، فلقي الحسن بن علي عليه السلام ، وعبدالله بن جعفر عليهما السلام ، فسألاه عن خبره مع ابن عباس عليه السلام فأخبرهما ، فاشتريا عرضه بما أرضاه» **الأصفهاني** ، الأغاني (طبعة دار الشعب) ج٢٦ ، ص ٨٩٥٢ .

(١٣١) انظر رواية أخرى لهذه الأبيات فى **الأصفهاني** ، الأغاني (طبعة دار الشعب) ج٢٦ ، ص ص ٨٩٥٢ - ٨٩٥٣ .

(١٣٢) **الأصفهاني** ، الأغاني ، ج٢٢ ، ص ٢٣٤ .

(١٣٣) انظر فى هذا ، على سبيل المثال ، ابن رشيق ، العمدة ، ج٢ ، ص ١٧٥ ، **بيفان** ، كتاب النقائض/نقائض جرير والفرزدق ، (ليدن ١٩٠٨م - ١٩١٢م) ج١ ، ص ص ٢١٩ - ٢٢٠ ، ودواوين الشعراء جرير والفرزدق والأخطل ، وانظر أيضا **أحمد الشايب** ، تاريخ النقائض فى الشعر العربي ، ط٣ ، (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٦م) ص ٤١١ وغيرها .

(١٣٤) انظر فى هذا على سبيل المثال ، **أحمد الشايب** ، تاريخ النقائض فى الشعر العربي ، ص ٤١٢ ، وما بعدها .

(١٣٥) **القرطبي** ، الجامع لأحكام القرآن ، ج١٣ ، ص ١٥٢ .

(١٣٦) **ابن العربي** ، أحكام القرآن ، تحقيق على محمد البجاوي (القاهرة : دار الفكر ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م) ج٣ ، ص ١٤٤٧ .

(١٣٧) **القرطبي** ، الجامع لأحكام القرآن (القاهرة : دار الشعب ، د . ت) ج٦ ، ص ٤٨٦٧ .

(١٣٨) انظر **القرطبي** ، الجامع لأحكام القرآن ، ج١١ ، ص ٧٢١ ، ولفظه «هو (أي الشعر) كلام حسنه حسن وقبيحه قبيح» وهو فحوى حديث شريف يرد ، بمقتضى رواية البخاري ، هكذا : «إن الشعر بمنزلة الكلام ، وقبيحه كقبيح الكلام» انظر الأدب المفرد ، ص ٢٢٣ . ومحقق الأدب المفرد يقول فى الهامش : «ليس فى شيء من الكتب الستة» . وحسب ابن رشيق وغيره فإن هذا من أقوال السيدة عائشة ، انظر العمدة ، ج١ ، ص ٢٧ ، **والجرجاني** ، دلائل الإعجاز ، تحقيق محمد عبدالمنعم خفاجي (القاهرة : ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م) ص ٧١ . أما ابن العربي وآخرون فيرون أن القول السابق هو خلاصة رأي الإمام الشافعي فى الشعر ، انظر أحكام القرآن ، ج٣ ، ص ١٤٢٧ ، **والقرطبي** ، الجامع لأحكام القرآن ، ج١٣ ، ص ١٥١ ، وهذا الاخير (ج١١ ، ص ٢٧١) يعلق قائلاً «وأصحاب الشافعي يأثرون هذا الكلام عن الشافعي ، وأنه لم يتكلم به غيره ، وكأنهم لم يقفوا على الأحاديث فى ذلك» .

المراجـــع

ابن الأثير ، أسد الغابة ، تحقيق محمد إبراهيم البنا ، ومحمد أحمد عاشور ، ومحمود عبدالوهاب فايد ، القاهرة ، دار الشعب ، د . ت .

ابن الجوزي ، صفة الصفوة ، تحقيق إبراهيم رمضان ، وسعيد اللحام ، ط١ ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م .

ابن حجر العسقلاني ، الإصابة فى تمييز الصحابة ، ط ١ ، القاهرة ، ١٣٢٨هـ .
ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ، دار صادر ، ١٣٩٨هـ/١٩٨٧م .
ابن رشيق ، العمدة ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، ط ٤ ، بيروت ، دار الجيل ، ١٩٧٢م .
ابن سعد ، الطبقات ، بيروت ، دار صادر د . ت .
ابن سلام ، طبقات فحول الشعراء ، تحقيق محمود شاكر ، القاهرة ، مطبعة المدني ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .
ابن عبدربه ، العقد الفريد ، تحقيق أحمد أمين الزين ، وإبراهيم الإبياري ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .
ابن العربي ، أحكام القرآن ، تحقيق على محمد البجاوي ، القاهرة ، دار الفكر ، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢ .
ابن عساكر ، تاريخ دمشق الكبير ، بيروت ، ١٩٧٩م .
ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، تحقيق مفيد قميحة ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٨١م .
ابن كثير ، البداية والنهاية ، ط ٢ ، بيروت ، دار المعارف ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .
الأخطل ، ديوان ، تحقيق فخر الدين قباوة ، ط ٢ ، بيروت ، دار الآفاق الجديدة ، ١٩٧٩م/١٣٩٩هـ .
الأصبهاني ، الأغاني ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، القاهرة ، دار الشعب ، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م ، وكذلك طبعة دار الكتب ، ١٣٤٥هـ/١٩٢٧م .
البخاري ، الأدب المفرد ، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ، القاهرة ، ١٣٧٥هـ .
البخاري ، الجامع الصحيح ، تحقيق م . لودولف كرهل لي ، بريل ، ١٨٦٢/١٩٠٨م .
بكار (الدكتور) عبدالكريم الحسن ، ابن عباس مؤسس علوم العربية ، جدة ، مكتبة الوادي للتوزيع ، ١٤١١هـ/١٩٩٠م .
بيفان ، كتاب نقائض جرير والفرزدق ، ليدن ، ١٩٠٨م — ١٩١٢م .
الجاحظ ، البيان والتبيين ، تحقيق عبدالسلام محمد هارون ، بيروت ، دار الجيل ، ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م .
الجاحظ ، كتاب الحيوان ، تحقيق عبدالسلام محمد هارون ، بيروت ، دار الجيل ، ودار الفكر ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .
الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، تحقيق محمد عبدالمنعم خفاجي ، القاهرة ، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م .
الجرجاني ، الرسالة الشافية ، تحقيق محمد خلف الله ، ومحمد زغلول سلام ، القاهرة ، ١٩٦٨م .
جرير ، ديوان ، تأليف محمد إسماعيل عبدالصاوي ، بيروت ، دار مكتبة الحياة ، د . ت .
الحافظ الأصبهاني ، حلية الأولياء ، ط ٥ ، القاهرة ، دار الريان للتراث ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .
الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، بيروت ، د . ت .
الخن (الدكتور) مصطفى سعيد ، عبدالله بن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن ، ط ٣ ، دمشق ، دار القلم ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .
الذهبي ، **شمس الدين** ، تذكرة الحفاظ ، دار الفكر العربي ، ١٣٧٤هـ .
الرازي ، مفاتيح الغيب ، تحقيق محمد خلف الله ، ومحمد زغلول سلام ، القاهرة ، ١٩٦٨م .
الزركشي ، **بدر الدين محمد بن عبدالله** ، البرهان فى علوم القرآن ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، بيروت ، المكتبة العصرية ، ١٣٩١هـ/١٩٧٢م .
الزركلي ، **خير الدين** ، الأعلام ، ط ٥ ، بيروت ، دارالعلم للملايين ، ١٩٨٠م .

الزمخشري ، الكشاف ، تحقيق مصطفى حسين أحمد ، القاهرة ، مطبعة الاستقامة ، ١٣٧٣هـ/١٩٥٣م .
الزهيري ، محمود غناوي ، نقائض جرير والفرزدق ، القاهرة ، ١٩٥٣م .
السامرائي (الدكتور) إبراهيم ، سؤالات نافع بن الأزرق إلى عبدالله بن عباس ، بغداد ، مطبعة دار المعارف ، ١٩٨٦م .
سلام (الدكتور) محمد زغلول ، أثر القرآن فى تطور النقد العربي ، ط ٣ ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٨م .
السيوطي ، الاتقان فى علوم القرآن ، تحقيق محمد شريف سكر ، ومصطفى القصاص ، بيروت ، دار إحياء العلوم ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .
السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، القاهرة ، ١٩٥٩م .
السيوطي ، المزهر ، تحقيق محمد أحمد جاد المولى ، وعلى محمد البجاوي ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية ، د . ت .
الشايب ، أحمد ، تاريخ النقائض فى الشعر العربي ، ط ٣ ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٦م .
الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير ، تاريخ الرسل والملوك ، ليدن ، ١٩٦٤م .
الطبري ، تفسير ، القاهرة ، ١٣٠٢هـ - ١٣٢١هـ/١٨٨٤ - ١٩١٣م .
الطبري ، محب الدين ، السمط الثمين ، تحقيق محمد على قطب ، القاهرة ، دار الحديث ، ١٩٨٩م .
الظاهري ، أبو تراب ، شواهد القرآن ، جدة ، النادي الأدبي ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م .
عبدالباقي ، محمد فؤاد ، معجم غريب القرآن ، ط ٢ ، القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية ، ١٣٦٩هـ/١٩٥٠م .
الفرزدق ، ديوان ، بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٦م .
القالي ، ذيل الأمالي ، القاهرة ، دار الفكر ، د . ت .
القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، القاهرة ، ١٣٦٣هـ/١٩٤٤م .
الكاندهلوى ، محمد يوسف ، حياة الصحابة ، تحقيق نايف العباس ، ومحمد على دولة ، دمشق ، دار القلم ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .
المبرد ، الكامل ، تحقيق محمد أحمد الدالي ، ط ١ ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .
المزرباني ، الموشح ، تحقيق على محمد البجاوي ، مصر ، دار النهضة ، ١٩٦٥م .
الهيثمي ، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، القاهرة ، دار الريان ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

"Bin Abass" Relation with Poetry

FAHAD AL-ORABI AL-HARTHI
Assistant Professor, Arabic Language Department, College of Arts, King Saud University, Riyadh, Saudi Arabia

ABSTRACT. What is known about Ibdalla Bin Abass's, may God be pleased with him, relation with poetry is that aspect which falls within the context of his approach to interpretation, an aspect of which poetry was a source of the explanation of the "strange" (Al-Gareeb). It was, no doubt, a rich approach of a wide spectrum of visions, and it still deserves more attention and study.

This paper deals with another aspect of "Bin Abass" relation with poetry, an aspect which falls outside the context of his approach to interpretation. It deals with "Ibn Abass" as an admirer of this art, specially from a perspective of enjoyment and taste. He was, may God be pleased with him, acquianted with some of the great poets of his epoch, and he had "A special day" for poetry whereas nothing is said except poetry. Thus he used to listen to poetry, memorize it, cite it, and evaluate it. Of all his contemporaries, he is considered the most knowledgeable of this art. In fact the genuine connection here may lead to a sharp climax as we come across stories and news which indicate that the connection surpassed the above mentioned limits, for he used sometimes to create poetry himself. He was always aligned to poetry as an expression, a voice of soul, an echo of passion, and a source of information of history, news, and battles ... etc. But that didn't prevent him to be very cautious about certain purposes of poetry, like satire which he rejected sometimes, and even imprisoned and exiled some of the poets who took to it.

This paper discusses all the above mentioned matter through news and stories that explain this aspect of the life of this great "Shabi". Hence, this paper changes the normal course to recall the known stereotype of Ibn Abass relation with poetry: From the common course of a relation based on purely educational purpose (that is to resort to poetry to explain "The Strange"), to another course of a relationship of enjoyment and taste, based on poetry as an asset of multiple cultural, creative, and artistic values. No doubt this course may contribute to reveal the real space occupied by this art in Ibn Abass mind and soul, and it may, at the same time, shed more light on the relation of Islam with poetry as a whole.

مجلة جامعة الملك عبدالعزيز : الآداب والعلوم الإنسانية ، م ٥ ، ص ص ١٥٣ - ٢٠٠ (١٤١٢هـ/١٩٩٢م) .

من مظاهر الحزن فى شعر الشابي

ضيف الله هلال العتيبي
قسم اللغة العربية ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة الملك عبدالعزيز ، جدة ، المملكة العربية السعودية

المستخلص : تنبع مهمة الشعر من كونه تعبيرا عن العواطف والمشاعر ، ومن هذا المنطلق بدأ الشابي حياته الرومانسية متأثرا بالأدب العربي القديم وبالدكتور طه حسين فى نثره ، وبالمدرستين الفرنسية والألمانية الرومانسيتين ، والشاعر الشابي مثالي النزعة فى أدبه ، كثير الحديث عن ذاته وحزنه وآلامه وغربته ، ومن هنا بدأ الإخفاق فى أدبه ، مع أنه كان فطريا فى حزنه ، ولعل ذلك يعود لفقدانه والده ، وموت المحبوبة ، ومرضه ومعاناة شعبه من الاحتلال الأجنبي . وتطورت مشاكله النفسية حتى وصل إلى حد التشاؤم والقنوط ، غير أنه كان يمر بلحظات طموح وقوة وتمرد ، ومن هنا ظهرت فلسفة القوة لديه ، ويبدو أنه كان متأثرا بالمتنبي فى كثير من أشعاره .

وقد حاول الخروج من مأساته بالتحدث عن الطبيعة ، لعله يخرج من واقعه إلى واقع آخر ، إذ إنّ الطبيعة نبع الشاعر الرومانسي ، ولم يستطع الشابي أن يخرج من مأساته ، وإنما اتخذ الطبيعة وسيلة للتعبير عن آلامه وأفراحه ، بل وصل إلى حد يلبسها فيه ثياب الحزن والتشاؤم ، واتفقت رومانسيته مع الملامح الإنسانية فى شعره ، وذلك لاحساسه الشديد ومثاليته النادرة ، وخلقه الكريم .

فقد ظهر حسه الإنساني فى تعبيره عن آلامه وآلام الآخرين وعن وطنه تونس ، وأبرز صورة الموت فى صور مفزعة ، وأبان عن فلسفة تأملية فى الكون ، وقد تأثر فى هذا بأبي العلاء المعري ، ولكنه يختلف عنه فى فكره وفلسفته ، ووصل إلى حد اليأس والقنوط وظهر فى أدبه مايسمى بفلسفة الضعف ، حيث إنه لم يستطع مقاومة الحياة وظروفها ، إن مظاهر الحزن فى أدب الشابي يلتصق بعضها ببعض وتشكل إطارا عاما لنفسية الشابي المتعبة فى هذه الحياة وماجرى له فيها . والبحث يمتشق من أدب الشابي سراجا لهذه المظاهر فى شتى مناحيها .

أولا : الـــذات

تتجلى القدرة الفنية لدى الأديب فى تفهمه لأعماق ذاته ، وتصويره لما يجول بهذه الذات فى حياة الشدة والرخاء ، وما أصابها من إخفاقات أظهرت نوازع متعددة فى حياته الأدبية ، وكان الشابي يعرف مدى قيمة الشعر وماهيته . وهي نظرة يشايعه فيها الآخرون «أما أنا فلا أفهم من الشعر إلا أنه : فيض الحياة فى أيقظ ساعاتها وأحفلها بنوازع الفكر والشعور ، كما أن السحابة العابرة قد تسيل السيول ، وقد تسكب القطرات ، كذلك الشاعر» (١) .

وليس غريبا أن ينزع الشابي إلى الذاتية فى أدبه ، لأنه حاول تمثل الأدب الرومانسي : «وخاصة أدب المدرسة الرومانطيقية الفرنسية والألمانية التي يتجلى طابعها فى تفكير الشابي ، ومنها أدب طه حسين الذى أثر فى الأسلوب النثري عند الشابي والأدب العربي القديم» (٢) .

ولعل من أهم العوامل المؤثرة فى حياة الشاعر الرومانسي هي تلك المثالية النادرة التي يتحلى بها فى كثير من أعماله ، وقد صُنِّف الشابي من هؤلاء المثاليين الذين أكلت الكآبة جوانب حياتهم . يقول عبد اللطيف شراره : «ثم كان من شأن هذه المثالية التي حلت فى طباع الشابي ، وسيطرت على تفكيره ، أنْ قادته إلى «الكآبة» والمثاليون من عهد أفلاطون إلى يومنا هذا ، وسيظلون من بعدنا إلى الأسى والمرارة أقرب ، لأنهم فى صراع مع الواقع ، لايملكون أنْ ينتصروا ، ولايطيقون أنْ ينكسروا ، فتشيع فى نفوسهم هذه الظلمة التي يتحدث عنها كل مثالي ، وهي لدى الشابي أقوى ماعرف الناس من أمرها فى آثار الشعراء المعاصرين ، ولايضاهيه فيها سوى شاعر آخر ، عاصره ، وكان مثله فى كثير من الحالات ، حتى فى قصر أيامه هو فوزي المعلوف» (٣) .

وتبرز أهمية الشعر الفردي فى التعبير عن نوازع كثيرة من هموم الخليقة وهم يميلون إليه ، لأنه يمثل جانبا من حياتهم العادية ، يقول الشابي :

أنـــا فى درب الحيـــاة الغـــامضة
تائـــــه ، حيران
بينما أبصر وجـــه الحيـــاة
ظلمـــة الأحـــزان فى ظل الألم
إذ أرى فى جفنها نورا ، بديــــع
باسما ، فتـــان
ها أنـــا أسمع فى قلب الحيـــاة
صيحـــة الآلام
مرة تنساب من قلب حطيم
ملأ الحزن أقاصيـــه دمـــوع

ها أنـــــا أسمع أصوات السرور
كضَّت الأيــــــام (٤)

وهنا تظهر قوة الشعر الذى يعبر عن آلام الإنسان الشخصية ، وماعاناه فى حياته اليومية من مآسي ، لتوضح لنا تجارب صادقة أرسلها الشابي فى أفق الحياة ، فهو يصب فى معجم عاطفي ، وموسيقاه تتلاءم مع حزنه وكآبته ، فهناك الكلمات الدالة على ذلك الجو مثل : أنا ، الحياة ، ظلمة ، الألم – الآلام ، نور ، قلب ، حطيم ، الدموع ، كضَّت ، وهذه اللغة تتنوع كتنوع الحزن فى كل أردانه ، لكي تعطي القارىء صورة عن ذلك الإنسان الذى انغلق على ذاته وعبر عنها تعبيرا جيدا ولاشك فى أن «الشاعر الوجداني ، شاعر صادق ، ولكن ليس من الضروري أنْ يكون شعره تعبيرا عن الواقع فى بيئته وفى نفسه بل يكفي أنْ يكون ذلك الشعر تعبيرا عما يجول فى نفس قائله وتصويرا لأمانيه» (٥) .

وتجول مشاعر الشاعر بخصوبته الفردية فى شموع ليل تهاوت به فى مهاوٍ سحيقة ، فهو يبلور مشاعره بلورة تعشب بالوحدة والانطواء الذاتي حيث يقول :

ليت لي أن أعـــيش فى هذه الدنيـــا	سعيــــدا بوحـــــدتي وانفـــــرادي
أصرف العمـر فى الجبـال ، وفى الغابـات	بين الصنوبــــــر الميــــــــاد
ليس لي من شواغـل العـــيش مايصرف	نفسي عن استماع فؤادي
أرقب الموت ، والحيـــــاة وأصغـــي	لحديث الآزال والآباد
وأغنـــي مع البلابـــل فى الغــــاب	وأصغـــــى إلى خريـــر الــــوادي
وأناجـــي النجـــوم والفجـــر والأطيـــار	والنهر والضيـــــــــــــاء الهادي
عيشة للجمـــال ، والفـــن أبـــغيها	بعيـــــدا عن أمتـــي وبـــــلادي
لا أُعنِّـــيَ نفسي بأحـــزان شعبـــي .	فهـــو حي يعـــيش عيش الجمـــاد (٦)

يموج هذا الشعر بتجربة وجدانية جيدة ، ولكن فيها التشاؤم الممض ، وهو يحاول أن يخرج من فرديته إلى الانغماس فى الحديث عن الطبيعة ، ولكن هذا الهمس يعوقه أحزان شعبه الذى لاتحركه الرياح الوطنية ، ويتربع على هذه المقطوعة كما أرى نزعتين ، نزعة فردية ، ونزعة جماعية ، وتتمثل الأولى فى حديثه عن نفسه وجروح الوحدة والتشاؤم ، وتتمثل الثانية فى الحديث عن الطبيعة وعن شعبه ، ومن هنا انساب شعره فى مظاهر متعددة يرتد الحزن فيها لعوامل متعددة أيضا غير أنَّ «عملية الإبداع من التجربة الخصبة التي تعرض للشاعر ، وهي التجربة التي تقع للأنا وتثير آثار تجربة مشابهة من حيث موقعها من الأنا تلتقي هذه التجربة الخصبة بتجربة قديمة عند الشاعر تحضره فى لحظة الإبداع ويتم التقاء التجربتين داخل الإطار الذى يحمله ، وتنتظمان شيئا فشيئا ، فيكون من انتظامهما القصيدة التي نتلقاها ويكون الأنا فى هذه اللحظات مركز المجال الإبداعي» (٧) .

ويستكشف الباحث أن الحملة على الحركة الرومانسية قد تمثل اراء خاصة بأصحابها ، أو تعبر عن وجهة نظر هذا الباحث عن هذا الشاعر أو ذاك ، ولكنها لاتعمم على كل الشعراء الرومانسيين . ومع هذا فإنني اتفق مع بعض الباحثين على أن الشعر الرومانسي يقوم على العاطفة أو الشعور ، ولكنه لايستخف بالعقل كما يرى خليفة محمد التليسي إذا يقول : «تقوم الرومانسية على الإيمان بالعاطفة ، وتقديس الشعور ، والاستخفاف بالعقل ، والتهوين من شأنه بل تحقره ، لأنه يصيب الحياة بالجفاف ، فيفقدها أجمل مافيها ، وأجمل مافيها بلا خلاف ماكان نتاجا للعاطفة ، وقد كانت العاطفة كل شيء فى حياة هذا الشاعر الرومانسي» (٨) .

إنَّ الشعر الوجداني ، يمثل رافدا من روافد الشعر العربي ، والذى عبر فيه الشاعر عن الحياة والبيئة عامة ، وهو فى تجاربه هذه يعبر عن البشرية جمعاء ، وفى هذا الإطار قامت الدراسات الأدبية المتعددة .

ومايزال الشاعر ينغمس فى ذاته ، ولايستطيع الفكاك من مشاعره الكئيبة وكيف أنه أصبح رهن سجن الآهات الذاتية ، وكيف أنه مازال مستمرا فى تشريح عناصر الحياة وكأنها تحمل فى جوانحها كثيرا من القطوب والخطوب المتتالية ؟؟ يقول :

إنَّ الوجـــود الـــرحب ، والغابـــات ، والأفـــق الخضيب
لم تجب أشواق الحيـــاة بها ، فعاودهـــا القطـــوب
أمـــا أنـــا ففقـــدتها ، والليـــل مربـــد رهـــيب (٩)

وتعج هذه المقطوعة باللغة الشعرية التي تسوق القتامة فى حروفها ، وفى نغماتها ، وهي تتلازم تلازما وثيقا مع تجربة الشاعر الوجدانية المريرة ، حيث إن «لديه مهارات خاصة على تلقي الخبرة وتنظيمها ، واستكشاف جوانب فى شخصيته واستخدامها ، واستعمال اللغة ، ويقوم الشعراء بدورين أحدهما اجتماعي والآخر فردي ، وأن العلاقات بين هذين الدورين والنظرة إليهما تختلف من شاعر إلى آخر» (١٠) .

وهذا رأي يجب الانتباه إليه والتآخي معه مادام أنه لايرفض الشعر الرومانسي ، ولايتخذ منه موقفا متشددا ، وإنما يحمل تجربة خاصة بشاعر دون شاعر آخر ، وهكذا تتفاوت العواطف والأفكار والأحداث أمام الأدباء حيال هذه الحياة .

وتجوب زفرات هذا المكلوم إطار شبابه وأحلام صباه وليس له من حلم إلا وقد حطمته الخطوب والدياجي يقول :

ألا إنَّ أحـــلام الشبـــاب ضئيلـــة ... تحطمهـــا مثـــل الـــغضون المصائب
سألت الدياجي عن أمـــاني شبيبتـــي ... فقـــالت «تـــرامتها الريـــاح الجوائب
ولما سألت الـــريح عنها أجابنـــي ... «تلقفهـــا سيـــل الـــقضا والنـــوائب
فصارت عفـــاء واضمحـــلت كذرة ... على الشاطيء المحموم ، والموج صاخب (١١)

وتلحظ أنَّ الشاعر صور ضياع أحلامه ، وكيف حطمها جور الزمان ، حتى أنه لم يجد بدا من أن يشق الأسى غبار حياته فى لغة وتعبير يعبران عن مدى قدرته الإبداعية ، ولقد كانت استخداماته اللغوية جيدة وخاصة فى قوله :

ولما سألت الـــــريح عنها أجابنـــــي «تلقفهـــا سيـــل الـــقضا والنـــوائب

فقد استخدم كلمة «الريح» استخداما يتيح لها مجالا واسعاً فى التعبير عما تجيش به نفسه ، بل زادها نبوغا كلمة «سيــل» وبذا استطاع الشاعر أنْ يعبر عن يأسه وضياع أمله الرطيب فيما يريد أن يحققه من آمال بلغة سهلة وواضحة .

وتشيع فى شعره سآمة من هذه الحياة ، وعواطف محزونة ، وشعور داكن ، جعلت منه تلة من المآسي المتعددة أو صدت باب الرجاء فى فجر أحلامه يقول :

سأم هذه الحياةمعـــــــــــــــــاد وصبـــاح يكـــــر فى إثـــــر ليــــل
ليتنـــي لم أفـــد إلى هذه الدنيـــــا ولم تسبـــــح الكـــــواكب حولي
ليتنـــي لم يعانـــق الفجـــر أحلامـــي ولم يلثم الضيــــــاء جفـــــوني
ليتنـــــــــي لم أزل كما كنت ضوءا شائعـــــــــا فى الوجــــــــود غير سجين[١٢]

ولعل هذا الشعر الذى يخرج من قلب جريح يلوح بالصورة المثلى للشاعر الشابي ، وهو أنه يتمنى أنْ يكون ضوءا فى ظلمة الحياة ، وأن لايخرج من حياة الضوء إلى حياة السجن ، وهو فى تعبيره المؤثر يستخدم الأضواء من الصباح والليل ، والضوء والسجن ، وهو تعبير ينبع من فلسفته التشاؤمية التي درج عليها منذ صغره ، إذ كان «يشعر بالألم والعذاب والشقاء من جراء احساسه بتمزق ذاته ، حينما كانت هذه الذات تصطدم بالوجود المتناقض ، فكان حينئذ يحس مع يقظة مشاعره ، أنه أصغر من ذرة تائهه فى الوجود إنه طائر ليس له عش» [١٣] .

وكان شغوفا أنْ تتحقق المقاصد التي يسعى إليها ولكنها اضمحلت بسبب المصاعب والمشاق التي تحول دون تحقيق هذه الأهداف ، وحينما بدأ الإخفاق فى حياته الخاصة والعامة ، بدأ يرزح تحت نتاج إبداعي يتسم بالصدق والشعور العاطفي الحقيقي لما صوره من حياة مر بها دون تزييف أو كذب «لأن أحداث حياته النفسية تفاعلت مع ثقافته الروحية فعصمته منها ، ورومانطيقيته « عمل»من أعمال تجاربه وثقافته وتراثه الحضاري ، وليست مذهبا فكريا اعتنقه ، ولامدرسة أدبية اتبعها» [١٤] .يقول :

كنت أرنـــــو الحيــــــاة بلحـــــظ باسم والرجــــــاء دون لغــــــوب
ذاك عهــد حسبتــه بسمــة الفجــر لكنــــــه شعـــــاع الغـــــروب
ذاك عهــد ، كأنــه رنــة الأفــــرا ح تنساب من العندلــــــــــــــيب
خفـــــفت ريثما أضحت لها بالقلــــــ ب حينـــا وبُـــدِّلَتْ بنحـــــيب [١٥]

وقد حاول الشاعر أنْ يعود إلى شعره لكي يدافع عن ذاته ، وكل مايتعرض له من خصومات أدبية تجور فى الحكم على شعره ، وقد كان الدفاع يمثل سمة ذاتية توضح أن الشاعر كثيراً مايفتخر بشعره

ويرى فيه نايه الذى يعبر عن كل مافي وجدانه من أثر الإخفاق الذى تعرض له بسبب النوائب والأحداث يقول الدكتور شوقي ضيف : «فقد أصيب بخصوم لايقدرون أدبه وشعره ، فكان هذا يحز فى صدره ، وكان إذا عاد له شيء من نقاهته حوّل بصره إليهم وأنشدهم أناشيد مدوية تأخذ بأسماعهم وأبصارهم» (١٦) .

ومن أهم ذلك الشعر قولـه :

أنت ياشعـــر قصة عن حيـــاتي ... أنت ياشعـــر صورة من وجــــودي
أنت ياشعـــر إنْ فرحت أغاريـــدي ... وإنْ غنت الكـــــــآبة عودي
أنت ياشعـــر كأس خمر عجـــيب ... أتلهــــي به خلال اللحــــود
أتحساه فى الصبـــــــاح لأنسى ... ماتـــــقضي فى أمسي المفقـــود
وأناجيـــه فى المساء ، ليلهنـــي ... مِرْآةَ عن ظلام الوجــــــود
أنـــا لولاك لم أطـــق عنت الدهـــر ... ولافرقـــة الصبـــاح السعيـــد
أنت مانـــلت من كهـــوف الليـــالي ... وتصفحت من كتــاب الخلــود (١٧)

ومن هذا المنطلق يقول الدكتور عبدالقادر القط : «وقد استخدم الشاعر فى هذه الصور التي رسمها لقلبه ما ألفناه لديه من ألفاظ رومانسية محشودة يوحي بعضها بالتماثل وبعضها بالتضاد ناظما هذه الألفاظ فى تركيب لغوي مكرر فى صدور الأبيات جميعا ، جاعلا من إعجازها صفات وأحوالا أو معطوفات مؤكدة للمعنى أو الإحساس» (١٨) .

وقد وضح فى مخاطبته لشعره أنه كان فى حالة تشكل إطارا لشكوى ذاتية وتبرز قدرته على فهمه لمهمة الشعر تجاه الحياة ، وتجاه مايتعرض له من معضلات فيها ، ومايندس منها فى شكل بوح يبرز أن أدبه كان صورة لقلبه البائس وحياته العابسة يقول :

ياشعـــر أنت قم الشعـــور ، وصرخـــة الـــدوح الكئـــيب
ياشعــــر أنت صدى نحيب القـــــلب ، الصَّب الغـــــريب
ياشعـــر أنت مدامــــع علـــــقت بأهــــداب الحيــــاة
ياشعـــر أنت دم ، تفجـــــر من كلــــوم الكائنـــــات
ياشعـــر قلبـــي مثلمـــا تدري ، شقـــي مظلـــم
فيـــه الجراح النجـــل ، يقطـــر من مغاورهـــا الـــدم
فهـــو التعـــيس ، يذيبـــه نوح القلـــوب اليـــائسة
كالبلبـــل الغريـــد مابين الزهـــور الذاويـــه (١٩)

وتتشكل اللغة الشاعرة فى لوحته الفنية ، التي يتنازعها ، شعور حزين وقلب مكدود ، تتشكل من اللوحة الحزينة التي لاحت فيها كلمات معبرة عما مر به فى دجى أيامه ، هي لهب متقد عن معاناة دائمة توحي بأنه لم يذق طعم الراحة فى حياته كلها ، حتى لكأن شعره كقلبه يلفه الشقاء والظلام ،

ومن هذه الكلمات التي يلتصق بعضها برقاب بعض : شعر ، الشعور ، صرخة ، الكئيب ، النحيب ، القلب ، الصب ، الغريب ، مدامع ، أهداب ، الحياة ، كلوم ، شقي ، مظلم ، الجراح ، النجل ، الدم ، ارزاء ، العابسة ، التعيس ، نوح ، البائسة ، ينوح ، حرقة ، الأماني ، الهاوية ، الذاوية ، إنَّ التناسق بين كل هذه الكلمات فى التعبير الرومانسي يلهب الإحساس ، ويوقده حتى ليكون كتلة واحدة فى معجم المأساة الذاتية لشاعر كالشابي ، لأنه لم يحقق ماكان يطمح إليه فبدا العنت والسواد فى غالبية شعره إنْ لم يكن كله .

وفى غمار هذه الرجفه الحزينة كان يرتد إليها الطموح كعامل من عوامل الرسوخ النفسي والمجد المعنوي ، وهو فى موج الرزايا كان «يتمنى أنْ يجد الإنسان الحي ، بكل مافي كلمة الحياة . . من معنى – حياة «الفعل» وحياة «الفكر» والشعور ، كان يتمنى فى «فردوسه» أن يجد الحب والصداقة والشعور بالمسؤولية والطموح إلى المستقبل كعناصر أساسية تقوم عليها الحياة» (٢٠) .

إنَّ الطموح هو الشموخ فى وجه الأحداث والتحدي عندما تدلهم الخطوب يقول :

خذ الحيـــاة كما جاءتك مبتسمـــا ... فى كفها الغار أو فى كفها العـــدم
وأرقص على الـــورد والأشواك متئـــدا ... غنت لك الطير ، أو غنت لك الرجم
واعمـــل كما تأمـــر الدنيـــا بلا مضض ... والجم شعـــورك فيها إنها صنــــم
فمـــن تألم لم ترحـــم مضاصتـــه ... ومـــن تجلـــد لم تهزأ به القمـــم
هذا سعـــادة دنيانـــا فكـــن رجـــلا ... إنْ شئتها أبـــد الآباد يبـــتسم (٢١)

وهو يشبه فى طموحه الشعري طموح المتنبي ، وإنْ كان انكساره النفسي لايشبه انكسار المتنبي بأي حال من الأحوال ، إنَّه مثال رائع لما يرى عليه الإنسان الذى ينزع إلى المطامح العالية يقول :

إذّا صغـرت نفس الفتـــى كان شوقـــه ... صغيرا فلـــم يتـــعب ولم يتــــجشم
ومـــن كان جبـــار المطـــامح لم يزل ... يلاقي من الدنيـــا ضراوة قشعـــم (٢٢)

وهو يحاول أنْ يطمئن نفسه ، بأن تسير بخطى ثابتة نحو المجد ، ولكن عليها أنْ تعرف أن هذا المطمع لابد أنْ يكون له ثمن فى مزاحمة الحياة يقول :

فلا تطمـــح النـــفس فوق الكمــــال ... وفـــوق الخلـــود لبـــعض المزيـــد
إذّا لم يزل شوقهـــا فى الخلـــود ... فذاك لعمـــري شقـــاء الجدود
وحـــرب ضروس ، كما قد عهـــدت ... ونصر ، وكسر ، وهـــم مديـــد
وإنْ زال عنها فذاك الفنـــــاء ... وإنْ كان فى عرصات الخلـــدود (٢٣)

وتلتهب المشاعر المتمردة لدى الشابي كرد فعل لمشقته وللضغوط الفكرية والنفسية ، ويثور على هذه النفس الشجية ، ويكبر فى عين الزمان يقول : «وتطورت نفسي فى غمرة الألم فبعد أنْ كانت معذبة باكية فى ظلمة أحزانها ، تكاد تحن من الأسى ، انقلبت ثائرة هائجة واثقة من نفسها ساخرة بالغدر والداء والأعداء وكل آلام الحياة» (٢٤) .

ومن ذلك قوله :

سأعـيش رغـم الـداء والأعـداء   كالنسـر فوق القمـة الشمـاء
أرنـو إلى الشمس المضيئـة هازئـا   بالسحب والأمطـار والأنـواء
لا أرمـق الظـل الكئـيب ولا أرى   مافي قرارة الهوة السوداء
وأسير فى دنيـا المشاعـر حالما   غردا وتـلك سعـادة الشعـراء [٢٥]

وهو يؤجج هذا التمرد ، ويحلق فى ذروة نشوى ، تسود به فى آفاق الدنيا حتى إنه يهزأ بالنوائب والخطوب ، ويروم أنْ يعبر من شقوته إلى مرامه دون ذلة أو ضراعة وكأن هذا النغم الثائر عوض عن شكواه من زمنه ، وألمه المضني طوال فترة قاسية مرت به فى حياته يقول :

لايطفـيء اللـهب المؤجـج فى دمـى   موج الأسى ، وعـواصف الارزاء
فاهـدم فؤادي ما استطـعت فإنـه   سيكـون مثـل الصخـرة الصمـاء
لايعـرف الشكـوى الذليلـة والبكـا   وضراعـة الأطفـال والضعفـاء
ويعـيش جبـارا يحدق دائمـا   بالفجر بالفجر الجميـل النـائي [٢٦]

ولعل طموحه السامي ، ونزعته إلى الخلود ، كانت من العوامل التي شدت قواه النفسية والعقلية إلى ذرى السمو ، والنزوع إلى الوصول إلى أكبر المطامع دون أن يرده عن ذلك زوبعة رياح أو لهب مستعر ، وهذا طبع من طباع الشعراء فى أغلب العصور وخاصة العصر العباسي الثاني ومنهم المتنبي يقول :

إذَا ماطمـمت إلى غايـة   ركـبت المنـى ، ونسيت الحذر
ولم أتجنب وعـور الشعـاب   ولاكبـة اللـهب المستعـر
ومـن لايحب صعـود الجبـال   يعش أبـد الدهـر بين الحفـر [٢٧]

و «هذه روح الشابي الثائرة التي تذكرنا بإرادة الحياة عند شوبنهور بل إرادة القوة عند نيتشة ، وإنْ كان أغلب الظن أنها روح أصيلة فيه لم يصطنعها ولا استمدها من غيره» [٢٨] يقول :

أبـارك فى النـاس أهـل الطمـوح   ومـن يستلـذ ركـوب الخطـر
وألعـن من لايماشي الزمـان   ويقنـع بالعـيش عيش الحجـر
هو الكـون حي ، يحب الحيـاة   ويحتقـر الميت مهمـا كبر
فلا الأفـق يحضن ميت الطيـور   ولا النحـل يلثم ميت الزهـر
وأعلـن فى الكـون : أنَّ الطمـوح   لهيب الحيـاة وروح الظفـر
إذا طمـحت للحيـاة النفـوس   فلابـد أنْ يستجـيب القـدر [٢٩]

وهو يستخدم الأوزان الخفيفة المتفاعلة مع حقيقةمشاعره ، ويرنو إلى الصباح الجديد بروح متوثبة

يقول :

أسكنـــــــي ياجــــــــراح وأسكتــــــي ياشجــــــون
مات عهــــــــد النــــــــواح وزمــــــــان الجنـــــــون
وأطـــــــــل الصبـــــــــاح من وراء القـــــــــــرون
فى فجــــــــاج الــــــــردي قد دفــــــــــنت الألم
ونثرت الدمــــــــــــــوع لريــــــــاح العــــــــدم
واتخذت الحيـــــــــــــــاة معزفــــــــا للنغــــــــم
أتغنــــــــــى عليــــــــــه فى رحــــــــاب الزمــــــــان
وأذبـــــــــت الأســـــــــى فى جمال الوجـــــــــــود
ودحـــــــــوت الفـــــــــؤاد واحــــــــة للنشيـــــــــد
والضيـــــــا والظـــــــلال والشذا والـــــــــــورود
والهوى والشبـــــــــــــاب والمنـــــــى والحنـــــــان (٣٠)

ويتحدى الشاعر بهذه القصيدة زوابع الردي ، ورياح الشجون ، وينشد قصيد الذاكرة لما فيه من تفعيلات توضح إلى أي مدى برزت قدرة الشاعر المطبوع فى التعبير عن مشاعره . يقول الدكتور محمدمندور «والشاعر فى هذه القصيدة لايقنع فى استخدام اللغة بالتعبير التقريري ، بل ولا بالتصوير البياني الذى يرنح الخيال ، ويطلقه من إسار الواقع ، وإنّما ينجح مع كل هذا فى استخدام أصوات اللغة استخداما موسيقيا منقطع النظير ، لأنه قد أصبح فى هذا القصيدة وسيلة للتعبير والإيحاء بذلك الجو النفسي المركب ، ولكنه جميل مشرق حتى لنرى الشاعر لاينحدر إلى حفرة الموت المظلمة المليئة بالجماجم والرفات ، بل يطلق إلى العالم الآخر فى زورق حالم ناشرا قلاعه ، وتلك رحلة جميلة لايطامن من جمالها ضباب الأسى الذى يحيط بها ، ولاجبال الهموم التي تحف بشاطئيها» (٣١) .

ولاشك فى أنَّ الشاعر الجاد هو ذلك النغم الذى يحس بعواطف الآخرين ، ويكون لأدبة أثر ما فى الأجيال المقبلة ، لأنه يتعمق الكون والحياة من خلال ذاته وحسه ، يقول الدكتور شوقي ضيف «وفى الشعراء من يتعمق ، مايدركه ويحسه من ذات نفسه ، أو مايبصره ويشاهد فى الكون من حوله ، تعمقا ، يصل إلى باطنه وخفايا داخله فنقرأ شعره ونحس كأننا فى حلم سحرى ، ونشعر بشيء من التسرية عن أنفسنا والراحة والمتعة الحقيقية ، لأن الشاعر ينفس عما بداخلنا بما يجري على لسانه من أبياته ، أو قل من مشاعره وإحساساته» (٣٢) ، لذا فإنَّنا نعجب بشعره حول تفنيده الناس ، وتصويره أفكارهم ومبادئهم ، وهو يعطينا رؤيا خاصة به قد لانوافقه عليها يقول :

كان ظنــــي أنَّ النفـــــوس كبـــــار فوجـــدت النفـــــوس شيئـــــا حقيرا
لوثتـــــه الحيــــــاة ثم استمــــــرت يبـــــذر العـــــالم العـــــريض شرورا
فاحصدوا الشوك يابــــنيها وضجــــوا امــــلأوا الأرض والسمــــاء حبــــورا (٣٣)

ولعل هذا التصور للناس ينبع من رؤي كامنة فى نفسه ، ومن آراء عامة نبعت من قراءته بعض الشعر العربي ، أو لما اعترى هذه النفس من ندوب فى حياته العامة أو مما حصل له من تعامله مع البشر ، حيث لم ير منهم سوى هذه الصورة الداكنة ، وليس هناك مايدعو إلى هذه النظرة ، ولكنها نظرة الشاعر المتشائم الذى ينظر إلى الناس من حوله على أنهم أعداء ، وهو مايزال يردد ألحانه المضناة عن الحياة والناس ، إذ عليه أنْ يفهم أخلاقهم ، وأن يعيش بعيدا عن هذا الكون ومافيه من ظلمة الإثم ، فالبشرية فى نظره ، «قــرود» وحبيبته وردة بين هذه القرود ، ولعل هذه النظرة تعود إلى ماعاناه من ضياع فى حبه وفى صداقته مع أعز أصدقائه أو من عاشرهم من الناس يقول :

فافهمـي النـاس إنَّمـا النـاس خلـق ... مفسد فى الوجـود غير رشيـد
والسعيـد السعيـد من عاش كالليـل ... غريبـا فى أهـل هذا الوجـود
وبنـو الأرض كالقـرود ومـا أضيـع ... عطـر الـورود بين القـرود (٣٤)

ثانيا : الشكوى والألـم

تترسب الآهات ويتأجج الأنين ، فى قلوب الأدباء ، ويزداد شحوب الحياة فى نتاجهم الأدبي ، وتتلاحق الأحزان لتكون بداية الشكوى وسراج الألم يقول الشابي :

يابنـي أمـي : ترى أيـن الصبـاح ؟ ؟ ... قد تقضي العمـر والفجـر بعيـد
وطغـى الـوادي بمشبـوب النـواح ... وانـقضت أنشودة الـفصل السعيـد
أيـن نايـي ؟ هل ترامتـه الريـاح ؟ ؟ ... أيـن غابي ؟ أيـن محراب السجـود ؟ ؟
خبروا قلبـي فمـا أقسى الجراح ... كيـف طارت نشوة العيش الحميـد ؟ ؟
يابنـي أمـي ترى أيـن الصبـاح ؟ ؟
أوراء البحـر ! أم خلـف الوجـود
يابني أمي ! ترى أين الصباح ؟ ؟ (٣٥)

وهنا تتراكم الأحزان ، وينهمر الشجو فى غصون هذه الكلمات ، فبداية أخذ الحزن يفتك بوجود الشاعر ثم تطور إلى شكوى متحسرة ، ولقد عبر عن موج الأسى فى كلمات تعج بالتعبير الوجداني عن نفسه فهناك : الصباح ، الفجر ، طغى الوادي ، مشبوب النواح ، الناي ، الرياح ، الجراح ، نشوة ، البحر ، فالصباح يشكل إطاراً عاما للآمال ، ولكن الشاعر يتساءل عن مجيئه : وكيف يلف الصباح نوره عن حياته ؟؟ وفجره بعيد مما يدل على أنَّ ليل أساه طويل ومأساته كبرى ، وتتشكل رؤيا الشاعر فى تنوع موسيقاه كتنوع أشجانه التي يموج بها بحرُ الحياة الحزين «إنَّ هذه الشاعرية تقوم على إشراق الديباجة وغنى الجو الانفعالي المتولد من أداء الأفكار والصور والانفعالات بالكلمات وفراغ الكلمات اللازمة أكثر مما تقوم على الصور والانفعالات نفسها» (٣٦) ومازال يُكوِّن آهات حياته بمعجمه الكئيب الذى يطور الانفعالات فى همسات القلوب ، حيث لايميل إلى شيء ولاينشغل بشيء غير أحزانه يقول :

أأسمعك الليـــل ندب القلـــوب   أأرشفك الفجـــر كأس الأسى ؟؟
أصب علــيك شعـــاع الغـــروب   نجيـــع الحيـــاة ، ودمـــع المسا
أأوقــفك الدهـــر حيث يفجـــ   ر نوح الحيـــاة صدوع الصدور ؟؟
وينبثــق الليـــل طيفـــا كئيبـــا   رهيبـــا ويخفــق حزن الدهـــور (٣٧)

ولاشك فى أنَّ الشاعر كان قوي الأسلوب بألفاظه ، وشجي النفس فى كلماته حيث أبرز صور الحزن فى بناء قصائده «وَإذَا كان شاعرا مجددا فى بناء القصيدة فإنَّه أيضا مبتكرفى ألفاظه التي ضمنها نصه ، فالشابي لايستقي ألفاظه من بطون المعاجم ، بل يستقيها من الحياة والطبيعة ، ولهذا تتخلل هذه القصيدة كلمات رومانسية كجمال الوجود ومعبد الجمال ، وسحر الحياة ، وضباب الأسى» (٣٨) .

ويشخص شجون أيامه ، ويمهد لشكواه ، بأحزان الحياة ، وكأنها طير كئيب يقول :

قد سألت الحيـــاة عن نغمـــة الفجـــر وعـــن وجمة المساء القطـــوب
فسمعت الحياة ، وفى هيكـل الأحـزان   تشدو بلحنهـــا المحبـــوب
ماسكـــوت السمـــاء إلا وجـــوم   مانشيـــد الصبـــاح غير نحيب
ليس فى الدهـــر طائـــر ، يتغنـــى   فى ضفـــاف الحيـــاة غير كئـــيب
خضب الاكتئـــاب أجنحـــة الأيـــا   م بالدمـــع ، والـــدم المسكـــوب
وعجـــيب أن يفـــرح النـــاس فى كهـــف الليـــالي بحزنها المشبـــوب (٣٩)

وتتلون لغة هذا الشاعر المبدٰع فى تصويره نفسه تصويرا بديعا قل أنْ يوجد عند غيره ، فمعجمه اللغوي لايتغير فى تعبيره عن بلواه ، ولكنه يشعرنا بأنه لايزال يعبر عن نفوسنا مع أنَّه يكرر معجمه ، ولعل هذه ميزة جيدة فى شعر الشابي ، فهناك الكلمات المعبرة عن قتامة دنياه ، مثل : الحياة ، الفجر ، وجمة ، المساء ، القطوب ، الوجوم ، الصباح ، النحيب ، الدهر ، طائر ، يتغنى ، ضفاف الحياة ، كئيب ، الاكتئاب ، أجنحة الأيام ، الدمع ، والدم المسكوب ، كهف الليالي ، حزنها المشبوب ، وأنه لعجب كبير أنْ تتضافر هذه اللغة فى التعبير عن موج أحزانه ، كأنها لم تتكرر أبدا ، لأنه يعبر عن نفس مقروحة ، ففرحه وحزنه شيء واحد ، بحيث لاتستطيع أن تشتت شملها من حياته المكدودة ، لأنَّ هذا الحزن طبع فيه ، ثم تعاونت عوامل الحياة ، ومتاعبها فى ضروب مأساته ، ومن هنا تشكلت لغته التي تنم عن صدق وجداني ، لما اعتراه فى دنياه من قتامة تسيطر على كل أدبه . يقول من قصيدة أخرى :

ليت شعـــــري !
أي طيـــــــر
يسمـــع الأحـــزان تبكـــي   بين أعمـــاق القلـــوب
ثم لايهتـــف فى الفجـــر   برنـــات النحـــيب

بخشوع واكتئـــــــــــــــــــــاب
لســـــــــت أدري
أي أمـــــــــــــر
أخــــرس العصفـــــور عنـــــي أتـــــرى مات الشعـــــور ؟
في جميـــع الكـــون ، حتــــى في حشاشات الطيـــــــور
أم بكـى خلــف السحـــاب !
في الدياجـــــــي
كم أناجـــــــي
مسمـــــــع القبـــــــر ، بغصات نحيبـــــــي ، وشجـــــوني
ثم أصغـــــــي ، علنـــــــي ، أسمع ترديـــــــد أنينـــــــي
فأرى صوت فريـــــــــــــــــــــــــــد (٤٠)

ونغمة هذه القطعة ، تهز جوانح العواطف ، وتفسر إلى أي مدى كان هذا الشاعر ، سجين شجونه ، كثير الكآبة تهيمن على شعره تعبيرات جادة ، وموسيقى حزينة تتحكم في أدبه ، مما يعطي موسيقاه ولغته صفة الجودة وملامح النهوض بقدرة الفن الأصيل . وكأنه في هذه الشكوى يتأثر بجبران خليل جبران في بعض تراثه يقول أبو القاسم محمدكرو : «وخاصة جبران خليل جبران في طليعة العوامل التي أثرت في أدب الشابي ، وفي طبعه بطابع من التبرم الناعم والثورة الجامحة ، والصوفية الحالمة ، وضروب شتى من ألوان المثالية المجنحة في الحب والحياة والميول والآمال» (٤١) . وإذا كانت مرارة الحزن قد أدمت قلب الشابي فإنَّ هذه المرارة هي التي جعلته يفضي بشكواه وألمه إلى جميع آفاق الدنيا مما جعل لتجربته الشعرية نكهة خاصة ، ولحنا نديًّا في النفوس التي ذاقت شقاء الحياة وعنت البؤس ، يقول الدكتور شوقي ضيف : «وعلى هذه الشاكلة أغاني الشابي ، فكلها حزن وبكاء وكلها ثمرة هذا الألم الذى يعصر قلبه عصرا ، وكأن هذا الألم هو مبعث وحيه ، ومنبع شاعريته ، فلولاه على ماظهر ، ماتحركت في داخل نفسه الباطنة عبقريته الشاعرة ، وأقرأ فيما نشر وجمع من أغانيه وأشعاره ، فتراها كلها نبتت في تربة الألم ، وتمايلت أغصانها في ظلمة المرض وهمومه وأوجاعه» (٤٢) .

يقول الشابي :

إنَّ الليـالي اللـواتي ضمـــخت كبـــدي بالسحـر أضحت مع الأيـــام ترمينـــي
ناحت بنـفسي مآسيها ومـــا وجـــدت قلبـــا عطوفـــا يسليها فعزينـــي
وهـــد من خلـــدي نوح ، ترجعـــه بلـــوى الحيـــاة ، وأحـــزان المساكين
على الحيـــاة أنـــا أبكـــي لشقـــوتها فمـــن إذا مت يبـــكيها ويبكينـــي ؟؟
ياربـة الشعـر ، غنيني فقـد ضجـــرت نفسي من النـــاس أبنـــاء الشيـــاطين

تبرمت ببنـــي الدنيـــا وأعوزهــــا　　فى معـــزف الدهـــر غريـــد الأرانين
وراحـــة الليـــل ملأي من مدامعــــه　　وغـــادة الحب ثكلي لاتغنينــــــي
فهـــل إذًا لذت بالظلمـــاء منتحبـــا　　أسلـــو ؟ ومانفْـــع محزون لمحزون ؟؟
ياربـــة الشعـــــر إنَّـــــي بائس تعس　　عدمت ما أرتجي فى العـــالم الـــدون
وفى يديك مزامير يخالجهـــــــا　　وحي السمـــاء ، فهـــاتيها وغنينـــي
فإن قلبـــــي قبر مظلـــــم قبرت　　فيه الأماني فما عدت تناغيني ؟؟ (٤٣)

وفى هذه اللوحة الحزينة نلحظ شموخ اللغة وتوترها فى خدمة شكواه ، حيث إنها كانت مثيرة وموحية فى كثير من استعمالاتها ، ومنها النبوغ اللغوي الذى يحز رقاب الأمل فى شجون اللفظي ، وهذه الكلمات تفصح عن الألم الشاق الذى حرك مشاعر الشابي نحو هذه الصور الثرية التي نشأت فى قلبه السقيم ، حتى جعلت من شعره تعبيرا عن كل محزون من كبد الحياة ، وكلمات الألم تنبثق من لوحته على النحو التالي : الليالي ، ضمخت ، كبدي ، ناحت ، مآسيها ، قلب ، خلدي ، نوح ، ترجعه ، أبكي ، لشقوتها ، تبرمت ، مدامعه ، ثكلي ، الظلماء ، منتحب ، محزون ، بائس ، تعس ، قبر ، مظلم ، الأماني ، وهنا نلاحظ قدرته الفنية على إبراز ألمه وشكواه فى لغة مترابطة كترابط مشاعره المتألمة التي نبعت من معجم يتضمن لغة تخدم الشعور وتعطيه دفقة مشحونة بالعواطف والمشاعر التي نسجت خيطا من الشعور المتعاطف معه فى شقائه وألمه ، يقول الدكتور الطاهر أحمد مكي : «إنَّ للشعر لغته على الدوام ، موحية ومتوترة ، وقادرة على الإثارة ، ولاتنبثق عن مشكلات الحياة اليومية ، وإنمَّا تصدر عن وجدان عميق ، والتعبير عن الوجدان يستلزم ألفاظا ذات دلالات نفسية ، وشعورية ، خاصة قادرة على تصوير إحساس الشاعر ، وعلى التأثير فى نفس القارىء أو السامع لتحدث عنده إحساسا مماثلا ، وتنقل إليه تجربة الشاعر كاملة» (٤٤) .

ومازال الشاعر يستمر فى تصوير نغم السقم الذى ضمخ حياته بالمجد الأدبي ، وهو شاعر عظيم ، لأن الألم ينبوع النبوغ ، وزمام الخطوة ، وهذه الشكوى تعطينا دجية أيامه ، وما لاقاه من نكوص نفسي لعوامل ضجت فى حياته وفى وطنه تونس يقول :

إذا أصبـــــــح النبـــــــع الجميـــــــل يسير فى وادي الألم
متعثـــــــرا بين الصُخـــــــور ، يعـــــــور فى تلك الظلـــــــم
حفت به أمـــــــواج ذيـــــــاك الغـــــــرام الآفل
فتدفـــــــقت فيـــــــه الدمـــــــوع بصوبها المتهاطـــــــل
قد حجبتـــــه غيـــــوم أحـــــزان الوجـــــود القائمـــــهْ
قد أخرستـــــه مرارة القـــــلب التعـــــيس الظـــــالمهْ
وعـــــدت به الأمـــــواج ، جامـــــدة الملامح قاتمهْ
قد اسكنتهـــــا لوعـــــة الـــــروح الحزيـــــن الـــــواجمهْ (٤٥)

وينتهج الشاعر طرقه المتعددة فى التعبير عن آلامه فى هذه المقطوعة ، وقد استخدم لغة النغم الحزين الذى يثير ألمه ويزيد منه ، بل يعبر ويزيد من آلام الآخرين تجاه شقوة الحياة ، وليس ضعفا أن يشكو الشابي ، ولكن الضعف هو أن يستمر فى كبت أحزانه ، حتى ليأكل الحزن ذاته ، أما أنْ يكتب وأنْ يتغنى بهذا الألم فهو نشوة الحياة وروعة الرؤى ، لأنه عبر عن مشاعره التي شحذت خواطره فجاء بهذا الغناء الجميل ، لعل هذا يخرجه من صومعة المرض ، ومن عنت الشقاء ويعود إلى عالمة الطبعي وإنْ كان ذلك بعيدا ، إنَّ تنوع لغته وقوافيه و ترابطها يشكل لوحة من لوحات الفن المأساوي الذى ساعد على إبراز هذه الشكوى ، وهذه الحسرة الحرى ، وبينت إلى أي مدى استخدم لغة الألم والشكوى ، فهو يستخدم كما يقول الدكتور محمد سعد فشوان : «الألفاظ المتصلة بالمرض ، والألم ، والشجي والشجن والبؤس والشقاء والحب والحرمان والبغض والكراهية والثورة والعنف وكلمات اللوم الساخرة ، والتهكم المر بالحياة والأحياء وما إلي ذلك من الألفاظ» (٤٦) وتابع الشابي خطي المرارة والألم فى مواطن كثيرة من ديوانه حيث يقول :

إذا أضجــرتك أغـــاني الظـــلام   فقـــد عذبتنـــي أغـــاني الوجـــوم
وإنْ هجـــرتك بنـــات الغيـــوم   فقـــد عانقتنـــي بنـــات الجحيم
وإن سكب الدهـــر فى مسمعـــيك نحيب الدجـــى وأنين الأمـــل
فقــد أجـج الدهــر فى مهجتـــي   شواظـــا من الحزن المشتعـــل
وإن أرشفـــتك شفـــاه الحيـــاة   رضاب الأسى ، ورحيـــق الألم
فإني تجرعت من كفهــــــــا   كؤوسا مؤججـــة تضطـــرم (٤٧)

يهز الألم مهجته فى هذه المقطوعة ، وهي تعبر عن ملامح نفسية قد راعها شوك الخطوب ، وأنين الرجاء ، وبينت صور الظلام ، وصور الوجوم ، وصور الغيوم ، وصور الجحيم ، وصور الأسى التي أعطتنا إلى أي مدى تكونت لديه الرؤيا النفسية من خلال آلامه التي شكلت لغته الشاكية الباكية ، التي تلف أعماق الآخرين بلون من الحسرة والألم لهذا الشاعر الذى سدت عليه منافذ الحياة بكل طرقها ، ومن هنا عاد ليقول للناس لحنا يشجيه ويشجيهم معا ، ولكنا مع ذلك نطرح سؤالا مهما وهو إلى أي مدى تأثر بشعراء العصر العباسي كابن الرومي والمتنبي وأبي العلاء المعري . إنَّ من الواضح أنَّه قرأ لهؤلاء الشعراء وتعمق فى أشعارهم وتأثر بهم ، ولكن هذا لايفقده طبعه فقد كان طبعا حزينا ، يدوف زعاف الآلام فى شعره ، ويعبر عن شقاء المتعبين فى هذه الحياة . ولانستغرب هذه الشكوى والألم . يقول الدكتور شوقي ضيف :« لأن صاحب هذا الألم كان حاد الإحساس ، فسقط لا على الألفاظ التي تمثل ألمه ، وإنما على الإبر التي تلسع ، وحمى الإبر فى نيران قلبه فأصبحت تكوي وتلذع» (٤٨) .

ويغوص الشابي فى أتون الحياة ورواسبها ، ويصب غضبه وشكواه من الحياة حتى ليوضح لنا أنها حياة الكآبة ، بل حياة الدموع ، والشمس أدركها الضجر وأذهلها شجون الشفق يقول :

إنَّ الحيـــــاة كئيبـــــــة ، مغمـــــــــورة ، بدموعهـــــــا !!
والشمس أضجرهـــــا الأسى ، فى صحوهـــــا وهجوعهـــــا
فتفجـــــرت كأسا دهاقـــــا ، من مشعشعـــــة الشفـــــق
فتمايـــلت ، سكـــرى إلى كهـــف الحيـــاة . . ولم تفـــق (٤٩) .

ويشق الأسى غبار حياته ، وتموج الأسقام ، وتترع الهموم ، ويحس أنَّه فى غيمة من البؤس ، وسراب من الآمال الضائعة فى لياليها الحالكة التي لابسمة فيها على جبين الحياة :

غنني ياصاح ، أنـــات الجحيم
واسقنـــي الآلام
أترع الكأس بأوجـــاع الهمـــوم
واسقنـــي إني كرهت الابـــتسام
غننـــي ندب الأمـــاني الخائنـــه
والليـــالي السود (٥٠) .

ويقول أبو القاسم محمد كرو : «وإنَّنا حين نعرض لحياة الشابي ، وحياة الشعب التونسي فى الفترة التي قضاها الشاعر على مسرح الوجود ، ندرك مصادر الشقاء فى نفسه ، ومنابع الألم والجراح من فؤاده ، ومبعث الكآبة والحزن من قلبه ، وأفق الظلام والتشاؤم فى وجدانه» (٥١) .

ويصور الشاعر صدى السأم فى حياته ، وماله من تأثير سلبي على وجدانه وعلى طاقته النفسية ، وهو ينظر إلى الحياة على أنَّها كانت سببا فى عذابه وسيفا أرقه بالدموع ، وزناداً من الأسى يؤجج قلبه المكلوم يقول :

سئـمت الحيـاة ، ومـافي الحيـاة ... ومـا إنْ تجاوزت فجـر الشبـاب
سئـمت الليـالي وأوجاعهـا ... ومـاشعشعت من رحيـق بصاب
فحطـمت كأسي ، وألقـيتها ... بوادي الأسى وجـحيم العـذاب
فأنت ، وقـد غمـرتها الدمـوع ... وفـزت ، وقـد فاض منها الحبـاب
وألقـى عليها الأسى ثوبـه ... وأقبر الصمت والإكتئـاب (٥٢)

ولعل من الدلالة الواضحة على نزوع الشاعر إلى الشكوى الدائمة هو استخدامة المتعدد لأدوات التحسر والاستفهام والتمني فى كثير من قصائده ، وفى هذا لون من الأدب الذى يجعله متحسرا على ماضيه ، وباكيا على حاضره ، وخائفا من مستقبله وهو يكثر من التضاد فى شعره يقول : مدحت سعد محمد الجبار «وهو هدف الشاعر المتفكر فى الناس ، ومايحملون من آلام بعكس الحيرة والحسرة والذل الذى يأتي به الدهر ، وأخيرا صعوبة الحياة مستخدما فى كل مرة التضاد داخل الجملة الشعرية» (٥٣) يقول :

آه تواري فجـــري القـــدسي فى ليـــل الدهـــور !!

وغنـــــى ، كما يغنـــــي النشيـــــد الحلـــــو فى صمت الأثير
أواه ، قد ضاعت علي سعـــــادة القـــــلب الغريـــــر !!
وبقـــــيت فى وادي الزمـــــان الجهـــــم أدأب فى المسير
وأدوس أشواك الحيـــــاة بقلبـــــي الدامـــــي الـــــكسير
ماذا جنـــــيت من الحيـــــاة ومـــــن تجاريب الدهـــــور ؟؟
غير الندامـــــة والأسى واليـــــأس والدمـــــع الغزيـــــر
هذا حصادي كلـــــه ، فى يقظـــــة العهـــــد الأخير (٥٤)

ويبدو واضحا من خلال هذه القصيدة أنَّ الشاعر بدأ متحسرا على شبابه ، متوجعا من كوارث الأيام ، موضحا فلسفته فى الحياة التي أضرمت حلم الفرح فى جبين زهوره ، فهو تعس ، يائس ، نادم ، باك ، لأنه لم يجن سكوناً ولاهدوءاً فى ربى أيامه ، بل كانت حياته زفرة ألم ، وحزن قلم ، وضياع مستقبل .

إنَّها فلسفة البؤس ، التي جعلت من فجره ليلا ، ومن صبحه ظلاما ، ومن زهوره أشواكا ، لأن طباعه خلقت هكذا حساسة ، ولأنَّ مبادئه وخلقه وطبعه ووطنيته ترفض أن يكون ظالما ، أو حاقدا ولأن مجتمعه لايعرف قدره ، ولايعطيه قدرا من المعاملة الإنسانية ، ومن هنا انعكست هذه الآلام فى أدبه ، وتأججت الشكوى فى فنونه ، وعلى الرغم من بؤس هذا الشعر إلا أنَّ له قيمة جيدة فى تصوير الحياة ومتاعبها ، وفى تصوير أخلاق الناس ومبادئهم ، لذا اكتسب ميزة مهمة لدى أولئك الذين يعانون من الإحساس المفرط فى الحساسية ، والذين يعانون أيضا من خطوب الأيام ، ونوائب الليالي ، لأنهم لايستطيعون التعامل معها بعقل وتفكير ، وإنَّما يتعاملون معها بالإحساس والقلب ، ومن هنا فإنهم يقدمون الإحساس على التفكير ، ويتألمون لأنهم لايستطيعون مقاومة أحاسيسهم الثائرة ، أو عواطفهم الإنسانية ، ولذا ظهرت هذه النزعة فى آدابهم ونراه يقول :

ينـــقضي العـــيش بين شوق ويـــأس ... والمنـــى بين لوعـــة وتـــأس
هذه سنـــة الحيـــاة ونـــفسي ... لاتـــود الرحيـــق فى كأس رجس
ملئ الدهـــر بالخداع فكـــم قد ... ضلـــل النـــاس من إمـــام وقس
كلمـــا أسأل الحيـــاة عن الحق ... تكـــف الحيـــاة عن كل همس
لم أجـــد فى الحيـــاة لحنـــا بديعـــا ... يستبينـــي سوى سكينـــة نفسي
فسئمـــت الحيـــاة إلّا غرارا ... تتـــلاشى به أناشيـــد يأسي
وسقتنـــي من التعـــاسة أكوابـــا ... تجرعتها فيـــاشد تعســـي
إنَّ فى روضة الحيـــاة لأشواكا ... بها مزقت زنابـــق نفسي (٥٥)

والشاعر يصب فى فلسفة تتناغم مع ماسبق أن أشرت إليه ، وهو أنه يلهب جرحه بالحزن ويهده بالألم والشكوى ، ويزعزع شعوره بفلسفته عن حياته وحياة غيره ، وكأن لاشيء فى الوجود

يروق له إلَّا يأسه وشدة حزنه ، ومن هنا دبت فى جوانح شعره فلسفة الضعف ، كما دبت فيه كما سبق أن أشرنا فلسفة القوة ، ولكن فلسفة الضعف كما أرى هي سمة غالبة على شعره ، والتضاد فى الشعر له مهمة كبيرة ، وهو يثير نمطا من الفلسفة المتناقضة فى بعض الأحيان . يقول مدحت سعد محمد الجبار : «ويلح الشابي على التضاد فى كثير من قصائده ، ويعتمد فى تشكيل هذه القصائد على النقائض ليوضح التناقض فى واقِعَيْه الاجتماعي والنفسي حيث يعنى التضاد عنده الحيرة والتردد ورؤيته العاجزة المتشائمة ، أو رؤيته الحالمة فى التغيير والعالم الأفضل فيقارن بين ماهو كائن ، وماهو موجود وماينبغي أنْ يوجد» (٥٦) .

وبين الحين والآخر يطوى الشاعر مأساته ولوعته الحزينة ، ويعود إلينا بأناشيد تعج بالفرح ، وتترجم عن لحظات سعيدة فى حياته ، ويظهر هذا خاصة فى حديثه عن الطبيعة حيث يشيع الحبور ، ويدوم السرور فى بهجة الوادي ، وخرير المياه يقول :

أقبـــل الصبـــح جميـــلا ، يملأ الأفـــق بهاه
فتمطـــي الزهـــر والـــطير ، وأمـــواج الميـــاه
قد أفـــاق العـــالم الحي ، وغنَّـــى للحيـــاه
فأفيقـــي ياخـــرافي ، وهلمـــي ياشيـــاه
واتبعينـــي ياشياهـــي ، بين أسراب الطيـــور
وأمـــلأ الـــوادي ثغـــاءا ، ومراحـــا وحبـــور
واسمعـــي همس السواقي ، وأنشقـــي عطـــر الزهـــور
وانظـــر الـــوادي ، يغشيـــه الضبـــاب المستنيـــر (٥٧)

ثالثا : الوحدة والاغتراب

يبدو أنَّ الشابي كان شغوفا بالإبداع الأدبي ، فأخذ ينزع إلى النغم الحزين الذى يشد القارىء والدارس لأدبه ، فهو ماينفك من أسر كآبته ، ولامن سوداويته المتكررة ، وكأنها هي التي سوف تبلور آهاته وومضاته على مر الأزمان وهي كآبة يضج بها أدب كثير من الشعراء . يقول الدكتور عبدالقادر القط : «وتبدو الكآبة عند بعض هؤلاء الشعراء «مزاجا» فطريا ليس له سبب معلوم ، وإن ربط الشاعر أحيانا بينه وبين أحوال المجتمع والحياة . وقد عبر الشابي عن هذا اللون الخاص من الكآبة الدائمة الفريدة» (٥٨) .

يقـــول :

أنـــا كئـــيب
أنـــا غريب
كآبتـــي خالـــفت نظائرهـــا
غريبـــة فى عوالم الحزن

كآبتـــي فكـــرة مغـــردة
مجهولـة من مسامــع الزمــن
لكننــــــي قد سمعت رنتها
بمهجتي ، فى شبــاب الثمــل
سمعتها ، فانصرفت مكتئبـــا
أشدو بحزني كطائر الجبـل (٥٩)

ولقد التحم شبح الكآبة ، والغربة والوحدة فى هذا القصيدة ، فقد كرر لفظ الكآبة اثنتا عشرة مرة مما يدل على أنه كان يتمزق نفسيا لما أحس من كآبة تجره إلى وحدة مملة وغربة كئيبة ، ولعل السبب فى هذا السواد الذى يملأ أدبه يعود إلى رقة إحساسه وطموحه الكبير فى حياة تتلاطم فيها أمواج الرياح ومتاعب الحياه . يقول خليفة محمد التليسي : «وشعوره بالامتياز والتفوق من أبرز الأسباب فى هذه الكآبة العميقة التي تعانق روحه ، وكان لايشكو شيئا كما يشكو من إحساسه بالغربة ، أو بمعنى آخر ، غربة المعاني التي يؤمن بها وينادي بتحقيقها» (٦٠) .

وتتلاحق فى شعره صور الوحدة ونغم الانعزال ، وهي تنم عن نفس جرعها الزمن قسوة المحن ، وجرها إلى كهوف الاغتراب يقول :

غنني صـــوت الظـــلام المكتـــئب
إننـــــي أهـــــواه
وهنـــاك كأس القـــلب فاملأهـــا نواح
واسكب الحزن بها حتـــى الصبـــــاح
إنها طينـــــــة الحزن المريــــــر
صاغهـــا الخلاق (٦١)

فى هذا المقطوعة نلحظ الكلمات المتعددة ، من الظلام المكتئب ، نواح الصباح ، طينة ، الحزن المرير ، وهي كلمات تتحدث عن قلب تتراكم عليه غيوم الوحدة ، وجحافل الغربة ، إن صورة الظلام ، وصورة الإكتئاب ، تمثلان وهج الوحدة والانغماس فى سرادقها ، بحيث تجعل روحه قصيدة تتحدث عن وحدة المكان والزمان فى قلبه ، ولاتنفك عنه هذه الوحدة ، مادامت الخليقة فى الوجود ، إنَّ المقطوعة تمثل صورة الكون الفردي عنده ، حيث انغلقت أبواب الفرحة أمام عينيه ، واهتبلت الوحدة شوقه حتى إنه لايرى الحزن يفارق حياته ، ويقول من قصيدة أخرى :

ولما أظـــــــل المساء ، وأسكـــــــــره بالحزن روح الوجــــــــــود
وقـــفت وساءلتـــه «هـــل يؤوب لقلبـــــي ربيـــــع الحيـــــاة الشرود
فتحقـــق فيـــه أغـــاني الـــــورود ويخضر فردوس نفسي الحصيـــــد (٦٢)

إنَّ الشابي يطرح صورة المساء ، وهي صورة يلتف حولها شبح الوحدة ، وبوح الغربة وهو يحكم سيطرته على ألفاظه بحيث تعبر عن مظهر من مظاهر حزنه الذى ملأ الوجود ، ولاشيء سيأتي إلى قلبه الوحيد لينقذه من خوض غمار الوحدة والاكتئاب حتى الربيع لاينقذه ، ولايخفق قلبه بأغاريد الورود ، يقول فى رسالة من رسائله : «هاأنا مدلج فى سبيل الحياة الأقتم ، وهاهي الأشباح الرهيبة تتعقبني وتسمعني أناشيد السخرية والازدراء ، ولكنني سأظل سائرا منتظرا صباح الحياة ، وسأظل مرددا على هاته الغابات والكهوف ! أغنية الحيرة والحنين إلى أن يبدو الصبح أو يسكتني صراخ القبور» (٦٣) .

وهكذا تجد الشابي حتى فى نثرياته يغوص فى الوحدة والاغتراب ، ولعل وضوح هذه الرؤيا تتمثل فى ألفاظه مثل : مدلج – الأقتم – الأشباح الرهيبة ، أغنية الحيرة والحنين ، الكهوف ، صراخ القبور ، وكل هذه كلمات تدل على وحدة الأديب وعزلته وانطوائه ، وهي مشاعر ليست غريبة عليه ، فصورة الصباح فيها الإنقاذ من طول ليله الذى يشعره بالحسرة والوحدة ، وصراخ القبور أيضا ، صورة تسعف فى انغماس هذه النفوس فى صورة الاغتراب والوحدة ، حتى وصلت به هذه الصورة إلى القنوط ، وإلى مجاهل الموت لعله ينقذه من وحدته وغربته الدائمة ، وهذه المظاهر عموما ينغمس فيها كثير من الأدباء . يقول ثامر حسن جاسم «وطاقة الحياة الموجودة لدى الفرد الانبساطي والانطوائي تظهر ممتزجة بمقادير غير متساوية من الأنماط «الأمزجة» الأربعة : وهي التفكير والوجدان «الانفعال» والاحساس ، والالهام «الحدس» فقد يكون الفرد انبساطيا ولديه النزعة إلى التفكير أو الوجدان أو الاحساس أو الالهام ، كما قد يكون انطوائيا ولديه واحدة من هذه النزعات» (٦٤) ويقول فى قصيدة أخرى :

بالأمس كانت حيـــــــــاتي كالسمــــــــــــاء البـــــــــــاسمه
واليــــــــوم ، قد أمست كأعمـــــــــاق الكهـــــــوف الــــــــواجمه (٦٥)

فالأمس يشكل لدى الشاعر بسمة جميلة فى ماضي حياته ، ولعل ذلك يعود إلى أنه كان يافعا ، وإلى أنَّ آماله لم تبدد بعد ، أما حاضره فهو مؤلم جدا ، حيث فيه صورة الكهوف الواجمة ، وهي صورة توحي بالوحدة وتعمق جرح الشاعر من هذه الوحدة وتلك الغربة التي زجت به فى تعبير يتفق مع نفسيته التي أصبحت كهفا من الحزن ونمطا من القتامة ويقول :

متوحـــدا بعواطفـــــي ومشاعـــــري   وخواطـــــري ، وكآبتـــــي وسروري
ينتابنـــــي جرح الحيـــــاة كأننـــــي   منهم بوحـــدة جنـــدل وصخـــور (٦٦)

فهو يرى أنَّه وحيد فى مشاعره وحياته ، والسبب فى ذلك كما يوضحه لنا هو جرح الحياة لمشاعره ومطامعه وآماله ، ومن هنا بدت شواهد الوحدة فى كل منابع حياته وأدبه ، يقول الدكتور أنس داود «لم يكن الحزن فى شعر الشابي شعورا بالأسى حينا ، يهزم بالفرحة والإقبال على الحياة حينا آخر ، وتتحاور حياته مختلف أحاسيس الخيبة الرجاء واليأس والأمل والنكوص والإقبال ، لكن الحزن فى حياته كان شيئا آخر يشبه أن يكون موقفا وطبيعة ورسالة يتغنى بها فى هذا الوجود» (٦٧) ويقول من قصيدة أخرى :

شيـــــخ ، شاء دهــــــر الأسى ، وحيـــــد شتـــــيت
بين الخرائب يمسي على الطـــــوى ويبـــــيت
في ظلمــــة الليـــــل فاضت على الوجـــــود حياتــــه
وطرفـــــه يرمــــق النجــــم ملــــؤه عبراتـــــه
ومــــا حواليـــــه إلّا الخراب يشجـــــي صماتــــه
فمـــــا بكـــــاه فتـــــاه ولابكتــــــه فتاتــــــه (٦٨)

وتمتلىء هذه المقطوعة بصور الوحدة ، فهناك صورة الشيخ ، وصورة الأسى ، وصورة الخرائب ، وصورة الطوى ، وصورة الليل ، وكلها صور تعج بألفاظ تعبر عن كوامن نفس الشابي ، ومامر بها من وحدة أكلت سنام حياته وأبقته في فجاج الآلام التي مازالت تترى طول حياته ، ويستمر في تصوير وحدته النفسية في شماريخ قصائده . يقول :

ياصميم الحيـــــاة ! إني وحيـــــد مدلج ، تائــــه ، فأيـــــن شروقك ؟؟
ياصميم الحيــــــــاة ! إني فؤاد ضائـع ، ظامـيء ، فأيـن رحيـــقك ؟؟
ياصميم الحيـاة ! وقــد وجــم النــــاي وغـــام الـــفضا فأيــــن بروقك ؟؟
ياصميم الحيـــاة ! ايـــن أغانــــيك ؟؟ فتـحت النجـوم يصغـــي مشوقك (٦٩)

وينتهج الشابي في هذه القصيدة رؤى واسعة ، وصور متكررة ، ولكنها توضح صورة ذلك الوحيد المتشبث بالحياة ، والذى مازال رغم مايلاقيه من وحدة قاسية ، وضياع واسع ، يحاول أن يتفلسف وأن يتأمل ولكن فلسفته وتأمله يغوصان في الشكوى من غربته التي يعيش فيها طوال أيامه ، فالشابي يصوغ الحياة في صورة الوحدة والدجية والتيهان ، والفؤاد ضائع وظاميء ، والناي واجم وهو يبحث عن حقيقة الحياة وحلاوتها ، وكأنها تلفه بالغيوم فمتى يكون شروقها على حياته بكل ماكان يسعى إليه ؟؟ وهو الذى كأنه لايرى إلّا ظلمة قاتمة ورياحاً عاتية، وهذا يدل على رؤيا متأثرة بما مر بها من أحوال جعلته يشعر بالوحدة والانطواء ، ولاشك في أن هذا التكرار في صوره وألفاظه يدل على سعة في أفقه في التعبير عن نفسه . يقول مدحت سعد محمد الجبار «ولابد أن يعتمد التكرار الاهتمام بما بعد الكلمة المتكررة حتى لايصبح التكرار مجرد حشو ، فالشاعر الرومانسي ، إذا كرر عكس أهمية مايكرره مع الإهتمام بما بعده حتى تتجدد العلاقات وتثري الدلالات وينمو البناء الشعري» (٧٠) .

وينمو الاحساس بالوحدة في أدب الشابي ، إذ إن هذا الإحساس يوضح لنا أن هذا الشاعر كان متأثرا بالشعراء في العصر العباسي الثاني كما قلت سابقا يقول :

كئـــيب وحيــــــد بآلامــــــه وأحلامــــــه شدوه الانتحــــــاب
ذوت في الربيــــع أزاهيرهـــــا فنمــــن وقـــد مصهـــن التـــراب
لويــــن النحــــور على ذلــــة ومتــــن وأحلامهــــن العــــذاب
فحــال الجمــال وغـــاض العـــبير وأذوى الـردى سحرهـن العجــاب (٧١)

ولايمكن أن نعزل هذا المظهر عن غيره من مظاهر الحزن الأخرى ، فهى تتكاتف مع بعضها بعضا فى البناء الشعري لدى الشابي ، وهو بناء شعري قوى ، أعطانا صورة لنفس ذوت كل آمالها وأحلامها ، ولكنه صورها صورا تنم عن قدرة فنية بارعة وستبقى لحنا على مر الأيام ولقد «حاولوا أنْ يعزلوه عن جماهير القراء ويشككوا فى قيمته الشعرية ، وقد نجحوا إلى حد ما فى الوصول إلى بعض ماكانوا يهدفون إليه ، وكان نجاحهم هذا سببا من أسباب اكتئاب الشاعر وحزنه ، وإحساسه بالغربة فى وطنه ، وقد بلغ هذا الاحساس بالغربة أحيانا حدا عنيفا دفع بالشاعر إلى نوع من الشعور بأنْ يقف وحده تماما فى بلاده ، فأبناء شعبه لايسمعون نداءه إلى «يقظة الاحساس» بالحياة ، ولاهم يسمعون نداءه إلى الحيوية والتمرد والإقدام فى مقاومة الظلم السائد فى المجتمع» (٧٢) .

ويتضح أنه كان غريبا فى وطنه ، لأنه كان يحس بما يجري لهذا الوطن على أيدى من استباحوا كيانه ، فكيف لايشعر بالاغتراب والانعزال وهو الذى يمور قلبه بالاحساس الوطني ؟؟ وزاد من هذا الاحساس ، احساسه بغربته الروحية التي ضمخت من جراحه ، وفتكت بفؤاده الشقي ، الذى أوَى إلى وحدته لأنه خرج إلى الحياة يتيما فى حياته وفى شعوره ، وفى أفكاره فكيف لاتعم الوحدة والغربة شعره ؟؟ يقول :

شردت عن وطنـي السمـاوي الـذي ماكان يومـا واجما مغمومـا
شردت عن وطني الجميل . . أنا الشقـي فعشت مشطـور الفـؤاد يتيمـا
فى غربـة ، روحيـة ، ملعونـة أشواقهـا تقضي ، عطـاشا هيمـا
ياغربـة الـروح المفكـر ! إنَّـه فى النـاس يحيـا ، سائمـا مسؤومـا
شردت للدنيـا . . . ، وكل تائـه فيها يروع راحـلا ومقيمـا
يدعـو الحياة ، فلايجيب سوى الـردي ليـدسه تحت التـراب رميمـا
وتظـل سائـرة ، كأن فقيدهـا ما كان يومـا صاحبـا وحميمـا (٧٣)

وتشتد غربته قسوة وألما ، وينهدّ قلبه بهذا الإحساس ، حيث يتعمقه ، ويمتلىء بة كيانه ، حتى لكأن الكون رنة من غربة ، وزفرة من بؤس يقول :

كل دهـر يمر يفجـع قلبـي ليت شعـري ! أيـن الزمـان المؤسي ؟؟
فى ظلام الكهـوف أشبـاح شؤم وبهـذا الفضـاء أطيـاف نحس
وخـلال الـقصور أنـات حزن وبتـلك الأكـواخ أنضاء بؤس
والـفضاء الأصم يعـتسف النـاس ويـقضي مابين سيـف وقـوس
هذه صورة للشقـاء دامعـة الطـرف ولـون يسود فى كل طرس (٧٤)

إنَّ هذه القصيدة تشق نغم الحياة الحيرى ، أمام شعور هذا الشاعر وتنوع صور الشقاء فى هذه الحياة ، وكل الصور التي تحتوي عليها القصيدة توضح لنا غربة الشاعر المفزعة ، فهناك صورة الكهوف والأشباح ، وصورة الأطياف ، وصورة الكوخ وصورة البؤس وصورة الشقاء ، هذه هي حياة الشاعر

وقد صورها بهذه الصورة الدالة على شقائه وبروز وحدته على شكل صور متعددة يصوغها بلغة حية مرنة تؤازر هذه الصور وهذه المشاعر يقول مدحت سعد محمد الجبار :

«ذلك أن الصورة هي الجوهر الشعري لأنها الوحيدة القادرة على استكناه التجربة الشعرية داخل هذا الشاعر الرومانسي ، ونقل عالمه الداخلي مشكلا تشكيلا جماليا فى قصائد شعرية يتحدد بها موقفه من واقعه ، ويظهر الموقف سعة رؤيته الشعرية أو ضيقها» (٧٥) .

ويستمر الشابي فى شرح نمط غربته ، وكيف تتلاحق صور الاغتراب فى فنه وموسيقاه ولغته حتى لتشعر أنه ناي يبث وحدته واغترابه فى كل صوت أو كلمة يتفوه بها !! إنَّه يستكنه التجربة الشعورية التي تعبر عن رؤياه البائسة فى صور يشيع منها الخوف والرهبة والوحدة يقول :

ياكـــــوكب الشفـــــق الضحـــــوك ! وأنت مبتهل الكئـــــيب
لح فى السمـــــاء ! وغـــــن أنبـــــاء الشقـــــاوة والخطـــــوب
أنشودة تهب العـــــزاء لكـــــل مبتـــــئس غريب
فالـــــطير قد أغـــــفت وأسكت صوتها الليـــــل الهيـــــوب (٧٦)

إنَّ الشابي يفوق غيره من شعراء عصره ، فى استخدام لغته وصوره ، ومن هنا فإنَّه أثر فى كثير من الأجيال المعاصرة ، ومازالت غربته الروحية هي الأساس الأول لشكواه وحسرته فى هذه الدنيا المريرة ، إنَّه يكرر الصفات وغيرها من الأحوال ، التي يتخذها منهاجا يتألف مع لغته الفنية المعبرة عن أجواء هذه النفس الغريبة فى الزمن الداكن يقول :

ياصميم الحيـــاة ! كم أنـــا فى الدنيـــا غريب أشقـــى بغربـــة نفسي
بين قوم ، لايفهمـــون أناشيـــد فؤادي ، ولامعـــاني بؤسي
فى وجـــود مكبـــل بقيـــود ، تائـــه فى ظلام شك ونحس
فاحتضنـــي ، وضمنـــي لك ، كالماضي ، فهـــذا الوجـــود علـــة يأسي (٧٧)

يقول مدحت سعد محمد الجبار «وقد يكرر الصفة ومصدرها ، يقول :

ياصميم الحيـــاة . كم أنـــا فى الدنيـــا غريب أشقـــى بغربـــة نفسي

يلح الشاعر على دلالة الغربة ويستخدم التكرار أداة يعكس بها هذه الدلالة فيذكر صفة «غريب» وهي جملة تقريرية «كم أنا فى الدنيا غريب» ، ويشتق من نفس المادة مصدرها «غربة» وينسبها لنفسه «أشقى بغربة نفسي» (٧٨) .

إنَّ الاحساس بهذه المظاهر المتعددة ، يبلور نوعية الاحساس الذى يمر بالشابي ، حيث إنه يمر بحالات كثيرة تسعف هذه الغربة ، كمرضه ويتمه ، ومن هنا فإنَّ «قوة الاحساس هي كل شيء فى فنه وشاعريته . هي التي تخلق ألفاظه ومعانيه المتمردة المتحررة فى مواضع السخط والتمرد ، وهي التي تتدفق بالألفاظ اللينة الوديعة فى موضع اللين والضراعة» (٧٩) يقول :

أدركت فجــــر الحيـــاة أعمــــى وكـــنت لاتعـــرف الظـــلام
فأطبــــقت حولك الدياجــــي وغــــام فوقك الغمـــــام
وعشت فى وحشة تقـــــاسي خواطــــــرا كلهــــا ضرام
وغربــــة عيش مابها رفيـــــق وظلمـــــة مالها ختـــــام
تشق تيــــه الوجـــــود فردا وقـــد عضك الفقـــر والسقـــام
وطـــــاردت نفسك المآسي وفـــر من قلـــبك السلام (٨٠)

إنَّ شعوره فى هذه القصيدة التي سماها «إلى عازف أعمى» تهز مشاعر الناس وتوقظ احساسهم ، لأنَّ فيها صورا تستمد من حياة هذا الأعمى الذى أطبقت حوله الدياجي كل سبيل ، إنَّ تجربته الفنية تفرز إلى أي مدى صور الغربة ومايلحق بها من مشاعر ورؤى ، وربما أعطتنا صورة الحياة فى نظر الشابي ، وهي نظرة نعرفها ، إنَّه يصور مشاعره وعواطفه تجاه هذه الحياة فى أسلوب ومعانٍ وصور تستنبت جذور الغربة والاحساس بها منذ الطفولة حتى شبابه .

إنَّ التنوع فى التعبير عن الاغتراب اتخذ أساليباً وصوراً متعددة لدى الشابي فلانستغرب التكرار فى هذه الأساليب والصور ، لأنها مزيج من روحه ودمه ، إنه يكرر كلمة «الغربة» بألوان مختلفة ، وهذا يدل على تنوع مشاعره وتذبذبها لما لاقاه فى حياته من هول الخطوب ، وقسوة الزمان ، وضياع الرفيق الصادق فى هذه الحياة ، يقول :

يالـــيت شعـــري . هل لليــــل النــــفس من صبـــح قريب ؟؟
فتقرعـــا صفـــــة الظـــلام ، ويهجـــع الرعــــد الـــغضوب
ويـــــــرسل الإنسان أغنيـــــــة مع الدنيـــــــا ، طروب
ماللريـــــاح تهب فى الدنيـــــا ، ويدركهــــــا اللغـــــوب
إلا رياحـــــــي ، فهــــــي جامحة ، تمردهــــــا عصيب
مالي تعذبنـــــي الحيـــــاة كأننـــــي خلـــــق غريب !! (٨١)

إنَّ مانشمه من لوحات فنية عن الاغتراب فى شعره يشكل فى بعض الأحيان رموزا تفك صورها من خلال الفهم الجيد لمضامينها ومعانيها المتعددة ، فالليل رمز الظلام والهيبة والخوف ، والصبح رمز الخير والآمال ، والظلام ، رمز القسوة والمتاعب والغربة فى هذه الحياة ، والرياح رمز الرحمة ، وإن استخدمها الشاعر هنا بمعنى «الريح» وهي رمز التمرد والاجتياح والضياع ، واللغوب رمز المتاعب والمشقة التي يمر بها الإنسان فى دنياه ، إن تشكل الصور المتعددة للوحدة والاغتراب فى أدب الشابي يزلزل كيانه ، ويشتت نهمه الطموح نحو الآمال والعبور إلى المجد الدنيوي ، إنَّ خلود شعر الغربة يكمن فى أنه يسهم فى التعبير عن روح اتعبتها هذه الغربة ، وأضناها الأسى فى حياة لاتتمسك بالأخلاق والمبادىء التي تعارف عليها الناس ، كما أنها تعطينا لونا من ألوان الشخصيات الانطوائية التي لاتستطيع أن تتعامل مع البشر فى شتى مجالات الحياة لأنها أدركت أنَّ النفاق يسود المجتمع قاطبة ، ويجول فى محراب الأصدقاء ، وهنا ارتطم

شعور الشابي بهذه النوعيات من البشر ، إضافة إلى ظروف الحياة ومصاعبها ، فانطوى على نفسه ، وسجن شوقه ، فأظهر لنا هذا الشعر المتناسق فى ألفاظه ومعانيه وصوره المتسامية فى تعبيره عن مشاعر الناس على شتى مناحيهم الفكرية والأدبية .

رابعا : الطبيعة

الاحساس بالطبيعة يولد لدى الشاعر لونا من الأحاسيس المختلفة عن غيره من عامة الناس . إنَّ الجمال حقا يهز الوجدان ، ويثري الطاقات الإبداعية برؤى خالدة ، وصور تثير كوامن الشاعر فيعطينا صورة هذه الطبيعة وأثرها فى نفوس الآخرين وفى نفسه . وهو أثر جميل يزيل كوامن الأسى ، ونوازع الحزن ويبدد آثار الاغتراب ، ويلوح بالسعادة على الفرد والمجتمع ، يقول رجاء النقاش «هذه النظرة المتصوفة نحو الطبيعة ، هي نظرة الرومانسيين ، إنهم يهربون من زحام الحياة ، وزمام العلاقات الإنسانية ، ليعيشوا فى وحدة عميقة مع نفوسهم يتأملون ويفكرون ، ويجدون العزاء عن عذابهم ، وضيقهم بالحياة ، بل يجدون المعنى الصحيح للحياة ، إن الطبيعة هي معبد الرومانسي ، وهي سعادة روحه ، وخلاصة عذابه وألمه» (٨٢) . يقول الشابي :

يا أيها الشادي المغــــرد هاهنـــــا ثملا بغبطـــــة قلبــــــه المسرور
قبـــــل أزاهير الربيــــــع ، وغنها رنم الصبـــــاح الضاحك المهجــــور
واشرب من النبع الجميـــل ، الملتــوى مابين دوح صنوبـــــر وغديــــــر
واتــرك دمـــوع الفجــر فى أوراقهـــا حتـــى ترشفهـــا عروس النـــور
فلــــربما كانت أنينـــا صاعـــــدا فى الليـــل من متوهـــج مقهـــور
ذرفتـــه أجفـــان الصبـــاح مدامعـــا ألاقـــة فى دوحـــة وزهـــور (٨٣)

إنَّه يعبر عن شعوره ، وكيف يحاول أن يزيح عناء الشقاء ، وملامح المتاعب عندما يكتب شعرا فى وصف الطبيعة ولكنه لايزال يبث آهاته وأحزانه من خلال نغمات الحروف ، وملامح الصور ، يقول خليفة محمد التليسي «ويغلب على صاحب المزاج الرومانسي الذى يعبد الطبيعة ، أن يتخذ من مظاهرها وسيلة للتعبير عما فى نفسه ، فهي ليست منفصلة عنه وإنما نراها من خلال آلامه وأفراحه» (٨٤) .

وهو يعيش للطبيعة ، ومن أجل الطبيعة لعلها تقلل من قسوة الشكوى وملامح القتامة ، وفيها يجد مايريده من فرح وسعادة ، تبعده عن واقعه الذى يعيشه ، يقول :

يا أيها الغــــــاب المنمــــــــق بالأشعــــــــة والـــــــورود !
يا أيها النـــــــور النقــــــــي ! وأيها الفجـــــــر البعيــــــــد !
أيـــــن اختفـــــيت ؟ ومــــــا الـــــذى أقصاك عن هذا الوجـــــود ؟؟
آه ! لقـــــــد كانت حيـــــــاتي فيك حالمة تميـــــــد

بين الخمائــــــــل ، والجداول ، والتـــــــرنم والنشيـــــــــد
يصغـــــي لنجـــــواك الجميلـــــة ، وهـــــي أغنيـــــة الخلـــــود
وتعـــــيش فى كون من الغفـــــلات فتـــــان سعيـــــد
آه ! لقـــد غنـــى الصبـــاح ، فدمـــدم الليـــل العتيـــد !! (٨٥)

وهكذا «فالشاعر الرومانسي ، يبدأ حياته النفسيةبالشعور بالانفصال عن العالم الواقعي ، والغربة عن هذا العالم ، وهو يعيش بخياله مع أطياف الحب وصوره ويبني لنفسه عالما من أغصان الطبيعة وأشجارها وزهورها يأوي إليه ويرتاح فيه ليفكر فى قلبه ، وفى حبيبته الموعودة» (٨٦) .

وفى صور أخرى من شعره نراه يلبس الطبيعة أثواب الزهد والتنسك ، وهي التي سوف تبعده إلى الجمال السامي عن هذه الحياة وهذه الخليقة ، ومارآه منها فى ثنايا حياته ، إنَّه يخرج من واقع إلى واقع آخر ويلبسه فى بعض الأحيان قميص الحزن والانعزال يقول :

وأود أن أحيـــا بفكـــرة شاعـــر ... فأرى الوجـــود يضيـــق عن أحلامـــي
إلَّا إذا اقطـــعت أسبـــابي مع الدنيـــا ... وعشت لوحـــدتي وظلامـــي
فى الغاب ، فى الجبل البعيد عن الورى ... حيث الطبيعـــة والجمـــال السامـــي
وأعـــيش عيشة زاهـــد متنســـك ... ما إنْ تدنسه الحيـــاة بذام
هجـــر الجماعـــة للجبـــال تورعـــا ... عنها وعـــن بطش الحيـــاة الدامـــي
تمشي حواليـــه الحيـــاة كأنها ... الحلـــم الجميـــل خفيفـــة الإقـــدام
وتخر أمـــواج الزمـــان بهيـــة ... قدسيـــة فى يمهـــا المترامـــي
فأعـــيش فى غابي حيـــاتي كلهـــا ... للفـــن للأحـــلام ، للإلهامـــي (٨٧)

ومن هنا يظهر ناموس حياته المضطربة ، التي جعلته لايفتأ أنْ يندمج مع هذه الطبيعة حتى يحس بالملل والكآبة . يقول الدكتور عبدالقادر القط «لذا يقبل الشاعر على الطبيعة ، وقد وطن نفسه على الاستمتاع بما فيها من صفاء وجمال فإذا بتلك الكآبة الدائمة تنبثق من وجدانه فى اللحظة التالية فتحيل ماكان يفترض أنه مصدر للمتعة والسعادة مثارا للهواجس والتشاؤم والشكوى» (٨٨) .

وتتراكم الصور ، وتتزاحم الرموز بحزن هذا الشاعر وسوداويته حتى ليكسو جمال الطبيعة قتاما ولحونا شجية . يقول طلعت عبدالعزيز أبو العزم : « وحين يواجه الشاعر الطبيعة ، وهو متألم ، فإنَّه كثيراً مايلح على عناصرها وجزئياتها ليستخرج منها مكنون عالمه النفسي ، وهو عالم يسوده الألم والحزن والاحساس بتمزق الذات والشعور بإحباط الآمال» (٨٩) وفى هذا الإطار يقول الشابي :

أظـــل الـــفضاء صبـــاح الغـــروب ، فألقـــي عليـــه جمالا كئـــيب
وألـــبسه حلـــة من جلال ، شجـــي ، قوي جميـــل غلـــوب
فنـــامت على العشـــب تلـــك الزهـــور ، لمرأى المساء الحزيـــن الرهـــيب
وآبت طيـــور الـــفضاء الجميـــل لأوكارهـــا ، فرحـــات القلـــوب

وقد أضرمت بأغاريدها خيال السماء الفسيح الرحيب
وولى رعاة السوام إلى الحي يزجونها فى صمات الغروب
فتثغو حنينا لحملانها ، وتقطف زهر المروج الخصيب (٩٠)

ومن أعماق تجربته هذه نستكنه التجربة الأدبية الفريدة ، حيث نرى صورا وألفاظا تلتحم التحاما جيدا ، فهناك صورة الغروب ، وصورة الكآبة ، وصورة الحزن ، وصورة الزهور النائمة ، كل ذلك فى تعبير جميل ينم عن وحدة الشاعر وعذابه على الرغم من جمال الطبيعة ومافيها من مقومات تبعده عن هذا الاكتئاب الذى مُزِج بحياته العامة فى كل زمان ومكان ، إنه يندمج مع الطبيعة ويصورها ، كما تحلو له ، لا كما تحلو لصاحب الفكر والعقل ، إنه يندفع إلى عواطفه ووجدانه فيستثمرها فى تجاربه النفسية والفكرية يقول :

النفوس جميلة كطيور الغاب … تشدو بساحر التغريد
طاهرات ، كأنها أرج الأزهار … فى مولد الربيع الجديد
وقلوب مضيئة كنجوم الليل … ضواعة كغض الورود
أم ظلام كأنه قطع الليل … وهول يشيب قلب الوليد !!
وخضم يموج بالأثم والنكر … والشر والظلال المديد
لست أدري ، فرب زهر شذا … قاتل رغم حسنه المشهود (٩١)

لاشك فى أنَّ هذا شعر جميل ، ولكنه يعج بصور الحزن والوحدة فى شتى مراميه ، وصوره وألفاظه تفسر لنا تجربة الشابي مع الطبيعة وماتثيره من شجون فى قلبه وفى تفكيره يقول مدحت سعد الجبار «ويكثر الرومانسيون من الصفات فى شعرهم لأن ذلك يلائم تلون انفعالاتهم ، والشابي الشاعر الرومانسي يكثر من الصفات ليلائم بين تلون واقعه النفسي وتلون الصورة الشعرية أداته الجوهرية فلو أخذنا مثلا صورة الليل لنرى تلونها بلون الاسقاطات النفسية التي يسقطها الشاعر لوجدنا أنها توصف بالفرح والحزن والرهبة ، والجمال ، والكآبة والغرابة والعتامة» (٩٢) .

ومازال هذا الشاعر الرومانسي يستوحي صور الغربة والوحدة من خلال شعر الطبيعة ، وهو يكسو هذه الطبيعة آلامه وبلواه ، وكأنها هي الأخرى تعاني أزمات الحياة وقسوة المحن يقول :

يامهجة الغاب الجميل … ألم يصدعك النحيب ؟؟
ياوجنة الورد الأنيق … ألم تشوهك الندوب ؟؟
ياجدول الوادي الطروب … ألم يرنقك القطوب ؟؟
ياغيمة الأفق الخصيب … ألم تمزقك الخطوب ؟؟
ياكوكب الشفق الضحوك … أما ألم بك الشحوب ؟؟ (٩٣)

تتعاور هذه المقطوعات سحابة حزن يلثم وجه الطبيعة وتشجر آهاتها وكأنها احساسات إنسانية ، ولقد استخدم لغة فنية توضح إلى أي مدى تكاثفت هذه اللغة فى تصوير مشاعره وكآبته فهناك مثلا :

يصدعك ، النحيب ، تشوهك ، الندوب ، يرنقك القطوب ، تمزقك ، الخطوب ، الشفق ، الشحوب ، إنَّ تشكيله اللغوى الذى يبلور إلى أي مدى كان الشابي يعبر عن غربته ويأسه فى صفاف الربى ، وهذا يدل على أن الشاعر مازال فى انغماس رؤية كئيبة فى أحضان الطبيعة «فالشابي لايلتقط المنظر الخارجي للطبيعة مركزا على الأبعاد الخارجية الحسية ، كما أنه لايستند إلى الموروث الشعري ينبش على صور من أشعار القدامى ، بل يستمد هذه الصور من الحياة فتتحول الطبيعة إلى كائن حي يشارك الشاعر أحاسيسه وآلامه» (٩٤) .

وعلى الرغم من أنَّ الشاعر كان يتحدث عن الطبيعة ومافيها من التفاؤل والآمال الباسمة ، إلا أنَّه ارتدى ثوب التشاؤم وهو يتحدث إلى الطبيعة . وهذا يدل على أن الشاعر بدأ يسير نحو اليأس المكبل بجراح الدهور ، وشجون الحياة يقول :

والشبـاب الحبيب شيخوخـة تسعـى ... إلى الموت فى طريـق كؤود
والربيـع الجميـل فى هاتـه الدنيـا ... خريـف يـذوي رقيـق الـورود
والـورود العـذاب فى ضفـة الجدول ... شوك ، مصفـح بالحديـد
والطيـور التـي تغنـي ، وتـقضي ... عيشهـا فى ترنم غريـد
إنها فى الوجـود تشكـو إلى الأيـام ... عبء الحيـاة بالتغريـد
والأناشيـد أنها شهقـات ... تتشظـى من كل قلب عميـد
صورة للوجـود شوهـاء لولا ... شفـق الحسن فوق تلك الخدود (٩٥)

إنَّ الشابي رسم لكل أنماط الطبيعة ، وكأنه يريد أن تعم هذه الأنماط والأشكال بما تشغف به نفسه من بؤس واغتراب ووحدة فى هذا الوجود ، لأنه دأب على هذا الأسلوب منذ بداية حياته ، وهذا يدل على أن كآبته كانت ملازمة له بعد نشأته قبل أن تتدخل فيها عوامل أخرى قد يكون لها التأثير على مكتسبات حياته ، ومن ثم ظهر التعبير الشاكي فى موضوعات شعره .

وفى قصيدته «بقايا الخريف» نلمح كيف استطاع الشابي أن يمزج بين فلسفة التشاؤم واليأس والقنوط والموت ؟؟ وكأنه يريد أن يلف هذا العالم بمشاعره واحساساته المنفردة التي قد لاينسجم معها كثير من الناس ، ولعل ذلك يعود إلى الضغط النفسي الذى يمر بهذا الشاعر ، فيجعل منه صورة لتلك الحياة الشاحبة حتى فى ضفاف الطبيعة ، إنَّه يتحدث عن زهرة ويصور مامرت به من قسوة الحياة وذبول الزهو ، حتى أصبحت تقاوم الخطوب ، وعذاب الشقاء ، وعنت الموت ، وهي التي كانت معشوقة الإنسان فى ربيع أيامه ، أما الآن فهي تنتظر القضاء ومصارع الحتوف يقول :

تباكـي به لبها المستطـار ... وتـرثي به ماطوتـه الحتـوف
وتشكـو أساهـا بيـاض النهار ... وتنـدب حظ الحيـاة السخيـف
ولكـن لقـد فقـدت فى الوجـود رفيقـا مصيخـا وقلبـا رؤوف
فمـا ثم إلا الصخـور القـواسي ... وإلا الصدى المستطـار الهتـوف

فجـاءت بروح شقـي ، شجـي ، لقـد عذبتـه الليـالي صنـوف
ومـاتت وقـد غادرتها بقـاع من الأرض ضنك حيـاة الصروف
فبـانت حيـال الغديـر الأصم ، وقـد أخـرس الموت ذاك الحفيـف
قد خضبتها غيـوم المساء ، كغانيـة ضرجتها السيـوف
فسلهـا «تـرى كيـف غاض الأريج ؟؟ وكيـف ذوى سحـر ذاك الرفيـف ؟؟
وكيـف خبت بسمـات الحيـاة بأجفـانها وعراهـا الـكسوف ؟؟
وكيـف لوت جيدهـا الحادثـات وألـوت بذاك القـوام اللطيـف ؟؟
ذكـرت بمضجعهـا المطمئـن ومرقدهـا فى السفير الجفيـف
مصارع آمالي الغابـرات وخيـبتها فى الصراع العنيـف (٩٦)

وفى هذه اللوحة الفنية يجسد الشابي آماله ومقاصده التي كان يسعى إليها وكيف أصبحت ذاوية فى صراع الأيام ، وخيبة على سفوح الدهور !! إنَّ لغته الأدبية وصوره الفنية ، تبرز قدرته الإبداعية على تجاوز الأحاسيس الضئيلة التي لاتكون إبداعا ، تتكيف اللغة مع زهرة الربيع ، وكأنها نماذج لزهورٍ تعم حديقة تملأها الصور الخلاقة ، فهناك الألفاظ الحية والصور الشجية التي تتنوع بتنوع الأحاسيس والرموز ، إنَّه شاعر بالحياة وجعل اللغة تعبر عن مضامين ومعان يعجز الأدب أن يبلغ شأو هذا الفن الرفيع ، تتناغم الكلمات وتتموسق العبارات فى أبهى صورها ، لتشكل عقدا من المأساة فى حياة الشاعر وتجذبه إلى موقفين : موقف ربيع الحياة ، وموقف خريفها المخيف ، إنَّ لغته كانت دالة على تصوره الذى يمور بفكره سواء كان ذلك الفكر يقوده إلى فلسفة الموت وماقبله ومابعده ، أو مايفتق صور الحياة فى ذهنه ، ولكنه يهب الطبيعة فنه وشعره وإحساسه ، ومن هنا جاءت لغته المبدعة وصوره ، على النحو الآتي : تباكي ، طوت ، الحتوف ، تشكو ، أساها ، حظ ، الحياة ، الصخور القواسي ، شقى ، شجن ، بقاع ، ضنك ، أخرس الموت ، الخفيف ، غيوم المساء ، غانية ضرجتها السيوف ، غاض الأريج ، خبت ، الكسوف ، مضجعها ، مرقدها ، آمال غابرات ، خيبة ، إنَّ هذه اللغة الحساسة تعج بمعجم الفناء ، الذى ينتظره كل حي وقد عبر عنه تعبيرا جيدا ، وتمور بصور تتلاءم مع اللغة وتتآزر معها مما جعل لها مجالا واسعا فى تنوع الأحاسيس وتخثر المشاعر ، إنَّها تكسو الطبيعة جمالا ولكنها تسلبها منها فى سرعة فائقة ، لأنها ترتدي مشاعر الشابي فى أحواله فهو وإنْ صور السعادة ، إلَّا أنه يعود إلى جرح المأساة ويكسو الصورة مايلائمها من ذبول ، وفتور ، لأنه يعبر عن قلبه الحزين ، لذا كسا الطبيعية لونا يتلاءم مع اللون الذى يريده وهو اللون الداكن . وليس من شك فإنَّ الشعور نحو الطبيعة يتعاوره مشاعر متعددة ، ولكن هذه المشاعر تكون صورة لحياة الإنسان فى فترات محدودة والإنسان السوي يعيش حياته بكل فرح ويسر ، وينظر إلى الحياة ومتاعبها بمنظار العقل الواعي ، ويعلم أنها تحتوي على أحلام جميلة ، وتحتوي على خطوب شعواء ، أما أنْ يكون الإنسان فى صورة الشابي لايعجبه من الحياة إلَّا لون واحد هو

لون البؤس ، وحياة التشاؤم ، فهذا مالانميل إليه ، لقد جعلت منه الأحداث صورة مهشمة الإزار ، ومن هنا برزت لغة اليأس والاغتراب والموت فى أدبه ، إنَّه صور الحياة لطبقة من الناس الذين يعيشون فى عالمهم الشقي ، وحياتهم المضناة بمشاعر الضياع ، وقسوة المحن وذبول المرامي ، وانكسار التفوق ، وانهيار الطموح .

خامسا : الإنسانيـــة

تنبع مهمة الشعر فى استيعابه للمشاعر والعواطف التي تكمن فى جوانح الإنسان ، فإذا عبر الشعر عنها فذلك هو الأس الأول لمقومات الشعر الصادق ، والشعر يلتصق التصاقا حميما بالتجارب الإنسانية ، ويصور ماترسب فى القلوب من آثار ذاتية ووطنية وإنسانية ، وكان الشابي نبراسا مشتعلا يفوح أدبه بالتعبير الوجداني فى شتى المجالات ومناحي الحياة . ولقد ساعدت رقة احساسه ومثاليته النادرة ، كما ساعدت عوامل أخرى كمرضه ويتمه وموت والده وضياع حبه ، واستعمار وطنه فى أن يكون معبرا عن كل أحوال نفسه ومامر بها من نتوء طغت على هذه الحياة ، يقول عمر فروخ : «فالشابي كان شاعرا رومانسيا موزع القلب بين الانطواء النفسي والنزعة الإنسانية» (٩٧) وهو يعطي العواطف والمشاعر فى أدبه قيمة أدبية لأن شعراء الوجدان يفضلون الصدق فى شعرهم وينغمسون فى العواطف حيث خير «مايحفلون به فى الشعر صدقه فى التعبير عن المشاعر أو كما يفضلون أن يقولوا فى التعبير عن العاطفة» (٩٨) .

يقول الشابي :

عش بالشعـــــور وللشعـــــــور فإنما ... دنيـــاك كون عواطـــــف وشعــــــور
شيـدت على العطـف العميـــق ، وإنها ... لتجــف لو شيـــدت على التفـــكير
وتظـــل جامـــدة الجمـــال ، كئيبـــة ... كالهيكــــــل ، المتهدم المهجــــــور
وتظـــــل قاسيـــــة الملامح جهمــــة ... كالموت ، مقفــــــــــرة بغير سرور
لا الحب يرقص فوقهــــا متغنيـــــا ... للنـــاس ، بين جداول وزهـــــور (٩٩)

فالشاعر يهز جوانح العواطف ، ويبني أسس الحياة على الإحساس والمشاعر ويراها هي خير مايشق سماء الشقاء ، فهو يتعمق الشعور والاحساس به ، لأنه وجداني ، قبل أن يكون مفكرا ، وهو يعتقد أن الأدب يفقد مزاياه الخالصة ، إذا اعتمد العقل دون القلب ، وسوف يجتاح الكون شجون الموت وينضب الفرح والسرور إذا لم يكن للمشاعر الإنسانية دورها المُعَلِّي فى تشييد قصور الحب وجداوله . وقد حاول أن يغرس فى أحاسيس البشر الرحمة والعطف ، ولقد أثار كوامن نفسه ومأأصابها من ضروب الأسى ، فهو يتحدث عن رقة الاحساس ، ومايجلبة لصاحبه من ود يصل به إلى حد البكاء ، إنه كثيراً ماصور قلبه وماماج به من الجراح التي جعلت منه فى بعض الأحيان «قشة» فى مهب الريح لاتحتمل حتى المشاعر اليسيرة وأحيانا يتمرد على أحواله النفسية فيكون نسرا متمردا على شجون الحياة إنه شاعر العاطفة الذى يصدق مع نفسه ومع الآخرين ، ولعل تكراره ونداءه لفؤاده مما يثري

الاحساس الفطري لدى كثير من العاطفيين فى هذه الحياة ، ومما يجعلهم أيضا يتعاطفون مع القلب الذى ذاق مرارة العذاب والحرمان ، وفراق الأحباب ، وضياع الأصدقاء ، إنَّه يصوره بصور شتى ، فهو عاشق دنيا ، وطالب قمم ، محب للجمال ، وهو قبر تضج تحته الرم ، إنَّه يبحث عن رمز من رموز الحياة الإنسانية ، وكل هذه الرموز تنبع من هذا القلب النابض بشوق الحياة وحبها والمتوجع من جوارح الليالي وفواجع الأيام يقول :

ياقـلب ! كم فيك من دنيـا محجبـه ... كأنها حين يـبـدو فجرهـا ارم
ياقلب ! كم فيك من كون قد اتقـدت ... فيه الشمـوس وعـاشت فوقـه الأمم
ياقـلب ! كم فيك من افـق تنمقـه ... كواكب تـجلى ، ثم تنعـدم
ياقلب ! كم فيك من قبر قد انطفـأت ... فيـه الحيـاة ، وضجت تحتـه الـرمم
ياقلب ! كم فيك من غاب ومن جبل ... تدوي به الـريح أو تسمـو به القمـم
ياقلب ! كم فيك من كهف قد انبجست ... منه الجداول تجري مالها لجم (١٠٠)

ولا يزال فى بوح يداوي به روحه المجلودة ، وقلبه المجروح ، إنه يزداد جراحا وينكأ جرحه ندوب الحياة ، وماجرى فيها من أحوال وأمراض قد أجبرته على الشكوى من هذا القلب الذى لايتحمل ريح الفناء ، وذبول النغمات يقول :

مالآفاقك ياقلبـي سودا ، حالكـات ؟
ولأورادك بين الشوك صفـرا ذاويـات !
ولأطيـارك لاتلغـو ، فأيـن النغمـات ؟
مالمزمـارك لايشدو بغير الشهقـات
ولأنـوارك لاتخفـق إلَّا شاكيـات
ولأنغـامك لاتنطـق إلَّا باكيـات
ولقـد كان صبـاح الأمس بين النسمـات
كعـذاري الغـاب لاتعـرف غير البسمـات (١٠١)

إنه فى هذه القصيدة يضع قلبه على سفود الحزن ، ويلثم ألفاظه بصور القتامة والسواد والذبول والشكوى ، ويجعل من حاضره سوطا يقتل فيه كل الأحاسيس المتناغمة معه فى الطبيعة ، ويتسلى بماضيه لأنه فيه نزعة الفتوة وتفتق الآمال . إنَّه يضم بين حنايا قلبه نَفَساً إنسانياً يريد من البشر أنْ يضموه إليهم وأن يحنو عليه لعله يخرج من مرافيء الكآبة إلى ملاذ الحنان الإنساني . ولاشك فى أنَّ الحزن سمة إنسانية ، تهز القلوب الوجدانية وتتربى على جذور الحس الشعوري ، وماذا سنسمع من قلب شتت الريح حبه ، وقضت الأيام على جسور آماله ؟؟ إن الشابي إذ يصور مشاعره الذاتية يجوس بها فى زهو إلى المشاعر الإنسانية ، لقد صور السعادة ، وهي ملمح من ملامح التفاؤل فى هذه الدنيا ، ولكنه يرزح تحت زناد الضنى ،

وبؤس الطالع ، فالسعادة كما يرى حلم ، وليس هناك مايسعد هذا القلب السقيم من أوجاعه ، سوى أن يعود إلى نغمه فيشجينا ويقتبس منا حصون المودة ، وشموخ التعاون ، إنه يفرز أدبا يموج بغصون الضعف وضياع اللحظة السعيدة يقول :

ترجو السعادة ياقلبي ولو وجدت ... فى الكون لم يشتعل حزن ولا ألم
ولا استحالت حياة الناس أجمعها ... وزلزلت هاته الأكوان والنظم
فما السعادة فى الدنيا سوى حلم ... ناء تضحي له أيامها الأمم ؟؟
ناجت به الناس أوهام ... لما تغشتهم الأحلام والظلم
فهب كل يناديه وينشده ... كأنما الناس مانالوا ولاحلموا (١٠٢)

ويترنم الشابي بكثير من قصائده فى الحب ، ويثير كثيرا من التساؤلات فهو متقلب المزاج نظرا لما يحمله قلبه العليل من شقوة المعاناة ، وضياع حبه ، أو فناء المحبوبة وهو مثالي النزعة فى حبه ، صادق الشعور فى عواطفه يقول رجاء النقاش «والحب عندالشابي حب رومانسي صادق ، وأول مظاهر الرومانسية فيه هو المثالية الكاملة ، فالمرأة التي يحبها هي امرأة من صنع خياله السامي إنّها امرأة مثالية تتكون من الأحلام والأطياف والزهور ، وهي ليست من جسد ، بل من روح شفافة ، وليست مزيجا من الخير والشر ، ولكنها خير مطلق ، وصفاء مطلق وحبها ليس حبا حسيا ، بل إنه لايختلط أبدا بأي معنى من معاني الحس ، إنه حب روحي شفاف يسمو فوق نداء الغريزة ، ويختلف عن ذلك الحب العادي الذى يعرفه الناس» (١٠٣) .

إنه يرتبط مع محبوبته بمبدأ الوفاء والإخلاص ، وذكراه ذكرى إنسانية تتمحور فى شدو طائر الحب الأمين يقول :

كنا كزوجي طائر ... فى دوحة الحب الأمين
نتلو أناشيد المنى ... بين الخمائل والغصون
متغردين مع البلابل فى السهول وفى الحزون
ملأ الهوى كأس الحياة لنا ، وشعشعها الفتون (١٠٤)

إن الشابي يتقلد السعادة فى حبه لحظات ، وكأنه قبض روحا ينمق شعره بحلاوة الأسلوب ، وحنين الحياة ، ويفر من شحوبه فى همسةمن همساته ، ثم يعود إلى أنينه وضجة قلبه ، وسوء حاله ، وهو يريد من محبوبته أن تشاركه مشاعره القاسية ومحنه المتتالية ، إنه يشكو لها سوط الأسى ، وهول الخطب ، إنه يعود إليها ويطلب منها أنْ تشيع المرح فى نفسه ، وأن تبث المنى فى ربوعه ، فهي الصباح ، والأمل الذى يفجر دياجي الظلم يقول من قصيدة طويلة :

وارحميني ، فقد تهدمت فى كو ... ن من اليأس والظلام المشيد
انقذيني من الأسى فلقد أمسيت لا أستطيع حمل وجودي
فى شعاب الزمان والموت أمشي ... تحت عبء الحياة جم القيود

وأمـــاشي الـــورى ونـــفسي كالقبـــــــر وقلبـــي كالعـــالم المهـــدود
ظلمـــة مالها ختـــام وهـــول شائـــع فى سكـــونها الممـــدود
وإذا مااستخفنـــي عبث النـــاس تبسمت فى أسى وجمود
بسمـــة مرة ، كأني أستـــل من الشوك ذابـــلات الـــورود
وانفخـي فى مشاعـري مرح الدنيـا وشدى من عزمـــي المجهـــود
وابعثـــي فى دمـــي الحرارة على أتغنـــى مع المنـــى من جديـــد
وأبث الوجـــود أنغـــام قلب بلـــبلي ، مكبـــل بالحديـــد
فالصباح الجميـل ينـعش بالـدفء حيـــاة المحطـــم المكـــدود
انقذيني ، فقد سئـمت ظلامـي ! انقذينـي فقـد ملـلت ركـودي
كل هذا يشيـد سحـر عينـيك والهام حسنك المعبـــود
وحـرام علـيك أن تهدمـي ما شاده الحسن فى الفـؤاد العميـد
منك ترجـو سعـادة لم تجدهـا فى حياة الورى وسحر الوجـود (١٠٥)

إن الألم والشكوى عنصران مهمان فى تركيبة الشاعر الرومانسي ، ومن هنا فهو يضج من آهاته ، ويرسخ شجوه فى لغة طيعة ، تمور بالحياة والمرونة ، وتمالىء القلوب شكواها ، إنَّ المشاعر الإنسانية دائما تلتصق بالأنين والشكوى ، وهو إذ يندب حظه ، ويبث نجواه لمحبوبته ، فإنه لايقدم على ذلك إلَّا لعلمه أنه لم يجد من يشاركه مشاعره الإنسانية التي تضج بالغربة والحنين فى هذا الوجود .

إنَّ البناء الفني ينمو مع نمو المشاعر الإنسانية التي تضمنتها هذه القصيدة ، وفيها كلمات تعبر عن مدى التعاطف والشعور الذى يريده ممن يلتف حوله . إنَّ معجم الأسى يثور من حنايا قصيدته ، لأنه تسلق سنام الفن الوجداني فى خبايا العواطف الإنسانية التي رأي فيها خروجه من عالم مكدود ، إلى عالم الورود والآمال ، ومن عالم الذبول إلى عالم النشوة والوجود ، إنَّ التشاؤم يمتاح بحر قصيده حينما صرخ فى وجه الشجون ، وسخط الزمان ، إذ إنه فقد ماكان يصبو إليه من حلاوة الدنيا ، وسماحة الزمن ، فالآن فقد كل عاطفة ، ولم يجد خلا يشاركه مشاعره ويقتسم معه بوح الشكوى ، وضنى الحب ، وفقدان الحبيب ، ومن هنا فالراحة العجلى بيد المنون يقول :

يا أيها القـــلب الشجـــي ! الام تخرسك الشجـــون
رحماك قد عذبتنـــي بالصمت والدمـــع الهتـــون
مات الحبـــيب ، وكل ماقـــد كنت ، ترجـــو أن يكـــون ؟
فاصبر على سخـــط الزمـــان ، وماتصرفـــه الشؤون ؟
فلسوف ينقـــذك المنـــون ، ويفـــرح الـــروح السجين (١٠٦)

وترسم الشابي خطى جريئة فى الدفاع عن أمته ووطنه والدعوة فى الوصول به إلى أعلى الدرجات يقول : «إن تونس لفي حاجة إلى أن ترفع رأسها عاليا حتى تشاهد أنوار السماء وشموسه وحتى تقبل

شفتيها أضواء النجوم» (١٠٧) وهو يطمح إلى سمو فى نظرته ، وارتفاع فى أغراضه الشعرية يقول رجاء النقاش : «ويرجع ذلك إلى أنَّ نظرة الشابي للشعر كانت نظرة رفيعة ، ويرفض أن يكون الشعر أداة للأغراض والموضوعات المؤقتة العاجلة» (١٠٨) . وهو يحث شعبه إلى اتباع الحق ، ونبذ الباطل ، وتحدي أحداث العصور ، وأن يقف فى وجه الطغاة لعل الفجر يبزغ فى ثياب النصر وإرادة القوة يقول :

يقولـــون : صوت المستــــذلين خافت ... وسمع طغـاة الأرض «أطـــرش أضخـــم»
ولعلـــة الحق الـــغضوب لها صدى ... ودمدمـــــــة الحرب الضروس لها فم
إذ التـــــف حول الحق قوم فإنَّـــــه ... يصرم أحــــــداث الزمـــــان ويبرم
أغــــراك أن الشعب مغض على قذى ... وأنَّ الـفضاء الــرحب وسنــان مظلــم
ألا أنَ أحـــــلام البــــلاد دفينـــــة ... تجمجـــم فى أعماقهـــا ماتجمجـــــم
ولكـــن سيـــأتي بعـــد لأي نشورهـــا ... وتنبثـــق اليـــوم الـــذى يتـــرنم (١٠٩)

وينمو الإحساس الوطني لدى الشابي إلى ذروته ، ويسعى إلى أن يحقق شعبه آماله ، وطموحاته ، وليست ثورته سوى صورة من الانتقام على الأوضاع السائدة فى مجتمعه ، يقول خليفة محمد التليسي : «على أن الشابي ظل عميق الحب للحياة وليس تشاؤمه إلَّا صورة من صور النقمة على الأوضاع المريضة التي كان مجتمعه يعيش فيها ، وهو ينطوى على الرغبة فى الحياة الرفيعة الخالقة المبدعة ، أكثر مما ينطوى على كراهية الحياة» (١١٠) .

يقول الشابي :

آه بل أنت فى الشعب عجـــــــــوز ... فيلســــــوف محطـــــم فى إهابـــــه
مات شوق الشبـاب فى قلبـــه الـــذاوى ... وعـــــزم الحيــــاة فى أعصابــــــه
فمضى ينشد السلام بعيـــــــــــدا ... فى قبـور الزمــــان ، خلـــف هضابـــه
وهنـاك اصطفـى البقـــاء مع الأمـــوات ... فى قبر أمسه غير آبه
وتنـــاسي الحيـــاة والزمــــن الـــــذاوى ... ومـــــاكان من قديم عذابـــــــه
فالـــزم الـــقبر فهـــــو بيت شبيــــــه ... بك فى صوت قلبـــــــه وخرابـــــه
واعبـــــد الأمس واذكــــــر صور الماضي ... فدنيـا العجـوز ذكـــرى شبابـــه (١١١)

تتجسد فى هذه القصيدة الغيرة الوطنية ، والطموح الجسور ، فى تخط العقبات التي تقف أمام شعبه ، إنه ينقذ هذا الشعب من سباته العميق الذى لم يفق منه ليقف فى وجه الطغاه الذين يقفون فى وجه تحرر شعبه وتقدمه نحو المستقبل ومن هنا «لم تكن رومانسية الشابي مغلقة فى نطاق ذاته ، وفى عالمه الداخلي ، ولكنها كانت رومانسية متفتحة على مشاكل قومه والوجود الإنساني» (١١٢) .

إنَّ الشابي كان يتعلق بالرمز الوطني ، ويسير إليه بعقل واع ، وقلب متفتح ويؤمن إيمانا صادقا بحتمية المصير الوطني . يقول أبو القاسم محمد كرو : «ومهما يكن من شيء فإنَّنا نؤمن بأنَّ الشابي كان ذَا عبقرية فنية أصيلة فى منتهى الأناقة كما كان وطنيا عظيم الإخلاص متأهبا للزعامة فى بيئته» (١١٣) .

إن الشعور الإنساني يتمثل فى إحساسه بالتعاون مع الآخرين والإحساس بما يحسون وبمايشعرون ، والوقوف أمام القوى الذى يسلب كل مافي يد الضعيف من رمق العيش وحب البقاء ، إنه يمور بالإحساس نحو اليتامى والفقراء ويصور مشاعره تجاه حياتهم ، ومايجري لهم من صور التعب والحتوف يقول :

كرهت الـــــقصور وقطـــــانها ‏ ‏ ‏ وماحـــــولها من صراع عنيــــف
وكيــد الضعيــف لسعــي القـــوي ‏ ‏ ‏ وعصف القــوي بجهــد الضعيــف
وجــاشت بنــفسي دمــوع الحيــاة ‏ ‏ ‏ وعــجت بقلبــي ريــاح الصروف
لقــلب الفــقير الحطيم ، الـــكسير ‏ ‏ ‏ ودمــع الآيامــي السفيــح الذريــف
ونـــوح اليتامـــى على أمهـــات ‏ ‏ ‏ توارَيــن خلــف ظلام الحتــوف (١١٤)

إنَّ الشابي يتأوه طول حياته ، وينوح على أطلال الأخوة والصداقة التي لاتقف أمام زوابع الريح ، وصروف الزمان ، فهو يصور حالته لرفيقه ، لعل هذا الرفيق يقف معه ويصلب عوده ، حيث إنه فى مهاوي سحيقة ، وحياته تتلوى بها المتاعب والصعاب ، إنه يطلب من صديقه أنْ يشاركه فى مقارعة الخطوب ، وأن يلتحف بالشعور الإنساني معه ، لعله يقضي على أهواله وأحزانه واغترابه فى هذه الأيام يقول :

يارفيقـــي ! وأيـــن أنت ؟ فقـــد أعـــمت جفـــوني عواصف الأيــــام
ورمتنـــي بمهمــــه ، قاتم ، قفـــر تغشيــــه داجيـــات الغمـــام
خذ بكفــي ، وغننـــي ، يارفيقـــي ، فسبيـــل الحيـــاة وعـــر أمامـــي
كلمـــا سرت زل فيـــه مهـــوى ، تتضاغـــي به وحـــوش الحمـــام
شعبتـــه الدهـــور ، وانطـــمس النـــور ، وقـــامت به بنـــات الظـــلام
راقصات ، يجلبـــن فى حلك الليـــل ، ويلعبـــن بالقلـــوب الدوامـــي
غننـــي ، فالغنـــاء يدرأ عنـــا السامـــر الجن ساكـــن الآجام (١١٥)

إن الشّابي يتهلل بشرا لذكر الأم ، ويصغي إلى رنات فؤادها ، ويبذل كل غال ونفيس فى سبيل حياتها ، فهي نغمة الوجود ، وزهرة المستقبل ، وشجرة العطاء ، ومنها يتحدر العطف الإنساني فى نهر الحياة ، سواء كان ذلك فى الفرح أو فى نجود العناء يقول :

إلَّا فؤادا ، ظل يخفـــــق فى الوجـــــود إلى لقـــــاك
ويـــــود لو بذل الحيـــــاة إلى المنيـــــة وافتـــــداك
فإذِا رأى طفـــــلا بكـــــاك ، وإنْ رأي شبحـــــا دعـــــاك
يُصغـــــي لصوتك فى الوجـــــود ، ولايـــــرى إلَّا بهاك
يصغـــي لنغمـــتك الجميلـــة فى خريـــر الساقيـــةْ

فى رنـــــة المزمـــــار ، وفى لغـــــو الطيـــــور الشاديـــــةْ
فى ضجـــــة البحـــــر المجلجـــــل ، فى هديـــــر العاصفـــــةْ
فى لجة الغابـــــات ، فى صوت الرعـــــود القاصفـــــةْ
فى نغيـــــة الحمـــــل الوديـــــع ، فى أناشيـــــد الرعـــــاهْ
بين المروج الخضر ، والسفـــــح المجلـــــل بالنبـــــات
فى آهة الشاكـــــي ، وضوضاء الجمـــــوع الصاخبـــــةْ
فى شهقـــــة الباكـــــي يؤججهـــــا نواح النادبـــــةْ (١١٦)

وتتفتح رؤياه إلى الطفولة ، ومافيها من ربيع ساحر ، وفجر باسم ، ورؤى حالمة ، إنه ينوع الاحساس بالصدق الشعوي ، ويعمق تجربته الإنسانية فى حياة كلها عطاء وخير تضفي على الإنسان ندى الصباح ، وربى الحديقة ، ومن هنا يتسم شعره الإنساني بالرؤيا العميقة التي ميزت شعره عن غيره من شعراء جيله يقول :

إنَّ الطفولـــــة تهتـــــز فى قلب الربيـــــع
ريانـــــة من ريـــــق الأنـــــداء فى الفجـــــر الوديـــــع
غنت لها الدنيـــــا أغـــــاني جلهـــــا وحبورهـــــا
فتـــــأودت نشوى بأحـــــلام الحيـــــاة ونورهـــــا
ودموعهـــــا ، وسرورهـــــا ، وطموحهـــــا وغرورهـــــا
لم تمش فى دنيـــــا الكـــــآبة والتعـــــاسة والعـــــذاب
فتـــــرى على أضوائهـــــا ، مافي الحقيقـــــة من كذاب (١١٧)

من كل ماسبق يتضح لنا صورة الشاعر الرومانسي . يقول الدكتور محمد مصطفى هدارة : «وإن الأثر الرومانتيكي فى الشابي إنما جاءه عن طريق تأثره بشعر المهجر بدرجة أقوى بكثير من تأثره بالرومانتيكية عن طريق مباشر لما يرى بعض الأدباء . ولكن ليس معنى ذلك كله إن شخصية الشابي ممحوة أو ضائعة فى تيه هؤلاء الشعراء ، فهناك فرق كبير بين التأثر والنقل ، والشابي لم يكن ناقلا قط ، وإنما تأثر بالشعر الرومانتيكي تأثرا قويا عميقا ، وتفاعل هذا التأثر وأحداث حياته كما حللناها فكانت النتيجة وجود شعر وجداني متأثر بالنزعة الرومانتيكية ينسب للشابي ، لا لأنه مجدد فى موضوعات شعره ، فهي تعكس صورة مكررة من الشعراء الرومانتيكيين فى الغرب وشعراء المهجر فى الأدب العربي ، ولكن له أسلوبا يتميز بحلاوة النغم والموسيقى الشعرية الخلابة والألفاظ الشفافة الطلية ذات الجمال والرشاقة والانسجام» (١١٨) .

ولعلَّ فى هذا النص مايوضح أن الشابي كان متأثراً بغيره من الشعراء ، وهذا لايعنى أنه لم يتعمق تجربته الذاتية أو التجربة الإنسانية ، فقد عبَّر عن آماله وآلامه وآلام الآخرين مما جعل لشعره نكهة جيدة فى العصر الحديث .

سادسا : المـــوت

تلتحم مظاهر الحزن فى أدب الشابي التحاما عجيبا ، وتشكل إطارا لحياة أمضها الأسى ، وأحاطت بها شقوة الزمن ، ويتشكل الفن والصور فى بذر صور الموت وأشكاله ، وتنبع لغة تجذر الموت فى نغمها وفى موسيقاها ، ويجوس الخوف كل مظاهر الحياة والطبيعة . يقول خليفة محمد التليسي : «إنَّ الألم الذى يقطر فى كثير من قصائده الأُوَل ، إنَّما هو نتيجة لخوفه من الموت ، فلقد كان يراه شبحا مخيفا لايبقى على شيء من آمال الإنسانية . كان يخشاه حين كانت آماله فى الحياة عظيمة ، فهو يحاذر أن تصل إليها يده القاسية التي تصيب أزهار الربيع بالذبول ، وتجمد تغريد الشحرور ، وتغرس فى قلب الأم لوعة حارقة» (١١٩) ولقد نزع الشابي إلى بلورة خيبة الطالع ، وضياع الأمل ، فى فلسفة تشاؤمية لاتميل لحظة إلى التفاؤل فى صورته المُثْلِى وإنَّما تعج بصور الشعر التأملي الذى يحفز الإنسان إلى التطلع إلى قسوة الحياة ، ونضوب حلاوتها من نفسه المكلومة ولقد شكلت قصائده لحونا من الصور التي تبين صراعه مع صلابة الحياة ، فهو يبلور معجمه بعناصر تدل على فواجع الموت والفناء ، ويستخدم كلمات تدل على تشكل الموت فى عناصر اللغة مما يدل على ثروته اللغوية ، على مدى ماتعانيه نفسيته من عذاب الحياة ، وصنوف المحن ، فهو يكرر مثلا لفظة (الردي) أكثر من مرة ، وهذا يدل على شكواه ومرارته من ملاقاة الخطوب والأحداث ، فلما ضاقت به الحياة أسهب فى معجم الفناء الذى يدل على عمق رؤيته ، ويوضح السمة الغالبة على شعره وهي الفلسفة التشاؤمية التي قادته إلى أكثر من ذلك بكثير يقول :

إنَّ الحيــــاة – وقـــد قضيت قبيـــل معرفـــة الحيـــاة
بحر ، قرارتـــه الـــرَّدَى ، ونشيـــد لجتـــه شكـــاة
وعلى شواطئـــه القلـــوب تئـــن ، داميـــة عراة
بحر تجيش به العواطـــف فى العشيـــة والغـــداة
وتظلـــه سحب الظـــلام فلا سكـــون ولا إيـــاة (١٢٠)

وكثيرا مايتشبث بالحياة ويتمرد عليها فيقول :

يود الفتى لو خاض عاصفـة الـردى وصد الخميس المجر والأسد الوردا (١٢١)

ويستخدم صور الكآبة وصور الموت فى لغة تنم عن قدرة إبداعية ، فهو يعود ويكرر صورة الفناء فى فهمة لمضمون كلمة المنون يقول :

حتـــى إذَا كدنـــا نرشف خمرهـــا ، غضب المنـــون
فتخطـــف الكـــأس الحلـــوب ، وحطـــم الجام الثـــمين
وأراق خمرالحب فى وادي الكـــآبة والأنين
وأهـــاب بالحب الوديـــع ، فودع العـــش الأميـــن
وشدا بلحـــن الموت فى الأفـــق الحزيـــن المستـــكين (١٢٢)

ولقد كرر الكلمة فى إطار مايريد أنْ يصوره من يأس مر به ، وغص به قلبه حتى لكأن للمنون صوتاً يبعده عن أنْ يستمع إلى اللحن الطروب يقول :

إنَّ من أصغـــــــــى إلى صوت المنـــــــــون
وصدى الأحـــــــــــــداث
ليس تستهويـــــــــه ألحان الطيـــــــــور
بين أزهـــــــار الربيـــــع الساحـــــــرة (١٢٣)

وهو مازال فى بؤسة القاتم ، ومعجمه الفلسفي الذى يصب فى أتون اللغة التي تخدم مايراه ملائما لنفسه ، وللخلاص من مأساة الحياة ، فالمنايا سوف تحصد كل شيء فى هذا الوجود ، فلماذا الغناء ولمن ذاك الجمال ؟؟ وكل شيء مصيره إلى الفناء ولاعودة إلى آمال تلوح فى الأفق ، إنما كل شيء إلى الضياع يقول :

إذَا لم يكـــن من لقـــاء المنايـــا ... منـــاص لمن حل هذا الوجـــود
فأي غنـــاء لهذى الحيـــاة ... وهـــذا الصراع العنيـــف الشديـــد
وذاك الجمـــال الـــذى لايمل ... وتـــلك الأغـــاني ، وذاك النشيـــد
لماذ نمر بوادي الزمـــان ... سراعـــا ولكننـــا لانعـــود ؟؟ (١٢٤)

وقد امتاز أدب الشابي بصور تثير الرعب والخوف فى قلب القارىء ، وخاصة حينما يبرز أشكال الخوف من الموت فى الحديث عن القبر واللحود والضريح والرمس والأجداث ، وهذه الصور والملامح تتلاءم وروحه المتشائمة من ضباب المنايا ، وانشراخ الأمل ، وهو يعترف بشقائه فى هذه الحياة ، فهو كما يعتقد أنه ذاهب فى طريقين ، إما طريق القبر أو الجنون ، يقول : «لقد ضقت ذرعا بالحياة ياصاحبي ، ولا أخالني ، إنْ ظلت الحياة على ماهي عليه اليوم إلَّا ذاهبا إلى القبر أو فى سبيل الجنون» (١٢٥) .

وهو يتحسر على ضياع الجمال ، وكيف تغير الحياة من طبيعته ، ولماذا يصيبه الذبول والانطواء فى ظلمات القبر مهينا حقيرا ؟؟ يقول :

وتربـــد تلك الوجـــوه الصبّـــاح ... وفتنـــة ذاك الجمـــال الفريـــد
ويـــغبر فرع كجنـــح الظـــلام ... أنيـــق الغدائـــر جعـــد ، مديـــد
ويصبـــح فى ظلمـــات القبـــور ، ... هبـــاء حقيرا وتربـــا زهيـــد
وينجـــاب سحـــر الغـــرام القـــوى ... وسكـــر الشبـــاب الغرير السعيـــد (١٢٦)

ويقول فى قصيدة أخرى تتناغم فيها أحزانه مع سكون القبر وتحت ترابه الأصم :

يردده حزننـــا فى سكـــون ... على قبرنـــا الصامت المطمئـــن
فترقـــد تحت التـــراب الأصم ... جميعـــا فى نغمـــات الحزن (١٢٧)

وهو يتحدث عن « الزنبقة الذاوية» ويوضح إلى أي مدى سوف يقتله الحزن ويفنيه الزمن العصيب ، عندما تأخذ يد المنون بكفه إلى اللحد يقول :

وإنْ جرفـــتك أكـــف المنــون إلى اللحـــد ، سحقـــتك الخطـــوب
فحـــزني وحـــزنك لايبرحـــان أليفـــان رغـــم الزمـــان الـــعصيب (١٢٨)

وهو يصور شبح الموت صورا تتلاءم مع يأسه من الحياة ، وتشد من أزر لغته المتميزة فى تصوير ماقبع فى نفسه من أشلاء الموت ، ومايتحدر عنه من تمزيق لحياته الطبيعية ومكوناتها ، وكأن كل الآمال المستقبلية فى نظره تتمزق ، وينهار كل شيء يجلب التفاؤل ، لأن مصير الإنسان سيكون فى خضم المقابر أو فى جنبات اللحود يقول :

والموت تحفـــر ، أينما يخطـــو المقابـــر واللحـــود
وتمر بين فجاجهـــا اللـــذات ، حالمة ، تميـــد
سكـــرى ، وأشواق الـــورى ، ترنـــو إلى الأفـــق البعيـــد
وتظـــل ترقص للأسى ، للهـــو ، أشبـــاح الدهـــور
حتـــى يواريها ضبـــاب الموت فى وادي الدثـــور
وتظـــل تورق ، ثم تزهـــر ، ثم ينشرهـــا الصبـــاح
للمـــوت ، للشوك المـــزق ، للجـــداول ، للريـــاح
بسمـــات ثغـــر ، حالم ، تفتـــر فى سهـــو السرور
وورود روض ، باسم يصغـــي لألحان الطيـــور
وتظـــل تخفـــق ، ثم تشدو ، ثم يطـــويها التـــراب
قُبـــلٌ ، وأطيـــارٌ ، تغـــرد للحيـــاة وللشبـــاب
وتظـــل تمشي فى جوار الموت أفـــراح الحيـــاة
ويغـــرد الشحـــرور مابين الجماجـــم والرفـــات (١٢٩)

فهو يغرس صورة الموت فى كل شيء ومن عناصر الطبيعة ، ويفلسف نظرته حسبما يريد ويعبر عن شعوره وإحساسه بالإخفاق والضياع من كل آماله ، ومن هنا لجأ إلى هذه الصور التي تعالج قضايا الفناء ، وتثير زوابع ترابية فى وجة السعادة والطمأنينة ، فالصور المتعددة والمتلاحقة ، كلها تتلازم وتتشكل لونا قاتما فى سراج الحياة ، فهناك صورة الموت ، وصورة الأسى ، وصورة الأشباح وصورة الضباب ، وصورة الشوك ، وصورة الحياة الباسمة ، وصورة الجماجم والرفات ، وهي تتشكل فى لغة تساهم مساهمة فعالة فى تصوير شعوره نحو هذه الدنيا ، إنَّها لغة تموج بمعجم الأشباح المفزعةالذى يتفاعل بدوره مع الصور الفنية التي يرمز بها إلى صورة من صور الفناء ، ويعود فيستمر فى تصوير شجون الضباب وموج الأسى الذى يعصر قلبه ، لأنه لم يحصل على شيء من ماضية وهو يصور حاضره بصور تبعث على التشاؤم والاغتراب ، إنَّ أحلى ماعنده ، تصوير ماضيه وحسرته على عناء النفس وشقاء القلب ، ثم تصويره لحاضره ، بأن يبحث عن الهدوء من صور الحياة الكئيبة ، وبأن يخط ضريحه عله يدفن نفسه من الأسى ويسكن فى الظلام ، ففيه الهدوء لهذه النفس التي هدتها كوارث الحياة ، وأمدتنا

بهذه الفلسفة اليائسة من كل شيء وهي فلسفة لايميل إليها كثير من الباحثين فيما نظن يقول :

وتغشـــــــــــــــى الضبـــــــــــــــاب نفسي ، فصاحت
فى ملال مر : «إلى أيـــــــــــــــــــن أمشي ؟؟»
قلت : (سيري مع الحيـــــــــــــاة . . .) فقـــــــــــــالت :
ماجنينـــــــــــــــــــا ترى من السير أمسي ؟؟
فتهـــــــــــــافت كالهشيـــــــــــــم – علـــــــــــــى الأرض
ونـــــــــــــاديت : «أيـــــــــــــن ياقـــــــــــــلب رفشي ؟؟»
هاتـــــــــــــه علنـــــــــــــي أخـــــــــــــط ضريحي
«فى سكـــــــــــــون الدجـــــــــــــى وأدفـــــــــــــن نفسي» (١٣٠)

وهو يضع كل صور الموت فى عالمه ، ويصوغ ألفاظه فى محيط يرفل بعالم من الاضطراب النفسي والتذبذب الفكري ، ولعل ذلك يعود إلى طبيعة هذا الشاعر الذى اعتادت نفسه على صور الفناء ومراميه ، فى شتى مناحي حياته ، إنَّه ولايزال يصوغ ألوانه من القبور والتحدث عنها بكل ما أسعفته اللغة ، وهذا يدل على قدرته على استيعابه الجيد لألفاظ الموت وصور المنايا ، إنه يجعل من الرمس بابا يهيمن على فكره وهاجسه ، لأنه عاش حياة داكنة يلونها بلون المأساة وخريف العناء يقول :

لم تخلـــف لي الحيـــاة من الأمس ... سوى لوعـــة تهب وتـــرس
تتهادى مابين غصات قلبـــــي ... بسكـــون وبين أوجـــاع نفسي
كخيـــال من عالم الموت ينساب ... بصمت مابين رمس ورمس
تلك أوجـــاع مهجـــة عذبتها ... فى جحيم الحياة أطيـــاف نحسي (١٣١)

وأحيانا نراه لايرهب الموت ، ويسخر من الأجداث ، وهذا دليل على أنه يحاول أن يدافع عن شعوره بالخوف والتمزق ، ولعل هذه النماذج من الصور التي ذكرها توضح مدى رؤيته نحو العالم الآخر :

فالـــذي يرهب الحيـــاة شقـــي ، سخـــرت من مصيره الأجـــداث (١٣٢)

ويقول من قصيدة أخرى :

هذا إلى الموت والأجـــداث ساخـــرة ، وذا إلى المجد والدنيـــا له خول
والموت كالمارد الجبـــار منـــتصب فى الأرض ، يخطـــف من قد خانـــه الأجـــل (١٣٣)

ويفند الشابي رؤيا الفناء ، وهي رؤيا يبدو فيها متأثرا بأبي العلاء المعري وخاصة فى التشاؤم الذى ظهر فى أدبه ، وإن لم يصل إلى فلسفة الفكر لدى المعري ، إنَّه يرى الموت نهاية كل حي ، وهو لغز لايفلت من حبائله أحد ، وهو تجربة لايعرف مداها أحد ، ولايستطيع دفعه ، ولارد بطشه حيوان على وجه الأرض .

يقول :

فانما الموت ضرب من حبائلـــــه ... لايفلت الخلق ماعاشوا فما النظر ؟؟

هذا هو اللغــز ، عَمَّــاهُ ، وعَقَّــده على الخليقـــة ، وحش ، فاتك حذر
قد كبـــل القـــدر الضاري فرائسه فمــا استطاعــوا له دفعــا ولاحــرزوا
وحاطهـــم بفنـــون من حبائلـــه فمالهم أبـــدا من بطشه وزر ؟؟ (١٣٤)

وهو يصور حالة الموت بالصمت ، دون ضجيج أو وجيب ، وإنما هناك السكون كأعماق الكهوف ، فالموت يقسو ولكن الظلام طيف من طيوف الرحمن يقول :

قد قنـــعتْ كف المساء الموت بالصمت الرهـــيب
فغـــدا كأعمـــاق الكهـــوف ، بلا ضجيـــج أو وجـــيب
يأتي بأجنحـــة السكـــون ، كأنـــه الليـــل البهيم
لكـــن طيـــف الموت قاس ، والدجـــى طيـــف رحيم (١٣٥)

إنَّ الموت لدى الشابي يشكل نجاة لكل حي أصابته التعاسة ، فعاش هذه الحياة وعرف كل صنوف الأرزاء واللغوب ، وهو صوت الحياة الجميل ، وهو قلب الدهر الرحيم ، وهو الروح الجميلة التي تسمو إلى الخلود ، وهو إنّما يقول ذلك ، لأنه يعتقد أن الموت سوف ينجيه مما هو فيه ، ولذلك فهو يقبل عليه بشوق ملهوف ، وقلب مشغوف ، لأن فيه راحة وهدوءاً من كل مايعتوره فى هذه الحياة يقول :

إلى الموت ! ياابـــن الحيـــاة التعـــيس ، ففـــي الموت صوت الحيـــاة الـــرخيم
إلى الموت ! إنْ عذبـــتك الدهـــور ، ففـــي الموت قلب الدهـــور الـــرحيم
إلى الموت ! فالموت روح جميـــل ، يرفـــرف من فوق تلك الغيـــوم
فروحـــا بفجـــر الخلـــود البهيـــج ، وماحولـــه من نبـــات النجـــوم (١٣٦)

ويقول :

إلى الموت ! إنْ حاصرتك الخطـــوب ، وسدت علـــيك سبـــل السلام
ففـــي عالم الموت تنضو الحيـــاة رداء الأسى وقنـــاع الظـــلام
وتبـــدو كما خلـــقت غضيـــة يفـــيض على وجههـــا الابـــتسام
تعيـــد عليها ظلال الخلـــود ، وتهفـــو عليها قلـــوب الأنـــام (١٣٧)

وفى هذه المقطوعة ، وفى سابقتها نراه يكرر لفظة الموت ، مما يدل على أنه التصق به ، وذاق مرارة الحياة وعذابها ، من خلال أحداثها وأهوالها فهو منقذه الوحيد من شقاوتها التي تضج بالأسى ، وندوب الجراح ، فهو لم يجد راحة فى دنياه فيخلد إلى السلام ، أو يفق من خطوبه لكي يسير إلى آماله وطموحاته دون إخفاقات تسبب له ضياع المستقبل وتعكر صفو الحياة . يقول الدكتور شوقي ضيف «وكأنه يحس بالموت سيعتقه من أحزانه وينجيه من أوصابه ، فتندمل جروحه ، وتسكن شجونه ، وتجف دموعه ، وتمحي الظلمات التي كان يجوبها فى ليله ونهاره ، فتلك تباشير الصباح يوشك أن تطردها من حوله إلى غير رجعة» (١٣٨) .

وهكذا فى كثير من شعره يكرر أنَّ الموت هو الطيف الذى ينجيه من وادي القضاء الرهيب ، ولعل هذا التكرار يوضح إلى أي مدى أصبح القنوط واليأس عنصران أخذا يدبان فى أدب الشابي وروحه ، ومن هنا فإنَّ فلسفة اليأس ، هي فلسفة الضعف التي لاتستطيع أن تواجه الحياة وأن تتصارع مع معضلاتها ، وأن تقف سداً منيعا دون انهيار القدرة النفسية أمام الأحداث الجسام . لذا فإنَّ «الرؤية الرومانسية للموت من خلال الاحساس الحاد بالألم رؤية نفسية تنطلق من نفس الشاعر المتألمة والمشتعلة إحساسا ، التي لاتستطيع أن تعيش فى وفاق مع الحياة ، إن الشاعر يشعر بجفاف سحر الحياة ، وانطفاء رونقها ، يعيش حياته متألما ، ويرى فى الموت نهاية لآلامه وخلاصا منها» (١٣٩) .

ويبدو أنَّ الشابي بعد وفاة والده أحس بغربة شديدة ، وفراغ روحي أخذ يحتويه ، وبدأت آلامة تزداد ، وآماله تضمحل ، ومن هنا بدأ بكتابة قصيدة «ياموت» التي أبرزت مايكنه لوالده من حب جارف ، وهم عاطفي ، فهو فجره الجميل إذا ادلهم الليل ، ودرعه الذى يصد عنه النائبات حين تحل به ، أمَّا بعد غيابه فهو وحيد ، معذب يبحث عن قبر يرى فيه كأسه التي تنجيه من أحداث الزمن ، وكوارث المحن يقول :

ياموت ! قد مزقت صدري ... وقصمت بالأرزاء ظهري
ورميتني من حالق ، وسخرت ... مني أي سخر
فلبثت مرضوض الفؤاد ... أجر أجنحتي بذعر
وقسوت إذ أبقيتني ... فى الكون أذرع كل وعر
وفجعتني فيمن أحب ، ومن إليه ، ، أبث سري
وأعده فجري الجميل ، إذا ادلهم عليَّ دهري
وأعده وردي ، ومزماري وكاساتي وخمري
وأعده ، غابي ، ومحرابي ، وأغنيتي وفجري
وتركتني فى الكائنات أئن ، منفرداً بإصري
وأجوب صحراء الحياة أقول «أين تراه قبري ؟؟»
ماذا تود من المعذب فى الوجود بغير وزر ؟؟
ماذا تود من الشقي بعيشه النكد المضر ؟؟ (١٤٠)

وهذه اللوحة الفنية تصب فى معجم الفناء وتكتنز بلغة تترجم عنه ترجمة واسعة ، وعما يعملة بالكائنات ، فى صورة مليئة بالكآبة والغربة والوحدة وهي تترجم مشاعر مكتئب أحاطت الحياة بكل آماله وطموحاته ، ولم ير بدًا من أنْ تتهدل أغصان زهوره ، وأنْ تتبدد ورود آماله ، فالقصيدة تمتلىء بصور الفناء والخوف والضياع ، فهناك صورة التمزيق والخطوب ، وصورة الذعر وصورة الوعر ، وصورة الفجر ، وصورة الليل ، وصورة الآمال ، وصورة الوحدة والاغتراب وصورة القبر ، وصورة العذاب والشقاء والنكد ، إنَّ هذه الصور تلتحم التحاما عجيبا مع تلك اللغة التي تخدم التعبير والمشاعر خدمة جليلة

وتعطينا ترجمة نفسية عن كل قلب أكلته السنون ، وجرحته الأيام .
والله من وراء القصـــــد . ، ، ،

التعليقـــــات

(١) **محمد الحليوي** ، رسائل الشابي ، تونس ، منشورات المغرب العربي ، ١٩٦٦م ، ص ١١١ .
(٢) **أبو القاسم محمد كرو** ، الشاعر الشابي ، حياته وشعره ، بيروت ، المكتبة العلمية ، ١٩٥٤م ، ص ٢٧ .
(٣) **عبداللطيف شراره** ، الشابي ، بيروت ، دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٣٩٩هـ ، ١٩٧٩م ، ص ص ١٦ – ١٧
(٤) **أبو القاسم الشابي** ، أغاني الحياة ، تونس ، منشورات دار الكتب الشرقية ، ١٩٥٥م ، ص ص ٥٠ – ٥١ .
(٥) **عمر فروخ** ، الشابي ، شاعر الحب والحياة ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦٠م ، ص ١٣١ .
(٦) **أبو القاسم الشابي** ، أغاني الحياة ، مرجع سابق ، ص ١١٤ .
(٧) **ثامر حسن جاسم** ، البحث النفسي فى إبداع الشعر ، العراق ، وزارة الإعلام ، ١٩٨٦م ، ص ٧٠
(٨) **خليفة محمد التليسي** ، الشابي وجبران ، بيروت ، دار الثقافة ، د . ت .
(٩) **أبو القاسم الشابي** ، أغاني الحياة ، مرجع سابق ، ص ٨٥ .
(١٠) **مصطفى سويف** ، الأسس النفسية للإبداع الفني فى الشعر خاصة ، القاهرة ، دار المعارف ، ص ص ٤١٨ – ٤١٩ .
(١١) **أبو القاسم الشابي** ، أغاني الحياة ، مرجع سابق ، ص ١٤ .
(١٢) **أبو القاسم الشابي** ، المرجع السابق ، ص ١١٣ .
(١٣) **طلعت عبدالعزيز أبو العزم** ، الرؤية الرومانسية للمصير الإنساني لدى الشاعر العربي الحديث ، الاسكندرية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، فرع الاسكندرية ، ١٩٨١م ، ص ١٥٢ .
(١٤) **عبداللطيف شراره** ، الشابي ، مرجع سابق ، ص ١٩ .
(١٥) **أبو القاسم الشابي** ، أغاني الحياة ، مرجع سابق ، ص ٢٧ .
(١٦) **شوقي ضيف** ، دراسات فى الشعر العربي المعاصر ، القاهرة ، دار المعارف ، ص ١٥٣ .
(١٧) **أبو القاسم الشابي** ، أغاني الحياة ، مرجع سابق ، ص ٨٧ .
(١٨) **عبدالقادر القط** ، الاتجاه الوجداني فى الشعر العربي المعاصر ، القاهرة ، مكتبة الشباب ، ص ٤٤٥ .
(١٩) **أبو القاسم الشابي** ، أغاني الحياة ، مرجع سابق ، ص ٣٥
(٢٠) **رجاء النقاش** ، أبو القاسم الشابي ، شاعر الحب والثورة ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٥م ، ص ٧٨ .
(٢١) **أبو القاسم الشابي** ، أغاني الحياة ، مرجع سابق ، ص ١٥١ .
(٢٢) **أبو القاسم الشابي** ، المرجع السابق ، ص ١٤٦ .
(٢٣) **أبو القاسم الشابي** ، المرجع السابق ، ص ١٤٠ .

(٢٤) **محمد الحليوي** ،رسائل الشابي ، مرجع سابق ، ص ١٣٢ .
(٢٥) **أبو القاسم الشابي** ، أغاني الحياة ، مرجع سابق ، ص ١٧٩ .
(٢٦) **أبو القاسم الشابي** ، المرجع السابق ، ص ١٧٩ .
(٢٧) **أبو القاسم الشابي** ،المرجع السابق ، ص ١٦٧ .
(٢٨) **محمد مندور** ، الشعر المصري بعد شوقي ، الحلقة الثانية ، جماعة أبولو ، دار نهضة مصر ، د . ت ، ص ٩٦ .
(٢٩) **أبو القاسم الشابي** ، أغاني الحياة ، مرجع سابق ، ص ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٠ .
(٣٠) **أبو القاسم الشابي** ، المرجع السابق ، ص ١٥٩ .
(٣١) **محمد مندور** ، الشعر المصري ، مرجع سابق ، ص ١٠١ — ١٠٢ .
(٣٢) **شوقي ضيف** ، دراسات في الشعر ، مرجع سابق ، ص ١٤١ .
(٣٣) **أبو القاسم الشابي** ، أغاني الحياة ، مرجع سابق ، ص ١٢٠ .
(٣٤) **أبو القاسم الشابي** ، المرجع السابق ، ص ١٥٥ .
(٣٥) **أبو القاسم الشابي** ، المرجع السابق ، ص ٨٩ .
(٣٦) **أبو القاسم محمد كرو** ، الشاعر الشابي ، مرجع سابق ، ص ٢٨ .
(٣٧) **أبو القاسم الشابي** ، أغاني الحياة ، مرجع سابق ، ص ٣١ .
(٣٨) **أبا عوض أحمد** ، **الفارابي عبد اللطيف** ، الحركة الفكرية والأدبية فى العالم العربي الحديث ، المغرب ، دار الثقافة ، ١٩٨٣م ، ص ٣١٨ .
(٣٩) **أبو القاسم الشابي** ، أغاني الحياة ، مرجع سابق ، ص ٢٧ .
(٤٠) **أبو القاسم الشابي** ، المرجع إلسابق ، س ص ٢٠ — ٢١ .
(٤١) **أبو القاسم محمد كرو** ، الشاعر الشابي ، مرجع سابق ، ص ٢٧ .
(٤٢) **شوقي ضيف** ، دراسات في الشعر ، مرجع سابق ، ص ١٤٩ .
(٤٣) **أبو القاسم الشابي** ،أغاني الحياة ، مرجع سابق ، ص ٦٤ .
(٤٤) **الطاهر أحمد مكي** ، الشعر العربي المعاصر -- روائعه ومدخل لقراءته ، القاهرة ، دارة المعارف بمصر ، ١٩٨٠م ، ص ٧٦ .
(٤٥) **أبو القاسم الشابي** ، أغاني الحياة ، مرجع سابق ، ص ٧١ .
(٤٦) **محمد سعد فشوان** ، مدرسة أبولو الشعرية فى ضوء النقد الحديث ، القاهرة ، دار المعارف بمصر ، ص ١٣٧ .
(٤٧) **أبو القاسم الشابي** ، أغاني الحياة ، مرجع سابق ، ص ٣١ .
(٤٨) **شوقي ضيف** ، دراسات في الشعر ، مرجع سابق ، ص ١٤٤ .
(٤٩) **أبو القاسم الشابي** ، أغاني الحياة ، مرجع سابق ، ص ٤٠ .
(٥٠) **أبو القاسم الشابي** ، المرجع السابق ، ص ٤٩ .
(٥١) **أبو القاسم محمد كرو** ، الشاعر الشابي ، مرجع سابق ، ص ٤٥ .
(٥٢) **أبو القاسم الشابي** ، أغاني الحياة ، مرجع سابق ، ص ٤٤ .
(٥٣) **مدحت سعد محمد الجبار** ، الصورة الشعرية عند أبي القاسم الشابي ، دار العربية ، ١٩٨٤م ، ص ١١٥ .
(٥٤) **أبو القاسم الشابي** ، أغاني الحياة ، مرجع سابق ، ص ص ١٤٩ — ١٥٠ .

(٥٥) **أبو القاسم الشابي** ، المرجع السابق ، ص ص ٤٦ – ٤٧ .

(٥٦) **مدحت سعد محمد الجبار** ، الصورة الشعرية ، مرجع سابق ، ص ٧٢ .

(٥٧) **أبو القاسم الشابي** ، أغاني الحياة ، مرجع سابق ، ص ١٥٣ .

(٥٨) **عبد القادر القط** ، الاتجاه الوجداني ، مرجع سابق ، ص ٣٤٢ .

(٥٩) **أبو القاسم الشابي** ، أغاني الحياة ، مرجع سابق ، ص ص ٢٢ – ٢٣ .

(٦٠) **خليفة محمد التليسي** ، الشابي وجبران ، مرجع سابق ، ص ٩٣ .

(٦١) **أبو القاسم الشابي** ، أغاني الحياة ، مرجع سابق ، ص ٤٩ .

(٦٢) **أبو القاسم الشابي** ، المرجع السابق ، ص ٦٠ .

(٦٣) **محمد الحليوي** ، رسائل الشابي ، مرجع سابق ، ص ٢٧ .

(٦٤) **ثامر حسن جاسم** ، البحث النفسي ، مرجع سابق ، ص ص ٤٢ – ٤٣ .

(٦٥) **أبو القاسم الشابي** ، أغاني الحياة ، مرجع سابق ، ص ٦٩ .

(٦٦) **أبو القاسم الشابي** ، المرجع السابق ، ص ٥٦ .

(٦٧) **أنس داود** ، الرؤية الداخلية للنص الشعري ، محاولة في تأصيل منهج ، ط ١ ، القاهرة ، مكتبة عين شمس ، ص ٣٤ .

(٦٨) **أبو القاسم الشابي** ، ديوانه ، دراسة وتقديم عز الدين اسماعيل ، بيروت ، دار العودة ، ١٩٨٨م ، ص ١٨٢ .

(٦٩) **أبو القاسم الشابي** ، أغاني الحياة ، مرجع سابق ، ص ١١٢ .

(٧٠) **مدحت سعد محمد الجبار** ، الصورة الشعرية ، مرجع سابق ، ص ص ٤٧ – ٤٨ .

(٧١) **أبو القاسم الشابي** ، أغاني الحياة ، مرجع سابق ، ص ٤٤ .

(٧٢) **رجاء النقاش** ، أبو القاسم الشابي ، مرجع سابق ، ص ص ٢٩ – ٣٠ .

(٧٣) **أبو القاسم الشابي** ، ديوانه ، مرجع سابق ، ص ص ٢٠٣ – ٢٠٤ .

(٧٤) **أبو القاسم الشابي** ، أغاني الحياة ، مرجع سابق ، ص ١٠٨ .

(٧٥) **أبو القاسم الشابي** ، ديوانه ، مرجع سابق ، ص ٢١٠ .

(٧٦) **أبو القاسم الشابي** ، أغاني الحياة ، مرجع سابق ، ص ص ١١٢ – ١١٣ .

(٧٧) **أبو القاسم الشابي** ، المرجع السابق ، ص ص ١١٢ – ١١٣ .

(٧٨) **مدحت سعد محمد الجبار** ، الصورة الشعرية ، مرجع سابق ، ص ١٠٥ .

(٧٩) **خليفة محمد التليسي** ، الشابي وجبران ، مرجع سابق ، ص ١٠٢ .

(٨٠) **أبو القاسم الشابي** ، أغاني الحياة ، مرجع سابق ، ص ٧٨ .

(٨١) **أبوالقاسم الشابي** ، المرجع السابق ، ص ٨٣ .

(٨٢) **رجاء النقاش** ، أبوالقاسم الشابي ، مرجع سابق ، ص ص ٥١ – ٥٢ .

(٨٣) **أبو القاسم الشابي** ، أغاني الحياة ، مرجع سابق ، ص ٥٦ .

(٨٤) **خليفة محمد التليسي** ، الشابي وجبران ، مرجع سابق ، ص ٧٧ .

(٨٥) **أبو القاسم الشابي** ، أغاني الحياة ، مرجع سابق ، ص ١٢٦ .

(٨٦) **رجاء النقاش** ، أبوالقاسم الشابي ، مرجع سابق ، ص ٤٢ .

(٨٧) **أبو القاسم الشابي** ، أغاني الحياة ، مرجع سابق ، ص ١١٥ .

(٨٨) **عبد القادر القط** ، الاتجاه الوجداني ، مرجع سابق ، ص ٣٤٣ .
(٨٩) **طلعت عبد العزيز أبو العزم** ، الرؤية الرومانسية ، مرجع سابق ، ص ١٠٦ .
(٩٠) **أبو القاسم الشابي** ، أغاني الحياة ، مرجع سابق ، ص ٦٠ .
(٩١) **أبو القاسم الشابي** ، المرجع السابق ، ص ١٠٩ .
(٩٢) **مدحت سعد محمد الجبار** ، الصورة الشعرية ، مرجع سابق ، ص ٨٥ .
(٩٣) **أبو القاسم الشابي** ، أغاني الحياة ، مرجع سابق ، ص ٨٣ – ٨٤ .
(٩٤) **أبا عوض أحمد** ، **الفارابي عبد اللطيف** ، الحركات الفكرية ، مرجع سابق ، ص ٣١٩ .
(٩٥) **أبو القاسم الشابي** ، أغاني الحياة ، مرجع سابق ، ص ص ١١٠ – ١١١ .
(٩٦) **أبو القاسم الشابي** ، المرجع السابق ، ص ٦٣ .
(٩٧) **عمر فروخ** ، الشابي ، مرجع سابق ، ص ١٦٦ .
(٩٨) **سير موريس بورا** ، الخيال الرومانسي ، ترجمة إبراهيم الصيرفي ، القاهرة ، الهيئة المصرية للكتاب ، ١٩٧٧م، ص ٥ .
(٩٩) **أبو القاسم الشابي** ، أغاني الحياة ، مرجع سابق ، ص ١٢٧ .
(١٠٠) **أبو القاسم الشابي** ، المرجع السابق ، ص ١٥٦ .
(١٠١) **أبو القاسم الشابي** ، المرجع السابق ، ص ٩١ .
(١٠٢) **أبو القاسم الشابي** ، المرجع السابق ، ص ١٥١ .
(١٠٣) **رجاء النقاش** ، أبو القاسم الشابي ، مرجع سابق ، ص ص ٤٤ – ٤٥ .
(١٠٤) **أبو القاسم الشابي** ، أغاني الحياة ، مرجع سابق ، ص ٥٣ .
(١٠٥) **أبو القاسم الشابي** ، المرجع السابق ، ص ص ١٢٣ – ١٢٤ .
(١٠٦) **أبو القاسم الشابي** ، المرجع السابق ، ص ص ٥٣ – ٥٤ .
(١٠٧) **محمد الحليوي** ، رسائل الشابي ، مرجع سابق ، ص ٤٥ .
(١٠٨) **رجاء النقاش** ، أبوالقاسم الشابي ، مرجع سابق ، ص ٩ .
(١٠٩) **أبو القاسم الشابي** ، أغاني الحياة ، مرجع سابق ، ص ٤٣ .
(١١٠) **خليفة محمد التليسي** ، الشابي وجبران ، مرجع سابق ، ص ٩٧ .
(١١١) **أبو القاسم الشابي** ، أغاني الحياة ، مرجع سابق ، ص ١٧٦ .
(١١٢) **خليفة محمد التليسي** ، الشابي وجبران ، مرجع سابق ، ص ٩٥ .
(١١٣) **أبو القاسم محمد كرو** ، الشاعر الشابي ، مرجع سابق ، ص ٢٥ .
(١١٤) **أبو القاسم الشابي** ، أغاني الحياة ، مرجع سابق ، ص ٦٢ .
(١١٥) **أبو القاسم الشابي** ، المرجع السابق ، ص ٧٣ .
(١١٦) **أبو القاسم الشابي** ، المرجع السابق ، ص ١٣١ .
(١١٧) **أبو القاسم الشابي** ، المرجع السابق ، ص ٥٧ .
(١١٨) **محمد مصطفى هداره** ، دراسات في الشعر العربي ، تحليل لظواهر أدبية ولشعراء ، الاسكندرية ، منشأة المعارف ، ص ١٨١ .
(١١٩) **خليفة محمد التليسي** ، الشابي وجبران ، مرجع سابق ، ص ٩١ .

(١٢٠) **أبو القاسم الشابي** ، أغاني الحياة ، مرجع سابق ، ص ص ١٢٩ – ١٣٠ .
(١٢١) **أبو القاسم الشابي** ، المرجع السابق ، ص ٥٢ .
(١٢٢) **أبو القاسم الشابي** ، المرجع السابق ، ص ٥٣ .
(١٢٣) **أبو القاسم الشابي** ، المرجع السابق ، ص ٤٩ .
(١٢٤) **أبو القاسم الشابي** ، المرجع السابق ، ص ١٣٨ .
(١٢٥) **محمد الحليوي** ، رسائل الشابي ، مرجع سابق ، ص ٢٥ .
(١٢٦) **أبو القاسم الشابي** ، أغاني الحياة ، مرجع سابق ، ص ١٣٦ .
(١٢٧) **أبو القاسم الشابي** ، المرجع السابق ، ص ٣٢ .
(١٢٨) **أبو القاسم الشابي** ، المرجع السابق ، ص ٣٢ .
(١٢٩) **أبو القاسم الشابي** ، المرجع السابق ، ص ١٣٣ .
(١٣٠) **أبو القاسم الشابي** ، ديوانه ، مرجع سابق ، ص ٣٥١ .
(١٣١) **أبو القاسم الشابي** ، أغاني الحياة ، مرجع سابق ، ص ٤٧ .
(١٣٢) **أبو القاسم الشابي** ، المرجع السابق ، ص ٥٢
(١٣٣) **أبو القاسم الشابي** ، المرجع السابق ، ص ١٧ .
(١٣٤) **أبو القاسم الشابي** ، المرجع السابق ، ص ١٨٦ .
(١٣٥) **أبو القاسم الشابي** ، المرجع السابق ، ص ٣٨ .
(١٣٦) **أبو القاسم الشابي** ، المرجع السابق ، ص ٧٦ .
(١٣٧) **أبو القاسم الشابي** ، المرجع السابق ، ص ٧٧ .
(١٣٨) **شوقي ضيف** ، دراسات في الشعر ، مرجع سابق ، ص ١٥٧ .
(١٣٩) **طلعت عبد العزيز أبو العزم** ، الرؤية الرومانسية ، مرجع سابق ، ص ٧٤ .
(١٤٠) **أبو القاسم الشابي** ، أغاني الحياة ، مرجع سابق ، ص ص ٩٥ – ٩٦ .

المراجـــع

أبو العزم ، **طلعت عبد العزيز** ، الرؤية الرومانسية للمصير الإنساني لدى الشاعر العربي الحديث ، الاسكندرية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، فرع الاسكندرية ، ١٩٨١م .

أحمد ، **أباعوض وعبداللطيف** ، **الفارابي** ،الحركة الفكرية والأدبية فى العالم العربي الحديث ، المغرب ، دار الثقافة ، ١٩٨٣م .

بورا ، **سير موريس** ، الخيال الرومانسي ، ترجمة إبراهيم الصيرفي ، القاهرة ، الهيئة المصرية للكتاب ، ١٩٧٧ .

التليسي ، **خليفة محمد** ، الشابي وجبران ، بيروت ، دار الثقافة ، د . ت .

جاسم ، **ثامر حسن** ، البحث النفسي فى إبداع الشعر ، العراق ، وزارة الإعلام ، ١٩٨٦م .

الجبار ، مدحت سعد محمد ، الصورة الشعرية عند أبي القاسم الشابي ، دار العربية ، ١٩٨٤م .
الحليوي ، محمد ، رسائل الشابي ، تونس ، منشورات المغرب العربي ، ١٩٦٦م .
داود ، أنس ، الرؤية الداخلية للنص الشعري ، محاولة في تأصيل منهج ، ط ١ ، القاهرة ، مكتبة عين شمس .
سويف ، مصطفى ، الأسس النفسية للإبداع الفني فى الشعر خاصة ، القاهرة ، دار المعارف ، د . ت .
الشابي ، أبو القاسم ، أغاني الحياة ، تونس ، منشورات دار الكتب الشرقية ، ١٩٥٥م .
الشابي ، أبو القاسم ، ديوانه ، دارسة وتقديم عز الدين إسماعيل ، بيروت ، دار العودة ، ١٩٨٨م .
شارة ، عبد اللطيف ، الشابي ، بيروت ، دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٣٩٩هـ ، ١٩٧٩م .
ضيف ، شوقي ، دراسات فى الشعر العربي المعاصر ، القاهرة ، دار المعارف ، د . ت .
فروخ ، عمر ، الشابي ، شاعر الحب والحياة ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦٠م .
فشوان ، محمد سعد ، مدرسة أبولو الشعرية فى ضوء النقد الحديث ، القاهرة ، دار المعارف ، د . ت .
القط ، عبد القادر ، الاتجاه الوجداني فى الشعر العربي المعاصر ، القاهرة ، مكتبة الشباب ، ١٩٧٨م .
كرو ، أبو القاسم محمد ، الشاعر الشابي ، حياته وشعرة ، بيروت ، المكتبة العلمية ، ١٩٥٤م .
مكي ، الطاهر أحمد ، الشعر العربي المعاصر ، روائعه ومدخل لقراءته ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٠م .
مندور ، محمد ، الشعر المصري بعد شوقي ، «الحلقة الثانية جماعة أبولو» القاهرة ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، د . ت .
النقاش ، رجاء ، أبو القاسم الشابي ، شاعر الحب والثورة ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٥م .
هدارة ، محمد مصطفى ، دراسات فى الشعر العربي ، تحليل لظواهر أدبية ولشعراء ، الاسكندرية ، منشأة المعارف ، د . ت .

Aspects of Sadness in the Poetry of al-Shabi

DEIFALLA HILAL AL-OTEIBI
Assistant Professor, Arabic Dept., Faculty of Arts and Humanities, King Abdulaziz University, Jeddah, Saudi Arabia

ABSTRACT. Old Arabic literature, Taha Hussein's prose and the French and German romantic schools had great influence on al-Shabi. His literary works are full of references to his sadness and feelings of alienation. This was, perhaps, due to the fact that he lost his father and his beloved lady in addition to his poor health as well as his awareness of the suffering of his countrymen at the hands of the colonizers.

His psychological problems intensified and he became a pessimist. However, he had his moments he felt a surge of ambition and rebellion. One gets the impression that al-Shabi was also influenced by al-Mutanabi in his poetry. To get over his negative feelings, al-Shabi wrote many poems about nature. This provide him with a means of expression both his sadness and happiness.

His poetry depicts his sadness and the sadness of others. He draws terrifying pictures of death in his literary works. Elements of psychological contemplation in his work show that he was influenced also by Abu al-Alaa al-Mi'ari, though he differs from the latter in his ideaş and philosophy. Al-Shabi's work also shows aspects of what came to be known as the "philosophy of weakness".

مجلة جامعة الملك عبدالعزيز : الآداب والعلوم الإنسانية ، م ٥ ، ص ص ٢٠١ - ٢٣٤ (١٤١٢هـ/١٩٩٢م) .

تعليم المكتبات والمعلومات فى الجامعات العربية (١٩٥١ - ١٩٩١)
دراسة لواقع التعليم على مستوى الدرجة الجامعية الأولى

أسامة السيد محمود على

أستاذ مساعد ، قسم المكتبات والمعلومات ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ،
جامعة الملك عبدالعزيز ، جدة ، المملكة العربية السعودية

المستخلص : تناول هذا البحث واقع تعليم المكتبات والمعلومات على مستوى درجة البكالوريوس أو الليسانس فى الجامعات العربية ، حيث ضم ١٧ قسما ومعهدا ومدرسة من ٩ دول عربية ، وتتبع تاريخ وتطور هذه المؤسسات خلال فترة زمنية امتدت من ١٩٥١ إلى ١٩٩١ .

وقد ركز البحث على دوافع إنشاء أقسام تعليم المكتبات والمعلومات والارهاصات التي سبقت هذا التعليم الجامعي ، ثم تناول انتهاء هذه المؤسسات واسمائها ومدلولاتها وتأثير ذلك على النظام الدراسي المتبع والمقررات والبرامج الموجودة ، ثم تناول البحث هذه المقررات والبرامج بالتفصيل ومقدار شمولها لكل إطار علم المكتبات والمعلومات ، والتوزيع النسبي الإحصائى على هذا الإطار ، والإمكانيات البشرية والتجهيزية الموجودة فى هذه الأقسام . وقد تبين من هذا البحث أن أقسام المكتبات والمعلومات افتتحت مواكبة لظروف التنمية الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية والثقافية فى الدول العربية ، وأنه باستثناء موريتانيا واليمن والإمارات والبحرين ولبنان وسوريا والأردن ، فإن هناك أقسام لتعليم المكتبات والمعلومات على مستوى الدرجة الجامعية الأولى . بل أن هناك عدة أقسام فى المملكة العربية السعودية ومصر . كما تبين أن معظم الأقسام تنتمي إلى كليات الآداب والإنسانيات ، وتمنح درجة الليسانس وقليل منها تسمح نظمه الدراسية باختيار الطلاب لمقررات دراسية وتراوحت نظم الدراسة ما بين الساعات المعتمدة والفصول أو الأعوام الدراسية ، كما تراوحت عدد الساعات أو المقررات التي يدرسها الطلاب من قسم إلى آخر . وتبين أن تركيز البرامج الدراسية كان على المقررات التي تعرف الطالب كيفية أداء وظيفة محددة داخل المكتبات ومراكز المعلومات بعد ذلك وأن المقررات من خارج علم

المكتبات والمعلومات المفروضة من الكلية أو الجامعة تبتلع مابين $\frac{١}{٣}$ إلى $\frac{١}{٢}$ ما يدرسه الطالب . كما تبين وجود نقص فى أعضاء هيئة التدريس والتجهيزات والمعامل والمكتبات التي تساند عملية التعليم ، وإن تراوحت نسبة النقص من قسم إلى آخر .

مقدمـــة

تمهيــد

هناك ارتباط بين ظهور ونمو وتطور تعليم المكتبات والمعلومات فى أي دولة أو مجتمع ، وبين نشاطات وجهود التنمية الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية والثقافية والعلمية ، ذلك أن أي خطط للتنمية تتطلب وجود مصادر معلومات قوية وحديثة ومنظمة تساند عمليات التعليم والبحث والإدارة ، وتكفي لإمداد المخططين وأعضاء هيئة التدريس والطلاب والباحثين ومتخذي القرارات بالمعلومات الضرورية لمواصلة أداء أعمالهم . وعندما يبدأ إنشاء المكتبات ومراكز المعلومات التي تمد هؤلاء بالخدمات ، سرعان مايظهر وجود عجز فى أمناء المكتبات وأخصائي المعلومات المؤهلين والمدربين على تسيير العمل وإدارة هذه المرافق ، ومن هنا عادة تظهر الحاجة بوضوح إلى افتتاح أقسام أو معاهد أو كليات للمكتبات والمعلومات لتتولى إعداد الكوادر البشرية .

وإذا كانت العلاقات والارتباطات السابقة واضحة ومعروفة فى كل الدول والمجتمعات ، فإنها أشد ماتكون وضوحا فى الدول والمجتمع العربي ، فبدايات تعليم المكتبات والمعلومات جاءت مع التوسع فى عمليات التعليم واستقلال هذه الدول ، وانتشار هذا التعليم وتطوره هو الآخر جاء مع زيادة نسبة التنمية الاقتصادية والاجتماعية والعلمية والثقافية فى هذا المجتمع .

هدف البحث وأهميته

يهدف هذا البحث إلى إلقاء الضوء على واقع تعليم المكتبات والمعلومات فى الجامعات بالدول العربية التي تتوافر فيها أقسام أو معاهد لتعليم هذا التخصص ، ومعرفة ظهور وتطور هذا التعليم منذ عام ١٩٥١ وهو بداية تعليم المكتبات والمعلومات فى جامعة القاهرة وحتى بداية عام ١٩٩١ ، ومكونات هذه الأقسام والمعاهد وانتماثها الأكاديمي ونظام الدراسة والشهادات الممنوحة وأعضاء هيئة التدريس من حيث العدد والنوع والبرنامج أو البرامج الدراسية الموجودة ، والإمكانيات المتوافرة من حيث الأجهزة والمعامل والمكتبات ، علاوة على أعضاء هيئة التدريس .

ويهدف هذا البحث بصفة أساسية إلى التعرف الدقيق على واقع التعليم الرسمي للمكتبات والمعلومات داخل الجامعات العربية على مستوى الدرجة الجامعية الأولى ، وتقييم هذا الوضع ومعرفة أوجه القوة والضعف فى مكونات وعناصر هذا التعليم وتحديد أهم العقبات التي تواجهه ، ويزيد من أهمية هذا البحث سرعة إيقاع التطورات التي حدثت فى تعليم المكتبات والمعلومات فى الجامعات العربية خلال

الأربعة عقود موضوع الدراسة ، ووجود تيارات وآراء مختلفة حول أساسيات وعناصر ومكونات هذا التعليم ، وخاصة انتماءات معاهده وأقسامه إلى المؤسسة الجامعية الأم ، وحول مكونات برامجه الدراسية ومقرراته ، وعدم وجود دراسات مفصلة وحديثة سابقة غطت هذا القطاع الواسع من التعليم .

الدراسات السابقة

حصرت أدلة الإنتاج الفكري العربي فى المكتبات والمعلومات [١] أكثر من ٢٧٠ عملا مختلفا ظهرت فى موضوع تعليم المكتبات والمعلومات فى العالم العربي ، ولو استبعدنا منها ماكتب وتناول قضية التعليم خارج الجامعات العربية ، أو الإنتاج العالمي المترجم إلى العربية فى هذا الموضوع ، لبقي لنا أكثر من مائتين من الأعمال التي تناولت التعليم والإعداد والتأهيل . ونادره هي تلك الدراسات السابقة من العدد المتبقي التي تناولت تعليم المكتبات والمعلومات فى الجامعات العربية بشكل شامل ، ولعل أهمها من وجهة نظر الباحث هي دراسة عبدالله الشريف التي حصل بها على درجة الدكتوراه فى المكتبات من الولايات المتحدة عام ١٩٧٧ ، والتي صدرت بعد ذلك فى كتاب [٢] ورغم شمول الدراسة ، إلا أن معلوماتها تتقادم إلى أكثر من خمسة عشر عاما إلى الوراء الآن ، جدت فيها أقسام ومقررات ولوائح ونظم ووجهات نظر جديدة تماما . وهناك دراسة عبدالباقي الدالي [٣] التي تناولت تاريخ وتطور وإمكانيات المؤسسات الموجودة ، ولكنها لم تقتصر على الجامعات فقط ، كما أنها اعتمدت أساسا على المعلومات التي كانت تجمعها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم لإصدار دليل لمؤسسات تعليم المكتبات والمعلومات جمعت معلوماته فى أوائل الثمانينيات وصدر عام ١٩٨٤م [٤] ومعلوماته قاصرة فى معظمها على السبعينيات ، كما أن دراسة الدالي جاءت مختصرة ولم تحلل المقررات الدراسية الموجودة واتبعت المنهج الوصفي التقريري ولم تقيم الوضع القائم .

ومعظم الدراسات السابقة تقع داخل إطار تناول قضايا التعليم داخل دولة واحدة ، ومعظمها اتبع الجانب الوصفي والتقريري ، وأكثرها كتب عن مصر والعراق والأردن وتونس والمغرب والمملكة العربية السعودية ، وأبرزها عن مصر هي دراسة محمد مجاهد التي قدمت كأطروحة ماجستير إلى جامعة القاهرة [٥] والتي تناولت بشمول واقع تعليم المكتبات فى مصر حتى منتصف السبعينيات وخاصة فى مجال العاملين فى المكتبات العامة ، ولم تقتصر على البرامج الجامعية ، وإنما شملت أيضا الدورات التدريبية ، وهناك التقرير الشامل الذى أعدة الأستاذ محمد المهدي [٦] عن التطور التاريخي لدراسة علوم الوثائق والمكتبات فى مصر حتى عام ١٩٦٤ ، والذى دعمه بإحصائيات دقيقة عن عدد الساعات فى البرامج الدراسية وتطورها وأعداد الأساتذة والطلاب ، وهناك دراسة للباحث الحالي جاءت كجزء من أطروحته للدكتوراه [٧] وتناول فيها بشكل تقييمي واقع تعليم المكتبات والمعلومات فى مصر فى جامعات القاهرة وحلوان والاسكندرية ، وكذلك برامج أخرى تمنح شهادات جامعية فى المعلومات من معهد الدراسات والبحوث الإحصائية بجامعة القاهرة وأكاديمية السادات للعلوم الإدارية ، وأحدث تلك الدراسات التقرير الشامل الذى قدمه الدكتور محمد فتحي عبدالهادي [٨] إلى ندوة إعداد اخصائي المكتبات والوثائق

والمعلومات فى مصر بين الحاضر والمستقبل ، والذى تناول فيه واقع البرامج الجامعية مقدما أحدث معلومات متاحة فى سلسلة الدراسات السابقة عن مصر . أما بالنسبة للعراق ، فإن هناك دراسة عبدالكريم الأمين (٩) عن تاريخ وتطور وواقع تعليم المكتبات فى الجامعات العراقية حتى منتصف السبعينيات ، ثم الدراسة الحديثة التي أعدها زكي الوردي (١٠) والتي أكملت المعلومات المتاحة إلى عام ١٩٨٧ . ولو انتقلنا إلى الأردن فهناك عدد وفير من الدراسات والكتابات السابقة أبرزها أطروحة الماجستير التي أعدها سليمان حسين مصطفى (١١) واستعرضت بالتفصيل نشأة وتطور التعليم فى الأردن داخل وخارج الجامعات الأردنية ومعوقاته حتى بداية الثمانينيات وهي تشبه إلى حد كبير الدراسة المسحية التى أعدها محمد مجاهد عن مصر ، ثم دراسة عبدالرازق يونس (١٢) عن مقررات ومناهج التعليم فى الجامعة الأردنية . أما بالنسبة لتونس ، فعدد الدراسات السابقة وبالذات باللغة العربية قليل وأبرزها دراسة عبدالباقي الدالي (١٣) التي استعرضت أوضاع تعليم المكتبات والمعلومات فى تونس فى ظل الاحتياج للعاملين وضآلة الإمكانيات المتاحة ، خاصة أعضاء هيئة التدريس وعدم إقبال الدارسين ، وهناك عن المغرب دراسة محمد بن جلون (١٤) التي اقتصرت على استعراض وتنظيم مقررات مدرسة علوم الإعلام بالرباط وهي الجهة الوحيدة لإعداد الكوادر البشرية فى هذا المجال بالمغرب . وتتعدد الدراسات المتاحة عن السعودية ، كان أولها دراسة الحلوجي (١٥) عن بدايات التعليم فى السبعينيات فى قسمي جامعتي الملك عبدالعزيز والإمام محمد بن سعود ومشكلات التعليم فى تلك المرحلة ، ثم الدراسة الشاملة لأنس طاشكندي (١٦) عن تطور وتاريخ والاحتياج وواقع تعليم المكتبات فى المملكة ، ودراسة السريع (١٧) التي أكملت الصورة التى بدأها أنس طاشكندي حتى منتصف الثمانينيات .

وبجانب الدراسات السابقة التي اقتصرت على دولة واحدة وأوضاع التعليم بها ، فهناك دراسات أخرى اقتصرت على جانب واحد من جوانب التأهيل والتعليم فى الجامعات العربية ، كدراسة محمد فتحي عبدالهادي (١٨) عن أوضاع وأعداد أعضاء هيئة التدريس الذين يتولون تدريس علوم المكتبات والمعلومات فى أقسام ومعاهد الجامعات العربية ، ودراسة ناصر السويدان عن وسائل وأساليب التدريس والتدريب المستخدمة (١٩) . ولا ينبغي قبل أن ننتهي من الجزء المتعلق بالدراسات السابقة أن نغفل ثلاثية الدكتور سعد الهجرسي (٢٠) التي وضع فيها انطباعاته وخبراته الميدانية عن تعليم المكتبات والمعلومات فى دول العالم العربي وعلاقاتها بالمؤسسات التي تنتمي إليها ، ووضع إطار للمقررات فى المكتبات والمعلومات وحدد المتطلبات الأساسية التي ينبغي أن تتوافر فى هذه الأقسام ، أيضا بحث الدكتور عباس طاشكندي (٢١) الذى قيم فيه أوضاع تعليم المكتبات والمعلومات فى الجامعات العربية ، وبالذات مايتعلق بمقرراته وبرامجه ومقدار توافقها مع واقع المكتبات ومراكز المعلومات العربية .

مجال البحـــث

عندما شرع الباحث فى الإعداد لهذا البحث ، كان يعتزم تغطية كل مايختص بالتعليم الرسمي بالجامعات العربية فى مجال المكتبات والمعلومات على كافة مستويات الدرجات الجامعية الممنوحة

(بكالوريوس أو ليسانس – دبلومات الدراسات العليا – الماجستير – الدكتوراه) ، إلا أنه وجد أنه من الصعب التطرق إلى كافة جوانب هذا المجال على اختلاف مستوياته ودرجاته الجامعية فى جزء واحد ، ولهذا فضل تقسيم البحث إلى جزئين ، الأول يتناول كل مايختص بالتعليم على مستوى الدرجة الجامعية الأولى (بكالوريوس أو ليسانس) والثاني يخصص للتعليم على مستوى الدراسات العليا . وهذا الجزء سيخصص لتعليم المكتبات والمعلومات فى الجامعات العربية على مستوى الدرجة الجامعية الأولى فقط (البكالوريوس والليسانس) وسيتناول كل أقسام ومعاهد المكتبات والمعلومات التى تعطي شهادات جامعية على هذا المستوى ، وسيعقبه بإذن الله الجزء الثاني الذى سيتناول التعليم على مستوى الدراسات العليا فى المكتبات والمعلومات بالجامعات العربية .

وفى ضوء هذا التحديد فإن الجزء الأول الذى بين أيدينا سوف يتناول سبعة عشر من أقسام ومعاهد المكتبات والمعلومات موزعة على خمس عشر من الجامعات العربية ، علاوة على مدرسة علوم الاعلام بالمغرب التي تتبع وزارة التخطيط ، وهذه الجامعات توجد فى ٩ دول عربية ، والجدول التالي رقم (١) يمثل الأقسام والمعاهد والمدارس والمؤسسات التابعة لها ، والدول الموجودة بها ، والتي سيتضمنها هذا الجزء من البحث .

جدول رقم (١)
الأقسام والمعاهد والمؤسسات والدول التي شملها الجزء الأول من الدراسة

الدولـــة	الجامعة أو المعهد أو المؤسسة	القسم أو المعهـــــد
تونـــس	معهد الصحافة وعلوم الأخبار	قسم المكتبات والتوثيق والتخزين
الجزائـــر	جامعة الجزائر	معهد علوم المكتبات والتوثيق
المملكة العربية السعودية	جامعة الملك عبدالعزيز	قسم المكتبات والمعلومات
	جامعة الإمام محمد بن سعود	قسم المكتبات
	جامعة الملك سعـــود	قسم علوم المكتبات والمعلومات
	جامعة أم القـــرى	قسم المكتبات والمعلومات
السـودان	جامعة أم درمان الإسلامية	قسم الوثائق والمكتبات
العـراق	جامعة المستنصريـة	قسم المكتبات
	جامعة البصـــرة	قسم علم المكتبات
عمـــان	جامعة قابوس	قسم المكتبات والوثائق
ليبيـا	جامعة الفاتـح	قسم المكتبات
مصــر	جامعة القاهرة	قسم المكتبات والوثائق
		قسم المكتبات والوثائق – فرع بني سويف .
	جامعة الاسكندرية	قسم الوثائق والمكتبات
	جامعة حلـوان	شعبة المكتبات والوسائل التعليمية
	جامعة طنطـــا	قسم المكتبات والوثائق
المغـــرب	وزارة التخطيط	مدرسة علوم الأعلام .

ويلفت الباحث الانتباه إلى أن هناك قسماً آخر للمكتبات يمنح درجة البكالوريوس فى المكتبات فى دولة الكويت ، ولكن للأسف لم يتيسر للباحث أن يستكمل معلوماته الأساسية عن هذا القسم ، لأنه فى وقت إعداده لهذه الدراسة كانت الأحداث الأخيرة بالكويت قد أدت إلى إغلاق الجامعات والمعاهد هناك ، ولم يكن قد استكمل معلوماته . كما كانت هناك كلية للإعلام والتوثيق بالجامعة اللبنانية فى بيروت بها قسم مشترك للإعلام والتوثيق يتخصص الطالب فى إحدى الشعبتين فى السنة الثالثة استمر لفترة قصيرة وتوقف فى نهاية السبعينيات بسبب ظروف الحرب الأهلية للبنانيين ، وبالتالي لم يضم إلى هذه الدراسة ، كما كانت جامعة قطر تضم قسما للتاريخ والمكتبات معا ، ولكن تمت تصفية شعبة المكتبات اكتفاء بدبلوم دراسات عليا فى المكتبات ، وبالتالي لم يضم هذا القسم إلى هذا الجزء من الدراسة أيضا ، وهناك إشارة (٢٢) إلى وجود شعبة للمكتبات بكل من جامعة وهران وجامعة قسنطينة بالجزائر منذ عام ١٩٨٤ ، ولكن لم يتوافر للباحث أي معلومات عنهما للأسف ، كما أنه من الثابت أن هناك برنامجاً لتعليم المكتبات بكليةالآداب بالرئاسة العامة لتعليم البنات بالرياض بالمملكة العربية السعودية (٢٣) ، وللأسف لم تتناول هذا القسم بالتفصيل أي دراسة سابقة ، كما أن القسم لم يستجب بالرد على أي استفسارات وجهت إليه من قبل الباحث ، وبالتالي سيستبعده أيضا من هذه الدارسة رغم أنه يمنح درجة بكالوريوس الآداب بعد دراسة ٤ سنوات فى تخصص المكتبات .

وسوف يتناول الباحث تاريخ وتطور كل وحدة أكاديمية من الوحدات التي حددها سابقا والتي يضمها الجدول السابق ، ثم اسماء واتجاهات الوحدات والشهادات الدراسية الممنوحة ونظام الدراسة والمقررات الدراسية اعتمادا على أدلة هذه الوحدات ولوائحها الرسمية ، وخاصة تلك التي أعدت توصيفا كاملا لهذه المقررات ، ثم الإمكانات المتاحة من أعضاء هيئة التدريس ومبان وأجهزة ومكتبات فى عناصر مستقلة متتابعة ، وسوف يركز الباحث معلوماته على أحدث المعلومات المتاحة وبالذات فى فترة الثمانينيات فى كافة العناصر ، ما عدا التمهيد التاريخي الذى سوف يتعرض فيه لتاريخ هذه الوحدات منذ افتتاحها .

المنهج وخطوات البحث

بعد الاستقرار على الأقسام التي سوف يتم تناولها فى هذا الجزء من الدراسة ، قام الباحث بتجميع كل ما كتب عن تعليم المكتبات والمعلومات فى الجامعات العربية وفصل مايتعلق بالتعليم على مستوى المرحلة الجامعية الأولى ، كما قام باستعراض ماكتب عن الاتجاهات الجارية فى هذا المجال فى الدول الأخرى ، مستخدما أدوات الضبط الأساسية فى المجال ، وخاصة أدلة الإنتاج الفكري العربي فى المكتبات والمعلومات التي يعدها الدكتور محمد فتحي عبدالهادي والتي سبق الإشارة إليها سابقا ، ومستخلصات علم المكتبات والمعلومات Library & Information Science Abstract .

ثم قام الباحث بتجميع اللوائح الرسمية والأدلة التي أعدتها أقسام المكتبات بالجامعات العربية ، والتي تحتوي علي البرامج والمقررات والشهادات والإمكانيات الممنوحة ، كما قام الباحث بعدة اتصالات شخصية بأساتذته وزملائة المنتشرين بمعظم هذه الأقسام للحصول على توصيف المقررات الدراسية للأقسام التي لم تنشر هذا التوصيفات بشكل رسمي (*) مستخدما المنهج المسحي لجمع هذه المعلومات . بعد ذلك تم استعراض هذه المعلومات وتحليلها باستخدام المنهج التاريخي فى العنصر الأول المتعلق بتطورات المؤسسات الأكاديمية والمنهج المقارن فى باقي العناصر ، مع استخدام الأساليب الإحصائية الملائمة فيما يتعلق بتحليل المقررات الدراسية ، واستخدم الباحث خطة تقسيم المقررات الدراسية التي وضعها الدكتور سعد محمد الهجرسي [٢٤] فى عرض هذه المقررات فى فئات متجانسة ، مع اختتام كل عنصر من العناصر التي سيتعرض لها هذا الجزء من البحث بالمؤشرات التي كشف عنها التحليل والمقارنات بين المؤسسات وبعضها ، وبين المؤسسات العربية والأجنبية .

جوانب الدراسة ونتائجها النوعية

أولا : تاريخ وتطور أقسام ومدارس المكتبات والمعلومات العربية فى التعليم على مستوى الدرجة الجامعية الأولى

يشمل الجدول التالي رقم (٢) أسماء الأقسام التي تمنح الدرجة الجامعية الأولى فى الجامعات العربية مرتبة تاريخيا حسب تاريخ افتتاح القسم .

(*) يتقدم الباحث بالشكر العميق للأساتذة والزملاء الذين ساعدوه فى هذا الصدد ويخص بالذكر (حسب الترتيب الهجائي للأسماء) الدكتور حسني الشيمي من جامعة الإمام سابقا والأستاذ الدكتور سعد محمد الهجرسي رئيس قسم علوم المكتبات والمعلومات بجامعة الملك سعود والأستاذه عائشة حمار نائب رئيس المكتبة الوطنية بالجزائر التي أمدته بالمعلومات اللازمة عن الأقسام بليبيا وتونس والجزائر والدكتور فتحي عثمان أبو النجا رئيس قسم المكتبات والمعلومات بجامعة أم القرى والدكتور محمد بن جلون مدير مدرسة علوم الأعلام بالمغرب والمغفور له الدكتور محمد المصري الرئيس السابق لقسم الوثائق والمكتبات بجامة قابوس .

جدول رقم (٢) أسماء الأقسام التي تمنح الدرجات الجامعية الأولى فى الجامعات العربية

م	القسم	الجامعة أو الهيئة التابع لها	الدولة	تاريخ الإنشاء
١	قسم المكتبات والوثائق	جامعة القاهرة	مصر	١٩٥١
٢	قسم المكتبات والوثائق	جامعة أم درمان	السودان	١٩٦٦
٣	قسم المكتبات والمعلومات	جامعة الملك عبدالعزيز	المملكة العربية السعودية	١٩٧٣
٤	قسم المكتبات	جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية	"	١٩٧٤
٥	مدرسة علوم الأعلام	وزارة التخطيط	المغرب	١٩٧٤
٦	معهد علوم المكتبات والتوثيق	جامعة الجزائر	الجزائر	١٩٧٥
٧	قسم المكتبات	جامعة الفاتح	ليبيا	١٩٧٦
٨	قسم المكتبات والتوثيق والتخزين .	معهد الصحافة وعلوم الأخبار	تونس	١٩٧٩
٩	قسم المكتبات	جامعة المستنصرية	العراق	١٩٧٩
١٠	قسم الوثائق والمكتبات	جامعة الاسكندرية	مصر	١٩٨١
١١	شعبة المكتبات والوسائل التعليمية	جامعة حلوان	"	١٩٨٢
١٢	قسم علم المكتبات	جامعة البصرة	العراق	١٩٨٣
١٣	قسم المكتبات والوثائق	جامعة القاهرة - فرع بني سويف	مصر	١٩٨٥
١٤	قسم علوم المكتبات والمعلومات	جامعة الملك سعود	المملكة العربية السعودية	١٩٨٦
١٥	قسم المكتبات والوثائق	جامعة طنطا	مصر	١٩٨٦
١٦	قسم المكتبات والمعلومات	جامعة أم القرى	المملكة العربية السعودية	١٩٨٧
١٧	قسم المكتبات والوثائق	جامعة السلطان قابوس	عمان	١٩٨٧

ومن الجدول السابق نستطيع أن نخرج بالمؤشرات التالية :

١ - سبقت مصر وجامعة القاهرة جميع الدول والجامعات العربية فى التعليم الأكاديمي للمكتبات والمعلومات بخمسة عشر عاما كاملة ، وكانت هناك إرهاصات منذ ماقبل افتتاح هذا القسم بنحو عشر سنوات لتعليم أكاديمي فى هذا المجال ، بتنظيم عدد من الدورات وإنشاء جمعية متخصصة للمكتبات ظلت تنادي بإدخال تعليم المكتبات إلى جامعة القاهرة (٢٥) . ويمكن القول باطمئنان أن مصر من أول الدول النامية التي بدأت فيها دراسة المكتبات والمعلومات داخل الجامعات مع البرازيل واندونيسيا وكوريا الجنوبية ونيجيريا وباكستان والفلبين وتركيا والارجنتين ، وكلها بدأت فيها الدراسة بين عامي ١٩٥٠ - ١٩٥٥ (٢٦) .

٢ - يلي قسم المكتبات والوثائق بجامعة القاهرة بفترة طويلة قسم الوثائق والمكتبات بجامعة أم درمان الإسلامية ، وكانت تأثيرات قسم جامعة القاهرة واضحة فى تصميم برامجه ، ولا تزال حتى الآن ،

وتعد حركة تطور هذا القسم بطيئة للغاية ويكاد أن يكون النظام والبرامج والمقررات ثابتة منذ افتتاحه حتى الآن أي نحو ربع قرن رغم محاولات تطويره التي تجري الآن (٢٧) .

٣ – قسم المكتبات والمعلومات بجامعة الملك عبدالعزيز ، وقسم المكتبات بجامعة الإمام محمد بن سعود افتتحا فى عامين متتالين ، وكانا أول الأقسام المستقلة فى منطقة الخليج العربي بوجه عام ، وإن كان معهد الإدارة العامة ، قد بدأ فى عقد عدة دورات دراسية لتدريب العاملين بشكل منتظم منذ عام ١٩٦٨ (٢٨) ، وأن انتشار أقسام المكتبات والمعلومات فى منطقة الخليج العربي عموما كان سريعا طوال السبعينيات والثمانينيات بفعل التطورات الاقتصادية والاجتماعية الضخمة التي حدثت بعد ارتفاع أسعار النفط منذ عام ١٩٧٣ .

٤ – انتشار أقسام ومعاهد المكتبات والمعلومات فى شمال افريقيا كان سريعا ومتلاحقا فى سنوات قليلة متعاقبة ، وكلها أيضا جاءت بعد دورات تدريبية عقدت فى معهد على باش بتونس منذ عام ١٩٦٤ ، وفى نفس العام فى وزارة الإعلام بالجزائر (٢٩) .

٥ – رغم أن افتتاح أول قسم مكتبات بالجامعات العراقية على مستوى الدرجة الجامعية الأولى قد تأخر إلى عام ١٩٧٩ ، إلا أن تنظيم الدورات التدريبية فى العراق بدأ فى أوائل الخمسينيات وربما كانت ثاني الدول العربية اهتماما بإعداد اخصائي المكتبات والمعلومات بعد مصر . وزاد الاهتمام بعد ثورة عام ١٩٥٨ والتوسع فى التعليم الجامعي . وبدأت مكتبات الجامعات فى تنظيم أكثر من دورة سنويا لإعداد العاملين بها ، ثم انتقلت عملية الإعداد كبرامج أكاديمية بدبلوم للدراسات العليا لمدة عام دراسي واحد بجامعة بغداد عام ١٩٦٩ ، ثم برنامج آخر نحو ٢٠ شهرا بعد الثانوية العامة فى جامعة المستنصرية بدأ العمل به فى عام ١٩٧٠ (٣٠) . والحقيقة أن المتتبع للبرامج الدراسية فى العراق يلاحظ سرعة التغيير وظهور واختفاء برامج خلال سنوات قليلة . وعلى سبيل المثال فقد توقفت برامج جامعة بغداد عندما توقفت المنح المالية التي كانت تقدمها منظمة اليونسكو ، وتحول برنامج جامعة المستنصرية إلى دبلوم عالي عام ١٩٧٧ ، ثم توقف وافتتح برنامج للبكالوريوس عام ١٩٧٩ ، وأعقبة بكالوريوس جامعة البصرة فى عام ١٩٨٣ (٣١) .

٦ – حدث انتشار سريع لأقسام المكتبات والوثائق فى مصر فى خلال الأعوام من ١٩٨١ – ١٩٨٥ ، وبعد ثلاثة عقود ظل فيها قسم المكتبات بجامعة القاهرة هو القسم الوحيد بمصر ، وهذا التوسع الشديد – رغم التحفظ عليه من بعض الجوانب لقصور إمكانيات الأقسام الجديدة – إلا أنه جاء استجابة للحاجة الشديدة إلى أمناء مكتبات واخصائي معلومات فى المكتبات ومراكز المعلومات المصرية والعربية ، خاصة مع سفر الكثير من الخريجين للعمل فى الدول العربية خاصة دول الخليج ، واستجابة للتوسع فى التعليم الجامعي من ناحية أخرى ، ووجود خمسة أقسام للمكتبات والوثائق فى الجامعات المصرية يجعلها أكثر الدول العربية التي بها أقسام ، وهي أيضا بالمناسبة أول الدول الافريقية ولا يتبعها إلا نيجيريا التي بها ٣ أقسام فى الجامعات النيجيرية (٣٢) .

٧ – نفس الانتشار الذى حدث فى مصر في فترة الثمانينيات ، حدث أيضا فى المملكة العربية السعودية ، فبعد أن ظل القسمان بجامعتي الملك عبدالعزيز والإمام محمد بن سعود لفترة طويلة دون قسم ثالث ، افتتح فى فترة عامين قسمان هما قسم جامعة الملك سعود ، وقسم جامعة أم القرى ، وجاء ذلك أيضا استجابة للتوسع الشديد الذى شهدته الجامعات السعودية فى فترة الثمانينيات بعدمرحلة الطفرة الاقتصادية .

٨ – أحدث أقسام المكتبات العربية حتى الآن هو قسم المكتبات بجامعة السلطان قابوس بعمان ، وجاء أيضا بعد فترة قليلة للغاية من افتتاح الجامعة ذاتها ، وفى نفس مرحلة الطفرة الاقتصادية التي شهدتها دول الخليج العربي ، وبهذا القسم ، لايبقى إلا البحرين والإمارات من دول المنطقة وليس بهما حتى الآن أقسام جامعية للمكتبات والمعلومات .

وقبل الانتقال إلى عنصر آخر من هذا البحث يفضل أن نلخص ما تم استنتاجه من استعراض تواريخ افتتاح هذه الأقسام ، ولعل أهم الاستنتاجات أن انتشار تعليم المكتبات فى الجامعات العربية جاء سريعا ومتلاحقا فى الدول العربية ، ففي فترة لاتتجاوز أربعة عقود بلغت الأقسام على مستوى الدرجة الجامعية الأولى نحو عشرين قسما ، وأن مصر والعراق والمملكة العربية السعودية بها أكثر من قسم ، وأن افتتاح هذه الأقسام جاء محصلة عوامل بيئية اجتماعية وتعليمية واقتصادية ، أهمها التوسع فى التعليم الجامعي لملاحقة حركة التنمية الاقتصادية والاجتماعية فى هذه الدول ، وأن الدول العربية تتشابه تماما مع باقي دول العالم فى أن تعليم المكتبات فى المستوى الجامعي جاء كمرحلة لاحقة لبداية عقد دورات منتظمة قصيرة الأجل فى بعض المكتبات أو الجامعات أو المؤسسات الأخرى ، لتدريب الأشخاص الذين يعهد إليهم بالعمل فى المكتبات بعد ذلك ، وأن مرحلة الدورات هذه كانت تسبق افتتاح الأقسام الجامعية بعقد أوعقدين من الزمن .

ثانيا : أسماء الأقسام والانتماءات الجامعية

عادة ما تدل أسماء الأقسام والانتماءات الجامعية لها على فلسفة هذا القسم ووجهة نظره فى تناول مجال المكتبات والمعلومات وعلاقاته ، كما أن الانتماءات تدل أيضا فى الغالب على نظرة الجامعة أو المؤسسة الأم للوحدة الأكاديمية التي تتولى مهام تعليم المكتبات والمعلومات . ومن الجدول رقم (١) السابق والموضحة به الأسماء الرسمية والتبعية الأكاديمية للأقسام محل الدراسة ، يمكن أن نخرج بالنتائج الآتية :

١ – ألقت تسمية «قسم المكتبات والوثائق» بجامعة القاهرة كأول قسم فى الجامعات العربية بظلالها الكثيفة على مسميات الأقسام الأخرى بعد ذلك فى الجامعات العربية ، ومع أن تلك التسمية كانت من وجهة نظري لظروف خاصة وذاتية بذلك القسم ، أهمها غلبة الخلفية التاريخية والإنسانية على أساتذة القسم فى بدايات عهده وإلى عهد قريب ، وتأثرهم بالمدرسة الفرنسية فى دراسة الوثائق التاريخية والأرشيف ، واعتبار دراسة المكتبات عنصرا ثانويا ، وعدم ثبات مقومات دراسات المكتبات والمعلومات

فى بدايات الخمسينيات من حيث المقررات والبرامج والمناهج ، وقلة عدد الأساتذة المتخصصين فى المكتبات وكثرتهم النسبية فى الوثائق ، إلا أن التسمية اعتبرت النموذج الذى سارت عليه الأقسام الأخرى فى الجامعات العربية ، وبدون دراسة لواقع كل قسم من الأقسام ، أو للتقدم الذى حدث فى مقومات دراسات المكتبات والمعلومات ذاتها ، وينطبق ذلك على أول أقسام المكتبات بالجامعات العربية بعد قسم جامعة القاهرة ، وهو القسم الموجود بجامعة أم درمان الإسلامية ، ومرورا بكل أقسام المكتبات والوثائق بالجامعات المصرية عدا القسم الموجود بجامعة حلوان وحتى أحدث الأقسام بالجامعات العربية ،وهو قسم المكتبات والوثائق بجامعة السلطان قابوس بعمان .

٢ – التسميات المستخدمة فى أقسام المكتبات بالمملكة العربية السعودية يغلب عليها الجمع بين المكتبات والمعلومات – وهو بالمناسبة ما تسير عليه ٨٩٪ من مدارس المكتبات والمعلومات فى الولايات المتحدة وكندا وانجلترا واستراليا والهند والبرازيل (٣٣) – وأقسام المملكة فى الحقيقة تتمتع بكثير من الإيجابيات والإمكانيات عن باقي الأقسام العربية ، ووجود ثلاث أقسام من أقسام المملكة الأربعة بمسمى المكتبات والمعلومات ، ظاهرة طيبة تساير التسميات الحديثة ، والحقيقة أن روافد أقسام المملكة من أعضاء هيئة التدريس الوطنيين ساعدت على اختيار هذا الاسم ، خاصة وأن الأغلبية العظمى من هؤلاء الأعضاء عادوا من الولايات المتحدة فى خلال العشر سنوات الأخيرة بعد انتشار اسم المكتبات والمعلومات ، وبالتالي اختاروا هذا الاسم .

٣ – هناك نمط ثالث مستخدم لتسميات الأقسام ومعاهد الجامعات فى شمال افريقيا العربي بتونس والجزائر والمغرب ، وهيَ كلها ترجمات متعددة من اللغة الفرنسية التي تسيطر على ثقافات الدول الثلاث ، وإن كانت التسمية فى تونس والجزائر استخدمت المكتبات والتوثيق فى الاسم ، وأضافت تونس مصطلح التخزين ، أما فى المغرب فقد استخدم مصطلح الإعلام ، رغم أن دلالاته الاصطلاحية فى مصر ودول الخليج تعني الصحافة ووسائل الإعلام أكثر مما تعني المعلومات ، ولكن المدرسة المغربية تستخدمه كمصطلح مواز للمعلومات وليس للإعلام .

٤ – جمعت جامعة حلوان فى قسم واحد المكتبات مع الوسائل التعليمية ، ولهذا القسم وضع خاص لأنه يركز فى إعداده على العاملين فى المكتبات المدرسية ، وهو وضع يتشابه مع القسم الموجود فى جامعة أم القرى ، رغم أن القسم الأخير استخدم التسمية الشائعة وهي المكتبات والمعلومات .

٥ – ظهرت كلمة مكتبات فى جميع أقسام الجامعات العربية ما عدا المدرسة المغربية ، ولهذا دلالة واضحة على سيطرة هذه الكلمة على المجال حتى الآن ، وظهرت كلمة الوثائق فى ٦ أقسام بمصر وسلطنة عمان ، وكلمة معلومات فى ثلاثة أقسام بالمملكة ، ومن الملفت للنظر أن هناك أربع مؤسسات فقط وصفت هذا المجال بكلمة علم أو علوم وهي فى المملكة والعراق والمغرب ، أما باقي الأقسام الثلاثة عشر فلم تصف المجال بأي صفة .

٦ – إذا انتقلنا إلى التبعية الأكاديمية لأقسام المكتبات ، لوجدنا أن ٩ أقسام (أي نحو ٥٣٪) تتبع أكاديميا لكليات الآداب ، وهي نظرة شائعة فى الجامعات العربية لضم هذا التخصص ، وساعد على تأكيدها الخلفية الإنسانية للجيل الأول من أساتذة المكتبات فى الجامعات العربية ، بينما فضلت جامعتا الإمام محمد بن سعود وأم القرى بالمملكة العربية السعودية ضم القسم إلى كلية العلوم الاجتماعية ، بينما يتبع قسم المكتبات بجامعة الفاتح بليبيا وقسم جامعة حلوان كلية التربية ، وتنفرد مرة أخرى أقسام تونس والجزائر والمغرب بوضع خاص ، فقسم تونس يتبع معهد الصحافة الذى يتبع وزارة التعليم العالي مباشرة ، وقسم الجزائر يتبع قطاع علم الاجتماع والذى يتبع الجامعة مباشرة ، أما المدرسة المغربية فتتبع وزارة التخطيط المغربية ، وهو وضع فريد لأقسام المكتبات فى العالم العربي .

٧ – مع الاحترام البالغ لوجهات النظر التي طالما ربطت بين تخصص المكتبات والمعلومات بكليات الآداب والعلوم الإنسانية ، فإن الاتجاه العالمي الآن هو ربط أقسام المكتبات والمعلومات مع كليات العلوم الاجتماعية إذا لم تنفصل فى وحدة أكاديمية قائمة بذاتها ، لتشابه المناهج المستخدمة ووضوح العلاقات الموضوعية مع عدة علوم مساندة للمكتبات والمعلومات وأهمها علم النفس والإحصاء وعلم الاجتماع والإدارة ، ولا يعتقد كاتب هذا البحث أن أقسام المكتبات والمعلومات فى الجامعات العربية قد بلغت المرحلة التي يمكن معها أن تشكل كليات مستقلة كما هو الحال فى الولايات المتحدة وكندا مثلا ، بسبب حداثة الأقسام وقلة أعضاء هيئة التدريس وللميل التقليدي فى الجامعات العربية للإقلال من عدد الكليات داخل كل جامعة لصعوبات مالية وإدارية فى معظمها .

٨ – لاشك أن أقسام المكتبات فى الجامعات العربية بانتمائها إلى كليات أو معاهد أكبر أكاديميا ، إنما اكتسبت مزيدا من الإمكانيات المالية والبشرية ومن حيث المباني المتاحة ومن حيث الوضعية الأكاديمية أيضا ، ولكن كان لهذا الانتماء أعباءه من ناحية أخرى لأنه أدى إلى مزيد من المقررات الإجبارية المفروضة من قبل الكلية الأم ، وكما سنرى عند تحليل المقررات الدراسية فى هذه الأقسام .

ثالثا : الشهادات الأكاديمية ونظام ومدة الدراسة

ويوضح الجدول رقم (٣) الأقسام والمدارس التي شملتها الدراسة ومسميات الشهادات الدراسية الممنوحة ، ونظام الدراسة ومدتها ، وما إذا كان النظام المتبع فى هذه الأقسام أو المدارس يسمح باختيار الطلاب لهذه المقررات أم لا ، ونسبة المقررات الاختيارية إلى المقررات الإجبارية .

هذا وقد اعتمد الباحث على الوثائق الرسمية المنشورة من الأقسام والجامعات محور الدراسة فى جمع معلومات هذا العنصر من البحث ، وهو الخاص بأسماء الشهادات ونظام ومدة الدراسة وحرية الاختيار إلا لو لم تتوافر هذه الوثائق الرسمية ،ولهذا فقد اعتمد بالنسبة لقسم المكتبات والتوثيق والتخزين فى تونس على دليل مدارس علم المكتبات والمعلومات فى الوطن العربي [٣٤] وأيضا بالنسبة لقسمي السودان وليبيا ،

وعلى الدليل الرسمي للمعهد الجزائري [٣٥] ، وعلى الأدلة الرسمية لأقسام جامعات الملك عبدالعزيز [٣٦] ، وقسم جامعة الإمام [٣٧] ، وقسم جامعة الملك سعود [٣٨] ، وقسم جامعة أم القرى [٣٩] ، وعلى دليل القسم بسلطنة عمان [٤٠] ، وعلى الدليل الرسمي لمدرسة المغرب [٤١] . أما بالنسبة للأقسام المصرية فقد اعتمد على أحدث الأبحاث المتاحة بهذا الشأن [٤٢] والتي لخصت الوضع القائم هناك ، وكذلك بالنسبة للعراق [٤٣] . ويلفت الباحث الانتباه إلى أن لوائح وبرامج أقسام جامعة القاهرة وفرع بني سويف بجامعة القاهرة وجامعة طنطا متطابقة ، ولهذا ضم هذه الأقسام معا فى عملية التحليل . ومن الجدول رقم (٣) يمكن أن نخرج بالنتائج التالية :

١ – بدأ يظهر بوضوح فى هذا العنصر تأثير عدم استقلالية الوحدات الأكاديمية لتدريس المكتبات والمعلومات وانتمائها إلى كليات وجامعات ، فى فرض أسماء الشهادات ونظام الدراسة المتبع فى الكلية والجامعة الأم ، فمع أن معظم وحدات المكتبات خار ج العالم العربي حاليا تمنح درجة البكالوريوس فى الدرجة الجامعية الأولى للتخصص ، نجد أن مسمى الليسانس هو المسمى الغالب فى أقسام العالم العربي بنسبة ٥٩٪ ، فيما عدا المملكة العربية السعودية وليبيا وقسم جامعة حلوان بسبب نظام الجامعات والكليات المنتسبة إليها هذه الأقسام واستخدمت مسمى بكالوريوس وهي بنسبة ٣٥٪ ، بينما انفردت مدرسة علوم الأعلام بالمغرب باسم الإجازة ، وهي التسمية الغالبة على المعاهد الأكاديمية هناك .

٢ – هناك ٦ أقسام فقط من بين ١٧ قسما وقعت فى مجال هذه الدراسة سمح النظام فيها ببعض حرية الاختيار للدارسين فى المقررات الدراسية وبنسبة ٣٥٪ ، وكلها أقسام فى المملكة العربية السعودية وليبيا والمغرب ، إلا أن نسبة الاختيار تراوحت بشدة مابين ٤١٪ فى قسم جامعة الملك عبدالعزيز إلى ٧٪ فقط فى القسم الموجود بليبيا ، والحقيقة أن نظام اختيار بعض المقررات هو النظام الأمثل فى دراسة المكتبات والمعلومات ، ولكن يحول دون تطبيقه فى شكلة الصحيح قلة أعضاء هيئة التدريس وتنوع تخصصاتهم فى الأقسام العربية ، ويلفت الباحث الانتباه إلى أن أقسام جامعتي القاهرة بما فيها فرع بني سويف وطنطا تسمح بالاختيار فى مقرر واحد فقط هو مقرر المكتبات النوعية ، علاوة على اللغات . ويتفق معها فى اختيار اللغات أقسام ليبيا وتونس والجزائر والمغرب ، كما أن الأقسام الأخرى التي لاتسمح فى نظامها بالاختيار إنما يرجع إلى عدم سماح الكلية والجامعة الأم بذلك وليس إلى رغبة القسم .

٣ – ينطبق ماسبق ذكره عن تأثير نظام الجامعة بل الدراسة بالدولة على أقسام المكتبات والمعلومات فيما يختص بنظام ومدة الدراسة ، فالجامعات التي تطبق نظام السنة الدراسية الكاملة ينطبق ذلك على الأقسام الموجودة فى (تونس – السودان – العراق – مصر) والجامعات الأخرى التي تطبق نظام الفصول الدراسية أو الساعات المعتمدة ينطبق كذلك على أقسام المكتبات والمعلومات .

٤ – لعل أهم المؤشرات التي يشير إليها الجدول السابق هو تفاوت عدد الساعات الدراسية التي يحصل بموجبها الطالب على شهادته مابين ١٧٧ ساعة بجامعة الإمام إلى ١٢٠ ساعة فى جامعة الملك

جدول رقم (٣) الشهادات الأكاديمية ونظام مدة الدراسة

القسم – الجامعة أو الدولة	اسم الشهادة	نظام الدراسة	مدة الدراسة	الاختيار	نسبة المواد الاختيارية
قسم المكتبات والتوثيق والتخزين – تونس	الليسانس	السنة الدراسية	٤ سنوات	لا يسمح	—
معهد علوم المكتبات والتوثيق – الجزائر	››	٨ فصول دراسية	››	››	—
قسم المكتبات والمعلومات – جامعة الملك عبدالعزيز	بكالوريوس	١٣٤ ساعة	٤ – ٥ سنوات	يسمح	٤١٫٨٪
قسم المكتبات – جامعة الإمام	››	١٧٧ ساعة	٥ – ٦ سنوات	لا يسمح	—
قسم علوم المكتبات والمعلومات – جامعة الملك سعود	››	١٢٠ ساعة	٤ – ٥ سنوات	يسمح	٣٨٫٣٪
قسم المكتبات والمعلومات – جامعة أم القرى	››	١٣٠ ساعة	٤ – ٥ سنوات	يسمح	٢٣٫٠٪
قسم الوثائق والمكتبات – السودان	الليسانس	السنة الدراسية	٤ سنوات	لا يسمح	—
قسم المكتبات – جامعة المستنصرية	››	››	››	››	—
قسم علم المكتبات – جامعة البصرة	››	››	››	››	–
قسم المكتبات والوثائق – سلطنة عمان	››	ساعات مع فصول دراسية	››	يسمح	١٧٫٤٪
قسم المكتبات – ليبيا	بكالوريوس	١٢٠ ساعة	٤ – ٥ سنوات	››	٧٫٠٪
أقسام المكتبات والوثائق – القاهرة – بني سويف – طنطا	الليسانس	السنة الدراسية	٤ سنوات	لا يسمح	—
قسم الوثائق والمكتبات – الاسكندرية	››	››	››	››	—
شعبة المكتبات والوسائل التعليمية – حلوان	بكالوريوس	››	››	››	—
مدرسة علوم الاعلام – المغرب	الإجازة	الفصول الدراسية	٣ سنوات	يسمح	٣١٫٠٪

سعود وجامعة أم القرى ، ويرجع ذلك أساسا إلى كثرة المواد المفروضة من الجامعة والكلية فى جامعة الإمام أكثر من المواد المتخصصة ، ولكن يلاحظ تشابه عدد المقررات الدراسية للحصول على الدرجة الجامعية الأولى ، فهي كلها تتراوح مابين ٣٢ مقرر (العراق – المغرب) إلى ٥٢ مقرر مختلف (جامعة حلوان) طبقا لعدد المقررات فى العام أو الفصل الدراسي ، أو عدد الساعات المعتمدة لكل مقرر .

٥ – قسم المكتبات والمعلومات بجامعة الملك عبدالعزيز به شعبتان للدراسة للمكتبات والمعلومات ، ولكن من الناحية الواقعية يدرس جميع الطلاب نفس المقررات ويحصلون على نفس الشهادة لنظرة القسم الاندماجية للتخصص ، ونفس الوضع فى قسم جامعة الملك سعود ، ولكن الفصل بين المكتبات والمعلومات واقع بالفعل . وهناك طلبة فى الشعبتين وهناك مقررات خاصة لطلبة شعبة المعلومات فى المستوى المتقدم ، كما أنه من المعروف أن أقسام المكتبات والوثائق فى القاهرة وبني سويف وطنطا والاسكندرية بها شعبتان واحدة للمكتبات والأخرى للوثائق ، ولكن شعبة الوثائق خارج إطار هذه الدراسة ، علاوة على أن شعبة الوثائق بجامعة الاسكندرية مجمدة ولم تبدأ الدراسة بها منذ افتتاح القسم حتى الآن .

رابعا : المقررات الدراسيـــة

اعتمد الباحث على نفس المصادر المشار اليها سابقا فى حصر وتحليل المقررات الدراسية (المصادر من ٣٤ – ٤٣) ، ولسهولة إجراء المقارنات والتحليلات ، فقد اعتمد الباحث أيضا على خطة تقسيم المقررات الدراسية فى أقسام المكتبات والمعلومات التي وضعها الدكتور سعد الهجرسي [٤٤] وقسم فيها المقررات إلى ثمانية فئات . وباستعراض كل المقررات الدراسية التي جاءت فى برامج الأقسام والمعاهد والمدارس محل الدراسة ، ثم توزيعها إحصائيا على خطة التقسيم ، ونتج عن ذلك الجدول رقم (٤) .

وبناء على التوزيعات الإحصائية السابقة نستنتج مايلي :

١ – شملت برامج الأقسام والمعاهد والمدارس السابقة ١٥٤ مقررا مختلفا ، منها ٧٨ مقررا متخصصا فى المكتبات والمعلومات و ٩ مقررات شقيقة و ٦٧ مقررا فى غير علوم المكتبات والمعلومات ، وهذا العدد الكبير من المقررات خارج علوم المكتبات والمعلومات إنما يرجع بصفة أساسية إلى المقررات الإجبارية المفروضة من قبل الكلية أو الجامعة أو الدولة ، وهو لاينطبق على أقسام المكتبات والمعلومات فى الجامعات العربية ، وإنما ينطبق أيضا على كل الأقسام والتخصصات الأخرى على مستوى الدرجة الجامعية الأولى .

٢ – شملت البرامج ١٥ مقررا من المقررات الإطارية – وهي المقررات التي لاتتعمق فى أي جزئية من علوم المكتبات والمعلومات ، ولكنها تمتد بشكل أفقي للتخصص كله – وكان مقرر مقدمة فى المكتبات والمعلومات هو الأكثر وجودا فى جميع الأقسام والمعاهد والمدارس التي اشتملت عليها الدراسة ، يليه مقرر النصوص المتخصصة فى المكتبات والمعلومات ، ثم تاريخ المكتبات ثم مقرر علم المعلومات . والجدول رقم (٥) يوضح كل المقـررات فى هذا المستـوى – المقـررات الإطاريـة وعـدد مرات تكرارهـــا .

جدول رقم (٤) التوزيع الإحصائي للمقررات الدراسية طبقا لتوزيعها على فئات

القسم – الجامعة أو الدولة	المقررات الإطارية	الأوعية	الوظيفية	المؤسسات	المستفيدون	النظم	القضايا	الشقيقة	خارج التخصص
– قسم المكتبات والتوثيق والتخزين – تونس .	١٥ر٠٪	٢ر٥٪	١٧ر٥٪	٢ر٥٪	—	—	٢ر٥٪	١٠ر٠٪	٥٠ر٠٪
– معهد علوم المكتبات والتوثيق – الجزائر	٧ر٨٪	١٣ر١٪	١٥ر٨٪	٢ر٦٪	—	١٠ر٥٪	٢ر٦٪	٥ر٣٪	٤٢ر٣٪
– قسم المكتبات والمعلومات – جامعة الملك عبدالعزيز .	٨ر٨٪	١٢ر٢٪	١٥ر٨٪	١٢ر٣٪	—	٥ر٢٪	٣ر٥٪	٧ر٠٪	٣٥ر٢٪
– قسم المكتبات جامعة الإمام .	٨ر٢٪	١٤ر٧٪	٢٦ر٢٪	٦ر٦٪	—	١ر٦٪	١ر٦٪	٤ر٩٪	٣٦ر٢٪
– قسم علوم المكتبات والمعلومات – جامعة الملك سعود .	١٢ر٥٪	٢٠ر٠٪	١٥ر٠٪	٥ر٠٪	—	٥ر٠٪	٧ر٥٪	٥ر٠٪	٣ ر٠٪
– قسم المكتبات والمعلومات أم القرى	١٠ر٥٪	٦ر٥٪	١٨ر٤٪	١١ر٨٪	—	٤ر٠٪	٩ر٢٪	٧ر٩٪	٣١ر٧٪
– قسم الوثائق والمكتبات – السودان	١٣ر٨٪	١٠ر٣٪	١٣ر٨٪	٣ر٤٪	—	١٠ر٣٪	—	١٣ر٨٪	٣٤ر٦٪
– قسم المكتبات جامعة المستنصرية	١٠ر٧٪	٢١ر٤٪	٢١ر٤٪	١٤ر٣٪	—	٧ر١٪	٧ر١٪	٣ر٥٪	١٤ر٥٪
– قسم علم المكتبات – البصرة .	١٩ر٣٪	١٩ر٣٪	٢٢ر٦٪	١٢ر٩٪	—	٣ر٢٪	٣ر٢٪	٣ر٠٪	١٦ر٥٪
– قسم المكتبات والوثائق – عمان .	٩ر٢٪	١٥ر٤٪	١٦ر٩٪	٩ر٢٪	١ر٥٪	٣ر٠٪	٤ر٦٪	٩ر٢٪	٣١ر٠٪
– قسم المكتبات – ليبيا .	٥ر٠٪	١٧ر٥٪	١٧ر٥٪	٧ر٥٪	—	٢ر٥٪	٢ر٥٪	١٥ر٠٪	٣٢ر٥٪
– أقسام المكتبات والوثائق – القاهرة – بني سويف – طنطا	١٤ر٠٪	١٤ر٠٪	٢١ر٠٪	٢ر٣٪	—	٤ر٦٪	٤ر٦٪	٩ر١٪	٣٠ر٢٪
–قسم الوثائق والمكتبات – الاسكندرية	١٥ر١٪	١٢ر١٪	٣٠ر٣٪	٦ر٠٪	—	٣ر٠٪	٦ر٠٪	٦ر٠٪	٢١ر٥٪
– شعبة المكتبات والوسائل التعليمية – حلوان .	٦ر٠٪	١٠ر٠٪	١٨ر٠٪	٢ر٠٪	٢ر٠٪	٤ر٠٪	—	٤ر٠٪	٥٤ر٠٪
– مدرسة علوم الاعلام – المغرب	١٢ر٢٪	١٤ر٦٪	١٤ر٦٪	١٢ر٢٪	—	٢ر٤٪	٧ر٠٪	٤ر٩٪	٣٢ر١٪

جدول رقم (٥) المقررات الإطارية وعدد مرات تكرارها فى البرامج

م	المقـــــــرر	عـدد مـرات تكراره	م	المقـــــــرر	عـدد مـرات تكراره
١	مقدمة فى المكتبات والمعلومات	١٧	١٠	التوثيق – تمهيدي	٢
٢	النصوص المتخصصة فى المكتبات والمعلومات .	١٦	١١	السياسة الوطنية للمعلومات	١
٣	تاريخ المكتبـات	١١	١٢	نظريات الاتصـــال	١
٤	مقدمة فى علم المعلومات	١١	١٣	تشريعات المعلومات	١
٥	المعلومات والمجتمـع	٧	١٤	اجتماعيات المعرفة	١
٦	مناهج البحث فى المكتبات والمعلومات	٥	١٥	علم المكتبات المقارن	١
٧	النصوص العربية المتخصصة	٥			
٨	نظريات المعلومات	٤			
٩	التوثيق – متقدم	٤			

وهناك اختلافات فى مسميات بعض المقررات رغم توحيد التوصيف لها ، وبالذات فى مقرر مقدمة فى المكتبات والمعلومات الذى يطلق عليه أحيانا الأسس الحديثة للمكتبات والمعلومات ، أو مقدمة المكتبات ، أو دراسات المكتبات والمعلومات ، كما أن مقرر النصوص المتخصصة فى المكتبات والمعلومات يتم فية التعرف على النصوص المناسبة باللغة الإنجليزية فى جميع الجامعات العربية ، فيما عدا فى الجزائر والمغرب ويتم فيه اختيار نصوص بالإنجليزية والفرنسية معا ، وبالفرنسية فقط فى تونس . وتختلف توصيفات مقررات مقدمة علم المعلومات ، ونظريات المعلومات ، فتجمع مابين دراسات المكتبات والحاسبات الإلكترونية وعلم النفس والفيزياء والاجتماع ، وهو أمر شائع بسبب عدم الاتفاق الكامل حتى الآن على مجال حدود وهوية علم المعلومات فى معظم معاهد ومؤسسات تعليم المكتبات ، وليس فى العالم العربي فقط بل فى جميع دول العالم . كما أن جميع برامج الجامعات احتوت على مقررات فى هذه الفئة واحتوى برنامج قسم جامعة أم القرى على ٨ مقررات فى هذه الفئة وحدها ، بينما استحوذت مقررات تلك الفئة فى برنامج جامعة البصرة على ١٩٫٣٪ من إجمالي مقررات البرنامج .

٣ – شملت البرامج فى مجال الدراسة ١٨ من المقررات المتعلقة بالأوعية – وهي التي تتناول بعض أنواع أوعية المعلومات من حيث الشكل أو جمهور المستفيدين أو المحتويات أو الاستخدامات – وجاء مقرر المخطوطات فى بداية مقررات هذه الفئة ، يليه مقرر المراجع المتخصصة ومقرر المراجع العامة . والجدول التالي رقم (٦) يوضح المقررات التي جاءت فى فئة مقررات الأوعية وعدد مرات وجودها فى البرامج .

جدول رقم (٦) مقررات الأوعية وعدد مرات تكرارها فى البرامج

م	المقـــــرر	عدد مرات تكراره	م	المقـــــرر	عدد مرات تكراره
١	المخطوطات	١٣	١٠	المواد السمعية والبصرية	٥
٢	المراجع العامـــة	١١	١١	الدوريـات	٥
٣	المراجع المتخصصة	١١	١٢	مصادر ومراجع الإنسانيات	٥
٤	كتب ومواد الأطفال	٩	١٣	الكتـــاب	٢
٥	مصادر ومراجع العلوم والتقنية	٨	١٤	موارد المعلومات	٢
٦	مصادر ومراجع العلوم الاجتماعية	٨	١٥	مراجع الخليج العربي	١
٧	المطبوعات الحكوميـة	٧	١٦	مراجع العالم الإسلامي	١
٨	المراجع والمصادر العربية	٧	١٧	الكتب النـادرة	١
٩	مصادر تكنولوجيا التعليم	٧	١٨	تاريخ أوعية المعلومات	١

واشتملت أيضا جميع البرامج على مقررات فى هذه الفئة وكانت جامعة السلطان قابوس هي أعلاها ، فاحتوى برنامجها على ١٠ مقررات عن الأوعية ، يليه برنامج جامعة الإمام محمد بن سعود فاحتوى على ٩ مقررات ، وكان التركيز فى المقررات السابقة على مقررات الأوعية المرجعية بكافة فروعها ، بل واحتوت فى جامعات المملكة والخليج على مقررات للأوعية المرجعية الخاصة بهذه المنطقة .

٤ – المقررات الوظيفية : وهي المقررات التي تتناول أي وظيفة من الوظائف الأساسية التي يؤديها أخصائي المكتبات والمعلومات – وقد احتوت البرامج على ١٨ مقررا مختلفا ، كما فى الجدول التالي رقم (٧) .

جدول رقم (٧) المقررات الوظيفية وعدد مرات تكرارها فى البرامج

م	المقـــــرر	عدد مرات تكراره	م	المقـــــرر	عدد مرات تكراره
١	التحليل الموضوعـي	١٧	١٠	خدمات المكتبات والمعلومات	٨
٢	العمليات الفنيـــة	١٥	١١	مقدمة فى العمليات الفنية	٨
٣	التزويـــــد	١٤	١٢	تدريب عملي على الفهرسة والتصنيف	٥
٤	إدارة المكتبات ومراكز المعلومات	١٤	١٣	فهرسة غير الكتب	٤
٥	الفهرســـة	١٣	١٤	إدارة المكتبات المدرسية	٣
٦	التصنيف المتقـــدم	١٣	١٥	التصنيف المقارن	٢
٧	التدريب العملي	١١	١٦	رواية القصة للأطفال	١
٨	التصنيـــــف	١٠	١٧	إدارة النظم الآلية	١
٩	التكشيف والاستخلاص	١٠	١٨	إعداد المكانز	١

وقد استحوذت العمليات الأربعة الوظيفية (الاختيار والتزويد - الإعداد الببليوجرافي - الخدمات - الإدارة) على المقررات فى هذه الفئة ، فكان برنامج جامعة الإمام الأكثر اهتماما بالمقررات الوظيفية ، واحتوى على ١٦ مقررا مختلفا منها . يليه برنامج جامعة أم القرى وبه ١٤ مقررا ، وهناك أيضا اختلافات فى المسميات فى مقررات هذه الفئة مع توحيد التوصيف مابين الفهرسة الوصفية والببليوجرافي وخدمات المكتبات والمعلومات ، وبين خدمات المكتبات أو خدمات المعلومات أو الخدمات فقط . هذا مع العلم بأن مقررات هذه الفئة استحوذت على أكبر نسبة اهتمام من الجامعات العربية فى برامجها وكما جاء فى الجدول رقم (٤) السابق ، ويرجع الباحث ذلك بصفة أساسية إلى نقص مصادر إعداد بطاقات الفهرسة الجاهزة بسبب عدم وجود معايير متفق عليها بين الدول العربية جميعا ، وعدم وجود هيئات وطنية أو إقليمية تستطيع أن تقوم بهذه المهمة حتى الآن ، وبالتالي تصبح المهمة الأولى والأساسية لمعظم أخصائي المكتبات والمعلومات فى العالم العربي هي الإعداد الفني والببليوجرافي للأوعية فجاء التركيز على مقررات هذه الفئة استجابة للواقع الحالي فى المكتبات ومراكز المعلومات العربية .

٥ - مقررات المؤسسات : وهي المقررات التي تتناول نوعاً واحداً أو أنواع محددة من المكتبات أو مراكز المعلومات - وجاء فى البرامج محل الدراسة ١٤ مقررا مختلفا كما فى الجدول التالي رقم (٨) :

جدول رقم (٨) مقررات المؤسسات وعدد مرات تكرارها فى البرامج

م	المقرر	عدد مرات تكراره	م	المقرر	عدد مرات تكراره
١	المكتبات النوعية	٩	١٠	مكتبات المعوقين	١
٢	المكتبات المدرسية	٩	١١	بنوك وقواعد المعلومات	١
٣	المكتبات العامة	٨	٨	المؤسسات الدولية	١
٤	المكتبات الأكاديمية	٧	١٣	المكتبات الوطنية	١
٥	المكتبات المتخصصة	٧	١٤	مؤسسات المعلومات الإدارية	١
٦	مكتبات الأطفال	٣			
٧	المكتبات الإسلامية	٣			
٨	مراكز المعلومات الصحفية	١			
٩	المكتبات السعودية	١			

وقد اشتملت جميع البرامج على مقررات فى هذه الفئة ، وإن كانت أكثر من نصف عدد البرامج تفضل جمع كل أنواع المكتبات فى مقرر واحد ، وكان برنامج جامعة أم القرى أكثر البرامج اهتماما بمقررات هذه الفئة واحتوى البرنامج على ٩ مقررات .

٦ – مقررات المستفيدين : وهي المقررات التي تتولى التركيز على نوع واحد من المستفيدين – وهي أقل أنواع المقررات حظا فى برامج مؤسسات تعليم المكتبات والمعلومات لصعوبتها وتقدمها وقلة أعضاء هيئة التدريس المؤهلين بها ، ولم تحتو برامج الجامعات العربية إلا على مقرر واحد – سيكولوجية القراءة والمستفيدين – ويوجد فى برنامج جامعة حلوان بمصر وجامعة السلطان قابوس بعمان . إلا أن الباحث يلفت الانتباه إلى أن أكثر الأجزاء من المقررات اهتماما بالمستفيدين لا تأتي فى مقررات منفصلة ، بل تكون غالبا ضمن مقررات الخدمات فى فئة المقررات الوظيفية أو فى مقررات المؤسسات ، فعادة فى العالم العربي تخصص وحدة للتعرف على كيفية تقديم الخدمات لفئات محددة من المستفيدين ، أو كيفية التعامل معهم فى إحدى وحدات مقررات المؤسسات .

٧ – مقررات النظم : وهي المقررات التي تتولى العناية بالمكتبات ومراكز المعلومات كنظام معلومات متكامل ، سواء فى شكله اليدوي أو الالكتروني أو الميكروفيلمي ، وقد احتوت البرامج على ٥ مقررات فى هذه الفئة وكما هو موجود فى الجدول التالي رقم (٩) .

جدول رقم (٩) مقررات النظم وعدد مرات تكرارها فى البرامج

م	المقرر	عدد مرات تكراره	م	المقرر	عدد مرات تكراره
١	الببليوجرافيا	١٤	٤	علم المعلومات وتطبيقاته	٥
٢	الأرشيف الجاري	٥	٥	مبادىء تصميم النظم	٤
٣	شبكات المكتبات والمعلومات	٥			

وكانت هناك صعوبة بالغة وجدها الباحث فى تحديد وتغليب المقررات فى هذه الفئة ، فمعظمها يمكن أن ينتمي طبقا للتوصيف إلى مقررات القضايا أو مقررات المؤسسات ، وعادة ما يوجه أستاذ هذه المقررات وحداته ناحية علوم النظم . ولم تحتو برامج تونس على أي مقررات فى هذه الفئة ، بينما احتوى البرنامج الجزائري على أربع مقررات مختلفة فيه .

٨ – مقررات القضايا الجارية : هي المقررات التي تتناول الظواهر الجديدة سواء من حيث الأساليب أو النظريات أو الأجهزة فى مقرر محدد ، وهي مقررات متجددة باستمرار بطبيعتها ، وغالبا بعد استقرار هذه القضية بكافة أركانها ، فإنها تنتقل إلى إحدى الفئات الأخرى . وقد اشتملت البرامج على ٧ مقررات فى هذه الفئة هي الموجودة فى الجدول رقم (١٠) التالي :

جدول رقم (١٠) مقررات القضايا الجارية وعدد مرات تكرارها فى البرامج

م	المقـــــرر	عـدد مـرات تكراره	م	المقـــــرر	عـدد مـرات تكراره
١	استخدام الحاسبات فى المكتبات ومراكز المعلومات	١٤	٥	خزن واسترجاع المعلومات	٢
٢	علوم الاتصال فى المكتبات والمعلومات	٤	٦	نظم الاسترجاع المباشر	١
٣	البرمجة الالكترونية للمكتبات	٢	٧	المعايير الموحدة للمكتبات والمعلومات	١
٤	البرامج الجاهزة واستخدامها فى المكتبات	٢			

ولم تحتو برامج السودان والجزائر على أي مقررات فى هذه الفئة بينما ضم برنامج جامعة أم القرى ٧ مقررات مختلفة عن القضايا الجارية ، ولقد وجد الباحث أيضا صعوبة فى تصنيف وحدات هذه المقررات مابين مقررات النظم ومقررات القضايا ، ولكنه اعتمد على التوصيف وعلى طرق معالجة كل مقرر منها ، ولكنة وجد صعوبة فى تحديد الحدود القاطعة مابين مقررات النظم وبين مقررات القضايا الجارية .

٩ – المقررات الشقيقة : وهي المقررات التي تتناول موضوعات أخرى لها علاقات بتخصص المكتبات والمعلومات ، وقد احتوت البرامج على ٩ مقررات فى هذه الفئة هي الموجودة فى الجدول التالي رقم (١١) .

جدول رقم (١١) المقررات الشقيقة وعدد مرات تكرارها فى البرامج

م	المقـــــرر	عـدد مـرات تكراره	م	المقـــــرر	عـدد مـرات تكراره
١	الإحصـــاء	١٦	٦	وسائل الاتصال	٣
٢	النشـــر	١٠	٧	علم اللغـة	٣
٣	الوثائق والمخطوطات	٨	٨	الوثائق العربية	٢
٤	الأرشـيف	٤	٩	أسس العلوم الاجتماعية	١
٥	الطباعـة	٣			

وقد احتوت كل البرامج على مقررات من هذه الفئة وجاء أكثرها وجودا وبعدد متساو فى برامج جامعات أم القرى وليبيا وقابوس .

١٠ – المقررات الأخرى : احتوت مقررات هذه الفئة على ٦٧مقررا مختلفا جاء أكثرها من مقررات اللغة الإنجليزية واللغة العربية والثقافة الإسلامية والتاريخ الوطني ، وتتميز برامج هذه الفئة بالتنوع

الشديد . ومعظم البرامج فى مجال الدراسة ضمت مابين ١٠ – ٢٠ مقررا مختلفا كلها إجبارية ومفروضة من قبل الكلية أو الجامعة ، وجاءت جامعتا البصرة والمستنصرية بالعراق كأقل البرامج احتواء على برامج فى غير المكتبات والمعلومات ولم تحتو إلا على ٥ مقررات فقط ، يليها برنامج قسم جامعة الاسكندرية ، بينما احتوت برامج جامعتي حلوان وأم القرى على ٢٧ و ٢٤ مقررا مختلفا على التوالي وكلها تقريبا فى مجال التربية وعلم النفس التربوي لتوجيه برامج هذه الأقسام نحو إعداد اخصائي مراكز المعلومات التعليمية أساسا .

ومن التحليلات السابقة يمكن أن نستنتج أكثر المقررات المتخصصة والشقيقة وجودا فى البرامج الدراسية اعتمادا على الجداول والإحصائيات السابقة وكما يلي فى الجدول رقم (١٢) .

جدول رقم (١٢) أكثر المقررات فى البرامج الدراسية

م	المقــــــرر	العــدد	م	المقــــــرر	العــدد
١	مقدمة المكتبات والمعلومات	١٧	١٦	المراجع المتخصصة	١١
٢	التحليل الموضوعــي	١٧	١٧	التدريب العملــي	١١
٣	النصوص المتخصصــة	١٦	١٨	التصنيــــف	١٠
٤	الإحصــــــاء	١٦	١٩	التكشيف والاستخلاص	١٠
٥	العمليات الفنيــة	١٥	٢٠	النشــــر	١٠
٦	التزويــــد	١٤	٢١	المكتبات النوعيـة	٩
٧	إدارة المكتبات ومراكز المعلومات	١٤	٢٢	المكتبات المدرسية	٩
٨	الببليوجرافيــا	١٤	٢٣	كتب ومواد الأطفال	٩
٩	استخدام الحاسب فى المكتبات والمعلومات	١٤	٢٤	المكتبات العامــة	٨
١٠	المخطوطــات	١٣	٢٥	الوثائق والمخطوطات	٨
١١	الفهرســــة	١٣	٢٦	خدمات المكتبات والمعلومات	٨
١٢	التصنيف المتقــدم	١٣	٢٧	مراجع العلوم والتكنولوجيا	٨
١٣	تاريخ المكتبـــات	١١	٢٨	مراجع العلوم الاجتماعية	٨
١٤	مقدمة فى علم المعلومات	١١	٢٩	المكتبات الأكاديمية	٧
١٥	المراجع العامــة	١١	٣٠	المكتبات المتخصصــة	٧

ولاشك أن المقررات السابقة هي بالفعل أهم المقررات التي تؤدي إلى إعداد اخصائي مكتبات ومعلومات على درجة عالية من الكفاءة ، كما أنه لاشك أن ترتيب المقررات تنازليا حسب عدد مرات تكرارها قد عكس أهميتها فى عمليات وأنشطة وخدمات المكتبات والمعلومات ربما فيما عدا مقرر خدمات المكتبات والمعلومات الذى فصل كمقرر قائم بذاته فى أقل من نصف عدد البرامج ، ولكن بناء على التوصيفات للوحدة الدراسية وجد الباحث كثير من خدمات المكتبات والمعلومات يتم تناولها فى مقررات أخرى من مقررات المؤسسات والأوعية بالذات . ولاشك أن عدد هذه المقررات قد أوضح أن

تكوين ونظام الدراسة بالبرامج الدراسية بالجامعات العربية على مستوى الدرجة الجامعية الأولى يسير بشكل متجانس إلى حد كبير ، ذلك أن غالبية الجامعات تسير على أساس تدريس بين ٤ — ٥ مقررات دراسية للطالب فى الفصل الدراسي الواحد أو ١٠ مقررات فى العام الدراسي الواحد ، وبالتالي فإن الطالب يدرس مالا يقل عن ٤٠ مقررا مختلفا للحصول على الدرجة الجامعية الأولى ، فلو أضفنا ١٠ على الأقل من المقررات الأخرى الإجبارية إلى الجدول السابق رقم (١٢) الذى يحتوى على ٣٠ مقررا متخصصا أو من المقررات الشقيقة ، لأصبح هناك برنامج جيد بأي المقاييس .

وقبل أن ينتقل الباحث إلى العنصر التالي ، يلفت الانتباه إلى أن التعامل مع المقررات الدراسية فى البرامج الموجودة بالمؤسسات الأكاديمية العربية عملية لابد أن تتم بمنتهى اليقظة والانتباه . ذلك أنه ليس لكل البرامج والمقررات توصيفات موجودة ، وهناك فرق كبير بين المصطلحات الفنية المستخدمة فى وصف الوحدات ، كما أن هناك فروقاً مابين التوصيف الرسمي وبين مايتم تدريسه بالفعل . وتعتمد المقررات أساسا على وجهة نظر الشخص القائم بتدريس مقرر معين وتوجيهه حسبما يتراءى له ، وقد وجد الباحث كثيراً من هذه الأمثلة بل إنه وجد نفسه أحيانا أمام أكثر من توصيف لمقرر واحد موجود فى برنامج واحد ، بالإضافة إلى عنصر عدم استقرار مسميات المقررات الدراسية المشار إليها سابقا .

خامسا : الإمكانيات المتاحة فى البرامج الدراسية

إن العنصر الأخير المكمل للصورة الحالية لتعليم المكتبات والمعلومات فى الجامعات العربية على مستوى الدرجة الجامعية الأولى هي الإمكانيات المتاحة من أعضاء هيئة التدريس والمعامل والتجهيزات والمباني والمكتبات ، ورغم التفاوت الكبير بين القدرات والإمكانات المتاحة للجامعات العربية نتيجة للظروف الاقتصادية المختلفة من دولة عربية إلى أخرى ، ورغم أن هناك معايير دولية حددت الإمكانات الواجب توافرها لأي برنامج لتعليم المكتبات والمعلومات ، إلا أنه من الصعب تطبيق هذه المعايير على البرامج الموجودة فى الجامعات العربية لاختلاف الظروف البيئية من ناحية ، ولاختلاف مقدار استقلالية الوحدات الجامعية وأوضاعها الإدارية والمالية بين الدول العربية والدول الأخرى ، ومع ذلك فإن الباحث سيشير فى هذا العنصر إلى الإمكانات المتوافرة من أعضاء هيئة التدريس والمعاونين لهم ، وللإمكانات التجهيزية الموجودة ، ثم لمجموعات المصادر المتاحة للطلاب وأعضاء هيئة التدريس .

أ — أعضاء هيئة التدريس والمعاونون لهم

إلى عهد قريب وربما إلى بداية الثمانينيات الميلادية كانت معظم أقسام المكتبات والمعلومات فى الجامعات العربية تعتمد اعتمادا شبه كامل على أعضاء هيئة التدريس بقسم المكتبات والوثائق بجامعة القاهرة ، والذى كان يعاني هو الآخر من النقص الحاد فى أعضاء هيئة التدريس ، وكان أساتذته فى الأقسام الموجودة فى ليبيا والسودان والعراق والكويت وقطر والمملكة العربية السعودية ، إلا أن الوضع تغير فى السنوات القليلة الماضية ، فقد استطاعت أقسام العراق وليبيا والمملكة العربية السعودية تكوين

كوادرها الوطنية بعد التوسع فى حركة البعثات إلى الخارج ، بينما ظل النقص الحاد فى الأقسام الأخرى وبالذات فى الجامعات المصرية ، والجدول التالي رقم (١٣) يوضح أعداد العاملين فى الأقسام مجال الدراسة اعتمادا على نفس المصادر التي ذكرت فى العنصر السابق (هي المصادر من ٢٤ - ٤٣ فى القائمة) .

جدول رقم (١٣) أعضاء هيئة التدريس والمعاونين لهم

القسم	أعضاء هيئة التدريس	المعاونون	ملاحظات
- قسم المكتبات والتوثيق والتخزين - تونس .	٢	١٩	المعاونون يحملون درجة الدبلوم من فرنسا .
- معهد علوم المكتبات والتوثيق - الجزائر .	٣	٩	يستعين بمعارين من سوريا والكاميرون .
- قسم المكتبات والمعلومات - جامعة الملك عبدالعزيز .	١٠	١٠	هناك ٦ مبتعثين لدرجة الدكتوراه ويستعين بمعارين من مصر والسودان وباكستان .
- قسم المكتبات - جامعة الإمام	٧	١٢	
- قسم علوم المكتبات والمعلومات - جامعة الملك سعود .	٨		يستعين بمعارين من مصر ولبنان
- قسم المكتبات والمعلومات - جامعة أم القرى .	٤	٢	يستعين بمعارين من مصر وهناك ٤ مبتعثين لدرجة الدكتوراه
- قسم الوثائق والمكتبات - السودان	٢	١	يستعين بمعارين من مصر .
- قسم المكتبات - جامعة المستنصرية	٤	٢	
- قسم علم المكتبات - جامعة البصرة	٣	٢	
- قسم المكتبات والوثائق - عمان	٤	—	كل أعضاء القسم معارون من مصر
- قسم المكتبات - ليبيا	٦	٧	
- قسم المكتبات والوثائق - جامعة القاهرة .	١٢	٢٥	هناك معارون ومعاونون فى أجازات
- قسم المكتبات والوثائق - بني سويف	١	٤	
- قسم المكتبات والوثائق - طنطا	—	٨	
- قسم الوثائق والمكتبات - اسكندرية	١	٨	عضو هيئة التدريس معار حاليا .
- شعبة المكتبات والوسائل التعليمية - حلوان	١	٣	
- مدرسة علوم الأعلام - المغرب	٦	١٢	يستعين بمعارين من فرنسا .

ويتضح من هذا الجدول أن أفضل الأقسام التي يتوافر بها أعضاء هيئة التدريس هي أقسام المملكة العربية السعودية ، كما أنها أفضها فى تأهيل المعيدين والمحاضرين بإرسالهم إلى بعثات للولايات المتحدة وانجلترا من أجل إعداد جيل قادم من أعضاء هيئة التدريس ، حيث إن الأقسام كانت من أكثر الأقسام العربية معاناة من قلة أعضاء هيئة التدريس منذ خمسة عشرة عاما (٤٥) . والنقطة الثانية الجديرة بالاهتمام ، هي اعتماد أقسام تونس والجزائر على العاملين فى المكتبات ومراكز التوثيق التونسية والجزائرية فى

التدريس للعجز فى أعضاء هيئة التدريس هناك ، وللاستفادة من خبراتهم العملية . أما الوضع فى الأقسام المصرية فهو للأسف بعيد جدا عن الوضع الذى يدعو إلى الرضا ، أو حتى القبول ، فهذه الأقسام هي الأكثر عددا فى دولة واحدة ، والأكبر حجما من حيث عدد الطلاب ، ولا يعقل أن يوجد من هذه الأقسام مالا يتوافر فيه أي عضو متخصص من أعضاء التدريس ، أو أن يضطر أعضاء هيئة التدريس بقسم جامعة القاهرة للتدريس فى كل الأقسام الأخرى رغم أن القسم الأصلي يعاني من ثقل المسؤولية التدريسية والإشرافية الملقاه على عاتق أعضائه . ولابد من الاعتراف بأن رحلة إعداد أعضاء هيئة التدريس بالجامعات العربية رحلة طويلة ومضنية وشاقة ، ولا تقل فى المتوسط فى تخصص المكتبات والمعلومات بالذات عن عشر سنوات ، بل إنها امتدت أحيانا إلى مايقرب من عشرين عاما ، لنقص المصادر ، وشمولية الموضوعات لعدم وجود دراسات سابقة ، وقلة عدد المشرفين ، والأعباء الملقاه على عاتق المعيدين والمحاضرين فى التدريس أو تسجيل ومتابعة الطلاب ، كما أن البعثات الدراسية أصبحت غير متاحة لإرسال هؤلاء إلى الخارج فى كثير من الجامعات العربية لضغط النفقات ، ولابد من الاعتراف أن نمو عدد أعضاء هيئة التدريس فى الأقسام العربية نمو بطىء للغاية ، ما عدا فى أقسام المملكة العربية السعودية التي يلاحظ الزيادة فيها بصورة ملموسة شبه سنوية لدرجة أنه مابين نهاية عام ١٩٨٨ وبداية عام ١٩٩١ زاد أعضاء هيئة التدريس السعوديين فى الأقسام الأربعة هناك بنحو (٢٥٪) [٤٦] .

إن بعض الدراسات السابقة [٤٧] قد حددت المواصفات التي ينبغي أن تتوافر فى أعضاء هيئة التدريس بالوحدات الأكاديمية التي تتولى إعداد اخصائي المكتبات والمعلومات ، وأهمها التنوع الموضوعي ، والخبرة العملية والتخصصات المتعددة فى موضوعات المكتبات والمعلومات والإنتاج العلمي القائم على مناهج بحث سليمة ، والتتبع المستمر للتطورات الحديثة فى هذا المجال ، والقدرة على التدريس والتقييم والإشراف والتوجية ، وللأسف فإن بعض أعضاء هيئة التدريس بالعالم العربي فى أقسام المكتبات والمعلومات لا يمتلكون كل المواصفات السابقة لظروف خارجة عن إرادتهم حينا ، ولتكوينهم الشخصي والعلمي فى أحيان أخرى .

ب – التجهيزات والمعامل

لاتتوافر معلومات كافية فى المصادر الموجودة عن التجهيزات والمعامل الموجودة فى أقسام المكتبات والمعلومات بالجامعات العربية ، إلا فى أحيان قليلة ، ومع ذلك فإن معظم الأقسام تعتمد على التجهيزات الموجودة بالكلية أو الجامعة الأم ، ولا تملك تجهيزات أو معامل أو مباني خاصة بها ، بل تضطر إلى مواءمة احتياجاتها مع الإمكانات المتاحة . ومع ذلك فتوجد فى بعض الأقسام والوحدات تجهيزات معملية ممتازة وبالذات فى مدرسة علوم الإعلام بالمغرب ، التي تمتلك معمل للحاسبات الإلكترونية لتدريس الطلاب ومساندة أبحاث أعضاء هيئة التدريس ، ونفس الأمر فى أقسام المملكة العربية

السعودية جميعا ، وفى قسم المكتبات بليبيا ، وعلى طرف النقيض لاتوجد أي معامل حاسبات الكترونية فى جميع أقسام المكتبات والوثائق بمصر ، وتملك شعبة جامعة حلوان معملا مصغرا للمصغرات الفيلمية والوسائل التعليمية تشترك فيه مع عدة شعب وأقسام أخرى ، ومن الواضح كل الوضوح أن العوامل الاقتصادية والمخصصات المالية المتاحة تلعب أكبر الأدوار فى الوصول بالتجهيزات والمعامل إلى المستوى المطلوب ، وهو أمر يظهر بصورة جلية فى أقسام مصر والسودان ، بينما لعب نفس العامل دوره فى التجهيزات الموجودة فى أقسام المملكة العربية السعودية . أما بالنسبة للمغرب والعراق ، فإن معظم التجهيزات جاءت من برامج ومنح ومساعدات أجنبية .

جـ – المكتبات ومصادر المعلومات المتاحة

تميل الجامعات العربية إلى وجود مجموعات ومصادر معلومات مركزية كبيرة الحجم تخدم جميع التخصصات والفروع والأقسام والوحدات العلمية الموجودة بالجامعة ، وهو أمر ينطبق على جميع الوحدات الأكاديمية للمكتبات والمعلومات بالجامعات العربية دون أي استثناء ، ما عدا مدرسة علوم الاعلام بالمغرب التي تتمتع باستقلالية كاملة . وقد أدى هذا الوضع إلى عدم وجود مجموعات ومصادر معلومات قوية وحديثة فى المكتبات والمعلومات لموازنات متعددة تضعها المكتبات المركزية بالجامعات وأهمها حجم القسم وعدد الطلاب وأعضاء هيئة التدريس والمخصصات المالية التي تتناقص عاما تلو العام ، ولهذا نجد أن مصادر المعلومات المتاحة فى المكتبات والمعلومات قليلة وغير حديثة ومشتتة مابين مكتبات الكليات والجامعات التي تتبعها الأقسام . وتحاول كل الأقسام تقريبا بناء مجموعات ومصادر داخلية لها ، وإن كان يقف فى سبيل ذلك نقص المباني والأموال لتكوين هذه الوحدات ، بل إن هناك اتجاهاً حاليا لتكوين مجموعات صغيرة داخل معمل ببليوجرافي يقوم بمهام مكتبة ومركز معلومات ومركز لتدريب الطلاب معا كما هو الحال فى قسم الوثائق والمكتبات فى جامعة القاهرة وقسم المكتبات والمعلومات فى جامعة الملك عبدالعزيز .

إن بعض المكتبات الملحقة بالمؤسسات الأكاديمية لتعليم المكتبات والمعلومات وصلت إلى وجود مكتبات كاملة بالولايات المتحدة وانجلترا اقتربت من ١٠٠ ألف كتاب وأكثر من ١٤٠٠ دورية جارية ، علاوة على كافة التسهيلات للاتصال المباشر بقواعد وبنوك المعلومات [٤٨] ، ولكن للأسف لاتزال مصادر المعلومات المتاحة للأقسام العربية بعيدة كل البعد عما هو موجود بالخارج .

النتائـج العامـــة

خصص هذا البحث للتعرف على الواقع الحالي لتعليم المكتبات والمعلومات فى الجامعات العربية على مستوى الدرجة الجامعية الأولى ، حيث تناول ١٧ قسما ومعهدا مختلفا تقع فى ٩ دول عربية ، حيث تناول تاريخ وتطور هذه الأقسام والمعاهد فى فترة الأربعين عاما الماضية ، حيث تبين أنه رغم أن قسم المكتبات والوثائق بجامعة القاهرة كان أول تلك الأقسام وافتتح عام ١٩٥١ وظل نحو ١٥ عاما القسم

الوحيد بالدول العربية ، إلا أن تتابع الأقسام فى الدول العربية كان سريعا ومواكبا للتطورات الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية والعلمية بعد ذلك ، وتبين أن النظم المتبعة فى الكليات والجامعات التي تنتمي إليها هذه الأقسام والمعاهد التي تتولى تعليم المكتبات والمعلومات ، تنعكس بشدة على الأقسام من حيث نظام الدراسة الذى تراوح مابين الساعات الدراسية والفصول أو الأعوام الأكاديمية ، وأن الجامعات الحديثة نسبيا تأخذ وتفضل بنظام الساعات الدراسية المعتمدة وهذا النظام يعطي فرصة اختيار المقررات الدراسية الذى يسمح للطلاب باختيار بعض المقررات التي تتلائم مع تكوينهم ورغباتهم ، وإن كانت نسبة الاختيار قد تراوحت بين الأقسام التي تأخذ بهذا النظام مابين (٧٪) إلى أكثر من (٤٠٪) من جملة المقررات . وتبين أيضا أن غالبية الأقسام استخدمت كلمة مكتبات فى التسمية ، وبعضها الأخر خاصة فى المملكة العربية السعودية أضافت كلمة معلومات ، بينما فضلت أقسام ومعاهد ومدارس شمال افريقيا العربي توثيق وأعلام ، واستقرت الأقسام المصرية على استخدام كلمة وثائق مع كلمة مكتبات لتأثيرات خاصة بأعضاء هيئة التدريس بها وخلفياتهم التاريخية ، وانعكس ذلك على اتباع قسمي جامعة أم درمان بالسودان وجامعة السلطان قابوس بعمان باستخدام كلمة وثائق أيضا . وقد ركز هذا البحث على تحليل المقررات الدراسية الموجودة فى برامج الأقسام والمعاهد والمدارس فى مجال الدراسة ، حيث تم تتبع تكاملها وشمولها لكل مجالات المكتبات والمعلومات ، وتبين أن نسبة التركيز فى هذه المقررات تنصب على المقررات الوظيفية المهنية التي تدرب الطالب على وظيفة محددة يؤديها بعد ذلك فى المكتبات ومراكز التوثيق والمعلومات وأن المقررات الخاصة بالمستفيدين وتحديد احتياجاتهم قليلة إلى درجة الندرة وفى حاجة إلى زيادة الاهتمام بها كما ونوعا خاصة مع زيادة الاهتمام الذى وجه إليها فى الخارج . كما تبين أن نسبة المقررات المفروضة من قبل الكلية أو الجامعة التي تنتسب إليها الوحدات الأكاديمية المتخصصة فى تعليم المكتبات والمعلومات عالية وقد تصل إلى (٥٤٪) مما يدرسه الطالب وكلها تقع خارج مجالات علوم المكتبات والمعلومات أو العلوم المتصلة بها . كما توصل هذا البحث إلى قائمة بأكثر المقررات تدريسا بالجامعات العربية ، وكلها تعد بالفعل أهم المقررات الأساسية التي تدخل فى تشكيل أخصائي المكتبات والمعلومات . مما يدل على تتبع إدارات هذه الأقسام وأعضاء هيئة التدريس بها للتطورات الجارية فى هذا المجال بالخارج ، ولبرامج تعليم المكتبات والمعلومات فى الجامعات الأجنبية . كما تبين من هذا البحث أن أقسام المكتبات والمعلومات فى الجامعات السعودية تعد أفضل الأقسام من ناحية تكامل وشمول المقررات الدراسية الموجودة . كما تبين أيضا وجود اتجاه جديد لدمج دراسات المكتبات والمعلومات مع الدراسة التربوية فى أقسام واحدة لإعداد اخصائيي مكتبات ومراكز وسائل تعليمية ومدرسية ، وظهر هذا الاتجاه فى الأعوام الخمسة الأخيرة بجامعتي حلوان بمصر وأم القرى بمكة المكرمة .

وتناول البحث بعد ذلك الإمكانات المتاحة من حيث أعضاء هيئة التدريس ، وتبين وجود عجز كبير فى بعض الأقسام وصل إلى درجة عدم وجود عضو هيئة تدريس واحد ، ووجود وفرة نسبية فى أقسام المكتبات والمعلومات فى المملكة العربية السعودية وليبيا والمغرب نتيجة لاهتمام هذه الدول بابتعاث

أعضاء هيئة التدريس طوال عقدى السبعينيات والثمانينيات الميلادية ، كما تم تناول التجهيزات والمعامل والمكتبات الموجودة ، وتبين أيضا اختلاف هذه التجهيزات بين الأقسام والمعاهد العربية ، ووفرتها نسبيا فى المملكة العربية السعودية وليبيا والمغرب وانعدامها تقريبا فى مصر والسودان ، وكان للعوامل الاقتصادية السائدة فى هذا الدول تأثيرا مباشرا على وفرة أو قلة الإمكانيات المتاحة .

المصادر

(١) أ - **محمد فتحي عبدالهادي** ، الإنتاج الفكري العربى فى مجال المكتبات والمعلومات ، ط ٢ ، الرياض ، دار المريخ ، ١٩٨١ ، ص ص ٤١ - ٤٨ .

ب - **محمد فتحي عبدالهادي** ، الإنتاج الفكري العربي فى مجال المكتبات والمعلومات فى عشر سنوات ١٩٧٦ - ١٩٨٥ ، الرياض ، دار المريخ ، ١٩٨٩ ، ص ص ٤٦ - ٤٩ ، ص ص ٢٨٤ - ٢٩٦ .

جـ - **محمد فتحي عبدالهادي** ، الإنتاج الفكري العربي فى مجال المكتبات والمعلومات ١٩٨٦ . مجلة المكتبات والمعلومات العربية ، س٧ ، ع ٤ ، اكتوبر ١٩٨٧ / صفر ١٤٠٨ ، ص ص ١٢٨ - ١٩١ .

د - **محمد فتحي عبدالهادي** ، الإنتاج الفكري العربي فى مجال المكتبات والمعلومات ١٩٨٧ ، عالم الكتب ، مج ١٠ ، ع٣ ، محرم ١٤١٠ ، ص ص ٣٥٣ - ٣٨٣ .

(٢) **Abdullah Sharif**, *Education for Librarianship in the Arab Countries.* Trapoli, Univeristy of Al-Fatah, 1980,150 .p.

(٣) **عبدالباقي الدالي** ، مؤسسات ومدارس علم المكتبات والمعلومات فى الوطن العربي . المجلة العربية للمعلومات،مج ٣ ، ع ٢ ، ١٩٨٢ ، ص ص ٢٩ - ٣٥ .

(٤) **المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - إدارة التوثيق والمعلومات** ، دليل مدارس علم المكتبات والمعلومات فى الوطن العربي ، إعداد : محمود اتيم ومراجعة : محمود الأخرس . تونس ، المنظمة ، ١٩٨٤ ، ص ١٥٢ .

(٥) **محمد مجاهد يوسف** ، الإعداد المهني لأمناء المكتبات العامة فى الجمهورية العربية المتحدة . إشراف : أحمد أنور عمر . القاهرة ، ٢ مج ، أطروحة ماجستير - جامعة القاهرة - كلية الآداب - قسم المكتبات والوثائق ، ١٩٧٨م .

(٦) **محمد المهدي** ، عرض تاريخي لدراسة علوم الوثائق والمكتبات فى الجمهورية العربية المتحدة ، ١٩٥١ - ١٩٦٤ . القاهرة ، مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ٥٢ .

(٧) **أسامة السيد محمود** ، تخصص المكتبات والمعلومات بين الدول المتقدمة والدول النامية ، إشراف : سعد محمد الهجرسي ، القاهرة ، الفصل الخامس .
أطروحة دكتوراه - جامعة القاهرة - كلية الآداب - قسم المكتبات والوثائق ، ١٩٨٥م .

(٨) **محمد فتحي عبدالهادي** ،إعداد وتدريب المكتبيين واختصاصي المعلومات فى مصر . الجيزة ، جامعة القاهرة ، ١٩٩٠ ، ص ٥١ . (ندوة إعداد اخصائيي المكتبات والوثائق والمعلومات فى مصر بين الحاضر والمستقبل ٩ - ١٠ يوليو ١٩٩٠) .

(٩) **عبدالكريم الأمين** ، تدريب المكتبيين فى الجمهورية العراقية . رسالة المكتبة ، مج ١٢ ، ع٣ ، سبتمبر ١٩٧٧ ، ص ص ٧ – ١٥ .

(١٠) **Zaki Al-Waredi,** Library and information science education in Iraq. *Arab Journal for Librarianship & Information Science,* Vol 7, 3,July 1987,pp.15-32

(١١) **Soluman M. Mustafa,** *Developing of libary education in Jordan.* Loughborough, 1981 .
M.A. Thesis, Dept. of Librarianship & Information Studies. Loughborough University of Technology .

(١٢) تطور مناهج دبلوم المكتبات والتوثيق فى الجامعة الأردنية . دراسة تحليلية . رسالة المكتبة ، مج ١٩ ، ع ١ –٢ ، مارس – يونيو ١٩٨٤ ، ص ص ٨ – ١٦ .

(١٣) **عبد الباقي الدالي** ، تدريس علوم المعلومات والمكتبات فى تونس بين الاحتياجات والإمكانيات . المجلة المغربية للتوثيق ، ع ٢ ، مارس ١٩٨٤ ، ص ص ٦٨ – ٧٠ .

(١٤) **محمد بن جلون** ، تكوين الاخصائيين فى ميدان المكتبات والتوثيق وحفظ المستندات بالمملكة المغربية ، مدرسة علوم الاعلام . المجلة المغربية للتوثيق ، ع ٢ ، مارس ١٩٨٤ ، ص ص ٣٧ – ٤٦ .

(١٥) **عبد الستار الحلوجي** ، الوضع الراهن لدراسة المكتبات فى المملكة العربية السعودية . مكتبة الإدارة ، مج ٧ ، ع ٢ ، صفر ١٤٠٠ ، ص ص ٣ – ٢١ .

(١٦) **أنس صالح طاشكندي** ، التأهيل المهني فى مجال المكتبات بالمملكة العربية السعودية – دراسة مسحية ، إشراف : محمد أمين البنهاوي . جدة ، ١٩٨٢ ، ٢٠٣ ص .
أطروحة ماجستير – جامعة الملك عبدالعزيز ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، قسم المكتبات والمعلومات .

(١٧) **سريع محمد السريع** ، تعليم المكتبات فى المملكة العربية السعودية ، مكتبة الإدارة ، مج ١٣ ، ع ١ ، محرم ١٤٠٦ ، ص ص ٥٩ – ٨١ .

(١٨) **محمد فتحي عبدالهادي** ، الوضع المهني للهيئات التدريسية للدراسات الجامعية والعليا فى علم المكتبات والمعلومات فى الوطن العربي ، المجلة العربية للمعلومات ، مج ٣ ، ع ٢ ، ١٩٨٢ ، ص ص ١٢٥ – ١٤٣ .

(١٩) **ناصر محمد السويدان** ، وسائل وأساليب تدريس علم المكتبات والمعلومات فى الوطن العربي ومقترحات لتطويرها . المجلة العربية للمعلومات ، مج ٣ ، ع ٢ ، ١٩٨٢ ، ص ص ٩٩ – ١٢٤ .

(٢٠) أ – **سعد محمد الهجرسي** ، أقسام المكتبات فى البلاد العربية – تحليل منهجي لمتطلبات الإنشاء والتطوير ، مكتبة الإدارة ، مج ١٤ ، ع ٢ ، جمادى الأولى ١٤٠٧ ، ص ص ٨ – ٣٥ .

ب – **سعد محمد الهجرسي** ، أقسام المكتبات فى البلاد العربية – تحليل مهنى لمتطلبات الإنشاء والتطوير – ٢ – مكتبة الإدارة ، مج ١٤ ، ع ٣ ، رمضان ١٤٠٧ ، ص ص ٥ – ٦٢ .
جـ – **سعد محمد الهجرسي** ، تخصص المكتبات والمعلومات فى الخريطة الأكاديمية ، مكتبة الإدارة ، مج ١٥ ، ع ٣ ، رمضان ١٤٠٨ ، ص ص ٩ – ٩٢ .

(٢١) **عباس صالح طاشكندي** ، تدريس علوم المكتبات فى العالم العربي بين النظرية والتطبيق ، المجلة المغربية للتوثيق ، ع ٢ ، مارس ١٩٨٤ ، ص ص ٧٥ – ٨٤ .

(٢٢) **سعد محمد الهجرسي** ، تخصص المكتبات والمعلومات فى الخريطة الأكاديمية . مرجع سابق ، ص ٨٨ .

(٢٣) **سريع محمد السريع** ، مرجع سابق ، ص ٧٧ .

(٢٤) **سعد محمد الهجرسي** ، أقسام المكتبات والمعلومات في البلادالعربيـة -تحليل منهجي لمتطلبات الإنشاء والتطوير -٢- مرجع سابق ، ص ص ٤٠ - ٥٩ .

(٢٥) **محمد فتحي عبدالهادي** ، إعداد وتدريب المكتبيين واختصاصي المعلومات فى مصر ، مرجع سابق ، ص ص ١ - ٢ .

(٢٦) *World Guide to Library Schools and Training Courses in Documentation.* 2 nd ed. Paris, Unesco, 1981,p. 69,247,281,305,310,371 .

(٢٧) **محمد إبراهيم السيد على** ، اخصائيي معلومات الوثائق والمكتبات فى ضوء منهج جامعة أم درمان الإسلامية ، الجيزة ، جامعة القاهرة ، ١٩٩٠ ، ص ص ٤٠ - ٤٦ . (ندوة إعداد اخصائيي المكتبات والوثائق والمعلومات فى مصر بين الحاضر والمستقبل ٩ - ١٠ يوليو ١٩٩٠) .

(٢٨) **عبدالباقي الدالي** ، مؤسسات ومدارس علم المكتبات والمعلومات فى الوطن العربي ، مرجع سابق ، ص ٤٠ .

(٢٩) **المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم** ، مرجع سابق ، ص ص ٤٥ - ٥٥ .

(٣٠) **عبدالكريم الأمين** ، مرجع سابق ، ص ٣٠ - ٣١ .

(٣١) **Zaki Al-Wardi,** *Ibid.* p. 20

(٣٢) *World Guide to Library Schools and Training Courses in Documentation. op-cit.* p. 306.

(٣٣) **Herbert White** (ed.) , *Education for Professional Librarians.* N.Y., Knowledge Industry Publications, 1986, p. 246,249.

(٣٤) **المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم** ، مرجع سابق ، ص ص ٤٥ - ٤٩ ، ٧٤ - ٧٧ ، ١١٥ - ١١٨ .

(٣٥) **جامعة الجزائر ، معهد علم المكتبات والتوثيق** ، برنامج الليسانس ومعاميل الوحدات ، الجزائر ، جامعة الجزائر ، ١٩٨٨ ، ص ١٩ .

(٣٦) **جامعة الملك عبدالعزيز ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية** ، دليل قسم المكتبات والمعلومات . جدة ، مركز النشر العلمي - جامعة الملك عبدالعزيز ، ١٩٩٠ ، ص ٢٤ .

(٣٧) **جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - كلية العلوم الاجتماعية** ، الخطة الدراسية بقسم المكتبات ، الرياض ، ١٤٠٩ ، ص ١٢ .

(٣٨) **جامعة الملك سعود ، كلية الآداب - قسم المكتبات والمعلومات** ، دليل قسم المكتبات والمعلومات . الرياض ، ١٩٨٧ ، ص ٣٤ .

(٣٩) **جامعة أم القرى** ، دليل كلية العلوم الاجتماعية ، مكة المكرمة ، ١٩٨٨ ، ص ص ٩٧ - ١١٣ .

(٤٠) **جامعة السلطان قابوس ، كلية الآداب - قسم المكتبات والوثائق** ، الدليل الأكاديمي لقسم المكتبات والوثائق ، مسقط ، ١٩٨٩ ، ص ١٣ .

(٤١) **المملكة المغربية ، وزارة التخطيط** ، مدرسة علوم الاعلام ، الرباط ، ١٩٩٠ ، ص ٣٩ .

(٤٢) **محمد فتحي عبدالهادي** ، إعداد وتدريب المكتبيين واختصاصي المعلومات فى مصر . مرجع سابق ، ص ص ٦ - ١١ ، ص ص ٣٧ - ٣٩ .

(٤٣) **Zaki Al-Wardi,** *Ibid.*,pp.18-21.

(٤٤) **سعد محمد الهجرسي** ، أقسام المكتبات والمعلومات فى البلاد العربية . تحليل منهجي لمتطلبات الإنشاء والتطوير -٢- مرجع سابق ، ص ص ٤٠ - ٥٩ .

(٤٥) **عبد الستار الحلوجي** ، مرجع سابق ، ص ١٥ - ١٦ .

(٤٦) **Saleh M. Ashoor , & Abdus Sattar Chaudhary** , Library and information science education in Saudi Arabia.in : **G.E. Gorman** (ed.),*The education and training of information professionals; compartive and international perspectives.* London, Scarecrow press, 1990, pp. 141 - 158 .

(٤٧) **Herbert White**, *op - cit.* p. 182 .

(٤٨) **Margert Gallaway**,Library and information science collections. *College and Research Libraries,* vol.47,10 , November 1986, pp. 649 - 653.

المراجـــع

أولا : المراجع العربية

الأمين ، عبدالكريم ، تدريب المكتبيين فى الجمهورية العراقية ، رسالة المكتبة ، مج ١٢ ، ع ٣ ، سبتمبر ، ١٩٧٧م .

بن جلون ، محمد ، تكوين الاخصائيين فى ميدان المكتبات والتوثيق وحفظ المستندات فى المملكة المغربية ، مدرسة علوم الأعلام . المجلة المغربية للتوثيق ، ع ٢ ، مارس ١٩٨٤م .

تطور مناهج دبلوم المكتبات والتوثيق فى الجامعة الأردنية ، دراسة تحليلية ، رسالة المكتبة ، مج ١٩ ، ع ١ - ٢ ، مارس ، يونيو ١٩٨٤م .

جامعة أم القرى ، دليل كلية العلوم الاجتماعية ، مكة المكرمة ، الجامعة ، ١٩٨٨م .

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، كلية العلوم الاجتماعية ، الخطة الدراسية بقسم المكتبات ، الرياض ، الجامعة ، ١٤٠٩هـ .

جامعة الجزائر ، معهد علم المكتبات والتوثيق ، برنامج الليسانس ومعاميل الوحدات ، الجزائر ، جامعة الجزائر ، ١٩٨٨م .

جامعة السلطان قابوس ، كلية الآداب ، قسم المكتبات والوثائق ، الدليل الأكاديمي لقسم المكتبات والوثائق ، مسقط ، الجامعة ، ١٩٨٩م .

جامعة الملك سعود ، كلية الآداب ، قسم المكتبات والمعلومات ، دليل قسم المكتبات والمعلومات ، الرياض ، الجامعة ، ١٩٨٧م .

جامعة الملك عبدالعزيز ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، دليل قسم المكتبات والمعلومات ، جدة ، مركز النشر العلمي بجامعة الملك عبدالعزيز ، ١٩٩٠م .

الحلوجي ، عبدالستار ، الوضع الراهن لدراسة المكتبات فى المملكة العربية السعودية ، مكتبة الإدارة ، مج ٧ ، ع ٢ ، صفر ١٤٠٠هـ .

الدالي ، عبدالباقي ، تدريس علوم المعلومات والمكتبات فى تونس بين الاحتياجات والإمكانيات ، المجلة المغربية للتوثيق ، ع ٢ ، مارس ١٩٨٤م .

الدالي ، عبدالباقي ، مؤسسات ومدارس علم المكتبات والمعلومات فى الوطن العربي . المجلة العربية للمعلومات ، مج ٣ ، ع ٢ ، ١٩٨٢م .

السريع ، سريع محمد ، تعليم المكتبات فى المملكة العربية السعودية ، مكتبة الإدارة ، مج ١٣ ، ع ٠ ، محرم ١٤٠٦هـ .

السويدان ، ناصر محمد ، وسائل وأساليب تدريس علم المكتبات والمعلومات فى الوطن العربي ومقترحات لتطويرها ، المجلة العربية للمعلومات ، مج ٣ ، ع ٢ ، ١٩٨٢م .

طاشكندي ، أنس ، التأهيل المهني فى مجال المكتبات بالمملكة العربية السعودية ، دراسة مسحية ، إشراف محمد أمين

البنهاوي ، جدة ، اطروحة ماجستير . جامعة الملك عبدالعزيز ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، قسم المكتبات والمعلومات ، ١٩٨٢م .

طاشكندي ، عباس ، تدريس علوم المكتبات فى العالم العربي بين النظرية والتطبيق ، المجلة المغربية للتوثيق ، ع ٢ ، مارس ١٩٨٤م .

عبدالهادي ، محمد فتحي ، إعداد وتدريب المكتبيين واختصاصي المعلومات فى مصر . الجيزة ، جامعة القاهرة ، ١٩٩٠م ، ندوة إعداد اخصائيي المكتبات والوثائق والمعلومات فى مصر بين الحاضر والمستقبل ، ٩ – ١٠ يوليو ١٩٩٠م .

عبدالهادي ، محمد فتحي ، الإنتاج الفكري العربي فى مجال المكتبات والمعلومات ، ط ٢ ، الرياض ، دار المريخ ، ١٩٨١م .

عبدالهادي ، محمد فتحي ، الإنتاج الفكري العربي فى مجال المكتبات والمعلومات فى عشر سنوات ١٩٧٦ – ١٩٨٥ ، الرياض ، دار المريخ ، ١٩٨٩م .

عبدالهادي ، محمد فتحي ، الإنتاج الفكري العربي فى مجال المكتبات والمعلومات ١٩٨٦ ، مجلة المكتبات والمعلومات العربية ، س ٧ ، ع ٤ ، اكتوبر ١٩٨٧م / صفر ١٤٠٨هـ .

عبدالهادي ، محمد فتحي ، الإنتاج الفكري العربي فى مجال المكتبات والمعلومات ١٩٨٧ ، عالم الكتب ، مج ١٠ ، ع٣ ، محرم ١٤١٠هـ .

عبدالهادي ، محمد فتحي ، الوضع المهني للهيئات التدريسية للدراسات الجامعية والعليا فى علم المكتبات والمعلومات فى الوطن العربي ، المجلة العربية للمعلومات ، مج ٣ ، ع ٢ ، ١٩٨٢م .

على ، محمد إبراهيم السيد ، اخصائي معلومات الوثائق والمكتبات فى ضوء منهج جامعة أم درمان الإسلامية ، الجيزة ، جامعة القاهرة ، ١٩٩٠م . ندوة إعداد اخصائيي المكتبات والوثائق والمعلومات فى مصر بين الحاضر والمستقبل ، ٩ – ١٠ يوليو ١٩٩٠م .

محمود ، أسامة السيد ، تخصص المكتبات والمعلومات بين الدول المتقدمة والدول النامية ، إشراف سعد محمد الهجرسي ، القاهرة ، أطروحة دكتوراه ، جامعة القاهرة ، كلية الآداب ، قسم المكتبات والوثائق ، ١٩٨٥م .

المملكة المغربية ، وزارة التخطيط ، مدرسة علوم الاعلام ، الرباط ، المدرسة ، ١٩٩٠م .

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، ادارة التوثيق والمعلومات ، دليل مدارس علم المكتبات والمعلومات فى الوطن العربي ، إعداد محمود اتيم ومراجعة محمود الاخرس ، تونس ، المنظمة ، ١٩٨٤م .

المهدي ، محمد ، عرض تاريخي لدراسة علوم الوثائق والمكتبات فى الجمهورية العربية المتحدة ، ١٩٥١ – ١٩٦٤ ، القاهرة ، مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٦٤م .

الهجرسي ، سعد محمد ، أقسام المكتبات فى البلاد العربية – تحليل منهجي لمتطلبات الإنشاء والتطوير ، مكتبة الإدارة ، مج ١٤ ، ع ٣ ، ، رمضان ١٤٠٧هـ .

يوسف ، محمد مجاهد ، الإعداد المهني لأمناء المكتبات العامة فى الجمهورية العربية المتحدة ، إشراف أحمد ، أنور عمر ، القاهرة ، أطروحة ماجستير ، جامعة القاهرة ، كلية الآداب ، قسم المكتبات والوثائق ، ١٩٧٨م .

ثانياً : المراجع الأجنبية

Al-Wardi, Zaki, Library and Information Science Education in Iraq. *Arab Journal for Librarianship & Information Science,* Vol. **7, 3,** July 1987.

Ashoor, Saleh M., Chaudhary, Abdus Sattar, Library and Information Science Education in Saudi Arabia. *In:* **Gorman, G.E.** (ed), *The Education and Training of Information Professionals, Comparative and International Perspectives.* London, Scarecrow Press, 1990.

Gallaway, Margert, Library and Information Science Collections. *College and Research Libraries,* Vol. **47, 10,** November 1986.

Mustafa, Saluman M., *Developing of Library Education in Jordan.* Loughboraugh, M.A. Thesis, Dept. of Librarianship & Information Studies, Laughboraugh Inst. of Technology, 1981.

Sharif, Abdullah, *Education for Librarianship in the Arab Countries.* Trapoli, University of Al-Fatah, 1980.

White, Herbert (ed.), *Education for Professional Librarians.* N.Y., Knowledge Industry Publications, 1986.

World Guide to Library Schools and Training Courses in Documentation, 2nd ed. Paris, UNESCO, 1981.

Education of Library and Information in the Arabic Universities 1951-1991; A Status Study for Education at the Undergraduate Level

USAMA EL-SAID MAHMOUD ALY
Assistant Professor, Dept. of Library and Information,
Faculty of Arts and Humanities,
King Abdulaziz University, Jeddah, Saudi Arabia

ABSTRACT. The status quo of 17 different departments, schools and institutes for library and information science education in 9 different Arab countries were studied to state the history, names, development, affiliation, programs, courses, and the available faculty staff and resources at the undergraduate level for both B.A. and B.Sc. level. It was clear that the starting of the 17 different departments was simultaneous to the socio-economic, educational and scientific developments in the Arab countries. Most of departments are belonging to faculties of arts and humanities, with 3-5 years duration of study, between 32-52 courses or 120 to 177 credit hours. A notable emphasis on the required courses outside library and information area ex. acquisition, cataloging, administration and services was also clear. All the departments are in lack of faculty staff members, computer facilities and information resources.

القسم الإنجليزي

General

• A periodical issued by KAU in the fields of Arts and Humanities and annually published by the KAU Scientific Publishing Centre. Original works are published in this periodical, review articles, letters to editor and book reviews. Materials to be sent to:

Editor-in-chief, Faculty of Arts and Humanities, King Abdulaziz University,
P.O. Box 9032, Jeddah 21413, Saudi Arabia.

• All materials are submitted to referees.

• Materials submitted should represent original works not previously published, not being considered for publication elsewhere, and if accepted not to be published in the same form in any language without written consent of the editor-in- chief.

Typescript

• TS should be submitted in triplicate, double spaced, on only one side of A4 size paper.

• Leave one inch margins on all sides.

• Consecutively number TS including tables and figures.

• Abstracts, footnotes, tables, captions and references should be submitted in separate sheets.

Writing

• Paper should include:

1) Title: Concise and expressive.

2) Authors(s) name(s).

3) Affiliation of author(s) as a mailing address.

4) Abstract.

5) Text: to be divided to main sections each with its own heading, according to the method used (*e.g.*, Introduction, Experimental, Results, Discussion, Conclusion, References), taking into consideration the levels of sub- and sub-sub-headings.

• Two Abstracts, one in English, the other in Arabic, each not exceeding 200 words should be submitted. An Abstract should summarize the main facts and conclusions of the work. International rules for Abstract writing should be followed. Abstract should be self-contained and understandable in isolat ion.

• The metric system and standard abbreviations following (SI), avoiding full stops after abbreviations should be used.

• Footnotes: These should be consecutively numbered through the text. Any source cited for the first time should be given a full reference. When cited later, use the proper cross-reference terms (op. cit., loc. cit., ibid., id.). An alphabetically list of references is mandatory. Some authors are entitled to use Name/Date/Page system. Rules of the usage of this system should be thoroughly followed.

• References: The list of references should be alphabetically arranged according to author(s) surnames. References to the same author(s) should be chronologically arranged. All the bibliographic elements of a reference should be complete, following the standard rules of writing and arrangement. Never use *et al.* in the list. Make sure that all the sources cited in text are listed. References other than those cited in the text should not be listed.

Tables

• Tables should be consecutively numbered, each having a short self-explanatory title above. Indicate the position of each in pencil in the margin. Avoid unnecessary or too detailed data.

Illustrations

• Original illustrations should be submitted flat in protective envelopes and not folded.

• Indicate, in pencil, the position of each in the margin of the text, and stick a copy of each in the right position of the text.

• Line drawings should be drawn in Indian ink on calc paper, not exceeding 12 × 18 cm or half or double that size.

• Photographs, black & white, should be of high quality glossy original prints of maximum size 13 × 18 cm or half or double that size.

• Coloured figures are not acceptable, unless colours have a scientific indications.

Proofs

• Two sets of proofs, one galley and one page proof, have to be checked by the corresponding author, in 72 hours at maximum.

• No alteration is allowed, especially on the page proofs.

Reprints

• 50 free reprints per paper will be supplied.

• Additional reprints could be ordered on returning page proofs, according to the rates of the Publishing Centre.



IN THE NAME OF ALLĀH,
THE MERCIFUL,
THE MERCY-GIVING

Annual Subscription

- Local : SR 5
- External : $ 5 (including postage)

Subscription

Scientific Publishing Centre, King Abdulaziz University
P.O. Box 1540, Jeddah 21441, Saudi Arabia.

Exchange

Deanship of Library Affairs, King Abdulaziz University
P.O. Box 3711, Jeddah 21481, Saudi Arabia.

King Abdulaziz University Press

English Section

J.K.A.U.: Arts and Humanities, Vol. 5, pp. 3-13 (1412 A.H. / 1992 A.D.)

A Linguistic Investigation of the Dual and Plural Forms of some Borrowed Words in the Jeddah Dialect of Arabic

ANWAR NAKSHABANDI
Assistant Professor, Department of European Languages & Literature, King Abdulaziz University, Jeddah, Saudi Arabia

ABSTRACT. Native speakers of Jeddah dialect of Arabic (JA), like speakers of other Arabic dialects, borrowed many words from English. JA speakers modify these words phonologically and also apply to them their native dialect morphological rules. This study aims at revealing the morpho-phonological processes by which JA speakers dualize and pluralize borrowed words.

I. Introduction

Borrowing is a natural linguistic phenomenon in which linguistic elements are taken from one language or dialect by another. Speakers of Jeddah dialect of Arabic, like speakers of other Arabic dialects, borrowed many words from English belonging to different areas.[1] Most of these borrowed words are found in the area of modern inventions. Naturally, the borrowed words have undergone some adaptations to conform to the morpho-phonological systems of the borrowing dialect.

The aim of this study is to find out the morpho-phonological processes by which native speakers of Jeddah dialect of Arabic, henceforth JA (a dialect of Arabic spoken in the city of Jeddah on the west coast of Saudi Arabia) dualize and pluralize some borrowed words. The data used in this paper was collected by the researcher, who is himself a native speaker of JA, through questions directed to six informants who are also native speakers of the dialect. The corpus of the study consists of almost one hundred borrowed words.

II. Gender and Number in JA

Speaking of gender in JA, nouns have two genders: masculine and feminine; but no neuter. The masculine gender is usually unmarked e.g. /mudarris/ 'teacher', /maktab/ 'office', /kalb/ 'dog'.[2] Feminine nouns are marked by the feminine suffix /–ah/ or /–a/[3] e.g. /mudarrisah/ 'female teacher', /maktabah/ 'library', /kalba/ 'bitch'. In fact, the underlying structure of the feminine morpheme is { at }, but on the surface structure the /–t/ is either pronounced as /–h/ or dropped while the /–a/ remains. The /t/ appears on the surface structure only when a suffix is attached to the feminine word or when the word is followed by a noun. For example, the word for 'car' is pronounced in JA as /sayya:rah/ or /sayya:ra/ where /–h/ or /–a/ is the feminine morpheme, but in the words /sayya:rati/ 'my car' and /sayya:rat 9ali/ 'Ali's car' the /t/ appears on the surface structure. Other nouns are marked feminine by signification e.g. /maryam/ 'Mary', /?umm/ 'mother', /9e:n/ 'eye'.

As for number, nouns in JA have three numbers: singular, dual, and plural. The noun in the singular is normally unmarked e.g. /be:t/ 'house'. The dual number is signalled by the morpheme { e:n } for the masculine e.g. /kita:b/ 'book', /kita:be:n/ 'two books' and { te:n } for the feminine e.g. /sayya:rah/ 'car', /sayya:rate:n/ 'two cars'. As a matter of fact, we can say that the dual morpheme in JA is { e:n }, while the { te:n } actually consists of the feminine morpheme { –t } plus the dual morpheme { e:n } i.e. { t + e:n }. The { –t } which is the underlying feminine morpheme reappears on the surface structure before adding the dual morpheme. The plural is indicated in either of two ways: 1) by suffixation which is known as the "sound" or regular plural. This type of plural has two phonological representations: a) /–i:n/ for masculine nouns e.g. /mudarris/ 'teacher', /mudarrisi:n/ 'teachers'; b) /–a:t/ for feminine animate nouns such as /mudarrisah/ 'female teacher', /mudarrisa:t/ 'female teachers' and feminine and some masculine inanimate nouns like /dira:sa/ 'study', /dira:sa:t/ 'studies', /maṭa:r/ 'airport', /maṭa:ra:t/ 'airports' 2) by pattern variation (internal vowel change as well as other processes such as addition or deletion of sounds) which is known as the "broken" or irregular plural e.g. /9aṣfu:r/ 'bird'. /9aṣa:fi:r/ 'birds', /nahr/ 'river'. /?anha:r/ 'rivers', /galb/ 'heart'. /gulu:b/ 'hearts', /ma 9mal/ 'lab'. /ma9 a:mil/ 'labs', /na:di/ 'club'. /nawa:di/ 'clubs', /millah/ 'creed'. /milal/ 'creeds'.[4]

III. Dual Forms

Dual forms of the borrowed words can be divided into two groups:

1) The first group of words are dualized by adding the dual suffix /–e:n/ for words which are treated as masculine or /–te:n/ for words that are treated as feminine. It is noticed that the /–e:n/ is added to words which end with segments other than /h/ or /a/ to avoid a two consonant cluster before the dual suffix e.g. /bank/ → /banke:n/ 'bank', while in the words which end with /h/, the /h/ is changed to /t/ which is the underlying feminine morpheme before the addition of the dual suffix e.g. /lambah/ → /lambate:n/ 'lamp'. As for words which end with /a/, the original /t/ which was dropped reappears when the dual suffix is added e.g. /sinima/ → /sinimate:n/ 'cinema'.

The words in this group are countable nouns and they constitute the majority of the borrowed words according to the data. Examples of words in this group :

	Singular	Dual
'air conditioner'	/kundešan/	/kundešane:n/
'bicycle'	/buskule:ta/	/buskule:tate:n/
'camera'	/kamirah/	/kamirate:n/
'computer'	/kumbiyutar/	/kumbiyutare:n/
'radar'	/rada:r/	/rada:re:n/
'television'	/tilfizyo:n/	/tilfizyo:ne:n/
'battery'	/baṭṭa:riya/	/baṭṭa:riyate:n/
'cylinder'	/silindar/	/silindare:n/
'shot'	/šo:tah/	/šo:tate:n/
'gram'	/gra:m/[5]	/gra:me:n/
'coat'	/ko:t/	/ko:te:n/
'cigarette'	/siǰa:rah/	/siǰa:rate:n/
'meter'	/mitir/	/mitre:n/
'film'	/filim/	/filme:n/
'foul'	/fawil/	/fawle:n/
'taxi'	/taksi/	/taksiye:n/
'mechanic'	/mikaniki/	/mikanikiye:n/
'studio'	/?istidyu/	/?istidyuwe:n/
'dynamo'	/dinamu/	/dinamuwe:n/

2) The second group of words are uncountable nouns. These are few in number. It is noticed that some JA speakers dualize them like the first group i.e. by adding the dual morpheme { e:n } or { te:n } depending on the last segment of the word. For example :

'ice cream'	/?iskiri:m/	/?iskiri:me:n/
'powder'	/bo:drah/	/bo:drate:n/
'shampoo'	/ša:mbu/	/ša:mbuwe:n/
'salad'	/ṣalaṭah/	/ṣalaṭate:n/

Other speakers dualize these words by preceding them with other nouns that can take the dual morpheme or the word /?itne:n/ meaning 'two'. Using either of the two processes is, in my opinion, a question of free variation with many speakers utilizing both processes at different times. For example :

Singular	Dual	
/?iskiri:m/	/kasate:n ?iskiri:m/	'two cups of ice cream'
	or /?itne:n ?iskiri:m/	'two ice creams'
/bo:drah/	/9ulbate:n bo:drah/	'two cans of powder'
	or /?itne:n bo:drah/	'two powders'
/ša:mbu/	/garurate:n ša:mbu/	'two bottles of shampoo'
	or /?itne:n ša:mbu/	'two shampoos'

/ṣalaṭah/	/ṣeḥne:n ṣalaṭah/ or /?itne:n ṣalaṭah/	'two plates of salad' 'two salads'

Analyzing the data of dual forms, the following morphological processes are found :

1) All borrowed words that are treated as masculine add the dual suffix /–e:n/ at the end without any segmental changes. Examples: /gara:š/ → /gara:še:n/ 'garage', /bank/ → /banke:n/ 'bank'.

2) All borrowed words which end with the feminine morpheme /–h/ change it to /–t/ which is the underlying structure of the feminine morpheme that appears on the surface structure before the addition of the dual suffix /–e:n/. As for words which end with /–a/ the /–t/ also reappears before the dual suffix is added, for example: → /lambah/ → /lambate:en/ 'lamp', /sinima/ → /sinimate:n/ 'cinema'. Thus the following rule can be formed.

$$\begin{bmatrix} -\mathrm{h} \\ -\mathrm{a} \end{bmatrix} \rightarrow -\mathrm{at} \ / \ \text{—} \ \# + \text{dual suffix } (= \mathrm{e{:}n})$$

The above rule states that /–h/ and /–a/ are realized as /–at/ at the end of a word before adding the dual suffix /–e:n/.

3) Vowel Elision: A phonological process which is related to these morphological processes is vowel elision. In some words when the short vowel /i/ occurs before a final /r/, /m/, /l/ or /t/ in the singular form of a word the vowel is dropped in the dual form. The final consonant becomes part of the following syllable since in these words a VC syllabic structure in the middle of a word is avoided. In other words, instead of having CV CVC VC we have CVC CVC. Examples: /mitir/ → /mitre:n/ 'meter', /litir/ → /litre:n/ 'liter', /filim/ → /filme:n/ 'film', /fawil/ → /fawle:n/ 'foul', /?awit/ → /?awte:n/ 'out', thus we have the following rule :

$$\mathrm{i} \rightarrow \emptyset \ / \ \text{—} \begin{Bmatrix} \mathrm{r} \\ \mathrm{m} \\ \mathrm{l} \\ \mathrm{t} \end{Bmatrix} \# + \text{dual suffix } (= \mathrm{e{:}n})$$

This rule states that the vowel /i/ is realized as zero when it precedes a final /r/, /m/, /l/, or /t/ before adding the dual suffix /–e:n/.

4) Glide Insertion: Another phonological process which is associated with these morphological processes is glide insertion.

a) If a word in the singular form ends with the short vowel /i/, then in the dual form the glide /y/ is inserted between the final /i/ and the dual suffix /–e:n/. This is done before the addition of the dual suffix to get an acceptable CVC syllabic structure. Examples: /taksi/ → /taksiye:n/ 'taxi', /luri/ → /luriye:n/ 'lorry', /balanti/ → /balantiye:n/ 'penalty'.

b) If a word ends with the short vowel /u/, then in the dual form the glide /w/ is inserted between the final /u/ and the dual suffix /–e:n/. Again this is done to have an acceptable CVC syllabic structure. Examples: /?istidyu/ → /?istidyuwe:n/ 'studio', /ra:dyu/ → /ra:dyuwe:n/ 'radio', /dinamu/ → /dinamuwe:n/ 'dynamo'. Thus, the following rule can be formulated :

$$\emptyset \rightarrow \begin{bmatrix} y \\ w \end{bmatrix} \Big/ \begin{bmatrix} i - \# \\ u - \# \end{bmatrix} + \text{dual suffix } (= \text{e:n})$$

This rule states that zero (∅) is realized as /y/ after nouns ending in /i/ and as /w/ after nouns ending in /u/ before adding the dual suffix /–e:n/.

IV. Plural Forms

Plural forms of borrowed words follow either 1) the rules of forming "sound" plural or 2) the patterns of "broken" plurals.

Borrowed words which are treated as "sound" plurals are pluralized by adding the plural suffix /–i:n/ for some words which are treated as animate masculine nouns e.g. /mikaniki/ → /mikanikiyi:n/ 'mechanic', /sikirte:r/ → /sikirte:ri:n/ 'secretary'. Other borrowed words which are treated as feminine animate or inanimate nouns and some words which are treated as masculine animate or inanimate nouns are pluralized by adding the suffix /–a:t/ regardless of the last segments of the words. Examples of these words are given below :

	Singular	Plural
'air condition'	/kundešan/	/kundešana:t/
'bicycle'	/buskule:ta/	/buskule:ta:t/
'camera'	/kamirah/	/kamira:t/
'computer'	/kumbiyutar/	/kumbiyutara:t/
'lamp'	/lambah/	/lamba:t/
'telephone'	/talafo:n/	/talafo:na:t/
'television'	/tilfizyo:n/	/tilfizyo:na:t/
'shampoo'	/ša:mbu/	/ša:mbuwa:t/
'foul'	/fawil/	/fawla:t/
'out'	/?awit/	/?awta:t/
'studio'	/?istidyu/	/?istidyuha:t/
'stereo'	/?istiryu/	/?istiryuha:t/
'liter'	/litir/	/litra:t/
'centimeter'	/santimitir/	/santimitra:t/
'vitamin'	/fitami:n/	/fitami:na:t/
'secretary' (f.)	/sikirte:rah/	/sikirte:ra:t/
'professor' (m.)	/brufiso:r/	/brufiso:ra:t/
'professor' (f.)	/brufiso:rah/	/brufiso:ra:t/

Looking at the data of the "sound" plural, the following morphological processes are found :

1) Some borrowed words that are treated as inanimate or animate masculine in the singular add the plural suffix /–a:t/ without any segmental changes, examples :

/talafo:n/ → /talafo:na:t/ 'telephone',
/brufiso:r/ → /brufiso:ra:t/ 'professor'.

2) In the data of this study two words only are pluralized by adding the masculine plural suffix /–i:n/ since they are treated as animate masculine. The first one is /mikaniki/ → /mikanikiyi:n/ 'mechanic' in which the glide /y/ is inserted between a final /i/ and the masculine plural suffix /–i:n/ to have an acceptable CVC syllabic structure. In the second word /sikirte:r/ → /sikirte:ri:n/ 'secretary' the masculine plural suffix /–i:n/ is added without any segmental changes.

3) In all borrowed words that carry the feminine morpheme /–ah/ or /–a/, the morpheme is dropped when adding the plural suffix /–a:t/, for example: /lambah/ → /lamba:t/ 'lamp', /sinima/ → /sinima:t/ 'cinema', thus we have the following rule :

$$\begin{bmatrix} -\text{ah} \\ -\text{a} \end{bmatrix} \rightarrow \emptyset \;/\; \text{—}\ \# + \text{plural suffix } (=\text{a:t})$$

The above rule states that /–ah/ and /–a/ are realized as zero at the end of a word before adding the plural suffix /–a:t/.

4) Vowel Elision: As mentioned with respect to the dual, the phonological process vowel elision is also relevant to the formation of the plural. When the short vowel /i/ occurs between the consonant /t/ or the glide /w/ and a final /r/, /l/ or /t/ in the singular form, the vowel is deleted in the plural form. This is done like the dual form to avoid a VC syllabic structure in the middle of these words and have CVC CVC. Examples: /litir/ → /litra:t/ 'liter', /kilumitir/ → /kilumitra:t/ 'kilometer', /fawil/ → /fawla:t/ 'foul', /?awit/ → /?awta:t/ 'out'. Thus we have the following rule :

$$\text{i} \rightarrow \emptyset \;\Big/\; \begin{bmatrix} \text{t} - \text{r}\ \# \\ \text{w} - \begin{bmatrix} \text{l} \\ \text{t} \end{bmatrix} \# \end{bmatrix} + \text{plural suffix } (=\text{a:t})$$

This rule states that the vowel /i/ is realized as zero when it occurs between a /t/ and a final /r/ and between /w/ and a final /l/ or /t/ before adding the plural suffix /–a:t/.

5) Consonant and Glide Insertion: This is another phonological phenomenon which is associated with these processes.

a) If a word ends with the short vowel /u/, which is preceded by the glide /y/ in the singular form, a /h/ sound is added to the word in the plural form before the addition of the plural suffix. Examples: /?istiryu/ → /?istiryuha:t/ 'stereo', /?istidyu/ → /?istidyuha:t/ 'studio'.

b) If a word ends with the short vowel /u/ which is preceded by the bilabial /m/ or /b/, then the glide /w/ is added to the word before the addition of the plural suffix. Examples: /dinamu/ → /dinamuwa:t/ 'dynamo', /ša:mbu/ → /ša:mbuwa:t/ 'shampoo'. In both cases, the /h/ and /w/ are inserted to have a CVC syllabic structure. Thus the following rule can be formulated.

$$\emptyset \rightarrow \begin{bmatrix} h \\ \\ w \end{bmatrix} \Big/ \begin{bmatrix} -yu \quad \text{—}\ \# \\ \\ \begin{bmatrix} -mu \\ -bu \end{bmatrix} \text{—}\ \# \end{bmatrix} + \text{plural suffix } (= a{:}t)$$

This rule states that zero (∅) is realized as /h/ after nouns ending in /−yu/ and as /w/ after nouns ending in /−mu/ or /−bu/ before adding the plural suffix /−a:t/.

Borrowed words which form their plurals like Arabic broken plurals are of six kinds:

1) The first kind has the pattern /fa 9a:li:l/ such as the Arabic word / 9aṣfu:r/ → /9ṣa:fi:r/ 'bird'. Examples of some borrowed words that follow the same pattern :

'saloon'	/ṣa:lu:n/[6]	/ṣawa:li:n/
'soap'	/ṣa:bu:n/	/ṣawa:bi:n/
'gallon'	/ǰa:lu:n/	/ǰawa:li:n/
'motor'	/ma:ṭo:r/	/mawa:ṭi:r/
'barrel'	/barmi:l/	/bara:mi:l/
'carton'	/karto:n/	/kara:ti:n/

2) The second kind has the pattern /?af 9a:l/ such as the Arabic word /nahr/ → /?anha:r/ 'river'. Examples :

'film'	/filim/	/?afla:m/
'goal'	/go:l/	/?agwa:l/
'robe'	/ro:b/	/?arwa:b/
'meter'	/mitir/	/?amta:r/
'mile'	/mi:l/	/?amya:l/

3) The third kind has the pattern /fu 9u:l/ such as the Arabic word /galb/ → / gulu:b/ 'heart'. Examples :

'card'	/kart/	/kuru:t/
'bank'	/bank/	/bunu:k/

4) The fourth kind has the pattern /fa 9a:lil/ such as the Arabic word /ma 9mal/ → /ma9a:mil/ 'lab'. Examples :

'puncture'	/banšar/	/bana:šir/
'cable'	/ke:bul/	/kawa:bil/
'policy'	/bo:li:ṣah	/bawa:liṣ/
'dozen'	/darzan/	/dara:zin/
'cigarette'	/siǰa:rah/	/saǰa:yir/

5) The fifth kind has the pattern /fa 9a:li/ like the Arabic word /na:di/ → /nawa:di/ 'club'. Examples :

'lorry'	/luri/	/lawa:ri/
'radio'	/ra:dyu/	/rawa:di/
'taxi'	/taksi/	/taka:si/

6) The sixth kind has the pattern /fi 9al/ as the Arabic word /millah/ → /milal/ 'creed'. Examples :

'villa'	/fillah/	/filal/
'brush'	/furšah/	/furaš/

There are some borrowed words that do not belong to either sound plurals or broken plurals. These words are recognized as plural by a number or a number + noun that precedes them. For example :

'kilo'	/ki:lu/	→	/?arba9a ki:lu/ 'four kilos'
'nylon'	/naylo:n/	→	/sittah ?akya:s naylo:n/ 'six nylon bags'
'sport'	/?isbo:r/	→	tis9ah sayya:ra:t ?isbo:r/ 'nine sports cars'.

V. Conclusion

It is clear throughout the analysis of the dual and plural forms of some borrowed words that JA speakers do not borrow English words as they are but modify them to comply with the phonological and morphological rules of their native dialect. However, the data and findings of this study are by no means conclusive.

End Notes

1. As far as we are concerned, these words have been borrowed from English. However, some of them could have been borrowed into English from other languages. This fact is immaterial as far as this study is concerned.
2. Phonetic symbols of JA consonants and vowels are given in the appendix.
3. The two feminine markers /–ah/ and /–a/ are, probably, in free variation.
4. These six patterns of the 'broken' plurals are the ones found in the data.
5. This word is also pronounced as /g̱ra:m/.
6. Some JA speakers pronounce these words with the long vowel /o:/ instead of /u:/, e.g. /ṣa:lo:n/, /ǰa:lo:n/.

Bibliography

Abu-Ḥaqa, A., *Al-waṣi:t, fi Qawa9id Allugah Al- 9arabiyyah*. Beirut, Dar Al-Kita:b Al-Libnani, 1970.

Al-Ani, Salman, *Arabic Phonology: An Accoustical and Physiological Investigation*. The Hague: Mouton, 1970.

Al-Mozainy, H.Q., *Vowel Deletion and the Segmental Cycle in the Arabic Dialect of Hijaz. M.A. thesis*, University of Texas at Austin, 1976.

Al-Ṭanṭa:wi, M., *Taṣri:f Al-?asma:?.* Cairo, Maṭba 9at Wadi Al-Mulu:k, 1955.
Ayub, Abdul Rahman, Al-bina:? Al-ṣarfi Lilasma:? wal Af9a:l Al-9arabiyyah, *Al-majallah Al-9arabiyyah Lil 9ulu:m Al-insaniyyah,* **2**(7), (1982): 67-88.
Bakalla, M.H., *The Morphological and Phonological Components of the Arabic Verb (Meccan Arabic).* London, Longman, 1983.
Frayhah, Anis, *Essentials of Arabic.* Beirut, American University of Beirut, 1953.
Gleason, Henry A., Jr., *An Introduction to Descriptive Linguistics.* New York, Holt, Rinehart and Winston, Inc., 1965.
Greenberg, Joseph H., The Patterning of Root Morphemes in Semitic, *Readings in Arabic Linguistics,* **Al-Ani, Salman (ed.),** Indiana, Indiana University, Linguistic Club, 1978.
Sieny, Mahmoud, *The Syntax of Urban Hijazi Arabic.* London, Longman Group Limited, 1978.
Van Wagoner, M., *Spoken Arabic (Saudi).* Spoken Language Services Inc., Ithaca, New York, 1977.
Wright, W., A Grammar of the Arabic Language. 2 vol. Cambridge, Cambridge University Press, 1967.

Appendix

Consonants of JA

POINT OF ARTICULATION / Manner of		BILABIAL	LABIODENTAL	ALVEOLAR		PALATAL	VELAR	PHARYNGEAL	GLOTTAL
				PLAIN	EMPHATIC				
Stops	Voiceless			t	ṭ		k		?
	Voiced	b		d	ḍ		g		
Fricatives	Voiceless		f	s	ṣ	š	x	ḥ	h
	Voiced			z	ẓ		ǥ	9	
Affricates	Voiceless								
	Voiced					ǰ			
Nasals		m		n					
Laterals				l	ḷ				
Flap				r					
Glides		w				y			

Vowels of JA

	Front	Central	Back
High	i : i		u : u
Mid	e : e		o :
Low		a : a	

دراسة لغوية لصيغتي التثنية والجمع لبعض الكلمات الدخيلة فى لهجة جـــدة

أنور محمد هارون نقشبندي

أستاذ مساعد ، قسم اللغات الأوروبي ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ،
جامعة الملك عبدالعزيز ، جدة ، المملكة العربية السعودية

المستخلص : يتجه المتحدثون باللغة العربية من أهل مدينة جدة كما هو الحال مع المتحدثين باللهجات العربية الأخرى إلى استخدام العديد من الكلمات من اللغة الإنجليزية ، وينتج عن ذلك تعديلات صوتية على هذه الكلمات الدخيلة ، كما ينتج عنه تعديلات نحوية لمسايرة لهجتهم .

ويهدف هذا البحث إلى التعرف على القواعد الصرفية الصوتية التى يستخدمها المتحدثون بلهجة جدة عند وضع الكلمات الدخيلة فى صيغتي المثنى والجمع .

مجلة
جامعة الملك عبد العزيز
الآداب والعلوم الإنسانية

المجلد ٥

١٤١٢هـ

١٩٩٢م

مركز النشر العلمي
جامعة الملك عبد العزيز
ص ب ١٥٤٠ - جدة ٢١٤٤١
المملكة العربية السعودية

Journal of

KING ABDULAZIZ UNIVERSITY

Arts and Humanities

Volume 5

1412 A.H.
1992 A.D.

Scientific Publishing Centre
King Abdulaziz University
P.O. Box 1540, Jeddah 21441
Saudi Arabia

مجلة جامعة الملك عبدالعزيز : الآداب والعلوم الإنسانية ، م ٥ ، ص ص ١ - ٢٣٤ بالعربية ، ١ - ١٣ بالإنجليزية (١٤١٢هـ / ١٩٩٢م)

المحتويـــــات

القسم العربـــــي

إعـــلام

تاريـــخ

جغرافيـا

لغـــة

علوم المكتبات والمعلومات

القسم الإنجليزي

لغـــة

J.K.A.U.:Arts and Humanities, vol. 5, pp. 1-13 Eng., pp. 1-234 Arab. (1412 A.H. / 1992 A.D.)

Contents

English Section

Library and Information Sciences